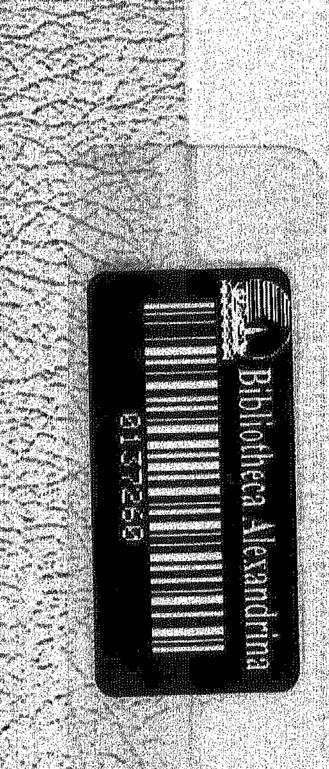

Bibliotheca Alexandrina
0137260





ذخائر العرب
٦١

المحاسن والمساوى

تأليف
إبراهيم بن محمد البيهقى

تحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الأول



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يضمّ كتاب «المحاسن والمساوى» طائفةً من ضروب الآداب وغرر الكلام؛ وتدور حول النّفس الإنسانيّة وما يتعلّق بها من الصفات والأفعال، وما يعتريها من دوافع الخير، أو نوازع الشرّ؛ وما تنضح به من سرىّ الأخلاق ومحمود الشمائل، أو ما يصدر عنها مما يؤذى المروءة، ويخدش كريم الأحساب؛ وبذلك اجتمع فيه من رائع الشعر ورصين القول، وموروث الخبر والحكمة والمثل؛ ما لم يجتمع فى كتاب، مع تناسب الأبواب، وتقسيم الفصول، وإحكام الوضع، وجمال التصنيف.

ومع طول البحث فى كتب السير والتراجم، وتقصّى أسفار التاريخ والطبقات؛ فإنه لا يعلم شىء عن مؤلف الكتاب؛ سوى أن اسمه «إبراهيم بن محمد البيهقى»؛ كما جاء فى المقدّمة وصفحة العنوان، وكما نقل عنه الدميرىّ فى حياة الحيوان؛ عند الكلام على خلافة عبد الملك بن مروان[1]؛ وأنه كان يعيش فى زمن المقتدر بالله (٢٩٥ – ٣٢٠ هـ)؛ كما يفهم من الخبر الذى أورده المؤلف فى باب محاسن المسايرة[2] فى هذا الكتاب، وهو قدر لا يسدّ حاجةً لباحث أو مؤرخ.

ويرجع الفضل الأوّل فى نشر هذا الكتاب وتيسيره لقراء العربية إلى الدكتور فريدريك شوالى؛ أحد المتقدّمين من المستشرقين الألمان؛ ممن عُنوا بنشر النفيس من تراث العرب الخالد. حقّقه؛ وطبعه فى سنة ١٩٠٢، بمطبعة جيسن؛ ووضع له مقدّمة باللغة الألمانية؛ وذيّله بحواشٍ ومقابلات باللغة اللاتينية؛ وقد بذل جهدًا يشكر، وقام بعمل يذكر.

وفى سنة ١٩٢٥ قام المستشرق الألمانى أشر بعمل فهارس له مفصّلة؛ كتبها بخطّ، ثم صورت بالزنكغراف؛ وعملت منها نسخ محدودة، لم تعرف إلّا فى دائرة ضيّقة عند العلماء المستشرقين بأوربا[2].

وعن هذه الطبعة أعيد نشره. بمطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٩٠٦، بعد حذف المقدّمة والتعليقات.

وأساس العمل الذي قام به شوالى مخطوطتان:

---

(١) نشرة القاهرة سنة ١٢٨٤هـ.

(٢) الدراسات العربية فى أوربا لجوهان فوك ص٣١٥ طبع ليبزج سنة١٩٥٥.

إحداهما نسخة بمكتبة جامعة ليدن، محفوظة برقم ٢٠٧١، تقع فى ٢٩٤ صفحة، وتنقص من أوّلها بمقدار ٣٠ صفحة، ومن آخرها بمقدار صفحتين؛ مكتوبة بخطٍّ معتاد؛ ويبدو أن ناسخها على شىء من المعرفة بأصول النسخ، وعنوانات الفصول فيها بخط أكبر، ومتوسط الأسطر فيها ٢٣ سطرًا، ومتوسط عدد الكلمات ١٨ كلمة، وقد رمز إليها بالحرف (L).

والنسخة الثانية محفوظة بمكتبة الجمعية الآسيوية البنغالية فى كلكتا، وهى نسخة يبدو أن بآخرها نقصًا؛ إذ أن الناسخ قد أضاف عند نهاية ما وقف عليه من نسخة الأصل التى نقل عنها عبارة الختام، مما يوهم أنها كاملة؛ وقد أتمها نسخًا فى ١٣ ربيع الأول سنة ١٦٠ هـ ؛ وتقع فى ٢١٩ ورقة، متوسط الأسطر فيها ٣٠ سطرًا، ومتوسط الكلمات ١٢ كلمة، وقد رمز إليها بالحرف (C).

وحينما قصدت إلى إعادة تحقيق هذا الكتاب، اتخذت نشرة شوالى أصلًا، واستأنست بنسختين مصوّرتين عن الأصلين اللذين رجع إليهما، ورمزت إلى المطبوعة بالحرف (ط)، وإلى نسخة ليدن بالحرف (ل)، وإلى نسخة كلكتا بالحرف (ك).

كما أنى رجعت إلى كتب الأدب والتاريخ ودواوين الشعراء ومعاجم اللغة، واستعنتُ بكلّ ذلك على إيضاح المبهم، وردّ المحرّف، وشرح الغريب، مما تراه فى حواشى الكتاب.

وكان من أهم الكتب التى أفدت منها فى هذا السبيل، كتاب «المحاسن والأضداد» المنسوب إلى الجاحظ (فان فلوتن)[1]. والكثير من نصوص الكتابين تكاد تكون متّحدة، والأخبار مشتركة، مما يحمل على الظن أن مؤلفهما واحد، أو أنهما كتابان أُخذا عن أصلٍ مشترك.

وأرجو بما قمت به من الشرح والتعليق وما صنعته من الفهارس المتنوّعة، أن يكون الكتاب قد أصبح قريب الجنى، دانى القطوف.

كما أرجو أن يكون عملًا للناس نافعًا، وعند المولى سبحانه مقبولًا.

١٨ شوال سنة ١٣٨٠ هـ

٤ أبريل سنة ١٩٦١ م.

محمد أبو الفضل إبراهيم

---

(١) طبع فى ليدن سنة ١٨٩٨م.

وبه الأمان من الخذلان

الحمدُ لله ربِّ العالمين، ولا حولَ ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، وصلّى الله على محمد النبيّ الأمّيّ الهاشِميّ الأبطَحِيّ، المكّيّ المَدنيّ، الهادى المهديّ، السِّراجِ المضىء، والقمر المنير، التّقيّ النّقيّ؛ وعلى أهل بيته الطّيّبين الأخيار، السّادةِ الأطهار، المقسِطين[1] الأبرار، الّذين خُلقوا من طينةٍ واحدة؛ وجُبِلوا على فطرتِه، ودَرَجوا على حَوْزتِه، ومُيِّزوا بِحكْمَتِه، و [ساروا][2] على منهاجه ومِلَّته، وفازوا بطاعته؛ وسَلَّم تسليمًا كثيرًا دائمًا.

قال الشيخ إبراهيم بن محمد البَيْهَقِيّ: قال مُصعب بنُ الزُّبَيْر: إنّ الناس يتحدَّثون بأحسن ما يَحْفظُون، ويحفظون أحسن ما يكتُبون، ويكتبُون أحسنَ ما يسمعون، فإذا أخذتَ الأدبَ فخُذْه من أفواه الرِّجال، فإنّك لا تسمع منهم إلّا مختارًا[3].

وقال لقمانُ لابنه: يابُنى تنافس[4] فى طلب الأدب، فإنه ميراثٌ غيرُ مسلوب، وقَرينٌ غيرُ مغلُوب، ونفيسُ حَظٍّ فى النّاس[5] مطلوب.

وقال الزهريّ: الأدبِ ذَكَرٌ لا يُحِبّه الذُّكور من الرجال، ولا يبغضه إلا مؤنَّثهم.

وقيل[6]: إذا سمعت أدبًا فاكتبه ولو فى حائط.

قال: وقال المنصور بنُ المهديّ للمأمون: أيَحسُن بِمثلى[7] طلبُ الأدب؟ قال: لأنْ[8] تموتَ طالبًا للأدب خيرٌ من أن تعيش قانعًا بالجهل: قال: فإلى متى يَحسُن بى ذلك؟ قال: ما حَسُنت بك الحياة.

وقال الزُّهْرِيّ: ما سمعتُ كلامًا أوْجزَ من كلام عبد الملك بن مروان لِوَلَدِه حيث يقول: اطلبوا معيشةً لا يَقدر عليها سلطانٌ جائرٌ؛ قيل: ما هى؟ قال: الأدب.

وقال بُزُرْجُمْهر: ياليت شِعرى أىَّ شىء أدرَك من فاتَه الأدب! أَمْ أىّ شىء فات من أدرَك الأدب ومادَّته من الكُتُب!

* * *

وقد أهدى بعض الكُتّاب إلى صديق له دفترًا وكتب له: هديتى هذه – أعزّك الله – تزكو[9] على

(١) المقسطون: من أقسط فى الأمر: إذا عدل.
(٢) زيادة يقتضيها السياق.
(٣) المحاسن والأضداد: «فإنك لا ترى وتسمع».
(٤) المحاسن والأضداد: «نافس».
(٥) المحاسن والأضداد: «من الناس».
(٦) المحاسن والأضداد: «وقال».
(٧) المحاسن والأضداد: «بنا».
(٨) ك: «لئن»، وصوابه من المحاسن والأضداد
(٩) تزكو: تنمو.

الإنفاق، وتربو على الكد[١]، لا تفسدها العوارى[٢]، ولا تُخلِقُها كثرةُ التقليب؛ وهى أنسٌ فى الليل والنهار، والسَّفر والحضر، تصلح للدنيا والآخرة. تؤنس فى الخلوة، وتمتع فى الوحدة. مسامرٌ مساعدٌ، ومحدِّثٌ مطواع، ونديمٌ صديق.

وقال بعضهم: الكتب بساتين العلماء.

وقال آخر: الكتاب جليس لا مئونة له.

وقال الفضل بن سهل للمأمون وهو بدمشق بدير مُرّان مشرف على غوطتها: يا أمير المؤمنين، هل رأيت لحسنها شبيهًا فى شىء من مُلك العرب؟ يعنى الغوطة. قال: بلى والله، كتاب فيه أدبٌ يجلو الأفهام، ويُزكى القلوب، ويؤنس الأنفس، أحسن منها.

* * *

وقال الجاحظ: الكتاب نعم الذُّخر والعقدة[٣]، ونعم الجليس والقعدة[٤]، ونعم النُّشرة[٥] والنزهة، ونعم المشتغل والحرفة، ونعم الأنيس ساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربة، ونعم القرين والدخيل، ونعم الوزير والتنزيل. الكتاب وعاءٌ مُلئ علمًا، وظرفٌ حُشِىَ ظَرفًا، إن شئت كان أعيا من باقِل، وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل؛ وإن شئت ضَحِكت من نَوادره، وإن شئت بكيت من مواعظه. ومن لك بوعظ مُلهٍ[٦]، وبناسكٍ فاتك، وناطق أخرَس! ومن لك بطبيبٍ أعرابى، ورُومىٍّ وهندى، وفارسىٍّ ويونانىٍّ، ونديم[٧] مولَّد، ووصي مُمتع! ومن لك بشىء يجمع الأوّل والآخر، والناقصَ والوافِي، والشاهدَ والغائب، والرفيعَ والوضيع، والغَثَّ والسَّمين، والشَّكل وخلافه، والجنس وضدَّه!

وبعد، فما رأيتُ بستانًا يُحْمَلُ فى رُدْن[٨]، ورَوضَةً تُنقل فى حِجر، ينطقُ عن الموتى، ويُتَرجم عن الأحياء، غيره.

ومن لك بمؤنسٍ لا ينام إلّا بنومك، ولا يَنْطِق إلّا بما تهوى، آمنُ من فى الأرض، وأكتَمُ للسّرّ من صاحب السِّر، وأحفظُ للوَديعة من أرباب الوديعة.

ولا أعلم جارًا أبرّ، ولا خليطًا أنصَفْ، ولا رفيقًا أطوع، ولا معلمًا أخضع، ولا صاحبًا أظهر كفايةً ولا عناية، ولا أقلَّ إملالًا[٩] وإبرامًا، ولا أبعد عن مِرَاءٍ، ولا أترك لشغب، ولا أزهد فى جِدال،

---

(١) ك: «الكسد»، وما أثبتّه من المحاسن والأضداد.

(٢) فى إحدى نسخ المحاسن والأضداد «العوادى».

(٣) العقدة: ما فيه بلاغ الرجل وكفايته.

(٤) الجاحظ فى المحاسن: «العمدة» وفى الحيوان «العدة».

(٥) النشرة: النسيم.

(٦) ك: «مثله» وما أثبته من المحاسن والأضداد والحيوان.

(٧) الحيوان ١: ٣٩ ونهاية الأرب ٧: ١٧: «وقديم».

(٨) الردن، بالضم: أصل الكم والجمع أردان.

(٩) ك: «مالالا» تصحيف.

ولا أكفَّ عن قتال من كتاب! ولا أعمَّ بيانًا، ولا أحسن مؤاتاةً، ولا أعجل مكافأة، ولا شجرة أطول عُمرًا ولا أطيب ثمرًا ، ولا أقرب مُجتَنىً، ولا أسرع إدراكًا، ولا أوجَدَ فى كلّ إبّانٍ[١] من كتاب، ولا أعلمُ نِتاجًا فى حَدَاثة سِنه، وقربِ ميلادِه، ورُخص ثَمنِه، وإمكان وجُوده، يَجْمعُ من التدابير العجيبة، والعلوم الغريبة، ومن آثار العقول الصحيحة، ومحمود الأذهان، اللطيفة، ومن الحكم الرَّفيعة، والمذاهب القديمة، والتجارب الحكيمة، الأخبار عن القرون الماضية، والبلاد المترامية، والأمثال السائرة، والأمم البائدة، ما يجمعه كتاب[٢].

ولولا الحِكَمُ المخطوطة[٣]، والكُتُب المدوَّنة، لبَطَل أكثرُ العِلم، ولَغلَب سُلطانُ النِّسيان سلطانَ الذِّكر، ولما كان للناس مَفزَع إلى موضع استذكار؛ ولو لم يتمّ[٤] ذلك لحُرِمنا أكثر النَّفع.

ومَن لك [بمن] لا يبتدئك فى حالِ شُغلِك، ولا فى أوقات عَدَمِ نَشْاطِك، ولا يُحوجُك إلى التمحُّل والتذمُّم! ومَن لك بزائر إن شئتَ جعلتَ زيارته غِبًّا، ووِرْده خِمسا[٥] وإن شئت لزِمَكَ لزوم ظِلِّك!

والكتاب هو الجليس الذى لا يُطريك، والصديقُ الذى لا يقليك، والرفيقُ الذى لا يُملُّك، والمُستميح[٦] الذى لا يُؤذِيك، والجارُ الذى لا يَستبطيك، والصاحبِ الذى لا يريد استخراج ما عندك بالملق، ولا يعاملك بالمكر، ولا يخدعك بالنفاق. والكتاب هو الذى إن نظرت فيه أطال إمتاعك، وشحذ طباعك، وبسط لسانك، وجوَّد بيانك، وفخَّم ألفاظك، وعَمّر صدرك، وحباك تعظيم الأقوام، ومنحك صداقة الملوك؛ يطيعك فى الليل طاعته بالنهار، وفى السفر طاعته فى الحضر وهو المعلّم الذى إن افتقرت إليه لم يحقرك، وإن قطعتَ عنه المادّة، لم يقطع عنك الفائدة، وإن عُزِلتَ لم يدع طاعَتك، وإن هبَّت عليك ريحُ أعدائك لم ينقلب عليك، ومتى كنت متعلقًا به ومتَّصلاً منه بأدنى حبل، لم تضطرك[٧] معه وحشةُ الوحدة إلى جليس السوء. وإن أمثل ما يقطع به الفُرّاغُ نهارهم، وأصحاب الكفايات ساعات ليلهم، نظرة فى كتاب لا يزال لهم فيه ازدياد أبدًا فى تجربة وعقل ومروءة، وصون عِرض، وإصلاح دين ومال، ورَبِّ صنيعة وابتداء إنعام.

ولو لم يكن من فضله عليك، وإحسانه إليك إلاّ منعُهُ لك من الجلوس على بابِك، ونظرك إلى المارّة بك، مع ما فى ذلك من التعرُّض[٨] للحقوق التى تلزم، ومن فُضُول النَّظر، وملابسة صغار الناس، ومن خطور[٩] ألفاظهم الساقطة، ومعانيهم الفاسدة، وأحوالهم الردية، وطرائقهم[١٠]

---

(١) إبان كل شيء: وقته وحينه الذى يكون فيه.

(٢) ك: «ما يجمع من كتاب» وما أثبته من المحاسن والأضداد.

(٣) المحاسن والأضداد «المحفوظة».

(٤) ك: «وأتم». وما أثبته من المحاسن والأضداد.

(٥) الخمس فى الأصل: من إظماء الإبل؛ وهو أن ترعى ثلاثة أيام وترد الرابع.

(٦) المستميح: طالب العطاء فى رفق.

(٧) ك: «تضرك» والوجه ما أثبته من الحيوان.

(٨) ك: «التعريض» والصواب ما أثبته من المحاسن والأضداد.

(٩) الحيوان: «حضور».

(١٠) المحاسن والأضداد: «وجهالاتهم».

المذمومة، وأفعالهم الخبيثة القبيحة؛ لكان فى ذلك السلامة ثم الغنيمة،وإخراز[١] الأصل مع استفادة الفرع. ولو لم يكن فى ذلك إلاّ أنه يَشغَلُك عن سُخف المنى، وعن اعتياد الراحة، وعن اللعب وكل ما أشبهه، لقد كان فى ذلك على صاحبه أسبغ النِّعمة، وأعظم المِنّة.

وهو الذى يزيد فى العقل ويشحذه، ويداويه ويهبّه، وينفى الخَبَث عنه، ويفيد العلم، ويصادق بينك وبين الحجّة، ويقودُك للأخذ بالثقة، ويعمر الحال، ويكسب المآل. وهو مَنْبَهَة[٢] للمورِّث، وكنز عند الوارث، غير أنه كنزٌ لا زكاة فيه، ولا حقَّ للسلطان يخرج منه. هو كالضَّيعة التى لا تحتاج إلى سقى ولا إسجال بإيغار[٣]، ولا إلى شرط ولا إكثار ، وليس عليها عشرٌ للسلطان ولا خراجٌ.

ولولا ما رَسَمت لنا الأوائل فى كُتُبها، وخَلَّدت مِن عجيب حِكَمها، ودَوَّنت من أنواع سِيَرها؛ حتى شاهدنا بها من غابَ عنّا، وفتحنا بها كلَّ منغلِقٍ علينا؛ جمعنا فى قليلنا كثيرَهم، وأدركنا ما لم نُدركه إلاّ بهم، لقد كان بُخِسَ حَظُّنا منه. وأكثر كُتبهم نَفعًا، وأشرف منها حظًّا، وأحسنُ موقعًا؛ كُتُب الله عزّ وجلّ التى فيها الهدى والرحمة، والإخبار عن كلّ عبرة، وتعريفُ كلّ سيئة وحسنة. ومازالت كتب الله جلّ وعلا فى الألواح والصُّحُف والمصاحف، فقال جلّ ذكره: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فى صُحُف مُوسَى. وإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى﴾[٤]، فذكر صحف موسى الموجودة، وصحف إبراهيم البائدة، وقال: ﴿الم ذَلِكَ الكتابُ لا رَيْبَ فيه﴾[٥] وقال عزّ وجلّ: ﴿مَا فَرَّطْنَا فى الكتَابِ مِنْ شَىءٍ﴾[٦]. وقال: ﴿كِرامًا كاتبين﴾[٧]. وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِه﴾[٨]. وقال: ﴿اقرأ كِتَابَك كَفَى بِنَفْسِكَ اليومَ عَلَيْكَ حَسيبا﴾[٩].

ولو لم تكن تُكتَب أعمالهم لكانت محفوظةً لا يدخل ذلك الحفظ نسيان، ولكنه تعالى جَدُّه، علم أنّ نسخه أوكدُ وأبلغُ وأهيَبُ فى الصّدور، فقال جلّ ذكرُه: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتم تَعْمَلُونَ﴾[١٠].

ولو شاء الله أن يجعل البشارات بالمرسلين على الألسنة ولم يودِعها الكتب لفَعل ، ولكنه تبارك وتعالى عَلِمَ أن ذلك أتمّ وأبلغ وأكمَلُ وأجمَع. وفى قول سليمان عليه السلام: ﴿اذْهَبْ بِكتَابِى هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾[١١] ، وقد كان عنده من يبلّغ الرسالة على تمامها من عِفريت وإنسىٍّ وغيرهما، فرأى الكتاب أبْهى وأحسنَ، وأكرمَ وأفخمَ، وأنبلَ من الرسالة[١٢]. ولو شاء النبىُّ ﷺ، ألاَّ يكتب إلى قيصر وكسرى والنّجاشى والمقوقس، وإلى ابْنَى الجُلَنْدى[١٣] وإلى العَباهِلة من حِمْيَر، وإلى هَوذة،

---

(١) ك: «وإخزان» وما أثبته من المحاسن.

(٢) فى ك: «شبهة» تحريف، والمنبهة: المشرفة والمعلاة، من النباهة؛ وهى ضد الخمول.

(٣) الإسجال، من أسجل الحوض، إذا ملأه، والإيغار: استيفاء العامل الخراج.

(٤) سورة النجم ٣٦، ٣٧.

(٥) سورة البقرة ١، ٢.

(٦) سورة الأنعام ٣٨.

(٧) سورة الانفطار ١١.

(٨) سورة الإنشقاق ١٠.

(٩) سورة الإسراء ١٤.

(١٠) سورة الجاثية ٢٩.

(١١) سورة النمل ٢٨.

(١٢) فى الكلام حذف المبتدأ، والتقدير: «وفى قول سليمان... ما ينوه بشأن الكتاب». والغرض من الحذف التفخيم.

(١٣) هما جيفر وعمرو ملكا عمان، إمتاع الأسماع ١: ٤٣٣.

والملوك العظماء والسادة النجباء، لَفَعَل، ولَوَجَد المبلِّغ المحصُومَ من الخطأ والزَلَل، والتبدُّل؛ ولكنّه ﷺ عَلِم أنّ الكتابَ أشبَهُ بتلك الحالة، وأليق بتلك المراتب، وأبْلَغُ فى تعظيم ما حواه الكتاب.

وحَمْلُه وإن كَثُر ورقُه، فليس مما يُمَلُّ: لأنَّه وإن كان كتابًا واحدًا، فإنه كتب كثيرة، فإن أراد قراءة الجميع لم يصل على الباب الأوّل حتى يهجم على الثانى، ولا الثالث حتى يَهجُم على الرابع، فهو أبدًا مستفيد ومستطرِف[١]، وبعضُه يكون حاثًّا لبعض، ولايزال نشاطُه زائدًا؛ متى خرج من أثرٍ صار فى خبر، حتى يخرج من خبر إلى شِعْر، ومن الشعر إلى النّوادر، ومن النّوادر إلى نُتَف وإلى مواعظ، حتى يُفضىَ بِهِ إلى مَزْحٍ وفكاهة، ومُلَحٍ ومضَاحك وخُرافة. وكانوا يجعلون الكتابَ نَقرا فى الصخور، ونقشًا فى الحجارة، وحَلقة مركّبة فى البُنيان – وربما كان الكتاب هو الناتئ[٢]، وربما كان الكتابُ هو المحفور – إذا كان ذلك تاريخًا لأمر جسيم، أو عهدًا لأمر[٣] عظيم، أو موعظةً يُرتَجى نفعُها، أو إحياءَ شرف يريدون تخليد ذكره؛ كما كَتَبوا على قُبّة غمدان[٤]، وعلى باب القَيْرَوان، وعلى باب سَمَرقَنْد، وعلى عمود مأرب[٥]، وعلى رُكْن المُشقَّر[٦] وعلى الأبلق[٧] الفرد من تَيْماء، وعلى باب الرّها[٨] يَعْمَدون إلى المواضع الرفيعة المشهورة، والأماكن المذكورة ، ويضعون الخطّ فى أبعد المواضع من الدثور، وأمنعها من الدُّروس، وأجدَر أن يراها من مرَّ، ولا تُنسى على مرور الدهور. وعَمَدُوا إلى الرّسوم ونقوش الخواتيم، فجعلوها سببًا لحفظ الأموال والخزائن؛ ولولاها لدخل على الناس الضَّرَرُ الكبير. ولولا خطوط الهند لضاع من الحساب أكثره، ولبَطَلت معرفةُ التضاعيف؛ ونفع الحساب معلوم، والخَلّة فى موضع فقده معروفة، قال الله عزّ وجَلّ: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً والقمرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعلموا عددَ السنينَ والحِسابَ﴾[٩].

ولولا الكتبُ المدوَّنة والأخبار المخلَّدة، والحِكَم المخطوطة[١٠] التى تجمع الحساب وغير الحساب، لبطل أكثرُ العلم. ولولا الكتابُ لم يكن يعلم أهلُ الرقّة والمَوْصِل وبغداد وواسط ما كان بالبصرة أو حَدَث بالكوفة فى بياض يوم؛ حتى تكون الحادثةُ بالكوفة عدوةً، فيعلَمُها أهلُ البصرة قبل المساء، وذلك مشهور فى الحمام إذا أُرْسِلت.

وكانت العرب تَعتمِد[١١] فى مآثرها على الشعر الموزون والكلام المقفى ، وكان ذلك ديوانها، على

---

(١) ك: «مستظرف».
(٢) ك: «الباقى». وما أثبته من المحاسن والأضداد.
(٣) ك: «عهد عظيم» وما أثبته من المحاسن والأضداد.
(٤) غمدان: قصر بصنعاء، بناه أليشرح بن يحصب.
(٥) مأرب: قصر بين صنعاء وحضرموت من بلاد اليمن.
(٦) المشقر: حصن بالبحرين.
(٧) الأبلق الفرد: حصن السموءل بن عاديا ، وتيماء: بلد بين الحجاز والشام.
(٨) الرها: مدينة بالجزيرة.
(٩) سورة يونس ٥.
(١٠) المحاسن والأضداد: «المحفوظة».
(١١) ك: «تعقد» وما أثبته عن الحيوان.

أنّ الشعر يفيد فضيلة البيان على الشاعر الراغب، وفضيلة الأثر على السيّد المرغوب إليه. وكانت العجم تقيّد مآثرها بالبنيان، فبنت مِثلَ بناء أردَشِير، وبناء إصْطَخْر وبيضاءِ المدائن، وشِيرِين[١]، والمُدُن والحصون، والقناطر والجسور.

ثم إن العرب شاركَت العجم فى البنيان، وتفرّدت بالشّعر، فلها من البنيان غُمدان، وكعبةُ[٢] نجران، وقصرُ مأرِب، وقصر شَعُوب[٣] والأبلَق الفَرْد، وغيرُ ذلك من البنيان.

وتصنيفُ الكتُب أشدّ تقييدًا للمآثر على مرّ الأيّام والدّهور من البنيان؛ لأنّ البنيان لا محالةَ يدرس وتعفو رسومُه، والكتاب باق يقع من قرن إلى قرن، فهو أبدًا جديد، والناظر فيه مستفيد. وهو أبْلَغُ فى تحصيل المآثر من البنيان والتّصاوير. وأهلُ العلم والنظر وأصحابُ الفكر والعبَر، والعلماء بمخارج المِلَل وأرباب النِّحَل وورثة الأنبياء، وأعوان الخلفاء؛ يكتبون كتب الظرفاء والمُلَحاء، وكتب الملاهى والفكاهات، وكتب أصحاب المِرَاءِ والخصومات، وكتب أصحاب العَصبيَّةِ وحَمِيةِ الجاهليَّةِ؛ فمنهم من يفرِّط [فى] التعلّم فى أيام جهلِه، وخمول ذِكرِه، وحداثةِ سنِّه.

ولولا جِيادُ الكتُب وحِسانُها لما تحرّكَتْ هِمَمُ هؤلاء لطلب العلم، ونازَعَتْ إلى حبّ الأدب، وأنِفَتْ من حال الجهل، وأن تكون فى غمار الحُشْوَة[٤]، ويَدخل عليهم الضرَرُ والحقارةُ وسوءُ الحال بما عسى أن يكون لا يمكن الإخبار عن مقداره إلّا بالكلام الكثير، ولذلك قال عمر بن الخطّاب رضى الله عنه: تفقّهوا قبل أن تَسُودوا. وقال بعض الحكماء: ذهبت المكارمُ إلّا من الكتب.

* * *

وقال الله عزّ وجلّ: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّك الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بالْقَلَمِ﴾[٥]. فوصف نفسَه تعالى جدُّه بأنه علّم بالقلم، كما وصف نفسه بالكرَم، واعتدَّ بذلك فى نِعَمِهِ العظام، وأياديه الجسام، ووضع القلمَ فى المكان الرفيع، ونوّهَ بذكرِه، وأقسمَ به كما أقسم بما يخطّ به، فقال: ﴿ن وَالْقَلَمِ وما يَسْطرونَ﴾[٦].

والقلم أرجَح من اللسان؛ لأن كتابته تُقرأ بكلّ مكان، ويَظْهر ما فيه على كلّ لسان، ويوجد مع كلّ زمان. ومناقلة اللسان وهدِيّتُه لا يجاوزانِ مجلسَ صاحبه ومبلغ صوتِه، والكتاب يخاطبك من بعيد؛ وقد قالوا: القلمُ أحدُ اللّسانين. وقالوا: كلُّ مَنْ عَرَف النعمة فى بيان اللسان، كان أعرفَ بفضل النعمة فى بيان القلم، وقد يعترى القلم ما يعترى المؤدِّب عند ضَرْبِه وعقابِه، فما أكثرَ من يَعزِم على عشرة أسواط فيضرب مائة، لأنّه ابتدأ الضربَ وهو ساكن الطباع، فأراه السكون أنّ الصواب فى الإقلال، فلمّا ضَرَب تحرّك دمهُ فأشاع الحرارةَ فيه، وزاد فى غضبه، فأراه الغضب أنّ الرأىَ فى الإكثار، وكذا صاحب القلم، فما أكثر من يبتدئ الكتاب وهو يريد مقدار سطرين فيكتب عشرة!

---

(١) قصر شيرين: قريب من قرمسين فى طريق بغداد.

(٢) كعبة نجران: بنية بناها بنو عبد المدان على بناء الكعبة وعظموها مضاهاة للكعبة.

(٣) قصر شعوب: قصر باليمن معروف بالارتفاع.

(٤) الحشوة: رذال الناس. (٥) سورة العلق ٣، ٤. (٦) سورة القلم ١.

وقد قيل: القلم الشاهد والغائب، يُقْرَأ بكلّ لسان، وفى كلّ زمان.

وقالوا: ظاهر عقول الرجال فى اختيارها، ومدوَّن فى أطراف أقلامها؛ ومصباح الكلام حسن الاختيار.

وقالوا: القلم مجهز جيوش الكلام، يخدم الإرادة، ولا يَمَلّ الاستزادة، ويسكت واقفًا، وينطق سائرًا على الأرض، بياضه مظلم، وسواده مضىء؛ وقال الشاعر[1]:

قومٌ إذا خافوا عداوةَ مَعشَرٍ ... سَفَكُوا الدِّما بأسِنَّة الأقلام

وَلمشقَةٌ من كاتب بمدادِهِ ... أمضَى وأقطعُ من صَنيعِ حُسَام

[الكامل]

وقال آخر أيضًا:

لَعمرك ما السيفُ سيفُ الكَمِىّ ... بأخوَف من قلَمِ الكاتبِ

له غايةٌ إن تأمّلْتَها ... ظَهَرْتَ على سِرِّه الغائب

أداةُ المنيَّةِ فى جانِبَيْهِ ... فمِنْ مثله رَهبةُ الراهبِ

سِنانُ المَنيَّةِ فى جانبٍ ... وسَيفُ المنيَّةِ فى جانبِ

ألم تر فى صَدرِهِ كالسِّنانِ ... وفى الرِّدْفِ كالمُرْهَفِ القاضب؟

فيجرى به الكفُّ فى حالةٍ ... على هيئةِ الطاعن الضارب

[المتقارب]

وقال آخر أيضًا ملغزًا:

وأعجفَ رِجْلاه فى رأسهِ ... يَطيرُ حَثيثًا على الأملسِ

مطاياه من تحته الإصبعان ... ولولا مطاياهُ لم يُلمَسِ

[الطويل]

وقال آخر سامحه الله:[2]

وأعجفَ مُنَشقّ الشباةِ مُقَلَّمٍ ... مُوَشّى القَرَا طاوى الحشا أسوَدِ الفَمِ[3]

إذا هو أضحى فى الدواةِ فأعجمٌ ... ويُضْحى فصيحًا فى يَدِى غير أعجمِ

يناجى مناجاة أغرّ مُرَزّأً ... متى أستمح معروفهُ يتبسَّمِ

[الوافر]

وقال آخر رحمه الله:[4]

لك القلمُ الّذى لم يجر يومًا ... بغايةِ منطقٍ فَكَبا بِعِىّ

---

(١) لابن الرومى، ديوانه الورقة ١٦، وهى أيضا فى زهر الأدب ٤٣٢ مع اختلاف فى الرواية.

(٢) الأبيات فى أدب الكتاب للصولى ٨١ مع اختلاف فى الرواية، ونسَبها إلى الفضفاض.

(٣) القرا: الظهر.

(٤) الأبيات فى أدب الكتاب للصولى ٨٥ مع اختلاف الرواية.

ومبتسمٌ عن القِرطاس يأسُو ويَجرحُ، وهْو ذو بالٍ رَخيِّ
فما المِقدادُ أعْضَبَ من شَباهُ ولا الصَّمْصام سَيْفُ المذْحِجيّ

[مخلع البسيط]

وقال وأجاد:

أحسنُ من غفلةِ الرقيبِ ولحظةِ الوَعْدِ مِنْ حبيبِ
والنغْمِ والنقْرِ من كَعابٍ مُصيبةِ العودِ والقضيبِ
ومن بَناتِ الكُروم راحاً فى راحتَىْ شادنٍ رَبيبِ
كَتْبُ أديبٍ إلى أديبٍ طالتْ به مدّة المغيبِ
فنمَّقَتْ كفُّهُ سطوراً تُنَمِّقُ الصَّبرَ فى القُلُوبِ
تتركُ من سُطِّرتْ إليه أطرَبَ مِنْ عَاشِقٍ طَرُوبِ

[البسيط]

وقال آخر:

إذا استمدَّت صرفتُ الطرفَ عن يدِها خوفًا عليها لما أخْشَى من التُّهمِ
كأنما قَابَلَ القرطاسَ إذا مَشَقَتْ منها ثلاثةُ أقلامٍ على قلم[1]

[مجزوء الوافر]

وقال أشجع فى جعفر البرمكىّ:

إذا أخذت أناملهُ تبيّن فَضْلُهُ القَلَما
تطأطأ كلُّ مرتفعٍ لفضل الكتب مُذْنَجَا

[مجزوء الوافر]

يقدِّم ويؤخِّر، أراد: إذا أخذتْ أناملهُ الْقَلَم تبيَّن فضلهُ.

وفى الخط قال: نظر المأمون إلى مؤامرة بخَطٍّ حَسَن، فقال: لله درّ القلم، كيف يحوك وَشْيَ المملكة!

وقال يحيى بن خالد البرمَكِيّ: الخطُّ صورةٌ رُوحهُا البيان، ويدها السّرعة، وقدماها التَّسوِية، وجَوارحُها معرفة الفصول.

وقال فى مثله رحمه الله تعالى:

تقولُ وقد كتبْتُ دقيقَ خطِّى فدَيتُك ممَّ تجتَنبُ الجليلا
فقلتُ لها: نحَلْتُ فصار خَطِّى دقيقًا مثلَ صاحبِهِ نحيلاَ

[الوافر]

* * *

(١) المشق: مد أحرف الكتابة.

وقال على بن الجَهْم فى صفة الكُتُب: إذا غشيَنى النُّعاس فى غير وقت النَّوم تناولت كتابًا، فأجدُ اهتزازى من الفوائد [التى] فيه، والأَريحيَّة التى تعتادنى وتعتريني من سرور الاستنباه[١] وعزّ التبيين؛ أشدّ إيقاظًا من نهيق الحمار، وهَدَّة الهَدم[٢]. وإنى إذا استحسنت كتابًا واستجدتُه رجوتُ فيه فائدةً؛ فلو ترانى ساعةً بعد ساعة أنظُركم بَقِىَ من ورقه، مخافة استنفاده وانقطاع المادة من قِبَله، وإن كان الكتاب عظيمَ الحَجْم، وكان الورق كبيرَ القدر، [فقد تمَّ عيشى، وعظم سرورى][٣].

وذَكَر له العُتبى كتابًا لبعض القدماء، فقال: لولا طوله لنسخته؛ فقال: ما رغبتى إلّا فيها زهدتَ عنه، وما قرأت كتابًا كبيرًا فأخلانى من فائدة، ولا أُحْصِى كم قرأت من صغار الكتب فخرجت منها كما دخلت فيها[٤].

وقال ابنُ داحة: كان عبد الله بنُ عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا يجالس الناس، ونزل مَقْبَرة من المقابر، وكان لا يكاد يُرى إلّا وفى يده كتاب يقرأ فيه[٥]، فسئل عن ذلك وعن نزوله المَقبرَة، فقال: لم أرَ أوعظَ مِن قَبْر، ولا آنَسَ من كتاب، ولا أسلم من الوَحْدَة[٦].

وقيل لابن داحة وقد أخرج إليه كتابُ أبى الشَّمقْمَق وهو فى جلود كُوفيّة، ودفّتين[٧] طائفيَّتيْن لا بخطٍّ عجيب، فقال: لقد ضيّع درهَمه صاحبُ هذا الكتاب، وقال: والله إنّ القلم ليعطيكمْ مثلَ ما تعطُونه؛ ولو استطعت أن أُودِعَهُ سُوَيداءَ قلبى وأجعلَه مخطوطًا على ناظرىَّ لفعلت.

وقال بعضهم: كنت عند بعض العلماء، وكنت أكتبُ عنه بعضًا وأدعُ بعضًا، فقال لى: اكتب كلَّ ما تَسمع، فإنّ أخسَّ ما تسمع خير من مكانه أبيض.

وقيل:

أما لو أعِى كُلَّ ما أسمَعُ	وأحفَظ مِن ذاك ما أجْمعُ[٨]
ولم أستفدْ غير ما قد جمعتُ	لقيل هو العالِمُ المُقْنعُ[٩]
ولكنّ نفسى إلى كل نو	عٍ من العلم تسمعُهُ تنزِعُ
فلا أنا أحفظ ما قد جمعتُ	، ولا أنا مِن جمعِه أشبعُ[١٠]
ومَنْ يَكُ فى عِلْمِه هكذا	يُرَى دَهْرَهُ القهقرى يَرجِعُ

(١) الحيوان ١: ٥٢، «الاستبانة».

(٢) الهدم: الصوت.

(٣) تكملة من الحيوان ١: ٥٢.

(٤) الحيوان ١: ٥٣، ٥٤.

(٥) الحيوان: «يقرؤه».

(٦) الحيوان ١: ٦٢؛ وذكر بعدها: «فقيل له: قد جاء فى الوحدة ما جاء! فقال: ما أفسدها للجاهل، وأصلحها للعاقل».

(٧) فى ك: «وورقتين طابقتين ما بخط»، وما أثبته من الحيوان ١: ٦١.

(٨) محاسن الجاحظ ١٣، ونسبها إلى الأصمعى، والحيوان ١: ٥٩، ونسبها إلى محمد بن يسير.

(٩) الحيوان: «المصقع».

(١٠) بعده فى الحيوان:

وأحْضَرُ بالْعِىّ فى مَجْلِسى ... وعِلْمى فى الكُتْبِ مُسْتَوْدَعُ

إذا لم تكن حافظًا واعيًا ... فجمعك للكُتْب لا ينفعُ

[المتقارب]

وقال بعضهم: الحفظ مع الإقلال أمكَنُ، ومع الإكثار أبعد؛ وهو للطبائع مع رطوبة القضيبِ أقبل.

ومنها قول الشاعر:

أتانى هواها قبلَ أن أعرِف الهوى ... فصادف قلبى خاليًا فتمكَّنَا[١]

[الطويل]

وقيل: التعلُّم فى الصِّغَر، كالنَّقْش فى الحَجَر؛ فسمع ذلك الأحنف فقال: الكبيرُ أكثرُ عقلًا، ولكنه أكثرُ شغلًا.

وكما قال:

وإنّ من أدَّبتهُ فى الصِّبا ... كالعُودِ يُسقَى الماءَ فى غرْسِهِ[٢]

حتى تراه مُورِقًا ناضِرًا ... بعد الذى أبصرتَ من يُبسهِ

[السريع]

والصبىّ عَلَى الصِّبا أفهَمُ، وله آلف، وإليه أنزَع، وكذلك العالم على العلم، والجاهل على الجهل، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾[٣]؛ لأن الإنسان عن الإنسان أفهَم، وطباعه بطباعه آنَس، ومن التقط كتابًا جامعًا كان له غُنْمُه، وعلى مؤلِّفه غُرْمُه، وكان له نفعُهُ، وعلى صاحبه كَدُّهُ، ومتى ظفر بمثله صاحبُ عِلم فهو وادع جامٌّ، ومؤلّفه متعوب مكدود، وقد كفِىَ مؤنةَ جمعه وتتبُّعه، وأغناه عن طول التفكير، واستنفاد العمر، وكان عليه أن يجعل ذلك من التوفيق والتسديد إذا بالغ صاحبه فى تصنيفه، وأجاد فى اختياره.

قال أبو هَفّان:

إذا آنسَ الناسَ ما يجمَعون ... أنِستُ بما يجمَعُ الدَّفتر

له وَطَرى ولَهُ لَذّتى ... على الكأس؛ والكأس لا تُحْضَرُ

تدور على الشَّرْب محمودةً ... لها الموردُ الخرقُ والمُصْدِرُ[٤]

يُغنّيهمُ ساحرُ المُقْلَتَيْن ... كشمس الضُّحَى طَرْفُه أحوَرُ

ورَيحانهم طِيبُ أخلاقِهم ... وعندهُم الوَرْدُ والعَبْهَرُ[٥]

على أنَّ همّتَنا فى الحروب ... فتلك الصِّناعةُ والمتجَرُ

[المتقارب]

---

(١) للمجنون، ديوانه ٢٨٣.

(٢) الحيوان ١: ٤٠، ٤١، ونسبهما إلى صالح بن عبدالقدوس.

(٣) سورة الأنعام ٩.

(٤) الخرق: الكريم.

(٥) ك: «المبقر».

قال: لمّا قلتها عرضتُها على ابن دِهقان، فقال: إذا سمع بها الخليفة استغنى بها عن النُّدَماء.

وأنشد غيرُه:

نعمَ المحدِّثُ والرفيق كتابُ ... تلهو به إن خانَكَ الأصحابُ
لامفشيًا سرًّا إذا استودَعتَهُ ... وتُنالُ منه حكمةٌ وصوابُ

[الكامل]

وقال آخر:

نعمَ الجليس بعَقْب قَعْدةِ ضَجْرةٍ ... لِلمَلْكِ والأدباءِ والكتابِ
ورَقٌ تضمّن من خطوط أناملٍ ... مَرعًى من الأخبار والآداب
يَخْلُو به مَنْ مَلّ من أصحابه ... فيقالُ خِلوٌ، وهو فى الأصحاب

[الكامل]

قال: وأنشدَنا أبو الحسن على بن هارون بن يحيى النديم رحمه الله:

إذا ما خلوتُ من المؤْنِسينَ ... جعلتُ المحدِّثَ لى دَفترى
فلم أخلُ من شاعرٍ محسنٍ ... وَمِنْ مضحكٍ طَيِّب مُنْدِرِ[1]
ومن حِكَمٍ بين أثنائها ... فوائدُ للناظر المُفْكِرِ
وإن ضاق صدرى بأسراره ... وأودَعتُهُ السرَّ لم يُظْهِرِ
وإن صرّحَ الشعر باسم الحبيبِ ... فما أخْتَشِيه ولم أحْصَرِ
وإن عُذْتُ من ضَجْرَةٍ بالهجاء ... وَلَوْ فى الخَلِيفَةُ لم أحذرِ
فنادَيتُ منه كريمَ المَغيب ... لِنَدْمانِه طيّبَ المحْضَرِ
فلستُ أرى مُؤثرًا ما حَيِيتُ ... عليه نديمًا إلى المحشَرِ

[المتقارب]

وقال فى الذِّهن:

إذا ما غَدَتْ طَلَّابَةُ العلم مالَهَا ... من العلم إلّا ما يُخلد فى الكُتْب
غَدَوْتُ بتشميرٍ وجِدٍّ عليهمُ ... ومِحبرتى سمعى ودَفترُها قلبى

[البسيط]

وقال آخر:

يأيها الطالب الآداب مبتدرًا ... لا تسْهُ عن حَمْلكَ الألواح للأدبِ
فحمْلُها أدبٌ تحوى به أدبًا ... وسوفَ تَنْقُلُ ما فيها إلى الكتُبِ

---

(١) المندر: من يأتى بالنادر من القول أو الفعل، وفى ك: «مبدر» تحريف.

وليس فى كـلّ وقت ممكنًا قلمٌ   ودَفترٌ يا عـديم المِثل فى الحسَبِ

* * *

وكلُّ ما تقدَّم ذكرُه من مناقب الكُتُب ووصفِ محاسنها؛ فهو دون ما يستحقُّه كتابُنا هذا؛ فقد اشتمل على محاسن الأخبار، وطرائف الآثار؛ وترجمناه بكتاب «المحاسن والمساوئ»؛ لأن المصلحة فى ابتداء أمر الدنيا إلى انقضاء مدّتها، امتزاجُ الخير بالشرّ، والضارِّ بالنافع، والمكروه بالمحبوب، ولو كان الشرُّ صِرْفًا مَحْضًا لَهلَك الخَلْق، ولو كان الخيرُ مَحْضًا لسقطت المحبَّةُ، وتقَطَّعتْ أسبابُ الفِكْرة، ومتى بطل التخيُّر، وذهب التميُّز، لم يكن صبرٌ على مكروه، ولا شكرٌ على محبوب، ولا تعَامُل ولا تنافس فى درجة، وما توفيقنا إلّا بالله، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وافتتحنا كتابَنا هذا بذكر النبى ﷺ، وعلى آله وأصحابه الطيِّبين الطاهرين الأبرار الأخيار، لما رجَوْنا فيه من الفضل والبَركة، واليُمن والتوفيق. والحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله على محمد وإخوته من النبيّين وآله الطيبين أجمعين.

مَحاسن رسول الله

صلى الله عليه وسلم

اختاره[1] الله من خير أرومات[2] العرب عُنصرًا، ومن أعلى ذَوائب قريش فَرْعًا، وأكرم عيدان قُصَيٍّ مَجْدًا، ثم لم يزلْ بلطفه لنبيّه ﷺ وآله، واختياره إيّاه بالآباء الأخاير، والأمّهات الطّواهر؛ حتى أخرجَه فى خير زمان، وأفضلِ أوان. تفرَّع من شجرةٍ باسقةِ النَّدى، شامخةِ العلا، عربية الأصل، قرشيّة الأهل، منافيّةِ الأعطان، هاشميَّة الأغصان، ثمرتها القرآن. تنْدى بماءِ يَنابيع العلم، فى رياض الحِلم، لا يَذوى عودها، ولا تجفُّ ثمرتها، ولا يَضلُّ أهلها، أصلها ثابت، وفرعها نابت[3]. فيالَها من شجرة ناضرة، خضراءَ ناعمة! غُرستْ فى جبلٍ قَفر، وبلدٍ وَعْر، مَحْل ضرعٍ، غير ذى زرع؛ عند بيتك المحرّم، وبلدك المكرّم، فهو صلّى الله عليه وعلى آله الطيبين الأخيار كما قال بعض الحكماء: لئن كان سليمانُ عليه السلام أُعْطِيَ الرِّيحَ غُدُوُّها شهر ورَوَاحُها شهر، لقد أعطِيَ نبيُّنا ﷺ البُراق الذى هو أسْرَع من الرِّيح. ولئن كان موسى عليه السلام أعطَى حَجَرًا تتفجّر منه اثنتا عشرة عَيْنًا ، لقد وضع أصابعَه عليه وعلى آله السلام فى الإناء والماء ينبع من بين أصابعه حتى ارتوى أصحابه رضى الله عنهم وما لَهم من الخيل. ولقد كان رديفَ[4] عمِّه أبى طالب بذى المجاز[5]، فقال: يا بن أخى قد عَطِشْتُ، فقال: عطِشتَ يا عمّ؟ قال: نَعم، فثنى وركه فنزل، وضرب بقدمه الأرض، فخرج الماءُ، فقال: اشرب؛ فشرب حتى رَوى. ولئن كان عيسى عليه السلام أحيا النَّفْس بإذن الله، لقد رَفَع ﷺ ذِراعًا إلى فيه فأخبرتْه أنها مسمومةٌ، وكان ﷺ يخبر بما فى الضمائر، وما يأكلون، وما يدَّخرون.

ثم دعاؤه المستجاب الذى لا تأخير فيه، وذلك أن النبيّ ﷺ، لمّا لَقِيَ من قريش والعرب من شدَّة أذاهم له، وتكذيبهم إيَّاه، واستعانتهم عليه بالأموال، دعا أن يجدِب[6] بلادُهم، وأن يدخل الفقر بيوتهم، فقال: «اللهم اجعلْها عليهم سنينَ كِسِنِى يوسفَ. اللهم اشدُدْ وطأتَكَ[7] علَى مُضَر» فأمسَكَ الله عزَّ وجلَّ عنهم القَطْرَ حتى مات الشَّجَر، وذَهَب الثَّمر، وقلّت المراعى، فماتت المواشى،

---

(١) ك: «اختار».

(٢) الأرومة، بفتح الهمة وضمها: أصل الشجرة؛ وتستعار للحسب.

(٣) ك: «ثابت».

(٤) الرديف: الراكب خلف الراكب.

(٥) ذو المجاز: موضع بعرفة؛ كان به سوق تقام ثمانية أيام فى الجاهلية.

(٦) ك «تخرب».

(٧) ك: «أوطانك»؛ والصواب ما أثبته من الكامل ٢: ٨٢.

حتى اشتووا القِدَّا[١]، وأكلوا العِلْهِز[٢]، فعند ذلك وفَدَ حاجبُ بنُ زُرارة إلى كِسرَى يشكو إليه الجَهْدَ والأزل[٣] ويستأذنه فى رَعْىِ السَّواد، وهو حين ضَمِن عن قومه وأرهنَه قوسَه[٤] فلما أصاب مُضَر خصاصةُ الجَهد، ونَهكَمُ الأزْلُ، وبلغت الحجَّة مبلغَها، وانتهت الموعظة منتهاها، دعا بفضله ﷺ الذى كان بدأهم به، فسأل ربَّه عزّ وجلّ الخِصبَ وإدرارَ الغَيْث[٥]، فأتاهم منه ما هدَم بيوتَهم، ومنَعهم[٦] حوائجهم، فكلّموه فى ذلك، فقال: «اللَّهُمّ حوالَيْنا ولا عَلَينا»، فأمطر الله ما حوْلَهم.

ودعا صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم على المستهزئين بكتاب الله عزَّ وجلّ. وكانوا اثنى عشرَ رجلًا، فكفاه الله جلّ اسمه أمرهم، فقال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهزِئينَ﴾[٧].

وقصّة عامر بن الطفيل ودعاؤه عليه[٨]. وناطَقَه ﷺ ذِئبٌ، وأظلّته غمامة، وحنّ إليهاعُود المنبر، وأطْعَم عسكرًا من ثريدةٍ[٩] فى جسم قَطَاة، وسَقَى عامًّا، ووضّأهم من ميضأة جسم صاع. ورسوخ قوائم فرس سُراقة بن جُعْشم[١٠] فى الأرض، وإطلاقه له بعد أن أخذ موثِقه، ومَرْيه ضرعَ شاةٍ حائل[١١] فعادت كالحامل، والتزاق الصخرة بيد أرْبَد، وما أراه الله عزّ وجلّ أبا جهل حين أهوى بالصّخرة نحو رأس رسول الله ﷺ وهو ساجد، فظهر له فحلٌ ليَلقَم رأسه، فرمَى بالصخرة، ورجع يشدّ إلى أصحابه، قد انتُقِع لونه، فقالوا له: ما بالُك؟ فقال: رأيت فحلًا لم أر مثله يريد هامتى.

* * *

وأمَّا ما أراه الله أعداءه من الآيات فأكثر من أن يُحصَى.

منها ما رواهُ عبد الله بن وهب[١٢] عن اللَّيث بن سعد، قال: أتى أربد بن ربيعةَ وعامرُ بن الطّفيل إلى رسول الله ﷺ، فقال أحدهما للآخر: أنا أشغلُه بالكلام حتى تقتلَه، فوقف أحدهما على النبى ﷺ، فلمّا طال عليه انصرف، فقال لصاحبه: ما صنعت شيئًا! قال: رأيتُ عنده شيئًا رجلُه فى الأرض ورأسهُ فى السماء، لو دنوتُ منه أهلَكَنى، وأمّا أربَد فأصابته صاعقةٌ، وأنزل الله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ من أَمْرِ الله﴾[١٣]؛ وأما عامر فإنه قال لرسول الله ﷺ: لنا

---

(١) القد: السير يقد من الجلد غير مدبوغ.

(٢) العلهز: طعام من الدم والوبر.

(٣) الأزل: الشدة والجهد.

(٤) أرهنه الشىء: جعله رهنًا.

(٥) إدرار الغيث: غزارته وشدته.

(٦) ك: «ومنعه».

(٧) سورة الحجر ٩٥، والخبر فى الكشاف ٢: ٤٦.

(٨) فى خبر ذكره المبرد فى الكامل ٤: ٣١، ٣٢؛ قال فيه: إن عامرًا قال للنبى عليه السلام: لأغزونك على ألف أشقر وألف شقراء. فقال عليه السلام: «اللهم إن لم تهد عامرًا فاكفنيه»، ثم ذكر أن عامرًا غدّ بعد ذلك ومات فى ديار بنى سلول بن صعصعة.

(٩) الثريدة: كسرة الخبز المبلولة بماء اللحم.

(١٠) ك: «جعشم»؛ والصواب ما أثبته من القاموس.

(١١) فى الإحياء ٢: ٣٨٦ فى فصل عن معجزاته ﷺ: «ومسح ضرع شاة حائل لا لبن لها».

(١٢) فى ك: «وهب بن منبه»، وهو خطأ؛ فوهب بن منبه مات سنة ١١٠ على المشهور، والليث بن سعد مات سنة ١٧٥؛ ولعل الصواب ما أثبت؛ فالليث من شيوخ ابن وهب، والخبر فى تفسير الطبرى، يرويه عن يونس عن ابن وهب. وانظر تهذيب التهذيب ٨: ٤٥٩.

(١٣) سورة الرعد: ١١.

أهل الوَبَر، ولكم أهل المدَر، فقال ﷺ: «لكم الأعنّة» ، فقال : لأملأنّها خيلا عليكم ورَجْلا، فلما وَلّى قال رسول الله ﷺ: «اللَّهم اكْفِنيه»، فأخذته غُدّة فقتلتْه.

وعن محمد بن عبد الله، قال: بينا رسول الله ﷺ قائم يصلّى، إذ رآه أبو جهل، فقال لنفر من قريش: لأذهبن فأقتلنَّ محمدًا، فدنا منه؛ قال: ورسول الله ﷺ قائم يصلّى ويقرأ: ﴿اقْرأْ باسْمِ رَبِّك الذى خلق * خلَق الإنسانَ من عَلَق..﴾[1] حتى بلغ آخرها ، فانصرف أبو جهل وهو يقول: هذا وأبيكم وعيد شديد، فلقى أصحابه فقالوا له: ما بالُكَ لم تقتلْه! قال: والله إنّ بينى وبينه رَجُلًا له كَتِيتٌ[2] كَكَتِيت الفحل يعدو بى، يقول: أُدْنُ ادْنُ.

وعن عبد الله، أنّ أعرابيًّا جاء بعُكّة[3] من سمن، فاشتراها أبو جهل، فأمسك العُكّة وأمسك الثمن، فشكاه الأعرابىّ إلى قريش فكلّموه، فأبَى عليهم، فقال بعض المستهزئين: يا أعرابىّ، أتحبّ أن تأخذ عكّتك وثمنها؟ قال: بلى، قال: أترى هذا الرجل المارّ؟ الْقَه فكلِّمه - يعنى النبى ﷺ. فأتاه الأعرابىُّ وشكا إليه أمر العكّة، فخرج ﷺ حتى وقف بباب أبى جهل فناداه باسمه، فخرج إليه تُرعَد فرائصهُ، فقال له: أدِّ إلى هذا عُكّته وثمنها. فدخل أبو جهل، فدفع إلى الرجل العُكّة، فخرج الأعرابىّ إلى قريش وأخبرهم بذلك، ثم خرج أبو جهل، فقالت له قريش: كلّمناك أن تؤدّى الأعرابى حقه فأبيت، ثم جاءك ابن عبد المطلب فدفعت إليه ذلك! فقال: إن معه لَجَملًا فاتحًا فاه، ينظُر ما أقول، فيلتقم رأسى، فما وجدتُ بدا مِن إعطائه حقه.

* * *

وأما أُنس الوَحْش به، فمِمّا حَدَّثنا إسماعيل بنُ يحيى بن محمد، عن سعيد بن سيف بن عمر، عن أبى عمير، عن الأسود قال: سألِ رجل هند بن[4] أبى هالة....[5]: حدِّثِنا بأعجب ما رأيت أو بلغك عن رسول الله ﷺ. فقالت: كلُّ أمره كان عجبًا، وأعجب ما رأيتُ، أنّه كان لى ربَائبُ وحش كنت آنس بهنَّ وآلَفُهنّ، فإذا كان يومه الذى يكون فيه عندى لم يزلن قيامًا صوافَّ ينظران إليه، ولا يُلهيهنَّ عن النظر إليه شيء، ولا ينظرن إلى غيره، فإذا شخَصَ قائمًا سَمَوْنَ إليه بأبصارهنّ، فإذا انطلق موَلِّيًا لاحظْنَهُ النظر، فإذا غاب شخصُهُ عنهن ضربن بأذنابهنَّ وآذانهنَّ، وكان ذلك يُعجبنى.

وعن عبدالملك بن عُمير، أنّ النبىّ ﷺ مر بظبية عند قانص، فقالت: يا رسول الله، إن ضَرْعى قد امتلأ، وتركت خشفين[6] جائعيْن، فَخَلِّنى حتى أذهبَ وأروِيهما، ثم أعود إليك فتربطنى، فقال:

---

(١) سورة العلق: ١، ٢.　　(٢) الكتيت: أول هدر البكر.

(٣) العكة للسمن كالشكوة للبن، وهى أصغر من القربة.

(٤) ك: «بنت»، تصحيف؛ وهند بن أبى هالة التميمى، ربيب النبى ﷺ أمه خديجة وانظر الإصابة ٣: ٥٧٨.

(٥) بياض بالأصل، والحديث بما يقرب من هذه الرواية نقله صاحب إمتاع الأسماع ٣: ٦٢٧ - مصورة دار الكتب المصرية) عن عائشة من عدة طرق.

(٦) الخشف: ولد الظبية أول ما يولد.

«صيد قَوْمٍ وَرَبَيطَتُهم»، قالت: يا رسول الله، فإنى أعطيك عهدَ الله لأرجعنَّ، فأخذ عليها عهدَ الله، ثم أطلقها وأرسلها، فما لبثتْ إلا يسيرًا حتى جاءَت وقد فرَّغت ما فى ضرْعها، فقال ﷺ: «لمن هذه الظبية»؟ قالوا: لفلان، فاستوهَبَها منه، ثم خَلّى سبيلها، وقال: «لو أنّ البهائم تعلم ما تعلمون من الموت، ما أكلتم سمينًا[١]».

* * *

وأما محاسن شهادات السِّباع له بالنبوّة، فمن ذلك ما رُوى أن أبا سفيان بن حرب وصفوانَ بن أمية خرجا من مكة، فإذا هما بذئب يكَدّ ظبيةً؛ حتى إنّ نَفَسه كاد أن يبلغ ظهر الظبية أو شبيهًا بذلك، إذ دخل الظبيُ الحرمَ، فرجع الذئب، فقال أبو سفيان: ما أرضٌ سكَنَها قوم أفضل من أرض أسكنها الله إيّانا؛ أما رأيت ما صنع الذئب! أعجب منه حين رجع! فقال الذئب: أعجب من ذلك محمد بنُ عبدالله بن عبدالمطلب بالمدينة، يدعوكم إلى الجنّة، وتدعونه إلى النار. فقال أبو سفيان: واللات والعزّى، لئن ذكرتَ ذلك بمكة لنتركُها خِلوًا!

وذكروا أن رافع بن عميرة بن جابر كان يرعى غنمًا، إذ غار الذئب عليها، فاحتمل أعظم شاةٍ منها، فشدّ عليه رافعٌ ليأخذَها منه، وقال: عجبًا للذئب يحتَمل ما حَمَل! قال: فأُقعى الذئب غير بعيد؛ وقال: أعجْبُ منه أنتَ! أخذتَ مِنّى رزقًا رزَقَنيه الله تعالى؛ فقال رافع: يا عجبا للذئب يتكلّم! فقال الذئب: أعجب من ذلك، الخارج من تِهامة يدعوكم إلى الجنّة، وتأبَونِ إلاّ دخولَ النار! فأقبل الرجلُ إلى النبى ﷺ، وقد جاءه جبريل عليه السلام فأنبأه بما كان؛ فقصّ النبىّ ﷺ ما كان، فآمَنَ وصدَّق، وقال[٢]:

رَعيتُ الضأنَ أحميها بنفسى	من اللّصّ الخفىِّ وكلِّ ذِيبِ[٣]
فلمَّا أن رأيتُ الذئبَ يَعوى[٤]	وبشَّرَنى بأحمدَ من قريب
يبشرنى بدين الحق حتى	تبيَّنَت الشريعةُ للمنيب
رَجَعْتُ له وقد شمَّرتُ ثَوبِى	عن الكعبين معتمِدًا ركوبى[٥]
فألْفَيْتُ النبىَّ يقولُ قوْلاً	صوابًا ليس بالقول الكذوبِ
ألا أبْلِغْ بنى عمرو بن عَوْفٍ	وأختَهُمُ جَديلةَ أنْ أجيبِى
دُعاءَ المصطفى لا شكَّ فيه	فإنكِ إن تُجيبِى لا تَخيبِى

* * *

ومن محاسن رسول الله ﷺ وبركته، ما رواه محمد بن إسحاقَ، عن سعيد بن ميناء، عن جابر بن عبدالله قال: عملنا مع رسول الله ﷺ فى الخندق، وكانت عندى شُويهة غير سمينة، فقلت: والله لو صنعتُ هذه الشاة لرسول الله ﷺ! قال: فأمرت امرأتى، فطحنت شيئًا من شعير، فصنعت له

---

(١) ك: «سمنا».
(٢) الاستيعاب ١٧٥.
(٣) الاستيعاب: «من اللصت». واللص واللصت سواء.
(٤) الاستيعاب: «فلما أن سمعت».
(٥) الاستيعاب: «على الساقين قاصرة الركيب».

منه خبزًا، وذبحتُ الشاة، فشويتها، فلما أمسينا، وأراد رسولُ الله ﷺ الانصرافَ، قلت: يا رسول الله، إنّى صنعت لك شُوَيهةً وشيئًا من خبز الشعير، وأحِبّ أن تنصرف معى إلى منزلى – وإنما أريد أن ينصرف معى رسولُ الله ﷺ وحدَه – فلما قلت له ذلك، قال: نعم، ثم أمر بصارخٍ فصَرَخ: «انصرفوا إلى بيت جابر» فقلت: «إنّا لله وإنّا إليْهِ راجِعُون»! وأقبل رسول الله ﷺ والناس معه، فأخرجتُها إليه، فسمى ثم أكل وتواردها الناسُ، كلّما فرغَ قوم قاموا وجاءَ قومٌ حتى صَدَر أهلُ الخندق عنها.

وروى عن محمد بن إسحاق أن ابنةً لبشير بن سعد، قالت: دعتنى أُمّي عمرة ابنة رَواحة فأعطتنى حَفْنَة تَمْر فى ثوبى وقالت: يا بُنَيَّة، اذهبى إلى أبيك بهذا. قالت: فأخذتها وانطلقت بها، فمررت برسول الله ﷺ وأنا ألتمس أبى، فقال عليه الصلاة والسلام: «تعالَيْ يا بُنيّة، ما هذا معك؟» قلت: تمر بعثتْ به أمى إلى أبى بشير بن سعد، فقال: «هاتى به» فصببتهُ فى كَفّيْ رسول الله ﷺ فما ملأتها. ثم أمر بثوب فَبُسِط، ثم دَحَا[1] التمر عليه فتبدَّد فوق الثوب، ثم قال لإنسان عندَه: «ناد فى أهل الخندق، أن هلمُّوا إلى الغدَاء». فاجتمع أهلُ الخندق عليه، فجعلوا يأكلون منه، وجعل هو يزداد حتّى صَدَر أهل الخندق عنه وهو يسقط من أطراف الثوب[2].

* * *

ومن آياته ﷺ ما لا يعرفها إلاّ الخاصّة، وهى محاسن أخلاقه وأفعاله التى لم تجتمع لبشر من قبله، ولا تجتمع لأحد من بعده؛ وذلك أنا لم نَرِ، ولم نسمع لأحد قطّ صبرَه وحلمَه[3]، ووفاءَه وزهدَه، وجودَه ونجدتَه، وصدقَ لهجتِه، وكرم عشيرته وتواضعه، وعلمه وحفظه، وصمته إذا صمت، ونطقه إذا نطق، ولا كعفوه وقلّة امتنانه، ولم نجد شجاعًا قطّ إلاّ وقد فرّ؛ مثل عامر فرّ عن أخيه الحكَم يوم الرَّقَم[4]، وعيينه فرّ عن أبيه يوم نِسار[5]، وبسْطام عن قومه يوم العُظالى[6].

* * *

وكان له ﷺ وقائع، مثل أُحُد وحُنَيْن وغيرهما فلا يستطيع منافق أن يقول: هابَ حَرْبًا أو خاف.

* * *

---

(١) دحاه: بسطه.

(٢) سيرة ابن هشام ٣: ٢٣٣، مع اختلاف فى الرواية.

(٣) «وحمله».

(٤) يوم الرقم، لغطفان على بنى عامر، والرقم: جبال دون مكة.

(٥) لضبة وتميم على بنى عامر، والنسار: جبال صغار.

(٦) ذكره ياقوت، وقال: «وفر بسطام بن قيس الشيبانى فى هذا اليوم، فقال فيه ابن حوشب:

فَإنْ يَكُ فى يَوْمِ الغبيطِ مَلاَمَةٌ ... فيومُ العُظَالَى كانَ أخْزَى وألْوَمَا

وَفَرَّ أبُو الصهباء إذْ حمس الْوَغَى ... وَألْقَى بأبْدَانِ السلاحِ وَسَلَّمَا

[الطويل]

وأما زهدُه ﷺ، فإنه مَلَك من أقصى اليمن إلى شِحْر عُمان، إلى أقصى الحجاز، إلى عِذَار[١] العراق، ثم توفى ﷺ وعليه دَيْن، ودِرْعه[٢] مرهون فى ثمن طعامِ أهله، لم يَبْن دارًا، ولا شيّدَ قصرًا، ولا غرس نخلاً، ولا شَقَّ نهرًا، ولا استنبط عينًا. واعتبرْ بُرْدَيْه اللّذيْن كان يلبسهما، وخاتمه.

وكان ﷺ يأكل على الأرض، ويلبس العَباءة، ويجالس الفقراء، ويمشى فى الأسواق، ويتوسّد يَدَه، ولا يأكل متّكئًا، ويقتصّ من نفسه.

وكان ﷺ يقول: «إنما أنا عبد آكُلُ كما يأكل العبد، وأشرب كما يشرب، ولو دُعِيت إلى ذراعٍ لأجبتُ، ولو أهْدِى إلىَّ كُراع[٣] لقبلتُ».

ولم يأكل قطّ وحدَه، ولا ضرب عبدَه، ولم يُر عليه الصلاة والسلام أدار رجْلَه بين يدى أحَدٍ، ولا أخذ بيدِه أحدٌ فانتزع يَده من يده؛ حتى يكونَ الرجلُ هو الّذى يُرسِلها.

* * *

وأما كرمه ﷺ فى فتح مكّة، وقد قتلوا أعمامَه ورجالَه وأولياءه وأنصاره، وآذوْه وأرادوا نفسَه، فكان يتلَقّى السَّفَه بالحلم، والأذى بالاحتمال، وكان متى كان [لهم] أكرم وعنهم أصفَح كانوا ألأم وعليه ألحّ. والعجب أنهم كانوا أحلَمَ جيل إلاّ فيما بينهم وبينه، فإنهم كانوا إذا ساروا إليه أفحشوا عليه، وأفرَطوا فى السّفَه، ورمَوْه بالفَرْث والدماء، وألقَوْا على طريقه الشوك، وحَثَوْا فى وجهه التراب، وكان لا يتولّى هذا منه إلاّ العظماء والأخوال والأعمام، والأقرب فالأقرب، فإذا كانوا كذلك كانَ أشدَّ للغيظ، وأثبَت للحِقْد؛ فلما دخل عليه السلام مكّة قام فيهم خطيبًا، فحمد الله عزّ وجلّ وأثنى عليه، ثم قال: أقول كما قال أخى يوسف: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليومَ يغفرُ اللّهُ لَكُمْ وهو أرحمُ الراحمين﴾[٤].

* * *

وأما محاسن قوله فإنه ذكر زيدَ بنَ صُوحان فقال: «زيد وما زيد! يَسْبقه عضو منه إلى الجنة»، فقُطِعت يدُه يومَ نَهاوَنْد فى سبيل الله[٥].

ووعد أصحَابه بيضاءَ إِصْطَخْر، وبيضاء المدائن، وقال لعديّ بن حاتم: «لا يَمنعُك ما ترى – يعنى ضَعْفَ أصحابه وجَهدَهم – فكأنهم ببيْضاء المدائن قد فُتِحَتْ عليهم، وكأنهم بالظّعِينة تخرج من

---

(١) عذار: موضع بين الكوفة والبصرة.

(٢) الدرع: ثوب ينسج من زرد الحديد يلبس فى الحرب، يذكر ويؤنث.

(٣) الكراع: ما دون الركبة من الساق.

(٤) سورة يوسف ٩٢.

(٥) الخبر كما فى الاستيعاب ١٩٢: «روى من وجوه: أن النبى ﷺ. كان فى مسيرة له، فبينما هو يسير؛ إذ هوم؛ فجعل يقول: زيد، وما زيد! جندب وما جندب! فسئل عن ذلك فقال: رجلان من أمتى؛ أما أحدهما فتسبقه يده – أو قال بعض جسده – إلى الجنة يتبعه سائر جسده، وأما الآخر فيضرب ضربة يفرق بها بين الحق والباطل». قال ابن عبد البر: أصيبت يد زيد يوم جلولاء، ثم قتل مع على رضى الله عنه يوم الجمل».

الحِيرة حتى تأتىَ مكّة بغير خفير[١]؛ فأبصر ذلك كلّه عدِىّ[٢].

وقال لعمّار بن ياسر: «تقتُلُك الفئة الباغية»، فكان كما قال؛ حتى قال معاوية: إنما قَتَله من أخْرَجَه.

وضلّت ناقته ﷺ، فأقبل يسأل عنها، فقال المنافقون: هذا محمدٌ يخبرنا عن خبر السماء، وهو لا يدرى أين ناقتُه! فصعِد المنبرَ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إنَّ رجلاً يقول فى بيته: إن محمدًا يخبرنا عن خبر السماء، وهو لا يدرى أين ناقته! ألا وإنّى لا أعلمُ إلّا ما علّمنى ربّى عزّ وجلّ، وقد أخبرنى أنها فى وادى كذا وكذا، تعلّق زمامُها بشَجَرة». فبادر الناسُ إليها، وَفيهم زيد بنُ أرقم وزيد بن لصيب[٣] فإذا هى كذلك[٤].

ولما استأمن أبو سفيان بنُ حرب إليه عليه الصلاة والسلام، أمر[٥] عمَّه العباسَ أن يأخذه إلى خيْمته حتى يصبح، فلما صار فى قبَّة العبّاس نَدِم على ما كان منه، وقال فى نفسه: ما صنعت! دفعت بيدى هكذا؛ ألا كنتُ أجْمَعُ جمعًا من الأحابيش[٦] وكنانةَ وألقاه بهم، فلعلى كنتُ أَهزِمه! فناداه رسولُ الله ﷺ من خيمته: إذًا كان الله يخزيك يا أبا سفيان! فقال أبو سفيان: يا عبّاس، أدخلنى على ابن أخيك، فقال له العباس: ويلَك، يا أبا سفيان! ما آن لك ذلك! فأدخَلَه على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، قد كان فى النفس شىء؛ وأنا أشهد أن لا إله إلّا الله، وأنك رسول الله حقًا!

وقوله ﷺ لما يكون من بعده؛ ممّا حدّث به محمد بن عبد الرحمن بن أُذَينة، عن سليمانَ بن قيس، عن سلمان بن عامر، عن سلْمانَ الفارسىّ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى رأيت على منبرى هذا اثنىْ عشَرَ رجلاً من قريش يخطب كلّهم: رجُلان من ولد حَرْبَ بن أميّة، وعَشَرة من ولد أبى العاص بن أميّة»، ثم التفت إلى العباس، وقال: «هلاكُهم على يَدىْ ولدِك».

* * *

وأما جَمالُه وبهاؤه ومحاسنُ ولادته ﷺ، فما روى عن عثمان بن أبى العاص، قال: أخبرتْنى أمِّى أنّها حضرتْ آمنةَ أمَّ النبى ﷺ لمّا ضربها المخاض، قالت: جعلتُ أنظر إلى النجوم تتدلّى حتى قلت: لتقَعنّ علىَّ؛ فلما وضعتْه خرج منها نورٌ أضاء له البيت والدّار، حتى صرتُ لا أرى إلا نورًا. قالت: وسمعتُ آمنة تقول: لقد رأيت وهو فى بطنى أنّه خرج منّى نورٌ أضاءت له قصورُ الشام، ثم ولُد ﷺ، فخرج معتمدًا على يديه، رافعًا رأسه إلى السماء كأنه يخطب أو يُخاطِب.

---

(١) ك: «حقير». تصحيف، وفى الإصابة: «بغير جوار».

(٢) وانظر الخبر برواية أخرى فى الإصابة ٢: ٤٦١.

(٣) لصيب، ضبطه ابن حجر فى الإصابة، بلام مهملة ومثناة مصغرًا».

(٤) الخبر فى الإصابة ١: ٥٥٤.

(٥) ك: «أتى».

(٦) أحابيش قريش؛ سموا بذلك لأنهم تحالفوا بالله، أنهم ليد على غيرهم؛ ما سجا ليل، ووضح نهار، وما رسا حبشى. وحبشى: جبل بأسفل مكة.

ورُوى عن أنس بن مالك، قال: كان رسول الله ﷺ أشجعَ الناس، وأحسنَ الناس، وأجوَدَ الناس، ما مَسَسْتُ بيدى ديباجًا ولا حريرًا ولا خَزًّا، ألْيَنَ من كفّ رسول الله ﷺ.

وعن جابر بن سَمْرَة، قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ فى ليلة البدر وعليه حُلّة حمراء، فجعلت أنظر إليه وإلى القمر، فلهُو أحسنُ فى عينىّ من القمر.

وعن جابر بن زيد، عن أبيه، قال: أتيت النبىّ ﷺ فى مسجد الخَيْف[1]، فناولنى يدَه، فإذا هى أطيَبُ من المِسك، وأبرد من الثّلج.

و [من][2] فضله الّذى أبرَّ به على جميع الخلائق ومحاسنه ما رُوى عن وهب ابن منبِّه أنه قال: لمّا خلق الله عزّ وجلّ الأرض ارتجّت واضطربت، فكتب فى أطرافها: «محمدٌ رسول الله»؛ فسكنتْ.

* * *

[وأمّا][3] عقلُه عليه الصلاة والسلام، فقد رُوِى أن عقول جميع الخلائق من الأوّلين والآخرين فى جَنْب عَقْل رسولِ الله ﷺ، كرمْلة من بين جميع رمالِ الدنيا.

* * *

ومن محاسنه ﷺ الإسراء، وهو ما رُوى عن الحسن بن أبى الحَسن البصرىّ – رحمه الله – يرفعه، قال: قال رسو ل الله ﷺ: إنّى لنائم فى الحِجْر إذ جاء جبريل عليه السلام، فغَمَزنى[4] برجله، فجلستُ فلم أر شيئًا، ثم عدتُ لمضْجَعى، فجاءنى الثانية فَغَمَزنى، فجلست وأَخذ بَعضُدى، فخرج بى إلى باب الصَّفَا، وإذا أنا بدابّة أبيضَ بين الحمار والبَغْل، له جناحان فى فخذَيْه، يضع حافَره منتهَى طَرفِه، فقال لى جبريل: أركبْ يا محمد، فدنوتُ إليه لأركب، فتنحَّى عنّى، فقال له جبريل عليه السلام: يا براقُ مالك! فوالله ما ركِبَكَ خيرٌ منه قطّ. فركبتُ وخرجتُ ومعى صاحبى لا أفوته ولا يفوتُنى؛ حتى انتهى بى إلى بيت المقدس. فوجدتُ فيه نفرًا من الأنبياء قد جُمعوا لى، فأممتهم، ثم أُتِيت بإناءَيْن من خَمْر ولبن فتناولتُ اللبنَ وشربتُ منه وتركت الخمرَ. فقال جبريل عليه السلام: هُدِيتَ وهُدِيَتْ أمّتُك، وحُرّمت عليهم الخمر. ثم أصبحت بمكّة. قال: فلمّا ذكر رسولُ الله ﷺ ذلك، ارتدّ كثيرٌ ممن كان آمنَ به، وقالوا: سبحان الله! أَذَهب محمدُ إلى الشام فى ساعةٍ من الليل ثم رجع والعِير تطرِد شهرًا مدبرة وشهرًا مُقبلة! فبلغ ذلك أبا بكر رضى الله عنه، فأقبَلَ حتّى جلس بين يدىْ رسولَ الله ﷺ. فقال: يا رسول الله، ما يقول هؤلاء! يزعمون أنّك حدّثتهم بأنّك قد أتيت الشام هذه الليلةَ ورجعتَ من ليلتِك؛ قال: قد كان ذلك؛ قال: يا رسول الله؛ فصف لى المسجد، قال: فجعلتُ أصفُه لأبى بكر وأنا أنظر إليه. فكلّما حدّثتُه عن شىء قال: صدقتَ. أشهد أنك رسولُ الله! حتى فرغتُ من صفته. فقال رسولُ الله ﷺ يومئذ: «فأنت الصِّديق يا أبا بكر»!

---

(١) الخيف: موضع فى منى.
(٢) زيادة يقتضيها السياق.
(٣) زيادة يقتضيها السياق.
(٤) فى ابن هشام: «فهمزنى».

محاسن المعراج

عبدة بن[1] سلمان، عن سعيد بن أبي عَروبةَ[2]، عن قتادة، عن أنس بن مالك، قال: أخبرنا نبي الله ﷺ، قال: بينا أنا بين اليَقْظان والنائم عند البيت؛ إذْ سمعتُ قائلًا يقول: أحدُ الثلاثة بين الرجلين. فانطلق بي فشرح صدرى، واستخرج قلبى، ثم أُتيتُ بِطَسْت من ذهب؛ فيه من ماء زمزم، فغُسِل به، ثم أعيدَ مكانَه، وحُشِى إيمانًا وحكمة، ثم أُتيتُ بدابّة فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند أقصى طرفه، فحُمِلتُ عليه، فانطلقنا حتى أتينا السماءَ الدّنيا، فاستفتح جبريلُ، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل؛ قيل: ومَنْ معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: نعم؛ ففَتح لنا، قالوا: مرحبًا به! ولَنِعْمَ المجىء جاء! فأُتيتُ على آدم، فقلتُ له: يا جبريل، مَنْ هذا؟ قال: هذا أبوك آدم، فسَلَّمتُ عليه، فقال: مرحبًا بالابن الصالح والنبىّ الصالح! وانطلقنا حتى أتَيْنا السماءَ الثانية، فاستفتَح جبريل عليه السلام، فقيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريل؛ قيل ومنْ معك؟ قال: محمد؛ قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: نعم. ففتح لنا؛ وقالوا: مَرْحبًا به؛ ولنعم المجىء جاء! فأتيت على يحيى وعيسى، فقلت: يا جبريل، من هذان؟ قال: عيسى ويحيى؛ قال: فسلّمت عليهما. فقالا: مرحبا بالأخ الصالح والنبىّ الصالح! ثم انطَلَقْنَا حتى أتينا السماء الثالثة؛ فكان مثل قولهم الأوّل. فأتيت على يوسفَ فسلَّمتُ عليه فقال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبىّ الصالح! ثم انطلقنا حتى أتيْنا السماء الرابعة، فأتيت على إدريس عليه السلام. فسلّمت عليه، فقال: مرحبًا بالأخِ الصالح والنبىّ الصالح! ثم أتينا السماءَ الخامسة. فأتيت على هارون، فسلّمت عليه، فقال مثل ذلك؛ ثم أتينا السماءَ السادسةَ، فأتيتُ على موسَى عليه السلام، فقال مثلَ ذلك. ثم أتينا السماء السابعةَ فأتيت على إبراهيمَ عليه وعلى آله السلام فقال: مرحبًا بالابن الصالح والنبىّ الصالح! ثم رُفِع لنا البيتُ المعمور، فقلت: يا جبريل، ما هذا؟ قال: البيت المعمور، يدخله كلّ يوم سبعون ألفَ مَلَك. إذا خرجوا منه لا يعودون فيه. ثم رُفعتْ لنا سِدْرةُ المُنتهى، فإذا أربعة أنهرٍ يخرجن من أسفلها، فقلتُ: يا جبريل، ما هذه الأنْهار؟ قال: أما النهران الظاهران؛ فالنيل والفرات. وأما الباطنان فَنَهران فى الجنّة، ثم أُتيتُ بإناءَين من خمر ولبن، فاخترت اللبن، فقيل لى: أصبتَ! أصاب الله بك أمَّتك على الفِطْرة. وفرضت علىَّ خمسون صلاة. فأقبلت بها حتى أتيت علىٰ موسى عليه السلام، فقال: بِمَ أُمِرْتَ؟ قلت: بخمسين صلاة كلّ يوم، قال: أمّتُك لا يطيقون ذلك؛ فإنى قد بلوتُ الناس قبلك وعالجتُ بنى إسرائيل أشدَّ المعالجَة؛ فارجع إلى ربّك عز وجلّ فاسأله التخفيف؛ قال: فرجعتُ إلى ربّى؛ فحطَّ علىّ خَمسا. فأتيت على موسى عليه السلام فقال: بم أُمِرْتَ؟ فأنبأته بما حطَّ عنى، فقال

---

(١) ل، «ابن أبى سليمان»، والصواب ما أثبته من ك؛ وانظر ترجمته فى طبقات الحفاظ ١: ٢٨٦.

(٢) ورد الاسم فى الأصلين مصحفًا، والصواب ما أثبته، وانظر ترجمته فى طبقات الحفاظ ١: ١٦٧.

مثل مقالته الأولى. فما زلتُ بين يديْ ربّى جلّ وعزّ أستحِطّ حتى رجعتْ إلى خمس صلوات فأتيت على موسى عليه السلام فقال: بمَ أمِرْتَ؟ فقلت: بخمس صلوات كلّ يوم، قال: أمّتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربّك جلّ ذكره واسأله التخفيف؛ فقلت: رجعت إلى ربى تبارك وتعالى حتى استَحيَيْت، لا ولكنّى أرضَى وأسلّم، فلما جاوزتُ نوديتُ: إنى قد خفّفت عن عبادى وأمضيت فريضتى، وجعلتُ بكلّ حسنة عشرًا أمثالَها.

* * *

وانظر إلى رَوْنَق ألفاظه عليه السلام وصحّةِ معانيه وموضِع ذلك من القلوب، مع قلّة تعمقه وبُعدِه عن التكلّف، كقوله ﷺ «زُوِيت لى الأرض؛ فأُريتُ مشارقَها ومغاربَها، وسيبلغ مُلك أمّتى مازُوِى لى منها»[(١)].

قوله: «زويت»؛ جُمِعَت.

ومثله: «إن المسجد لينزَوِى من النُّخامة كما تنزوى الجِلْدة فى النار»[(٢)].

ولا يكون الانزواء إلا بانحراف مع تقبّض.

وقال: «إن منبرى هذا على تُرْعة من تُرَع الجنّة»[(٣)].

وهى لروضة تكون فى المكان المرتفع».

وقال: «إنّ قريشًا قالت: إنى صُنبور»[(٤)]. وهى النخلة تبقَى منفردة ويَدِقّ أصلُها، تقول: إنه فَرْدٌ ليس له ولد، فإذا مات انقطع ذكره.

وقال فى أبى بكر رضى الله عنه: «ما أحدٌ من الناس عرضتُ عليه الإسلام إلّا كانت له كَبْوة غير أبى بكر فإنه لم يتلعْثَم»[(٥)]. أى لَم ينتَظر ولَمْ يمكُث، والكَبْوَة مِثلُ الوقعة.

وقال فى عمر رحمه الله: «لم أر عبْقريًّا يَفْرى فَرِيَّهُ»[(٦)]. والعبقرىّ: السيّد، يقال: هذا عبقرىّ قومه؛ أى سيّدهم. ويفرى فريّه، أى يَعمَل عملَه.

وقال فى علىّ بن أبى طالب رضوان الله عليه: «إن لك بيتًا فى الجنة، وإنك ذو قَرْنَيْها». يريد أنه ذو طرَفَيْها.

وقال فى الحسين بن علىّ رحمهما الله، حين بالَ عليه وهو طفل، فأُخِذ من حِجْره: «لاتُزْرِمُوا ابنى»[(٧)].

---

(١) ابن ماجة ٢: ١٣٠٤، واللسان ١٩: ٨٣، والنهاية ٢: ١٣٥ مع اختلاف فى الروايات.

(٢) النهاية فى: ١٣٥، وقال فى شرحه: «أى ينضم وينقبض، وقيل أهل المسجد وهم الملائكة».

(٣) النهاية ١: ١١٣، ونقل عن ابن قتيبة: «معناه أن الصلاة والذكر فى هذا الموضوع يؤديان إلى الجنة؛ فكأنه قطعة منها».

(٤) النهاية ٣: ٢، وقال فى شرحه: «وأصل الصنبور سعفة تنبت فى جذع النخلة لا فى الأرض. وقيل: وهى النخلة المنفردة التى يدق أسفلها، أرادوا أنه إذا قلع انقطع ذكره، كما يذهب أثر الصنبور لأنه لا عقب له».

(٥) النهاية ٤: ٦.

(٦) النهاية ٣: ١٩٩؛ قال، ويروى: «فريه» بسكون الراء والتخفيف.

(٧) النهاية ٢: ١٢٤.

الإزرام: القَطْع، يقال للرجل يقطع بوله: أُزْرَم.

وقال فى الأنصار: «إنهم كَرِشى وعَيْبتى، ولولا الهجرة لكنتُ أمرءًا منهم»[١].

أى من الأنصار. الكَرِش: الجماعة. والعيبة، أى هُم موضع سِرِّى، ومنه أخِذت العَيْبة.

وقال ﷺ: «لعن الله النامصة والمتنمِّصة، والواشِرَة والمُوتَشِرَة، والواصِلَة والمستوصلة[٢]، والواشِمة والموتشمة»[٣].

فالنامصة: التى تنتف الشعر من الوجه، ومنه قيل للمِنقاش: المنماص. والمتنمِّصَة التى يُفعل بها ذلك. والواشرة: التى تشر أسنانَها، وذلك أنَّها تفلِّجها. وتحدِّدها حتى يكون لها أُشُر؛ والأُشُر: تحدُّدٌ ورِقَّة فى أطراف الأسنان. [والموتشرة: التى تأمر من يفعل بها ذلك]، والواصلة: التى تصل شعرَها بشعر غيرها والمستوصلة: التى تأمر من يفعل بها ذلك[٤]. والواشمة: المرأة تَغرز ظَهرَ كفِّها ومِعْصمِها بإبرة حتى تؤثر فيه، وتحشُوه بالكُحْل. [والموتشمة التى يفعل بها ذلك][٤]

وذكر أيام التشريق فقال: «هى أيَّامُ أكْل وشُرْب وبعال»[٥]. يعنى النكاح.

وقال: «يُحْشَر الناس يومَ القيامة حفاة بهما»[٦].

وهو البهيم الذى لا يخالط لَوْنَهُ لونٌ سواه، من سواد كان أو غيره، يقول: ليس فيهم شىء من الأمراض والعاهات التى تكون فى الدنيا.

وقال فى صُلْح الحديبية: لا إغلال ولا إسلال»[٧]

والإسلال: السّرقة، والإغلال: الخيانة.

وقال: «اللهمّ إنى أعوذ بك من وَعثاء السَّفَر وكآبة المنقلَب، والحَوْر بعد الكَوْر» - الحوب[٨] إذا كان بالباء، والكَوْنُ إذا كان بالنون، تقول: يكون فى حالة جميلة فيرجع عنها، وإذا كان جميعًا بالراء فهو النُّقصان بعد الزيادة[٩].

وقال ﷺ: «خمِّروا آنِيَتكم، وأَوْكُوا أسقيتكم، وأَجِيفوا الأبواب[١٠]. وأطفئوا المَصابيح، واكْفِتُوا صبْيَانكم، فإن للشيطان انتشارًا وخَطْفة»، يعنى بالليل.

التخمير: التغطية. والإيكاء: الشَّدُّ، واسم الخَيْط الذى يشد به السِّقاء الوِكاء. واكْفِتُوا: يعنى ضُمُّوهم إليكم.

---

(١) النهاية ٣: ١٤٢، ٤: ١٥.

(٢) كذا فى النهاية واللسان.

(٣) النهاية ٤: ١٧٧، ٢١٢، ٢١٤.

(٤) تكملة من النهاية واللسان.

(٥) النهاية ١: ٨٦.

(٦) النهاية ١: ١٠١.

(٧) النهاية ٣: ١٦٨. وقال: «وقيل: الإغلال لبس الدروع والإسلال: سل السيوف».

(٨) النهاية ١: ٢٦٩.

(٩) قال فى النهاية: «وأصله من نقض العمامة بعد لفها».

(١٠) النهاية ١: ٣٢٠، ٤: ٢٥، ٢٢٩.

وقال فى دعائه: «لا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ»[١].

الجَدّ بفتح الجيم: الغنى والحظّ فى الرزق، ومنه قيل: لفلان فى هذا الأمر جَدّ، إذا كان مرزوقا.

وقال: «إن رُوح القُدُس نَفَث فى رُوعِى؛ أنّ نفْسًا لا تموتُ حتى تستوفَى - أو تستكملَ - رزقَهَا، فاتّقوا الله وأجملوا فى الطَّلَب»[٢].

قوله: «نفثَ فى رُوعى»، بضم الراء؛ النَّفْث شبيه بالنَّفْخ. ورُوعى، يقول: فى خَلَدِى.

وقال ﷺ: «صُومُوا لرؤيته، وأفْطِروا لرؤيته، فإن حال بينَكم[٣] وبينَه سحابٌ أو ظُلمةٌ أو هَبْوَة، فأكمِلوا العدّة»[٤].

هَبْوة، يعنى غُبْرة.

وقال ﷺ: «إن العرش على مَنكبِ إسرافيل، وإنه ليتواضع لله جلّ وعزّ حتى يصير مثل الوَصَع»[٥].

الوَصَع: ولد العصافير[٦].

وقال ﷺ حين سئل: أين كان ربُّنا جلَّ جلاله قبل أن يَخلُقَ السموات والأرَضين؟ فقال: «كان فى عماءٍ تحته هواء»[٧].

العَماء: السحاب.

وقال ﷺ: «عمُّ الرجلِ صِنْوُ أبيه[٨]».

يعنى أنّ أصلَهما واحد، وأصل الصِّنْو إنما هو فى النَّخْل، قال الله عز وجلّ: ﴿صِنْوَانٌ وغيرُ صِنْوانٍ﴾[٩]، الصنوان المجتمِع، وغير الصنوان المتفرِّق.

وقال: «مَن تعلّم القرآن ثم نَسِيه لقى الله عزّ وجلّ وهو أجذَم»[١٠]. أى مقطوعُ اليد.

وقال لرجل أتاه، وقال: يا رسول الله، أيُدالك الرجلُ امرأتَهُ بمَهْرِها؟ قال: لا، إلّا أن يكون مُلْفَجًا»[١١]؛ فقال له أبو بكر رضى الله عنه: بأبى وأمّى أنت يا رسول الله! إنما نشأتَ فيما بيننا، ونحن قد سافرْنا وأنت مقيم، فنراك تتكلّم بكلام لا نعرفه ولا نفهمه! فقال صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم «إنّ الله جلّ وعزّ أدَّبنى وأحسنَ أدبى، وهذا الرجل كلّمنى بكلامه فأجبتهُ على حَسَبِه».

قال: أيُدالِك الرجل امرأته بمَهْرِها، أى يُماطِلُها. فقلت: لا، إلّا أن يكون مُلْفَجًا، أى مُعْدِمًا.

* * *

(١) النهاية ١: ٤٧، وقال فى معناه: «لا ينفع ذا الغنى منك غناء، وإنما ينفعه الإيمان والطاعة».

(٢) النهاية ٤: ١٦٠.

(٣) فى الأصلين «بينك»، والصواب ما أثبته من نهاية ابن الأثير.

(٤) النهاية ٤: ٢٣٨.

(٥) النهاية ٤: ٢١٦.

(٦) النهاية: هو طائر أصغر من العصفور، والجمع صيعان.

(٧) النهاية ٣: ١٣٠.

(٨) النهاية ٣: ٣.

(٩) سورة الرعد ٤.

(١٠) النهاية ١: ١٥١.

(١١) النهاية ٢: ٢٩، ٤: ٦٢.

فكلامه ﷺ وأخلاقه ومذاهبُه، تدلّ على أنه موافق لقول الله جلّ وعز: ﴿الله أعْلَمُ حيثُ يجعلُ رسالتَهُ﴾[١]. ولقوله: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْم عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[٢]. وقال جلّ ذكره: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ﴾[٣]. فلمّا علم أنه قد قبل أدبه قال: ﴿وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيم﴾[٤]. فلمّا استحكم له ما أَحَبَّ قال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرسولُ فخُذُوهُ وَمَا نهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[٥].

(١) سورة الأنعام ١٢٤.
(٢) سورة الدخان ٣٢.
(٣) سورة الأعراف ١٩٩.
(٤) القلم ٤.
(٥) سورة الحشر ٧.

مسَاوئ منْ تنبّأ

روىَ أن مُسَيْلمةَ بنَ حبيب الكذّاب، كَتب إلى رسول الله ﷺ، وذلك فى آخر سنة عَشْر:

«منْ مُسَيْلِمةَ رسول الله إلى محمد رسول الله أمّا بعدُ، فإنّى قد شُوركتُ[1] فى الأمر معك، وإنّ لنا نصفَ الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكنَّ قريشًا قوم يعتدُون». فقدِم عليه رسولان من قِبَل مُسَيْلَمةَ بهذا الكتاب، فقال: «أما والله لولا أن الرسل لا يُقتَلون لضربتُ أعناقَكما»[2]. ثم كتب: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى مسيلمةَ الكذّاب؛ السّلام[3] على من اتّبع الهدى. أما بعدُ، فإنّ الأرض لله يُورِثها مِن عباده من يشاءُ والعاقبة للمتقين»[4].

قيل: وأتاه الأحنفَ بن قيس مع عمّه، فلما خرجا من عنده، قال الأحنف لعمّه: كيف رأيته؟ قال: ليس بمتنبِّىء صادق، ولا بكذّابٍ حاذق.

* * *

ومنهم طُليحة، تنبّأ على عهد رسول الله ﷺ، وكان يقول: إنّ ذا النُّون[5] يأتيه، فقال النبىّ ﷺ: لقد ذكر مَلَكا عظيمًا، فلمّا كان أيّام الرِّدَّة بعث أبو بكرٍ – رحمة الله عليه – خالد بنَ الوليد إليه، فلما انتهى إلى عسكره[6] وجده قد ضُربتْ له قُبَّةٌ مِن أَدَم، وأصحابُه حولَه، فقال: لِيخرجْ إلىَّ طُلَيحة، فقالوا: لا تُصغِّر نبيًّا هو طَلْحة. فخرج إليه، فقال خالد: إن مِنْ عَهْدِ خليفتِنا أن يَدْعُوَك إلى الله وحدَه لا شريك لَهُ وأن محمدًا عبدُه ورسولُه. فقال: يا خالد، أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنّى رسول الله! فلمّا سمع خالد ذلك انصرفَ عنه، وعسْكَرَ بالقرب منه على مِيل.

فقال عُيينة بن حصن لطليحة: لا أبالَك! هل أنت مُرِينَا بعض نبوَّتك؟ قال: نعم، وكان قد بعث عيونًا له حين سار خالد من المدينة مُقْبلًا إليهم، فعرَّفوه خبرَ خالد، فقال: «لئن بعثتم فارسَيْن، على فرسَين أغرَّيْن محجَّلَين، من بنى نصر بن قُعين، أتَوْكُم من القوم بعَيْن». فَهيّئوا فارسين فبعثوهما، فخرجا يركُضان، فلقيا عَيْنًا لخالِد مُقْبلا إليهم، فقالا[7]: ما خبر خالد؟ أو قالا: ما وراءَك؟ قال: هذا خالد بنُ الوليد فى المسلمين قد أقبل، فزادهم فتنةً وقال: ألم أقل لكم! فلمّا كان فى السَّحَر نهَض

---

(١) الطبرى: «أشركت».

(٢) فى إحدى روايات الطبرى عن نعيم: «سمعت رسول الله ﷺ يقول لهما حين قرأ كتاب مسيلمة: فما تقولان أنتما؟ قالا: نقول كما قال. فقال: أما والله» وساق بقية الخبر.

(٣) الطبرى: «سلام».

(٤) الخبر فى تاريخ الطبرى ٣: ١٦٦، ١٦٧، وهو أيضًا فى ابن الأثير ٢: ٢٠٤، ٢٠٥، وذكر بعده: «وقيل أن دعوى مسيلمة وغيره النبوة كانت بعد حجة الوداع ومرضته التى مات فيها، فلما سمع الناس بمرضه وثب الأسود العنسى باليمن، ومسيلمة باليمامة، وطليحة فى بنى أسد».

(٥) ابن الأثير: «جبريل».

(٦) ل: «مسكنه».

(٧) فى ك، ل: «وقالا».

خالِد إلى طليحة فيمن معه من أصحاب رسول الله ﷺ، فلما التقى الصَّفَّان تَزَمَّل[١] طليحةُ فى كِساء له ينتظر زَعْم الوَحْى، فلما طال ذاك على أصحابه، وألحَّ عليهم المسلمون بالسيف، قال عيينةُ بْن حِصْن: هل أتاك بعد[٢] قال طليحةَ مِن تحت الكساء: لا، والله ما جاء بعد، فقال عُيينة: تبًّا لك آخر الدهر! ثم جذبه جَذبةً جاش[٣] منها، وقال: قبَّحَ الله هذه مِن نبوّة! فجلس طليحة، فقال له عيينة: ما قيل لك؟ قال قيل لى: «إن لك رَحًا كرحاه، وأمْرًا لا تَنْساه»؛ فقال عُيينة: قال علم الله جلّ وعزّ أن سيكونُ لك أمرٌ لا تَنْساه؛ هذا كذّاب ما بورك لنا ولا لَه فيما يطالب. ثم هرب عيينَةُ وأخوه فأدركوه وأسَروهُ، وأفلت أخوه، وخرج طُلَيْحة منهزمًا، وأسلمه شيطانُه حتّى قدِم الشام، فأقام عند بنى جَفْنة الغسَّانيين حتى فتح الله عزّ وجلّ أجْنادِين[٤] وتوفى أبو بكر وأسلم طُلَيحة إسلامًا صحيحًا، وقال:

وإنّى من بَعد الضلالـة شاهـدٌ　　شهادةَ حق لست فيها بملحِدِ[٥]

[الطويل]

ومنهم من تنبَّأ بعدُ فى أيام الرشيد، رجل زعم أنّه نوح، فقيل له: أنت نوح الذى كان، أم نوح آخر؟ قال: أنا نوحٌ الّذى لَبِثَ فى قومه ألفَ سنة إلّا خمسين عامًا، وقد بُعِثتُ إليكم لأَفِى الخمسين عاما، تمامَ الألف سنة. فأمر الرشيد بضْربه وصَلبه، فمرَّ به بعض المخنَّثين وهو مصلوبٌ، فقال صلى الله عليك: يا أبانا! ما حصَل فى يَدِك من سفينتك إلّا دَقَلُها! وهو الذى يكون فى وسط السفينة كجِذْع طويل[٦].

* * *

ومنهم رجل تنبّأ فى أيام المأمون، فقال للحاجب: أبلغ أميرَ المؤمنين أن[٧] نبىّ الله بالباب. فأذن له، فقال ثمامة: ما دليل نبوّتك؟ قال: تحْضر لى أمّك فأواقعها[٨] فتَحمِل من ساعتها، وتأتى بغلام مثلك. فقال ثمامة: صلّى الله عليك أيّها النبى ورحمة الله وبركاته[٩]، أهْونُ علىّ من إحضارك أمّى ومواقعتِها[١٠].

---

(١) تزمل: تلفف.

(٢) الطبرى: «هل أتاك جبريل بعد».

(٣) جاش: هاج واضطرب.

(٤) أجنادين: موقع بالشام من نواحى فلسطين؛ كانت به الوقعة المشهورة بين المسلمين والروم؛ قال ياقوت: «وكانت لاثنى عشر ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة، قبل وفاة أبى بكر رضى الله عنه بنحو شهر».

(٥) انظر تاريخ الطبرى٣: ٢٢٧، وتاريخ ابن الأثير ٢: ٢٣٢.

(٦) العقد لابن عبد ربه ٦: ١٤٧.

(٧) ك: «أنى».

(٨) فى العقد: «تحضر لى ياثمامة امرأتك أنكحها بين يديك فتلد غلامًا ينطق فى المهد يخبر أنك نبى».

(٩) العقد: «فقال ثمامة: أشهد أن لا إله إلّا الله وأنك رسول الله، فقال المأمون: ما أسرع ما آمنت به! قال: وأنت يا أمير المؤمنين، ما أهون عليك أن تتناول امرأتى على فراشك!».

(١٠) العقد ٦: ١٤٨.

محاسن أبي بكر الصديق
رضوان الله عليه ورحمته

روى عن ابن عمر رضى الله عنهما؛ قال: دخل رسول الله صلّى الله عليه وسلم المسجد، وأبو بكر عن يمينه وعمرُ عن شِمَاله، فقال: «هكذا نبعثُ يوم القيامة».

وقال ﷺ: «إنَّ الله تبارك وتعالى أيّدنى من أهل السماء بجبريل وميكائيل، ومن أهل الأرض بأبى بكر وعمر»، ورآهما مقبلين فقال: «هذان السمعُ والبصر».

ورُوِى عن ابن عمرَ رضى الله عنهما أنه قال: لو وُزن إيمانُ أبى بكر بإيمان أهلِ الأرض لرَجح بهم.

ورُوِى عن عمر رضى الله عنه أنه قال: أمر رسولُ الله ﷺ بالصَّدقة، ووافق ذلك مالاً عندى، فقلت: اليومَ أسبقُ أبا بكر إن سبقتُه، فجئتُه بنصف مالى، فقال رسول الله ﷺ «ما أبقيتَ لأهلك؟» قلت: النِّصف. وجاء أبو بكرٍ بكلِّ مالِه، فقال له النبىُّ ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» قال: الله حقًّا ورسولَه؛ فقلت: والله لا أُسبقُك إلى شىء أبدًا.

وعن عمرَ رضى الله عنه أنه قال: «وددت أنى شَعرةٌ فى صَدْر أبى بكر» رضى الله عنه.

وعن عطاء، عن أبى الدَّرداء، أنه مشى بين يدىْ أبى بكر رضى الله عنه، فقال له رسول الله ﷺ: «أتمشى[1] بين يدىْ من هو خيرٌ منك؟ ما طلعت الشمس ولا غَرَبَتْ بعد النبيِّين والمرسلين على أحدٍ أفضلَ من أبى بكر»[2].

وعن علىّ بن أبى طالب رضوان الله ورحمته عليه، قال: قال النبىّ ﷺ: «يا علىّ، هل تحبُّ الشَّيْخَيْن؟»، قلت: نعم يا رسولَ الله، قال «لا يجتمع حُبُّك وحبُّهما إلاّ فى قلب مؤمن».

وعن أبى أُمامة الباهلى، قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله أبا بكر! زَوَّجنى ابنته، وحَملنى إلى دار الهجرة، وعتق بلالاً من مالِه».

وعن أنس، عن أبى بكر رضى الله عنه، قال: قلت للنبى صلى الله عليه وسلّم ونحن فى الغار: لو أنَّ أحَدَهم نظر فى قَدَمَيْه لأبصرَنا! فقال: «يا أبا بكر، ما ظنك، باثنين، الله جلّ وعزّ ثالثهما!».

وعن أبى سعيد الخدْرىِّ رضى الله عنه، قال: خرج علينا رسول الله فى مرضه الذى مات فيه، وهو عاصبٌ رأسه حتى صَعد المنبر فقال: «إنى قائمٌ الساعة على الحوض، وإن عبدا عرضت عليه

---

(١) ط: «المشى»؛ تحريف.

(٢) الحديث فى الرياض النضرة ١: ٩١، مع اختلاف فى الرواية.

الدنيا وزينتها، فاختار الآخرة». فلم يفطن لها أحد إلا أبو بكر رضى الله عنه، فقال: بأبى أنت وأمىّ! بل نفديك بآبائنا وأبنائنا، وأنفسنا وأموالنا! وبكى، فقال: «لا تبك يا أبا بكر، إن من آمنِ الناسِ على فى صحبته ومالِه أبا بكر، ولو كنت متخذا خليلاً من الناس لاتخذت أبا بكر، ولكن أخى فى الإسلام، لا يبقى فى المسجد بابٌ إلا باب أبى بكر»، فبكى أبو بكر وقال: أنا ومالى لك يا رسول الله.

وعن أبى المنكدر، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم «دعوا لى صاحبى! إنى بُعثتُ وقال الناس كلّهم: كذبت، وقال لى: صدقتَ» يعْنى أبا بكر رضى الله عنه.

وعن محمد بن عُبيد، عن إسماعيل بن أبى خالد، عن قيس بن أبى حَازم، قال: بعث رسول الله ﷺ عمرو بنَ العاص فى غزوةِ ذاتِ السَّلاسل[1]، فجاء وقد ظهر، فقال: يا رسول الله أيُّ الناس أحَبُّ إليكَ؟ قال: «عائشة»، قال: لستُ أسألُكَ عن النساء. قال: «إذًا أبوها، أبو بكر».

وعن الحسن، قال: قال رسول الله ﷺ: «يجىء يومَ القيامة رجلٌ إلى باب الجنّة، ليس منها باب إلاّ وعليه مَلَك يهتِف به: هلُم هلمَّ ادخُل! فقال أبو بكر رضى الله عنه: إنَّ هذا لسعيد، قال: «هو ابن أبى قحافة».

وعن سليمان بنِ يسار، إنّ رسول الله ﷺ، قال: «فى المؤمن ثلاثمائة وستّون خَصْلةً من الخير، إذا جاء بواحدةٍ دخل الجنة» قال أبو بكر رضى الله عنه: بأبى أنت وأمىّ! أفِىَّ منها شىء؟ قال: «هى كلها فيك يا أبا بكر».

وعن ابن عمرَ رضى الله عنه، قال: بينا النبىُّ ﷺ جالس وعنده أبو بكر رضى الله عنه، وعليه عَباءة قد خَلّها[2] فى صدره بخِلال، إذ نزل عليه جبريلُ عليه السلام فقال: يا رسول الله، مالى أرى أبا بكر عليه عباءَةٌ قد خَلَّها فى صدره؟ قال: أنفَقَ ماله علىّ قبل الفَتْح»، قال: فأقرئه من الله عزّ وجلّ السلام وقل له: يقول لك ربُّك تبارك وتعالى: «أراض أنت عنّى فى فقرك أم ساخط؟»، فقال أبو بكر: أعلَى رَبِّى أغضَب! أنا عن ربّى راضٍ[3].

وعن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه، قال: كنتُ جالسًا عند النبى ﷺ، إذ طلع أبو بكر وعمر رضى الله عنهما، فقال ﷺ: «وهذان سيّدَان كُهول أهل الجنة من الأوّلين والآخِرين، ممَن مضى، وممَن بقى، إلاّ النبيّين والمرسلين. لا تُخْبرهما ياعلىّ».

وعن جابر، قال: كنت مع رسول الله ﷺ،فسمعته يقول: «يطلع علينا من هذا الفَجّ[4] رجل من أهل الجنة»، فطلع أبو بكر رضى الله عنه، ثم قال: «يَطلعُ علينا من هذا الفَجّ رجل من أهل

---

(١) السلاسل: ماء بأرض جذام؛ وبه سميت الغزوة، كانت سنة ثمان. ابن الأثير ١: ١٥٦.

(٢) ك: «خللها».

(٣) الرياض النضرة ١: ١٣٤.

(٤) الفج: الطريق الواسع بين جبلين.

الجنّة»، فطلع عمر رضى الله عنه، ثم قال: «يَطلعُ علينا من هذا الفَجّ رجل من أهل الجنّة، اللهم اجعله عليًّا»، فطلع عليٌّ رضى الله عنه.

وعن ابن عبّاس، قال: قال أبو بكر: يا رسول الله، ما أحسن هذه الآية؟ قال: أيّتها؟ قال: قوله تبارك وتعالى: ﴿يأيّتها النفس المطمئنة، ارْجِعى إلَى ربِّكِ رَاضِية مَرْضِية، فادخلى فى عبادِى، وَادْخُلِى جَنَّتى﴾[1]. فقال يا أبا بكر، إن الملك سيقولُها لك.

وقيل: إنه لما أسلم أبو قُحافة، لم يعلم أبو بكر رضى الله عنه بإسلامه حتى دخل على النبىّ ﷺ، فقال: ألا أبشِّرُك يا أبا بكر بما يسرك؟»، قال: مثلك يا رسول الله من يُبشر بالخير، فما هى؟ قال: «أسلم أبو قحافة»، قال: يا رسول الله، لو بشرتنى بإسلام أبى طالب كان أقَرَّ لعينى فإنه أقرُّ لعينك! فبكى رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم حتى علا بكاؤه جزعًا لما فاته من إسلام أبى طالب، وقال: «رحمك الله يا أبا بكر!» ثلاثًا.

---

(١) سورة الفجر ٢٧ – ٣٠.

محاسن عمر بن الخطاب
رضوان الله عليه ورحمته

عن أبي هريْرة رحمه الله، قال: قال النبى صلّى الله عليه وسلم: «بيْنا أنا نائمٌ، إذ رأيتُنى على قليب[١]، وعليها دَلْو، فنزعتُ ما شاء الله، ثم أخذها منّى أبو بكر - أو قال ابنُ أبي قحافة - فنزع منها ذنوبًا[٢] أو ذنوبين، وفى نزعه ضعْف، والله جلّ وعزّ يغفر له، ثم أخذها عمر فلم أر عبقريًّا من الناس يفرى فريه[٣] حتى ضَرَب الناس بِعَطن»[٤].

وروى أن امرأةً فى الجاهلية تسمّى عاصية أسلمتْ فكرهت اسمها، فأتت عمر رحمه الله، فقال: إنِّى كرهت اسمى، فَسَمِّنى، فقال: أنت جميلة، فغضبت وقالت: سميتنى باسم الإماء! ثم أتت رسول الله صلّى الله عليه وسلم، فقالت: بأبى أنتَ وأمى! إنّى كرهتُ اسمى، فسمِّنى فقال: «أنت جميلة» فقالت: يا رسول الله، إنى أتيت عمر فسمانى جميلة، فغضبت، فقال: «أو علمتِ أن الله جلّ وعزّ عند لسان عمرَ ويده!».

وعن سعيد بن جبير فى قوله عزّ وجلّ: ﴿وصالح المؤْمنين﴾[٥] قال: نزلت فى عمرَ خاصّة.

وعن علىّ رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «رحم الله عمر! يقول الحقّ وإن كان مُرًّا؛ تركه الحقُّ ما له من صديق!».

وعن سعيد بن جُبير، قال: إنَّ جبريلَ عليه السلام قال للنبى ﷺ: اقرأ على عمرَ السلام، وأعْلِمْه أنَّ غضبَه عِزٌّ، ورضاه حكم.

وعن عثمان بن مَظْعون: مَرّ بنا عمرُ رضى الله عنه ونحن جلوس عند النبى ﷺ، فقال: «هذا أغلَق بابَ الفِتنة، لا يزال بينَكم وبين الفتنة بابٌ ما عاش هذا بين أظهرِكم - أو ظهرانِيكم» فقال بيمينه، وشَبك بين أصابعه.

وعن ابن عبّاس، عن النبى ﷺ، قال: «جاءنى جبريلُ حين أسلَمَ عمر فقال لى: تباشرتِ الملائكة بإسلام عمر، وعمرُ سراجُ أهل الجنّة».

وعن جابر بن عبد الله الأنصارى قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا فى الجنّة إذ رأيتُ دارًا، فأردتُ أن أدخُلَها، فسألت لمن هى؟ فقيل: هى لعمر بن الخطّاب، فذكرت غيرتَه فرجعت»، فقال

---

(١) القليب: البئر العادية القديمة.
(٢) الذنوب: الدلو، تذكر وتؤنث.
(٣) يقال: هو يفرى الفرى، أى يأتى بالأمر العجب.
(٤) ضرب الناس بعطن، أى أرووا إبلهم، ثم آووها إلى عطنها، والحديث فى صحيح مسلم ٤: ١٨٦٠.
(٥) سورة التحريم ٤.

عمر: يارسول الله، لست ممن يغار عليه[١].

وعن عليّ رضى الله عنه؛ ما كنا نُبعد أنّ السكينة كانت تنطق إلى لسان عمر[٢].

وعن عطاء، عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ من سُلالةٍ مِن طِين، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطفةً فى قَرَارٍ مكين﴾، إلى قوله: ﴿ثم أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾، فقال عمر: ﴿تبارك الله أحسنُ الخالقينَ﴾[٣]. فقال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيدِهِ لقد ختمها الله عزّ وجلّ بما قلتَ يا عمر».

وعن سعد بن أبى وقاص رحمه الله، قال: استأذن عمر على رسول الله ﷺ، وعنده نسوةٌ من قريش قد علت أصواتُهنّ، فأذن له، فلمّا دخل بادَرْن الحجاب، فضحك رسول الله ﷺ، فقال عمر: أضحك الله سِنَّك، بأبى أنت وأمىّ! ممّ ضحكتَ؟ فقال: «أعجب من اللّواتى كنَّ عندى لمّا سمعن صوتَك بادرن الحجاب»، فقال: أنت كنت أحقُّ أن يَهبْن يا رسول الله! ثم أقبل عليهنّ، وأغلظَ لهنّ، وقال: اتهبْنِنَى ولا تَهَبْن رسولَ الله، ﷺ! قلن: نعم، إنك أفظّ وأغلظ، فقال رسول الله ﷺ: «يا عمر، والذى نفسى بيدِه، ما لقيك الشيطان سالكًا فَجًّا إلاّ سَلَك فَجًّا غير فَجِّكَ».

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم ٤: ١٨١١، وفيه: «أو عليك يغار!».
(٢) النهاية لابن الأثير ٢: ١٧٢
(٣) سورة المؤمنون ١٢ - ١٤.

محاسن عثمان بن عفان
رضى الله عنه ورحمه

عن أنس بن مالك، قال: كان رسول الله ﷺ فى حائط من حيطان المدينة، فجاء أبو بكر رحمه الله، فقال: افتح له، وبشره بالجنّة، ثم جاء عمر رحمه الله، فقال: افتح له وبشّره بالجنة، ثم جاء علىٌّ رضوان الله عليه فقال: افتح له وبشّره بالجنّة. فلما جاء عثمانُ رحمه الله ورحمهم أجمعين، وقد بدت من فَخِذ رسولِ الله ﷺ ناحية، فقال: افتح له وبشّره بالجنة، وغَطّاها، فقالوا: يا رسول الله، مالك لم تُغَطِّها حين جِئنَا؟ فقال: «ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة»!

وعن النبى ﷺ: «إن الله جل وعزّ أمرنى أن أزوِّج كريمتىّ عثمان بن عفّان» رحمه الله.

مَحَاسن عَلِىّ بن أبى طَالب
رضوان الله عليه ورحمته

عن أبى حيان التّيمى[١]، عن أبيه، عن على بن أبى طالب رحمه الله، قال: قال: النبى ﷺ: «رحم الله عليًّا! اللهمّ أدِرِ الحقَّ معه حيث دار».

وعن علىّ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر قريش، والله لَيَبْعَثَنَّ الله عليكم رجلًا منكم، قد امتحن الله قلبه للإيمان، يضرب رقابَكم على الدين»، فقال أبو بكر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا، فقال عمر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: «لا، ولكنّه خاصفُ النّعل»، وأنا أخصِف نعلَ رسول الله ﷺ.

وعن جابر قال: قال قال رسول الله ﷺ لعلىّ: «هذا وليُّكم بعدى إذا كانت فتنة».

وعن مصعب، عن أبيه، قال: سمعت النبِّىّ ﷺ يقول: «ما لكم ولعلىّ[٢]! منْ آذى عليًّا فقد آذانى».

وعن علىّ رضى الله عنه، قال: هلك فىَّ رجلان: عدوّ مبغض، ومحبّ مفرط. وقال: لَيُحبُّنى أقوام حتى يُدخلَهم حبِّى النار، ويُبغِضنى أقوام حتى يدخلهم بغضى النار، هم الرافضة[٣] والناصبة[٤].

وعن أمّ سَلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: لا يحبّ عليًّا منافق، ولا يُبغض عليًّا مؤمن».

وعن عمرو[٥] بن الأصمّ قال: قلت للحسن بن علىّ رضوان الله عليهما: هؤلاء الشيعة يزعمون أن عليًّا مبعوث الآن، قال: كَذَبوا، والله ما أُولئك بشيعة! ولو كانوا كما يقولون ما أنكحنا نساءَه، ولا قسمنا ميراثه.

وعن فاطمة رضى الله عنها قالت: دخل على علىٌّ، وأنا عند النبى ﷺ، فقال: «أبشرْ يا أبا الحسن، أما إنّك فى الجنة، وإن قومًا يزعمون أنهم يحبُّونك، يرفضون الإسلام، يمرُقُون منه كما يمْرُق السهم من الرميَّة، لهم نَبَزٌ[٦] يقال لهم الرافضة، فإن أدركتَهم فقاتلْهم فإنهم مشركون».

---

(١) فى ك، ل: «التميمى»، والصواب ما أثبت؛ وهو يحيى بن سعيد بن حيان الكوفى، وانظر تهذيب التهذيب ١١: ٢١٤.

(٢) ل: «ولى».

(٣) الروافض: قوم من الشيعة؛ سموا بذلك لأنهم تركوا زيد بن على. قال الأصمعى: كانوا بايعوه ثم قالوا له: ابرأ من الشيخين نقاتل معك؛ فأبى، وقال: كانا وزيرى جدى، فلا أبرأ منها، فرفضوه وارفضّوا عنه، فسمّوا رافضة اللسان – رفض.

(٤) الناصبة: قوم كانوا يتدينون ببغضة على. اللسان – نصب.

(٥) ل: «عمر».

(٦) فى حاشية ل: «لقب».

قال: وحدثنا رجل حضر مجلس القاسم بن المجمّع، وهو والى الأهواز، قال: حضر مجلسَه رجلٌ من بنى هاشم، فقال: أصلح الله الأمير! ألا أُحَدِّثكم[١] بفضيلة لأمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه! قال: نعم إن شئت، قال: حَدّثنى أبى، قال: حضرت مجلس محمد بن عائشة بالبصرة، إذ قام إليه رجل من وسطَ الحَلْقة، فقال: يا أبا عبدالرحمن، مَنْ أفضلُ أصحابِ رسول الله ﷺ؟ أبو بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة، بن الجراح فقال له: فأين علىّ بن أبى طالب؟ قال: يا هذا، تستفتى[٢] عن أصحابه أم[٣] عن نفسه؟ قال: بَلْ عن أصحابه. قال: إن الله تَبارك وتعالى يقول: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وأنفُسَكُمْ﴾[٤]، فكيف يكون أصحابُه مِثلَ نفسه!

وعن عطاء، قال: كان لعلىّ رحمه الله موقفٌ من رسول الله ﷺ يوم الجمعة، إذا خرج أخذ بيده فلا يخطو خُطوةً إلا قال: «اللهمّ هذا علىّ اتَّبع مَرْضاتَك، فارْضَ عنه»، حتى يصعد المنبر.

وحدثنا إبراهيم بن أحمد الغضايرىّ[٥] بإسناد يرفعه إلى أبى مالك الأشجعىّ، أنّ النبىّ ﷺ قال: «هبط علىّ جبريلُ يوم حُنَين فقال: يا محمدُ، إنّ ربك تبارك وتعالى يُقرئك السلام، وقال: ادفعْ هذه الأترُجّة إلى ابن عمِّك ووصيِّك علىِّ بن أبى طالب؛ فدفعتها إليه، فوضعتُها فى كفّه، فانفلقت بنصفين، فخرج منها رَقّ أبيض مكتوب فيه: «مِن الطالب الغالب، إلى علىّ بن أبى طالب».

أبو عثمان قاضى الرَّىّ، عن الأعمش، عن سعيد بن جُبير، قال: كان عبد الله بن عباس بمكّة يحدِّث على شَفير زمزم ونحن عنده، فلما قضى حديثَه قام إليه رجل فقال: يابن عباس، إنى امرُؤٌ من أهل الشام؛ من أهل حِمْص، إنهم يتبرءونَ من علىّ بن أبى طالب رضوان الله عليه ويعلنونه! فقال: بل لعنهم الله فى الدّنيا والآخرة، وأعدّ لهم عذابًا مهينا! أَلِبُعْدِ قرابته من رسول الله صلّى الله عليه وسلم، وأنّه لم يكن أَوّلَ ذُكران العالمين إيمانًا بالله ورسوله، وأوّل مَنْ صلَّى وركع وعمل بأعمال البِرّ! قال الشامى: إنّهم والله ما ينكرون قرابته وسابقتَه؛ غيرَ أنّهم يزعمون أنه قتَلَ الناس. فقال ابنُ عباس: ثَكِلَتْهم أمّهاتُهم! أنَّ عليًّا أعرفُ بالله عَزَّ وجلّ وبرسوله وبحكمهما منهم؛ فلم يقتل إلّا من استحقَّ القَتْل. قال: يا بن عبّاس، إنّ قومى جَمعوا لى نفقةً، وأنا رسولُهم إليك وأمينُهم، ولا يَسعُك أنْ تردَّنى بغير حاجتى، فإنّ القوم هالكون فى أمره، ففرِّج عنهم فرَّج الله عنك! فقال ابن عباس: يا أخا أهل الشام، إنما مَثَلُ علىٍّ فى هذه الأمّة فى فضله وعلمه، كمثَلِ العبد الصالح الذى لقيه موسى عليه السلام؛ لما انتهى إلى ساحل البحر فقال له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تعَلِّمَنى مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾؟ قال العالم: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيع مَعِىَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾! قال موسى: ﴿سَتَجِدُنى إنْ شَاءَ الله صابِرًا وَلَا أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾. قال له العالم: ﴿فَإِن اتَّبَعْتَنى فَلَا

---

(١) فى ل أقحم بعدها كلمة: «بحديث».
(٢) ك: «تسأل».
(٣) فى ك، ل: «أو».
(٤) سورة آل عمران ٦١.
(٥) الغضايرى؛ ضبطه ابن الأثير فى اللباب: بفتح الغين والضاد المعجمتين والياء تحتها نقطتان، وفى آخرها راء» وقال هذه النسبة إلى الغضار، وهو الإناء الذى يؤكل فيه؛ نسب جماعة إلى عمله، أو «١٠١» من آبائهم.

تَسْأَلنى عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا. فَانْطَلَقَا حَتَّى إذَا رَكِبَا فى السفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ – وكان خرقُها لله جلّ وعزّ رضًا، ولأهلها صلاحًا، وكان عند موسى عليه السلام سُخطًا وفسادًا – فلم يصبر موسى عليه السلام، وترك ما ضمن له، فقال: ﴿أَخَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إمْرًا﴾؛ قال له العالم: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيع مَعِيَ صَبْرًا﴾؛ قال موسى: ﴿لاَ تُؤاخِذْنى بما نَسِيتُ وَلاَ تُرْهقنى مِنْ أَمْرى عُسْرًا﴾. فكفّ عنه العالم، ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إذَا لَقِيَا غُلاَمًا فَقَتَلَهُ﴾ – وكان قتله لله جلّ وعزّ رضا، ولأبويه صلاحًا، وكان عند موسى عليه السلام ذَنْبًا عظيما – قال موسى ولم يصْبر: ﴿أَقَتَلْتَ نفسًا زَاكِيَةً[1] بِغَيرْ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكرًا﴾؛ قال العالم: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيع مَعِيَ صَبْرًا. قَال إنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِى قدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّى عُذرًا فَانْطَلَقَا حَتّى إذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَها فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾ – وكانت إقامته لله عزَّ وجلَّ رضا، وللعالمين صلاحًا فقال: ﴿لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْه أَجْرًا. قَال هَذَا فِراقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾[2].

وكان العالم أعلمّ بما يأتى موسى عليه السلام، وكَبر على موسى الحقُّ وعَظُم، إذْ لم يكن يعرف هذا، وهو نبىّ مرسَل من أولى العزْم، ممن قد أخذ الله جلّ وعزّ ميثاقه على النبوّة، فكيف أنت يا أخا أهل الشام وأصحابك! إن عليًّا رضى الله عنه لم يقتُلْ إلاّ من كان يُستَحلّ قتلُه؛ وإنى أخبرُكَ أنّ رسول الله ﷺ كان عند أمّ سلمة بنت أبى أميّة إذْ أقبل علىّ عليه السلام يريد الدخول على النبىّ ﷺ، فنَقر نَقْرًا خفيًا، فَعرف رسول الله ﷺ نَقْره، فقال: «يا أمّ سَلَمة، قُومى فافتحى الباب»، فقالت: يا رسول الله، مَنْ هذا الذى يبلغ خَطَرُه أن أستقبلَه بمحاسنِى ومعاصمى! فقال: «يا أمّ سَلَمة، إن طاعتى طاعة الله جلّ وعزّ، قال: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾[3]، قُومى يا أمّ سلمة، فإنّ بالباب رجلاً ليس بالخرق ولا النزق، ولا بالعَجِل فى أمره، يحبُّ الله ورسولَه، ويحبُّه الله ورسوله، يا أمّ سلمة، إنّه إن تفتحى الباب له فلن يدخلَ حتى يخفى عليه الوطء»، فلم يدخل حتى غابت عنه وخِفىَ عليه الوطءُ، فلمّا لمْ يحسَّ لها حركةً دفع الباب ودخل، فسلّم على النبىّ ﷺ، فردّ عليه السلام وقال: «يا أمّ سلمة، هل تعرفين هذا؟» قالت: نعم، هذا علىّ بن أبى طالب، فقال رسول الله ﷺ: «نعم هذا علىّ، سيط[4] لحمه بلحمى، ودمُه بدمى، وهو منّى بمنزلة هارون من موسى، إلاّ أنّه لا نبىَّ بعدى. يا أمّ سلَمَة، هذا علىٌّ سيّدٌ مبجّل، مؤمَّل المسلمين، وأميرُ المؤمنين، وموضع سِرّى وعِلْمِى، وبابِى الّذى آوى إليه، وهو الوصّى على أهل بيتى، وعلى الأخيار من أمّتى. وهو أخى فى الدنيا والآخرة، وهو معى فى السَّناءِ الأعلى، اشهدى يا أمّ سلمة أنّ عليًّا يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين».

---

(١) زاكية، بألف بعد الزاى وتخفيف الياء؛ هى قراءة نافع وابن كثير وأبى عمرو وأبى جعفر ورويس، أى طاهرة من الذنوب. وقرأ الباقون «زكية»: بتشديد الياء من غير ألف. اتحاف فضلاء البشر ٢٩٣.

(٢) سورة الكهف ٦٦ – ٧٨.

(٣) سورة النساء ٨٠.

(٤) سيط: اختلط.

قال ابن عباس: وقتلهم لله رضًا، وللأمة صلاح، ولأهل الضلالة سُخْط. قال الشامّى: يا بن عبّاس: من الناكثون؟ قال: الذين بايعوا عليًّا بالمدينة ثم نكثوا، فقاتَلهم بالبَصْرة؛ أصحاب الجَمَل؛ والقاسطون معاوية وأصحابُه، والمارقون أهلُ النهرَوان ومن معهم؛ فقال الشامىّ: يا بن عباس، ملأتَ صدرى نُورًا وحِكمة، وفرّجت عنّى فَرّج الله عنك؛ أشهَدُ أن عليًّا رضى الله عنه مولاىَ ومولى كلِّ مؤمن ومؤمنة.

* * *

ويُروَى أنّ ابن عباس رحمه الله، قال: عَقِم النساءُ أن يجئن بمثل علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه؛ ما رأيت مِحْرَبًا يُزَنّ به[1]، رَأَيْتُه يومَ صِفّين وعلى رأسه عِمامةٌ بيضاءُ، وكأنّ عينيه سِراجَا سَلِيط[2]، وهو يقف على[3] شِرْذمة بعد شِرْذمةٍ من الناس، يَعِظُهم ويَحُضّهم ويحرِّضهم، حتى انتهى إلىّ وأنا فى كَنَفٍ من الناس، فقال: معاشِرَ المسلمين، استشْعِروا الخشْية[4]، وأكملوا اللأْمَة[5]، وتجلبَبُوا[6] السَّكِينة، وغُضّوا الأصوات، والحظُوا الشَّزْر[7]، واطعنوا الوَجْز[8]، وصِلُوا السّيوف بالخُطَا، والرِّماحَ بالنَّبْل[9]، وامشوا إلى الموت مشيةً سجْحا[10]، فإنكم بعَيْن الله، ومع ابن عمِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم تقاتِلون عدوَّ الله. عليكم بهذا السَّواد الأعظم، والرِّواق المطنب[11]، فاضربوا ثَبَجهُ[12]، فإن الشيطان راكسٌ فى كِسْره[13]، [نافجٌ حِضْنيه][14]، مفترش ذراعَيْه، قد قَدّم للوَثْبة يدًا[15]، وأخّر للنكوص رِجْلًا، فصمدًا صَمْدا[16]! حتى ينجلى الحقّ؛ وأنتم الأعلَوْن والله معكم ولن يتِرَكم[17] أعمالَكم[18]

* * *

(١) فى الفائق: «يزن به، أى يتهم لمشاكلته».

(٢) السليط: الزيت.

(٣) الفائق: «وهو يحمش أصحابه»، ويحمشهم. يحضهم.

(٤) استشعر: أى لبس الشعار؛ وهو ما يلى البدن من الثياب.

(٥) اللأمة: الدرع؛ وإكمالها: أن يزاد عليها البيضة.

(٦) تجليب: لبس الجلباب.

(٧) لحظ الشزر: النظر بمؤخر العين؛ وهو نظر المبغض؛ وذلك أهيب.

(٨) الوجز: الطعن؛ قال ابن الأثير: «من المعروف فى الطعن: أوجرته الرمح، ولعله لغة فيه. وفى الفائق: «واطعنوا الشزر»، وقال فى شرحه: «الطعن الشزر عن اليمين والشمال». وفى ل: الوخز.

(٩) قال الزمخشرى: «صلوا السيوف بالخطا؛ أى إذا قصرت عن الضرائب تقدمتهم حتى تلحقوا الرماح بالنبل، أى إذا قصرت الرماح عن المطعونين لبعدهم فارموهم».

(١٠) المشية السجح: السهلة، والسجحاء، تأنيث الأسجح، وهو السهل.

(١١) الرواق: الفسطاط، المطنب: المشدود بالأطناب، جمع طنب، وهو حبل يشد به سرادق البيت.

(١٢) الثبج: الوسط.

(١٣) الكسر: الجانب.

(١٤) من الفائق، والنافج: المفرج، والحضنان: الجنبان.

(١٥) يريد بقوله: «قد قدم للوثبة يدا»، أنه إن أصاب فرصته وثب.

(١٦) الصمد: القصد.

(١٧) لن يتركم: لن ينقصكم.

(١٨) من خطبه له فى نهج البلاغة ١:١١٤ - ١١٥، ومنها فقر فى الفائق ١:٥٤٣.

وعن ابن عباس، أنه قال: لقد سُبق لعلىّ رضى الله عنه سوابق؛ لو أن سابقة منها قسمت على الناس لوسعتهم خيرًا.

وعنه قال: كان لعلىّ رضى الله عنه خِصال ضوارس قواطع: سِطةٌ[١] فى العشيرة. وصِهر بالرسول، وعلم بالتنزيل، وفَقْه فى التأويل، وصبرٌ عند النزال، ومقاومة الأبطال، وكان ألدَّ إذا أعضِل، ذا رأىٍ إذا أشكل.

* * *

قيل: ودخل ابن عبّاس على معاويةَ فقال: يا بنَ عبّاس، صف لى عليًّا؛ قال: كأنّك لم ترَه! قال: بلى، ولكنّى أحبُّ أن أسمَع منك فيه مقالا. قال: كان أميرُ المؤمنين - رضوان الله عليه - غزيرَ الدَّمْعَة، طويل الفكْرة، يعجبُه من اللباس ما خَشُنَ، ومن الطعام ما جَشَب[٢]، يُدنينا إذَا أتيناه ويجيبُنا إذا دعَوْناه. وكان مَعَ تقريبه إيانا وقربه منا؛ لا نبدؤه بالكلام حتى يبْتَسِم، فإذا هو تبَسَّم فعن مِثل اللؤلؤ المنظوم. أما والله يا معاوية، لقد رأيته فى بعض مَوافقة، وقد أرخَى الليلُ سُدولَه، وغارتْ نجومُه؛ وهو قابض على لحيتهِ، يبكى ويتَمَلْمَل تمَلْمُلَ السَّليم[٣]، وهو يقول: يا دنيا إيّاىٍ تَغُرِّين! أمِثْلِى تشوِّقين! لا حان حَيْنُك؛ بل زال زوالُك! قد طلَّقْتُكِ ثلاثًا لا رَجعةَ فيها، فعيشكِ حقير، وعُمرُك قصير، وخطرُك يسير، آه آه من بعد السَّفَر، ووحْشة الطريق، وقلّة الزاد!

قال: فأجهَشَ معاويةُ ومَنْ معه بالبكاء.

* * *

وقال خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين[٤]، يصف محاسنَ أمير المؤمنين علىٍّ بن أبى طالب، ومن حَضَره كرّم الله وجهه فى قصيدة له:

رأوا نعمــةً لله لـيسـتْ عليـهـمُ   عَليـك، وفضلًا بـارعًـا لا تنـازَعُـهْ
فعَضُّوا من الغَيظِ الطويلِ أكفَّهمْ   عليكَ، ومن لم يرضَ فالله خادِعُهُ
من الدِّين والدنيا جميعًا لك المنى   وفــوق المنى أخـلاقــه وطبـائعــه

[الطويل]

* * *

ورُوِى أن عدىّ بن حاتم دخل على معاوية بن أبى سفيان فقال: يا عدىّ، أين الطَّرَفات؟ يعنى بنيه: طريفًا وطارفًا وطَرَفة - قال: قُتِلوا يومَ صِفِّين بين يدىْ علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه، فقال: ما أنصفك ابنُ أبى طالب إذ قَدَّمَ بَنيكَ وأخَّر بنيه! قال: بل ما أنصفتُ أنا عليًّا إذ قُتِل وبقيتُ. صف لى عليًّا، فقال: إن رأيتَ أن تعفَيَنى! قال: لا أعفيك. قال: كان والله بعيد المدَى،

---

(١) السطة: المتوسط.   (٢) جشب الطعام: غلظ، أو كان بلا إدام.   (٣) السليم: اللديغ.

(٤) لقبه رسول الله صلى الله عليه وسلم بذى الشهادتين وجعل شهادته بشهادة رجلين، وقال فيه: «من شهد له خزيمة فحسبه».

شديدَ القُوَى؛ يقول عدلا، ويَحكم فَصْلًا، تتفجّر الحكمةُ من جوانبه، والعِلْمُ من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزَهْرتها، ويَستأنِس بالليل ووحشتِه. وكان والله غزير الدَّمعة، طويل الفكْرة، يحاسِب نفسَه إذا خلا، ويقلِّب كفَّيْه على ما مضى، يعجبه من اللِّباس القصيرُ، ومن المعاش الخَشِنُ. وكان فينا كأحَدِنا؛ يُجيبنا إذا سألناه، ويُدنينا إذا أتيناه، ونحن مع تقريبه لنا[1]؛ وقربه منّا: لا نكلِّمه لهَيبته، ولا نرفع أعيُننا إليه لعظمته، فإن تبسَّم فعن اللؤلؤ المنظوم، يعظِّم [أهل][2] الدين، [و][2] يتحبّب إلى المساكين، لا يخاف القويُّ ظُلْمَه، ولا ييْئس الضعيفُ من عَدله، فأقسم لقد رأيتُه ليلةً وقد مَثَل فى محرابه، وأرْخَى الليلُ سِر بالَه، وغارت نجومُه، ودموعُه تتحادر على لحيته، وهو يتمَلْمَل تَمَلْمُلَ السّليم، ويَبكى بكاءَ الحزين، فكأنِّى الآن أسمَعُه وهو يقول: يا دنيا إلىَّ تعرَّضْت؛ أم إلىَّ أقبلتِ! غُرِّى غيرى؛ لا حان حينُك، قد طلَّقتُك ثلاثًا لا رجعةَ لى فيك، فعيشُكِ حقير، وخطَرُك يسير، آه من قِلَّة الزاد وبعد السَّفر، وقِلَّة الأنيس!

قال: فوَكَفَتْ عينا معاوية، [وجعل][3] ينشِّفُها بكمِّه، ثم قال: يرحم الله أبا الحَسَن! كان كذا، فكيف صَبرُك عنه؟ قال: كصبر من ذُبحَ ولدُها فى حِجْرها، فهى لا ترقأ[4] دَمعتُها، ولا تسكن عَبْرَتُهَا. قال: فكيف ذِكرُكَ له؟ قال: وهل يتركنى الدهر أن أنساه!

وهذا الخبر أتم من خبر ابن عبّاس رحمه الله[5].

---

(١) المسعودى: «إيانا».

(٢) تكملة من المسعودى.

(٣) من ل.

(٤) رقأ الدمع: سكن.

(٥) والخبر أيضًا فى الرياض النضرة ٢:٢١٢، والمسعودى ٢:٤٣٣.

محاسن مَن أمسَك عَن الوقوع فى أصحاب النبى ﷺ

قال: قدِم عبد الله بن جعفر على عَبْدِ الملك بن مروان، فقال له يحيى بن الحكم، عَمّ عبد الملك بن مروان: ما تقول فى علىّ وعثمان؟ قال: أقول ما قال من هو خيرٌ منىّ فيمن هو شرٌ منهما: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فإِنَّهُمْ عِبَادُك وإن تَغْفِرْ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[1].

عصام بن يزيد؛ قال: كنتُ عند حَمْزَةَ؛ حتّى أتاه رجل فسأله عن أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2].

وروى أنه كتب إسماعيل بن علىّ إلى الأعمش: أن اكتب لنا بمناقب علىّ، ووجوه الطَّعْن على عثمان رضى الله عنهما، فكتب: لو أنّ عليًّا لَقِىَ الله جلّ وعزّ بحسناتِ أهل الدنيا لم يَرِدْ ذلك فى حسناتِك، ولو لقيَه عثمانُ رضى اللهاعنه، بسيئات أهلِ الأرض لم ينقص ذلك من سيئاتك.

* * *

وعن عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر، قال: كان إياس بن معاوية لى صديقًا، فدخلْنا على عبد الرحمن بن القاسم بن أبى بكر الصدّيق رضى الله عنهما، وعنده جماعة من قريش يتذاكَرُون السَّلَفَ، ففضَّل قومٌ أبا بكر وقوم عُمرَ، وآخرون عليًّا رضى الله عنهم أجمعين، فقال إياسٌ: إنّ عليًّا رحمه الله كان يَرَى أنّه أحقُّ الناس بالأمرِ، فلما بايع الناسُ أبا بكر، ورأى أنهم قد اجتمعوا عليه، وأنّ ذلك قد أصلح العامّة، اشترى صلاحَ العامة بنقض رأى الخاصّة – يعنى بنى هاشم – ثم ولّى عمرُ رحمه الله ففعل مثل ذلك به وبعثمان رضى الله عنه، فلما قُتِل عثمانٍ رحمه الله واختلفت الناس، وفَسَدَت الخاصّة والعامّة، وجد أعوانًا، فقام بالحقّ ودعا إليه.

* * *

وقيل إنّه حضر مجلسَ عمرَ بن عبد العزيز رحمه الله جماعةٌ من أهل العِلم، فذكروا عليًّا وعثمان وطلحةَ والزُّبير رضى الله عنهم أجمعين وما كان بينهم، فأكثروا وعمر ساكت، قال القوم: ألا تتكلّم يا أمير المؤمنين! فقال: لا أقول شيئًا؛ تلك دماءٌ طهَّر الله منها كَفِّى فلا أَغمِس فيها لسانى!

---

(١) سورة المائدة ١١٨.

(٢) سورة البقرة ١٤١.

مساوئ تلك الحُروب ومَن تنقّص عَليّ بن أبي طالب
رضوان الله ورحمته وبركاته عليه

أبو نُعيم، قال: حدّثنا عبد الجبّار بن العبّاس الهَمْداني، عن عمّار الدُّهْنيّ[١]، عن سالم بن أبي الجَعْد، قال: ذَكر النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم بعضَ أمّهات المؤمنين، فضحكتْ عائشة رضى الله عنها، فقال: انظرى يا حُمَيراءُ، ألّا تكونى أنت هى! ثم التفت إلى علىّ رضوان الله عليه، فقال: انظر يا أبا الحسن، إن وليتَ من أمرها شيئًا فارفُق بها.

وقال الزُّهْرىّ: لما سارت عائشةُ ومعها طلحةُ والزبير رضى الله عنهم، فى سبعمائة من قريش، كانت تنزل كلَّ منزل فتسْأَلُ عنه حتى نبحتْها كلابُ الحَوْءَب، فقالت: رُدُّونى، لا حاجة لى فى مسيرى هذا، فقد كان رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم نهانى، فقال: «كيف أنتِ يا حُمَيراء، لو نَبحتْ عليكِ كلابُ الحَوْءب[٢] – أو أهل الحَوْءب – فى مَسيرك، تطلبين أمرًا أنتِ عنه بمَعزِل!». فقال عبد الله بن الزبير: ليس هذا بذلك المكان الذى ذكره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ودارَ على تلك المياه حتى جمع خمسين شيخًا قَسامَةً[٣]، فشهدوا أنّه ليس بالماء الّذى تَزعُم أنه نهيَتْ عنه، فلمّا شهدوا قَبِلْت وسارت حتى وافت البصرة، فلما كان حربُ الجمل، أقبلتْ فى هَوْدَج من حديد، وهو تنظر من مَنظَر قد صُيِّر لها فى هَوْدَجها، فقالت لرجلٍ من ضَبَّة، وهو آخذ بخِطام جَمَلِها أوبعيرها: أين ترَى علىَّ بن أبى طالب «رضى الله عنه»؟ قال: ها هو ذا واقف رافع يدَه إلى السماء، فنظرتْ فقالت: ما أشْبَهَه بأخيه! قال الضبىّ: ومن أخوه؟ قالت: رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم، قال: فلا أرانى أقاتلُ رجلاً هو أخو رسول الله صلى الله عليه وسلّم! فَنَبذَ خِطَام راحِلَتِها من يده، ومال إليه.

* * *

وعن الحسن البصرى رحمه الله، أن الأحنف بن قيس، قال لعائشة رحمها الله يومَ الجمل: يا أم المؤمنين، هل عهد إليك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هذا المسير؟ قالت: اللهم لا، قال: فهل وجدته فى شىء من كتاب الله جلّ ذكره؟ قالت: ما نقرأ إلا ما تقرءون، قال: فهل رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلّم استعانَ بأحد[٤] من نسائه إذا كان فى قلة والمشركون فى كثرة؟

---

(١) كذا فى ل، وهو يوافق ما فى تهذيب ٧: ٣٠٦، وفى ك: «الذهبى» تصحيف.

(٢) الحوءب: موضع فى طريق البصرة.

(٣) القسامة، بالفتح: الجماعة يقسمون على الشىء، ويحلفون.

(٤) كذا فى ل، وفى ك «بشىء».

قالت: اللهمّ لا. قال الأحنف: فإذنْ ما هو ذنبنا!.

قال: وقال الحسن البصريّ: تقلّدتُ سيفى وذهبتُ لأنصرُ أمَّ المؤمنين، فلقيَنى الأحنف، فقال: إلى أين تريد؟ فقلت[1] أنصرُ أمَّ المؤمنين. فقال: ما قاتلتَ مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المشركين، فكيف تقاتِل معها المؤمنين! قال: فرجعتُ إلى منزلى، ووضَعتُ سَيْفى.

(١) ك، ل: «نقال» تصحيف.

مساوئ من عادى على بن أبى طالب
رضى الله عنه

قال: ولمّا فَرَغ أمير المؤمنين عليه السلام من قتال أهل الجمل، دخل عليه عبدُ الله بنُ الكَوّاء، وقيس بنُ عُبَادة اليشْكُرىّ، فقال: يا أميرَ المؤمنين، أخبرْنا عن مسيرك هذا الذى سرتَ، يضرب الناسُ بعضُهم رقابَ بعض! أرأيًا رأيتَه حين تفرَّقت الأمة، واختلفتِ الدعوة؟ فإن كان رأيًا رأيتَه أجبْناك فى رأيك، وإن كان عهدًا عَهِدَه إليك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأنت الموثوقُ به، المأمونُ فيما حدّثت عنه. فقال: والله لئن كنتُ أوّلَ من صدّق به لا أكون أوّل من كَذَب عليه؛ أمّا أنْ يكونَ عندى عهْدٌ من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيه فلا، والله لو كان عندى ما تركتُ أخا تَيْمٍ وعدىّ على مِنبر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولكنّ نبيّنا صلى الله عليه وسلّم لم يُقْتل قَتْلاً، ولم يَمُت فجأة، ولكنّه مرض لياليَ وأياما، فأتاه بلال ليؤذِنه بالصلاة، فيقول: إيتِ أبا بكر، وهو يروى مكانى، فلما قبض صلّى الله عليه وسلّم نظرنا فى الأمر، فإذا الصلاة عَلَم الإسلام، وقِوام الدِّين، فرضِينا لدنيانا مَنْ رضيَه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لديننا، فولّينا أمورَنا أبا بكر، فأقام بين أظهُرنا؛ الكلمةُ واحدة، والدين جامع – أو قال: الأمر جامع – لا يختلف عليه مِنّا اثنان، ولا يَشهد منّا أحدٌ على أحد بالشِّرك، وكنتُ آخذ إذا أعطانى، وأغزُو إذا أغْزانى[1]، وأضرب الحدودَ بين يديه بسيْفى وسَوْطى على كراهة منه لها، ووَدَّ أبو بكر لو أنّ واحدًا منّا يكفيه، فلمّا حضرتْ أبا بكر رحمه الله الوفاةُ، ظننتُ أنّه يَعْدِلِ عنّى لقرابتى من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وسابقتى وفَضْلى، فظَن أبو بكر أن عمرَ أقوى منّى عليها، ولو كانت أثرةً لآثر[2] بها ولدَه، فولّى عمر على كراهة كثير من أصحابه، فكنتُ فيمن رضىَ، لا فيمن كَرِهَ. فوالله ما خَرجَ عمرُ من الدنيا حتّى رضىَ به من كان كرِههَ، فأقام عمرُ رحمه الله بين أظهُرنا؛ الكلمَة واحدة، والأمرُ واحدٌ؛ لا يختلف عليه مِنّا اثنان، فكنتُ آخذُ إذا أعطانى وأغزو إذا أغزانى، وأضربُ الحدودَ بين يديه بسوطى وسيفى، أتّبع أثرَه اتّباعَ الفَصِيل أمَّه، لا يعدل عن سبيل صاحبيه، ولا يحيدُ عن سُنّتهما، فلما حضرتْ عمرَ رضى الله عنه الوفاةُ، ظننت أنه لا يَعدِل عنّى لقرابتى وسابِقتى وفَضْلى، فظنّ عمرُ أنّه إن استخلف خليفةً فَعَمِل بخطيئة لحقته فى قَبْره، فأخرجَ منها ولدَه وأهلَ بيته، وجعلها شُورَى فى ستّة رَهْطٍ، منهم عبد الرحمن بن عَوْف، فقال: هل لكم أن أدَعَ لكم نصيبى على أن أختار لله ولرسوله! قلنا: نعم؛ فأخذ ميثاقنا على أن نَسمع ونطيع لمن ولّاه؛ وأخذنا ميثاقها على أن يختار لله ولرسوله فوقع اختيارُه -

(١) أغزانى، أى بعثنى للغزو.

(٢) ك: «لكان آثر».

على عثمان رضى الله عنه، فنظرت فإذا طاعتى قد سبقت بيعتى، وإذا ميثاقى قد أُخذ لغيرى، فاتّبعتُ عثمانَ، وأديت إليه حقه على أثَرَة منه، وتقصير عن سنة صاحبيه. فلما قتل عثمان رضى الله عنه، نظرتُ فكنت أحق بها من جميع الناس.

فقالا: صدقتَ وبَرَرْتَ، فأخبرنْا عن طلحة والزبير بِمَ استحلَلْتَ قتالهما، وقد شركاك فى الهجرة مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى الشّورى من عمر رحمه الله؟ فقال: قد شَرَكانى فى الهجرة وفى الشّورى، ولكنّهما بايَعانى بالحجاز، وخَلَعانى بالعراق؛ ولو فعلا ذلك بأبى بكر وعمَر لقاتَلاهما.

فقالا: صدقتَ وبَرَرْتَ، وأنت أميرُ المؤمنين.

* * *

قال: ولمَّا كان حربُ صِفِّين كتب أميرُ المؤمنين رضوان الله عليه إلى معاويةَ بن أبى سُفيانَ: مالك يُقتل الناس بيننا! أُبرز[١] لى فإن قتلتَنى استرحتَ منّى، وإن قتلتُك استرحتُ منك. فقال له عمرو بن العاص: أنصَفَكَ[٢] الرجل فابرُز إليه، قال: كلّا يا عمرو، أردتَ أن أبرُزَ له فيقتلَنى وتثب على الخلافة بعدِى! قد علمتْ قريشٌ أنَّ ابن أبى طالب سيدُها وأسدُها، ثم أنشأ يقول:

يا عمرو قد أسْرَرت تهمةَ غادر	برضاكَ لى تحتَ العَجاج برازِى[٣]
ما لِلْمُلوك ولِلبرازِ وإنّما	حَتفُ المُبارز خَطفَةٌ من بازى[٤]
إن الذى مَنّتْكَ نفسُكَ خاليًا[٥]	قَتْلى، جزاكَ بما نَويتَ الجازى!
فلقد كَشفتَ قِناعَها مذمومةً	ولقد لِبستَ لها ثيابَ الخازى

فأجابه عمرو بن العاص:

مُعاوىَ إنّنى لم أجْنِ ذنبًا	وما أنا بالّذى يدعى بخازى[٦]
فما ذَنبى بأنْ نادى علىٌّ	وكبشُ القومِ يُدعَى للبراز!
فلوْ بارَزْتَهُ لقِيت قِرنًا	حَديدَ الناب شهمًا ذا اعتزازِ[٧]
أجُبْنًا فى العشيرةِ يا بنَ هند	وعند الباه كالتَّيْس الحجازى!

---

(١) ك: «أبرز لقتالى».

(٢) ك: «أنصفك الرجل من نفسه».

(٣) وقعة صفين ٣١٢، ورواية الشطر فى هذا البيت هناك:

يا عَمْرُو إنّك قد قشرت لِىَ العصا

(٤) صفين: «للبازى».

(٥) صفين: «فإذا الذى منتك نفسك».

(٦) صفين ٣١٤، وقبله:

معاوىَ إنْ نكَلْتَ عن البرازِ لكَ الويلات فانظر فى المخازى

[الوافر]

(٧) رواية البيت فى صفين:

فلوْ بارزتَهُ بارزتَ ليثًا حديد النّاب يخطف كلّ بازى

[الوافر]

ثم كتب معاوية إلى عليّ رحمه الله أمّا بعد؛ فإنا لو علمنا أن الحرب تَبلغ بنَا وبكَ ما بلغتْ، لم يجنِها بعضُنا على بعض، وإنْ كُنّا قد غُلِبنا عَلَى عُقولنا؛ فقد بَقِيَ لنا ما نَرُمّ به ما مضى، ونصلح ما بَقِيَ. وقد كنتُ سألتُك الشّامَ على أن تَلزمَنى لك طاعة، فأبيتَ ذلك علىّ. وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتكَ إليه أمس، وإنك لا ترجو من البقاءِ إلاّ ما أرجو، ولا تخافُ من الفناء إلا ما أخاف، وقد والله رَقّت الأجناد، وذهبت الرجال، ونحن بنو عبد مناف؛ وليس لأحد منا على أحد فضلٌ نَستذلّ به عبدًا، أو نسترِقّ به حرا.

فأجابه علىّ:

من علىّ بن أبى طالب إلى معاويةَ بن أبى سفيان. أما بعد، فقد جَاءنى كتابُك تذكر أنك لو علمتَ أن الحربَ تبلغُ بنا وبك ما بلغتْ، لم يَجْنِها بعضُنا على بعض. وأنا وإيّاك لم نلتمس غاية لم نبلغْها بعد. فأمّا طلبُك الشَام فإنى لَمْ أكنِ لِأعطِيَك اليوم ما منَعْتُك عنه أمس؛ وأما استواؤنا فى الخوف والرَّجاء، فلستَ بأمضَى على الشكِّ مِنِّى على اليقين، وليسَ أهلُ الشام بأحرصَ على الدنيا من أهل العراق على الآخرة.

وأما قولك: «إنّا بنو عبد مناف»، فكذلك نحن، وليس أميّة كهاشم، ولا حَرْب كعبد المطّلب، ولا أبو سفيان كأبى طالب، ولا الطَّليقُ كالمهاجر، ولا المحقّ كالمُبطل. فى أيدينا فضلُ النُبوّة التى قبِلنا بها العِز، ونفِيْنا بها الخِزْى.

* * *

عن الشَّعْبىّ، أنّ عمرو بن العاص دخل على معاوية وعنده ناس، فلما رآه مُقْبلاً استضحَك، فقال: يا أمير المؤمنين، أضحك اللهُ سِنَّك، وأدام سرورك، وأقرَّ عينَك! ما كلُّ ما أرَى يوجب الضَّحِكَ! فقال معاوية: خطر ببالى يومُ صِفِّين، يوم بارزتَ أهل العراق، فحمل عليك علىُّ بنُ أبى طالب، فلما غَشِيكَ طرحتَ نفسَك عن دابّتك، وأبديْتَ عورَتَك[١]. كيف حضَرَك ذِهْنُك فى تلك الحال! أما والله لقد واقفتَه هاشميًّا مَنافيًّا، ولو شاء أن يَقتُلَكَ لَقَتَلَك.

فقال عمرو: يا معاوية، إن كان أضحَكَكَ شأنى فمِن نفسِك فاضحك، أما والله لو بدا له من صفحتِك مِثلُ الّذى بدا له من صَفْحَتى لأوجَع قذالك[٢] وأيْتَم عيالك، وأنهب مالك، وعزل سلطانك، غير أنّك تحرّزَت منه بالرجال فى أيديها العوالى[٣]. أما إنى قد رأيتك يوم دعاك إلى البراز؛ فاحولت عينَاك، وأزبَدَ شِدْقاك، وتنشّر مِنخراك، وعرِق جبينُك، وبدا من أسفلك ما أكره ذِكرَهُ.

فقال معاوية: حسبُكَ حيث بلغت! لم نُرِد كلَّ هذا.

* * *

(١) ك: «سوءتك».

(٢) القذال: جماع مؤخر الرأس.

(٣) العوالى: الرماح.

قال: وذكر أنّ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه، قال: زعم ابن النابغة[١] أنّي تِلعابةٌ تِمزاحةٌ[٢]؛ ذو دُعابة، أعافس وأمارس[٣]، لا رَأىَ لى فى الحروب، هيهات! يمنعنى من العفاس والمِراس ذكرُ الموت والبَعْث؛ فمن كان له قَلْب ففى هذا عن هذا واعظ. أما وشر القول الكذِب، إنه ليحدِّث فيكذب، ويَعد فيُخْلِف، فإذا كان البأس فأعظم مكيدته أن يمنَحَ القومَ اسْتَه!..

* * *

قال: وقال عمرو بن العاص لابنه عبد الله يومَ صِفِّين: تبيَّن لى هل ترى عليّ بن أبي طالب! قال عبد الله: فنظرتُ فرأيتُه، فقلت: يا أبتِ، ها هو ذاك على بغلة شَهْباء، عليه قَباء أبيض، وقلنْسُوة بيضاء. قال: فاسترجع وقال: والله ما هذا بيوم ذات السَّلاسل، ولا بيوم اليَرْموك، ولا يوم أجْنادين! وددت أن بينى وبين مَوقفى بُعدَ المشرقَين. فنزل سعدُ بن أبي وَقّاص وعبدُالله بن عمر، وقالا: والله لئن كان صوابًا إنه لَعظيم مشكور، ولئن كان خطأ إنه لصغير مغفورٌ. فقلت له: يا أبت، فمن يمنعك من الذى فعلا! فوالله ما يحول بينك وبين ذلك أحدٌ. فقال:

إن يرجع الشيخُ ولم يُعَذِّرِ ... إذ نَزَل القومُ بضَنْكٍ فانظرِ
* ثم تأمَّلْ بعد هذا أو ذَرِ*

[الرجز]

وقال بعض الشعراء فى معاوية ومحاربته أميرَ المؤمنين عليّ بنَ أبي طالب:

قد سرتَ سَيرَ كُليب فى عَشيرتِه ... لو كان فيهم غلامٌ مثلُ جَسّاسِ!
الطاعنُ الطعنةَ النَّجلاءَ عاندُها ... كطُرَّةِ البردِ أعيا فَتْقُها الآسى[٤]

[البسيط]

* * *

عبدالله بن السائب، قال: جمع زيادٌ أهل الكوفة يحرِّضهم على البراءَة من عليّ كرَّم الله وجهه، فملأ منهم المسجد والرَّحبَة، قال: فغفَوْتُ غَفْوةً، فإذا بشيء له عُنقٌ مِثل عنق البعير، أهدل أهدَب[٥] فقلت له: مَنْ أنت؟ فقال: أنا النّقاد ذو الرَّقبة، بُعثتُ إلى صاحب القصر. فانتبهت فزِعا؛ فما كان بأسرعَ من أن خرج علينا خارجٌ من القصر، فقال: انصرفوا، فإن الأمير فى شغل عنكم اليوم، فإذا هو قد فُلِجَ، فقال عبدالله فى ذلك:

---

(١) النابغة: المرأة المشهورة بما لا يليق بالنساء، يريد بها أم عمرو بن العاص.
(٢) التلعابة والتمزاحة: الكثير اللعب والمزاح.
(٣) المعافسة: معالجة النساء بالمغازلة، ومثلها الممارسة.
(٤) النجلاء: الواسعة، والعاند هنا: الدم السائل.
(٥) البعير الأهدب: الذى طال هدب عينه، والأهدل: المسترخى المشفر.

مـا كان منتهيًـا عمّا أرادَ بنـا   حتى تأتّى لَهُ النَّقّادُ ذو الرُّقَبهْ
فأسقَطَ الشِّقَّ منه ضربةً ثبتَتْ   لمّا تناول ظُلْمًا صاحبَ الرَّحبَـهْ

أراد عليًّا؛ لأنه قُتل فى رَحَبة المسجد.

* * *

الأصمعى، قال: سمع عامر بنُ عبد الله بن الزبير ابنَه يَنَال من علىّ رضى الله عنه، فقال: يا بُنىّ، إيّاك وذكرَ علىّ؛ فإن بنى أميّة تَنقّصتْه ستين عامًا؛ فما زاده الله بذلك إلّا رِفعةً!

قال: وقال عبدُ الملك بنُ مروانَ للحجّاج بن يوسف: جنِّبْنى دماء آل أبى طالب، فإنى رأيتُ بنى حَرْب. لما قَتلوا الحسين نزع الله مُلكهم.

محاسن الحسن والحسين ابنى على بن أبى طالب
رضى الله عنهم

روى عن أنس بن مالكٍ أنه قال: لم يكنْ فى أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلّم أحد أشبه به من الحَسَن عليه السلام، وكان قال له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «ابنى هذا سيّد، لعلّ الله جلّ وعزّ أن يُصلِح به بين فئتين من المسلمين»، وكان بينه وبين أخيه الحسين عليه السلام طُهْرٌ واحد، وكان أسخى أهل زمانه.

* * *

وذكروا أنه أتاه رجل فى حاجة فقال: اذهب فاكتب حاجَتك فى رقعة، وارفعها إلينا نقضِها لك. قال: فرفع إليه حاجتَه فأضعَفَها له! فقال بعض جُلَسائه: ما كان أعظَمَ بركة الرّقعة عليه يا ابن رسولِ الله! فقال: بركَتُها علينا أعظم حين جَعَلَنا للمعروف أهلًا. أما علمتَ أن المعروف ما كان ابتداءً من غير مسألة، فأمّا مَنْ أعطيتَه بعد مسألة؛ فإنما أعطيتَه بما بَذَل لك من وجهه، وعسى أن يكون بات ليلته متململًا أرِقًا، يميل بين اليأس والرجاء، لا يعلم بِمَ يتوجّه من حاجته! أبكآبة الردّ، أم بسرور النُّجْح؟ فيأتيك وفرائصه ترعد، وقلبُه خائف يَخفِق، فإن قضيتَ له حاجته فيما بذل لك من وجهه؛ فإنَّ ذلك أعظم مما نال من معروفك.

* * *

قيل: وكان لرجل علَى ابن أبى عَتيق مال، فتقاضاه، فقال له: ائتنى العشيّة فى مجلس الولاية، فسلنى عن بيت قريش، فوافاه الغَريمُ فى ذلك المجلس، فقال له: إنّا تلاحَيْنا فى بين قريش، ورضينا بك حَكَمًا، فقال: آل حَرْب، قال: ثم من؟ قال: آل أبى العاص -والحسنُ بن على رضى الله عنه حاضر- فَشَقَّ ذلك عليه، فقال الرجل: فأين بنو عبدالمطلب! فقال: لم أكن أظنّ أن تسألنى عن غير بيت الآدميِّين، فأمّا إذا صرتَ تسألنى عن بيت الملائكة، وعن رسول الله ربِّ العالمين وسيِّد كلّ شهيد، والطَّيار مع الملائكة، فمَنْ يساوى هؤلاء فخرًا إلّا وهو منقطع دونَهُم! قال: فانجلى عن الحسن عليه السلام، ثم قال: إنى لأحسِب إنّ لك حاجة! قال: نعم يا بنَ رسول الله، لهذا علىّ كذا وكذا.

فاحتملها عنه، ووصله بمثلها.

* * *

قال: وأتاه رجل آخر فقال: يا بن رسول الله، إنى عصيت رسول الله صلى الله عليه وسلم،

فقال: بئس ما صنعت! فبماذا عصيته؟ قال: قال صلى الله عليه وسلم: «شاوروهن وخالفوهن»، وإنى أطعت صاحبتى، فاشتريت غلاما فأبق. قال له: اختر واحدة من ثلاث: إن شئت ثمن الغلام... قال: بأبى أنت وأمىّ! قِفْ على هذه ولا تُجَاوِزْها؛ قال: أعْرِض عليكَ الثلاث، فقال: حَسْبى هذه، فأَمَرَ له بثمن الغلام.

* * *

وذكروا أنّ رجلين: أحدهما من بنى هاشم، والآخرُ من بنى أُمَيّة، قال هذا: قومى أسمح، وقال هذا: قَوْمى أسمح، وقال: فسل أنت عشرةً من قومك، وأنا أسأل عشرة من قومى، فانطلق صاحبُ بنى أميّة، فسأل عشرة، فأعطاه كلّ واحد منهم عشرة آلاف درهم، وانطلق صاحب بنى هاشم إلى الحسن بن علىّ رضى الله عنه، فأمر له بمائة وخمسين أَلفَ درهم، ثم أَتى الحسين عليه السلام، فقال: هل بدأت بأحدٍ قبلى؟ قال: بدأتُ بالحسَن، قال: ما كنت أستطيع أن أزيدَ على سيدى شيئًا، فأعطاه مائة وخمسين أَلفًا من الدراهم، فجاء صاحب بنى أميَّة فحمل مائة ألف درهم من عشرة أَنفس، وجاء صاحبُ بنى هاشم فحمل ثلاثمائة ألف درهم من نفسين، فغضب صاحبُ بنى أميَّة، فرَدَّها عليهم، فقبلوها، وجاء صاحبُ بنى هاشم فردَّها عليهما فأبيا أن يقبلاها، وقالا: ما كنّا نبالى أَخذتَها أم أَلقَيتَها فى الطريق!

وكان الحسن بنُ علىّ رضوان الله عليهما أَشبَهَ برسول الله صلّى الله عليه وسلم من صدره إلى قَدَمه.

وكان أيضًا أحدَ الأجواد، دخل على أسامة بن زيد وهو يجود بنَفْسه ويقول: واكَرْباه! واحَزناه! فقال: وما الذى أَحزَنَك يا عمِّ؟ قال: يا بن رسول الله، ستون أَلفَ درهم دينٌ علىّ لا أجد لها قضاءً. قال: هى علىّ، قال: فَكَّ الله رهائنك يا بن النبى صلى الله عليه وسلم. ﴿الله أَعْلَمُ حَيثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

مساوئ قتلة الحسين بن على
رضوان الله عليهما

حدّثنا عبد الله بن أحمدَ بن إبراهيمٍ، عن يحيى بن مَعين، عن الحجّاج، عن أبي معشر، قال: لمّا مات معاويةُ بنُ أبي سفيانَ، وذلك فى النّصف من رجب سنة ستين، وَرَدَ خبرُه على أهل المدينة فى أوّل شعبان، وكان على المدينة يومئذ الوليدُ بن عُتبة بن أبي سفيان – وكان غلامًا حَدَثا يتحرّج[1] – فلما جاءه ما جاءه ضاق به صدرُه، فأرسل إلى مَرْوان بن الحكم – وهو الذى صُرِفَ به مروانُ عن المدينة – وكان فى مروان حِدّة، فقال له الوليد: يا أبا عبد الملك، إنه قد جاءَنا اليومَ شيء لم نكن نستغني معه[2] عن استشارتك. قال: وما هو؟ قال: موت أمير المؤمنين، قال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[3]! مات رحمه الله! قال: نعم. قال: أتطيع أمرى؟ قال: نعم. قال: أَرْسِلْ إلى الحسين بن علىّ وإلى عبد الله بن الزُّبير، فإن بايَعا فخل سبيلَهما، وإن أَبَيا فاضرِبْ أعناقَهما.

فأرسلَ إلى الحسين رضوان الله عليه، وإلى عبد الله بن الزّبير رحمه الله، وبدأ بالحسين. فمرّ الحسينُ فى المسجد، فأشار إليه ابن الزُّبَير وهو قائم يصلّى، فأتاه، فقال للحَرَسىّ: تأخَّرْ أيها العبد، فتأخَّرَ الحَرَسىُّ، فقال له: يا أبا عبد الله، أتَدْرِى لأىّ شيء دعيت؟ قال: لا، قال: مَات طاغِيَتُهم، فدعَوْك للبَيْعة، فلا تُبايع، وقل له: بالغَدَاة على رءوس الملأ.

قال: فدخل الحسين عليه السلام، فقال له الوليد: يا أبا عبد الله، دَعَوْناك لخير، قال: أىّ شيء هو؟ قال: مات أميرُ المؤمنين، وقد عرفتم ولىَّ عهدِكم ومَفزَعكم، وقد بايع أهلُ الشّام والناس، فادخل فيما دخل فيه الناس. قال: نعم بالغداة إن شاء الله؛ لا بل الساعة، قال: ومِثلى يُبايع فى جوف البيت! بالغداة على رءوس الناس، قال: لا بل الساعة، قال: ما أنا بفاعل، وخرج من عنده.

فأرسل إلى ابن الزبير فقال: يا أبا بكر، دعوناك لخير، قال: وما هو؟ قال: مات أمير المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾! رحمةُ الله عليه قال: فجعل يردد الترحم عليه، وقد نظر ابن الزُّبير قبل ذلك إلى مروان وهو يناجي الوليد، فتلا هذه الآية: ﴿فاتقوا الله وأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا الله وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِين﴾[4]. فقال: يا أبا بكر، قد عرفتُم ولىَّ عهدِكم ومفزعكم، وقد بايع أهلُ الشام والناس، فادخل فيما دخل فيه الناس، قال: نعم، بالغداة إن شاء الله، قال: لا بل

---

(١) يقال: تحرج من الأمر؛ أى تأثم، وحقيقته: جانب الحرج؛ أى الإثم.

(٢) كذا فى ل، وفى ك: «فيه».

(٣) سورة البقرة: ١٥٦.   (٤) سورة الأنفال: ١.

الساعة، قال: ومثلى يبايع فى جوف البيت! أبايعك على رءوس الملأ. قال: لا بل الساعة، قال: ما أنا بفاعل.

فقال مرْوَان للوليد: ما تصنع! أطعنى واضرب أعناقهما، لئن خرجا من البيت لا تراهما أبدًا إلّا فى شرّ – وكان الوليد متحرِّجًا – فقال: ما كنت لأقتلَهما؛ فقال ابن الزبير لمروان: يا بن الزَّرقاء، أوَ تقدر على قتلنا؟ فقال مروان: إنه والله لو أطاعنى ما خرجت ولا صاحبك من البيت حتى تُضرب أعناقكما.

قال: فدعا الحسينُ عليه السلام برَوَاحِله، فركب يتوجّه نحو مكة على المنهجِ الأكبر، وركب ابن الزبير رحمه الله دوابٌ له، وأخذ طريق الفُرْع[1]، فأتى الحسين عليه السلام عبدُ الله بنُ مطيع وهو على بئره، فنزل إليه، وقال: يا أبا عبد الله، أين تريد؟ قال: العراق؛ مات معاوية، وجاءنى أكثر من حِمْلِ صُحُف. قال: لا تفعل، فوالله ما حفظوا أباك وكان خيرًا منك! ووالله لئن قتلوك لا تبقى حرمةٌ بعدك إلا استُحِلّتْ. فمرَّ الحسين عليه السلام حتى نزل مكة، فأقام بها هو وابن الزّبير رحمه الله. وقدم عَمرو بن سعيد بن العاص فى رمضان أميرًا على المدينة وعلى المْوسِم، وعزل الوليدَ بن عُتْبة، فلما استوَى على المنبر رَعِف، فقال أعرابىٌّ: مه! جاء والله بالدم. قال: فتلقاه رجلٌ بالعمامة، فقال: مهْ! عمّ الناسَ والله، ثم قام[2] وبيده عصًا لها شُعْبَتَان: [فقال][3]: قد شُعِب[4] الناس والله، ثم خرج إلى مكة فقدمها قبل التروية[5] بيوم، وخرج الحسين عليه السلام، فقيل له: خرج الحسين، فقال: اركَبُوا كلّ بعير وفرس بين السماء والأرض فى طلبه فاطلبوه. قال: فكان الناس يتعجّبُون من قوله هذا، فطلبوه فلم يدركوه، فأرسل عبد الله بن جعفر ابنيه: عَوْنًا ومحمدًا ليردا الحسينْ، فأبى الحسينُ أن يَرجع، وخرج بابنىْ عبد الله معه، ورجع عَمرو بنُ سعيد إلى المدينة، وبعث بجيش يقاتلون ابن الزّبير، وقدَّم الحسين عليه السلام مسلَم بن عَقيل إلى الكوفة ليأخذ عليهم البَيْعة، وكان على الكوفة حين مات معاوية، النعمانُ بنُ بَشير بنِ سعد الأنصارى، فلمّا بلغه خبر الحسين عليه السلام قال: لابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبُّ إلينا من ابن بنت بَحْدَل[6]. فبلغ ذلك يزيد، فأراد أن يعزلَهُ، فقال لأهل الشام: أشيروا على مَن أستعمل على الكوفة؟ فقالوا: أترضَى برأى معاوية؟ قال: نعم. قالوا: فإن العهد بإمارة عبيد الله بن زياد على العراقَيْن قد كُتب فى الديوان، فاستعمله على الكوفة. فقدِم الكوفة قبلَ أن يَقدَمَ الحسيْن عليه السلام. وقد بايع مسلَمَ بن عَقِيل أكثر من ثلاثين ألفًا من الرجال من أهل الكوفة، فخرجوا معه يريدون عُبيدَ الله بن زياد، فجعلوا كلما انتهوا إلى زقاق انسلّ ناسٌ منهم حتّى بقى فى شِرْذِمَةٍ قليلة،

(١) الفرع، بالضم: قرية من نواحى الربذة، على طريق مكة.
(٢) ط: «فال» والصواب ما أثبته من العقد.
(٣) تكملة من العقد.
(٤) شعب القوم: تفرقوا. وفى العقدة: «لتشعب».
(٥) يوم التروية: الثامن من ذى الحجة.
(٦) هى ميسون بنت بحدل بن أنيف، من بنى حارثة بن جناب الكلبى، أم يزيد بن معاوية. تاج العروس ٧: ٢٢٢.

وجعل الناس يرْمُونه بالآجرِّ من فوق البيوت، فلما رأى ذلك دخل دار هانئ بن عروة المُراديّ – وكان له فيهم رأى – فقال له هانئ: إن لى من زياد مكانًا، وسوف أتمارض، فإذا جاء يعودنى فاضرب عنقَه، فقيل لابن زياد: هانئ بن عروة شاك يقئ الدم – وكان شرب المَغْرة[١] – فجعل يقيئها، فجاء ابن زياد يعوده، وقال هانئ لمسلم: إذا قلت اسقونى ولو كانت نفسى فيه فاضرب عنقه، فقال: اسقونى، فأبطئوا عليه، فقال: ويحكم اسقونى ولو كانت فيه نفسى!.

قال: فخرج ابن زياد ولم يصنع الآخر شيئًا – وكان أشجَع الناس، ولكن أخذتْه كَبْوه – فقيل لابن زياد: والله إنّ فى البيت رجلاً متسلّحًا، فأرسل ابنُ زياد إلى هانئ فدعاه فقال: إنى شاك[٢]، فقال: أئتونى به وإن كان شاكيًا، قال: فأسرِجَتْ له دابّه فركب، وكانت معه عصًا، وكان أعرج، فجعل يسيرُ قليلًا قليلًا، ثم يقف ويقول: مالى ولابن زياد! فما زال حتّى دخل عليه، فقال: يا هانئ، أَمَا كانت يد زياد عندك بيضاء؟ قال: بلى، قال: فيدى؟ قال: بلى، فتناول العصا التى كانت فى يد هانئ فضرب بها وجهَه حتى كسر جبهته، ثم قدّمه فضرب عنقه، ثم أرسل إلى مسلم بن عقيل فخرج عليهم بسيفه، فما زال يُناوِشهم، ويقاتلهم حتى جُرِحَ وأسر، فعطش وقال: اسقونى ماء، ومعه رجل من آل أبى مُعَيط ورجلٌ من بنى سُليم، فقال شَمِر بن ذى جَوشَن: والله لا نَسقِيك إلاّ من البئر؛ وقال المعيطىّ: والله لا نسقيه إلا من الفرات؛ فأتاه غلام له بإبريق من ماء، وقدح قوارير ومِنْديل، فسقاه، فتمضمض، فخرج الدم، فما زال يَمُجُّ الدمَ ولا يسيغ شيئًا حتى قال: أخره عنى، فلما أصبح دعاه عبيد الله ليضرب عنقه فقال له: دعنى أوص، فقال: أَوْص، فنظر فى وجوه الناس، فقال لعمرو بن سعد: ما أرى هاهنا أحدًا من قريش غيرك، فادْنُ منى حتى أكلّمك؛ قال: فدنا منه فقال له: هل لك أن تكون سيّد قريش؟ قال: نعم؛ قال: قال: إن حُسينًا ومَنْ معه وهم تسعون إنسانًا بين رجل وامرأة فى الطريق، فارْدُدْهم، واكتب إليه بما أصابَنى. ثم أمر عبيد الله فَضُرِب عنقُه، فقال عمر: أتدرى ما قال؟ قال: اكتم على ابن عمك، قال: هو أعظم من ذاك، قال: اكتم على ابن عمك! قال: هو أعظمُ من ذاك؛ قال: أىّ شىء هو؟ قال: أخبرنى أن حسينا قد أقبل ومعه تسعون إنسانًا بين رجل وامرأة، فقال: أما والله لو إلىّ أسَرّ لرددتهم، لا والله لا يقاتلهُم أحدٌ غيرك، فبعث معه جيشًا.

وجاء الحسينَ عليه السلام الخبرُ وهو بشراف فهم أن يرجع، ومعه خمسة من بنى عقِيل، فلقيه الجيش على خيولهم بوادى السِّباع، فقال بنو عَقيل: أترجع وقد قُتِل أخونا! فقال الحسين عليه السلام: مالى عن هؤلاء من صَبْر – يعنى بنى عقِيل، فأصاب أصحابه العطش، فقالوا: يا بن رسول الله، اسْقِنا؛ فأخرج لكلِّ فارس صحفةً من ماء، فسقاهم بقدر ما يمسك رمق أحدِهم، ثم قالوا: سِرْ بنا، وأخذوا به على الجُرف حتى نزلوا كربَلَاء، فقال: هذا كرب وبلاء، فنزلوا وبينهم وبين الماء يسير، قال: فأراد الحسين عليه السلام وأصحابه الماء، فحالوا بينهم وبينه، فقال له شَمِر بن ذى جوشن: لا تشربوا أبدًا حتى تَشربوا من الحميم، فقال العباسى بن على للحسين عليه السلام:

---

(١) المغرة: الطين الأحمر.

(٢) الشاكى هنا: المريض.

يا أبا عبد الله، ألسنا على الحقّ؟ قال: نعم، فحَمل عليهم، فكشفهم عن الماء حتى شربوا وأسقوا.

ثم بعث عبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد أن قاتلهم. فقال الحسين عليه السلام: يا عمر، اخترْ منّي إحدى ثلاث: تتركني أرجع كما جئت، وإن أبيت هذه فسيِّرني إلى الترك أقاتلهم حتى أموت، وإن أبيت هذه فأبعث بي إلى يزيد لأضعَ يدي في يده. وأرسل إلى ابن زياد بذلك، فَهَمَّ أن يسيِّره إلى يزيد، فقال له شمِر بن ذي جوشن: قد أمكنك الله منه – أو قال: من عدوِّك – وتسير إلى الأمان! لا، إلّا أن ينزلَ على حُكْمك. فأرسل إليه بذلك، فقال: لا حُبًّا ولا كرامة! أَنْزل على حكم ابن سُمَيّة!

وكان مع عمر بن سعد قريب من ثلاثين رجلًا من أهل الكوفة، فقالوا: يَعْرِض عليكم ابنُ بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثَ خصال: فلا تقبلون منها شيئًا! فتحوّلوا مع الحسين عليه السلام، فقاتلوا حتى قُتلوا، وقُتل الحسين رضى الله عنه وجميع من معه رحمهم الله، وحُمِلَ رأسُهُ إلى عُبيد الله بن زياد، فوضع بين يديه على تُرْس، فبُعث به إلى يزيد، فأمر بغَسْله، وجعله في حريرة، وضرب عليه خَيْمة وَوَكّل به خمسين رجلًا. فقال واحد منهم: نمت وأنا مفكّر في يزيد وقتلِه الحسين عليه السلام، فبينا أنا كذلك إذ رأيت سحابةً خضراء فيها نور قد أضاءت ما بين الخافقين، وسمعت صَهيلَ الخيل ومناديًا ينادى: يا أحمد، اهْبِط، فهبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه جماعة من الأنبياء والملائكة، فدخل الخيمة وأخذ الرأس، فجعل يقبّله ويبكي ويضمُّه إلى صدره، ثم التفت إلى من معه فقال: انظروا إلى ما كان من أمّتي في ولدى! ما بالهم لم يحفظوا فيه وصيّتي، ولم يعرفوا حقّي! لا أنالَهم الله شفاعتي. قال: وإذا بعدّة من الملائكة يقولون: يا محمد، الله تبارك وتعالى يقرئك السلام، وقد أمَرنا بأن نسْمَع لك ونطيع. فمرْنا أن نقلب البلادَ عليهم، فقال صلى الله عليه وسلم: «خلوا عن أمتي فإن لهم بلغَةً وأمدًا». قالوا: يا محمد، إن الله جلّ ذِكْره أمرنَا أن نقتل هؤلاء النفر، فقال: «دُونَكم وما أمِرتم به». قال: فرأيت كل واحد منهم قد رمى كل واحد منّا بحربة، فَقُتل القوم في مضَاجعهم غيرى، فإني صحتُ: يا محمد، فقال: «أَوَأنتَ مستيقظ؟»، قلت: نعم، قال: «خَلُّوا عنه، يعيش فقيرًا ويموت مذمومًا» فلما أصبحت دخلتُ على يزيد وهو منكسر مهموم، فحدَّثته بما رأيت، فقال: امضِ على وجهك وتب إلى ربِّك[1].

* * *

أبو عبد الله غلام الخليل رحمه الله، قال: حدثنا يعقوب بنُ سليمان، قال: كنت في ضَيْعتي، فصلّينا العَتَمَة، وجعلنا نتذاكر قتْل الحسين عليه السلام، فقال رجل من القوم: ما أحدٌ أعانَ عليه إلّا أصابه بلاء قبل أن يموت؛ فقال شيخٌ كبير من القوم: أنا مِمّن شهدَها، وما أصابني أمر كرهتُه إلى ساعتي هذه. وخبا السراجُ، فقام يصلحه، فأخذته النار، وخرج مبادرًا إلى الفُرات وألقى نفسه فيه، فأشتعَل وصار فحمة.

* * *

(١) الخبر في العقد ٤: ٣٧٦ – ٣٨٠ مع اختلاف في الرواية.

قيل: ودخل سنان بن أنس على الحجَّاج بن يوسف فقال: أنت قتلت الحسين بن على؟ فقال: نعم، قال: أما إنكما لن تجتمعا فى الجنّة. فذكروا أنهم رأوه مَوسوسًا يلعب ببوله كما يلعب الصِّبيان.

قال: وقال محمد بن سيرين: ما رئيت هذه الحمرة فى السماء إلا بعد ما قتل الحسين عليه السلام، ولم تطمث امرأة بالروم أربعة أشهر إلا أصابها وضح. فكتب ملك الروم إلى ملك العرب: قتلتم نبيا، أو ابن نبى.

وروى أنه لما قُتل رضى الله عنه احمرت آفاق السماء، واقتسموا ورسا كان معه فصار رمادا، وكانت معه إبلٌ فجزروها فصارت جمرة فى منازلهم.

مساوئ الحرة

قال: ولما كان من أمرِ الحسين عليه السلام ما كان، قدم عمرُو بن حفص بن المغيرة – وكان تزوج يزيد بن معاوية ابنته، وأعطاه مالاً كثيرًا – فلما قدم المدينة، جاءه محمد بن عمرو بن حَزْم، وعبيد الله بن حنظلة، وعبد الله بن مُطيع بن الأسود، وناس من وجوه أهل المدينة، قالوا: نَنشُدُك الله ربَّ هذا البيت، وربَّ صاحبِ هذا القبر، إلا أخبرتَنا عن يزيد! فقال: إنه لَيشرب الخمر، ويُنادِم القرد، ويفعل كذا ويصنع كذا. فقالوا: والله ما لَنا بأهل الشام من طاقة، ولكن ما يحلّ لنا أن نُبايعَ رجلاً على هذه الحال، فقال محمد بنُ عمرو لأهله: هاتوا دِرْعِي. ثم خرج.

فخرج أهل المدينة وخلعوا يزيد، وأخرجوا عثمان بن محمد بن أبي سفيان وبني أمية من المدينة – وكان عثمان والى المدينة – ثم قال محمد بن أبي جهْم لأهل المدينة: أطيعوا أمرى اليوم، واعصُونى الدهر. اقتلوا سبعة عشر رجلا من بنى أميّة لا تروا شرًّا أبدًا. فأبى أهل المدينة أن يقتلوهم، وأخذوا عليهم المواثيقَ ألاّ يرجعوا إلى المدينة مع جيش أبدًا. فبعث عثمانُ بن محمد بن أبي سفيان قميصه مشقوقًا إلى يزيد، وكتب إليه: واغَوْثاه! إن أهلَ المدينة أخرجوا قومنا من المدينة، وشقُّوا ثَوْبِى، وارتكبوا منى[1].

قال أبو مَعشر: حدّثنا رجل قال: خرج علينا يزيد بعد العتمة ومعه شمعتان: شمعة عن يمينه، وشمعة عن يساره، وعليه مُعصفرتان كأنهما قطرتا دمٍ، وإزارٌ ورداءٌ، وقد نفَش جُمّته كأنها بِرْس[2]. فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أمّا بعد، يا أهل الشام، فإنّه كتب إلىّ عثمانُ بن محمد بن أبي سفيان: إن أهلَ المدينة أخرَجوا قومنا من المدينة، ووالله لأن تَقع الخَضْراء على الغَبْراء أحبُّ إلىّ من هذا! قال: وكان معاوية أوصَى يزيد: إنْ رابك من قومك رَيْب، أو انتقَض عليك منهم أحدٌ، فعليك بأعْورِ بنى مُرّة فاستشره – يعنى مسلم بن عقبة. فلمّا كان تلك الليلة قال: أين مسلم بنُ عُقْبة؟ فقام وقال: هأنذا، قال: كن معى، فجعل يزيد يعبى الجيوش – وكان ابن سنان نازلاً على مُسلمٍ – فقال له: إن أمير المؤمنين قد بعثَنى إلى المدينة ومكّة، قال: استعفِه، قال: لا، قال: فاركب فيلاً أو فيلة وتكن أبا يكسوم. فمرض مسلم قبل خروجه من الشام، فدخل عليه يزيدُ ابن معاوية، فقال: قد كنت وجهتك لهذا البعث، وأراك مُدنَفًا! فقال: يا أمير المؤمنين، أنشدك الله ألاّ تَحْرِمَنى أجرًا ساقَه الله إلىّ، إنما هو أمر خفيف، وليس علىّ من بأس. قال: فلم يطق من الوجع أن يَركَبَ بعيرًا ولا دابّة. قال: فوُضِع على سرير، وحمله الرجالُ على أعناقهم حتى جاءوا به مكانًا

---

(١) كذا فى الأصول، وفى العقد «كتب عثمان بن محمد إلى يزيد بما أجمع عليه أهل المدينة من خلاف».
(٢) فى الأصول: «ترس»، والبرس: القطن المندوف.

يقال له البَتْراء[١]، فأراد النزول به، فقال: ما اسم هذا المكان؟ قيل البَتْراء، قال: لا تنزلوا به، فنزلوا بقهر[٢]. ثم ارتحلوا حتى نزلوا الحرّة.

فأرسل إلى أهل المدينة: إنّ أمير المؤمنين يقرأ علَيكم السلام ويقول: أنتم الأصل والعَشِيرة، فاتّقوا الله واسمعوا وأطيعوا، فإنّ لكم فى عهد الله وميثاقه عطاءين فى كلّ سنة: عطاءٌ فى الشتاء، وعطاءٌ فى الصيف، ولكن عندى فى عهد الله أن أجعل سِعْرَ الحنطة عندكم سعر الخَبط – والخَبط يومئذ سبعة[٣] أصوُع بدرهم – فقالوا: نخلعه كما نَخْلع عمائمنا ونعالَنا، فقاتَلهم فَهَزَمَهم، وقتل عبد الله بن حنظلة، وابن حَزم، وبضعة عشر رجلًا من الوجوه، وتسعون رجلًا من قريش، وبضعة وسبعون رجلًا من الأنصار، وقُتِل من سائر الناس نحو أربعة آلاف رجل، وقتِل ابنان لعبد الله بن جعفر، وقتل أربعةٌ من ولد زيد بن ثابت. وقال مسلم لعبد الله بن جعفر: اخرج عن المدينة لا يقع بصرى عليك. وانهب المدينة ثلاثًا، فقتل الناس[٤]، وضجّت النساء وذهبت الأموال، فلما فرغ مسلمٌ من القتال، انتقل إلى قصر ابن عامر، فدعا أهلَ[٥] المدينة ليبايعوه، وكان ناس منهم قد تحصّنوا فى عَرْصة سعيد؛ منهم محمد بن أبى جَهْم ونفرٌ معه، فدعاهم للبيعة، فقال: تبايعون لعبد الله يزيد أمير المؤمنين على أنكم خَوَلُه؛ مما أفاء الله عليه بأسياف المسلمين، إن شاء وَهَب، وإن شاء أعتق، وإن شاء استرق. فبايعه ناس منهم على ذلك، وجاء عمرو بن عثمان بيزيد بن عبد الله بن زَمعة – وجدّته أمّ سَلَمة زوج النبى ﷺ، وكان عمرو بن عثمان قال لأمّ سلمة: أرسلى معى ابن ابنتك ولكِ منّى عهدُ الله وميثاقه أن أردّه إليك كما أخذتهُ منك. فجاء به إلى مُسلم، فجلس عمرو بن عثمان على طَرَف سريره، فلما تقدّم يزيد بن عبد الله، قال: تبايع ليزيد أمير المؤمنين على أنك من خَوَله مما أفاء الله عليه بأسياف المسلمين، إن شاء وهَبَ وإن شاء أعتق، وإن شاء استرقّ. فقال: لا، أنا أقرب إلى أمير المؤمنين منك، فقال: والله لا أستقيلها منك أبدًا. فقال عمرو بن عثمان: أنشدك الله فإنى أخذتهُ من أمّ سلمة بعهد الله وميثاقه أن أردّه إليها.

قال: فرَكَلَه وَرَمَى به من فوق السرير، فقال: لو قتلها ما أقلتُك، فقتِل يزيد بن عبد الله، ثم أتَى بمحمد بن أبى جَهم، فقال له: أنت القائل: اقتلوا سبعة عشر رجلا من بنى أمية لا تروا شرًّا أبدًا! قال: قد قلْتُها، ولكن لا يطاع لقصير أمر، أرسِل يَدِى من غلى، وقد بَرِئت منى الذّمة، قال: لا، حتى أقدمك إلى النار، فضرب عنقه، ثم جاءوه بمعقل بن سنان وكان جالسًا فى بيته، فأتاه مائة رجل من قومه، فقالوا: اذهب بنا إلى الأمير حتى نبايعه، فقال: إنى قد قلت له كلمة، وإنى أتَخوّفه، قالوا: لا والله لا يصل إليك أبدًا. فلما بلغوا البابَ أدخلوا معقِلًا وغلّقوا الباب، فلّما نظر إليه مسلم قال: إنى أرى الشيخَ قد لغب، اسقوه من الثلج الذى زوّدَنيه أمير المؤمنين. قال: فخاضوا[٦] له ثلجًا بعَسَل، فشربه، فقال: أشربت؟ قال: نعم. قال: والله لا تَبولهُ من مَثَانَتِك آبدًا، أنت القائل:

---

(١) البتراء: ذكره صاحب مراصد الاطلاع وقال: اسم جبل.
(٢) القهر: أسافل الحجاز مما يلى نجد.
(٣) ك: «سبعة».
(٤) ل، ك: «النساء».
(٥) ك: «بأهل».
(٦) خاضوا له، أى خلطوا.

اركب فيلًا أو فيلة، وتكن أبا يكسوم! قال: أما والله لقد تخوفت ذلك منك، ولكن غلبتنى عشيرتى، قال: فجعل يفزِّر جُبّةً عليه من بُرود ويقول: أما والله يا أعداء الله ما شققتها جزعا من الموت، ولكنى أخشى أن تُسلَبُوا منها. فضربت عنقه. ثم سار إلى مكة حتى إذا بلغ قفا المشلل[١] دَنِف، فدعا بحصين بن نُمير الكِندىّ، فقال: يا بردعَة الحمار، والله ما خَلَق الله أحدًا هو أبغضُ إلىّ منك، ولولا أن أمير المؤمنين أمرنى أن استخلفكَ ما استخلفتك، أتسمع؟ قال: نعم. قال: لا يكون إلّا الوِقاف ثم الثقاف ثم الانصراف[٢]، لا تمكِّن أذنيك من قريش.

ثم مات مسلم لا رحمه الله، فدُفن بقَفَا المشلّل وكانت أمُّ يزيد بن عبد الله بن زمعة بأسناده، فخرجت إليه فنبشته وأحرقته بالنار، وأخذت أكفانه فشقّقتها وعلّقتها بالشجرة[٣].

قال أبو معشر: أقبلتُ من مكة حتى إذا كنت بقفا المشلّل عند قبر مسلم، إذا رجلٌ من أهل الشام ممّن حضر وقعةَ الحرَّة يسايرنى، فقلت له: هذا قبر مسلم بن عُقْبة؛ فقال: أحدِّثك بالعجيب، كان مع مسلم رجلٌ من أهل الشام يقال له: أبو الغَرّاء، فإذا نصف شعره أسود، ونصفه أبيض، فقلت له: ما شأنك؟ قال: لما كانت ليلة الحَرّة جئت قَباء، فدخلتُ بيتًا، فإذا فيه امرأة جالسة معها صبى لها، وليس عليها شيء إلّا دِرْع، وقد ذُهِب بكلّ شيء لها، فقلت لها: هل من مال؟ قالت: لا والله! لقد بايعتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على أننّى لا أزْنِى ولا أسرق ولا أقتُل ولدى. قال: فأخذت برجل الصبى فضربتُ به الحائط، فنثر دماغه، فخرجتُ فإذا نصف رأسى أبيض ونصفه أسودَ كما ترى.

---

(١) المشلل: جبل يهبط منه إلى قديد، من ناحية البحر.

(٢) الوقاف: أن يقف كل واحد للآخر مقام خصومة أو حرب، والثقاف: الجلاد.

(٣) الخبر في العقد ٤: ٣٨٧ – ٣٩١.

محاسن ما قيل فيهم من الأشعار

قال كعب بن زهير فى الحسين بن على رحمة الله عليهما:

مَسَحَ النَّبىُّ جَبينَه فلَهُ بياضٌ فى الخدودِ[1]
وبوجهِهِ دِيباجةٌ كرمُ النبوّة والجدود

[مجزوء الكامل]

قال: وأنشد الحِمْيَرىّ فى الحسن والحسين[2]:

أتى حَسَنًا والحُسَيْنَ الرسولُ[3] وقد بَرَزا حَجْرَةً يلعبانِ[4]
فَضمَّهما وتَفَدّاهُما[5] وكانا لَديه بذاكَ المكانِ
ومرّ وتحتهما عاتقاه[6] فنعْم المطيّةِ والراكبانِ!

[المتقارب]

قال: وقال المأمون: أنصف شاعر الشِّيعة حيث يقول:

إنّا وإياكُمْ نموتُ فلا أفلحَ بعد الموت مَنْ نَدِما

[الكامل]

وقال المأمون:

وَمِنْ غاوٍ يَغَصُّ عَلىَّ غيظًا إذا أدنيتُ أولادَ الوصِىِّ
يُحاوِلُ أن نورَ الله يُطفَى ونورُ الله فى حِصْنٍ أبىِّ
فقلتُ أليسَ قد أوتيت عِلمًا وبانَ لك الرشِيدُ من الغوى!
وعُرِّفتَ احتجاجى بالمثانى وبالمعقول والأثَر القوى
بأيّةِ خلّةٍ وبأىّ معنىً تفَضّلُ مُلحدينَ على على!
علىٌّ أعظمُ الثّقلَين حقًا وأفضلُهم سوَى حق النبى

[الوافر]

وقال غيره وأجاد:

إنّ اليهود بحبها لنبيها[7] أمنت معرة دهرها الخوان

(١) ملحق ديوانه ٢٥٩.
(٢) الأغانى ٧: ٢٥٩ (طبعة الدار) مع اختلاف فى الرواية.
(٣) الأغانى: «النبى».
(٤) حجرة: ناحية.
(٥) الأغانى: «تفداهما ثم حياهما».
(٦) الأغانى: «فراح وتحتهما».
(٧) ل: «لحبها».

وذَوُو الصليب بحبّ عيسى أصبحوا يمشون زَهْوًا فى قرى نجران
وَالمؤمنون بحبّ آل محمدٍ يُرمَوْن فى الآفاقِ بالنّيرانِ
[الكامل]

وقال آخر سامحه الله:

يالَك من مَتجَرَةٍ كاسِدَهْ بين شَياطينَ عَتَتْ مارِدَهْ
إذا تذكّرْتَ بنى أحْمَدٍ تنافروُا كالإبِلِ الشارِدَهْ
فقلْ لمن يَلْحَاكَ فى حُبّهمْ خانتْكَ فى مَوْلِدِكَ الوالِدَهْ
[السريع]

وقال دِعبل رحمه الله تعالى:

قُلْ لابنِ خائِنة البُعولِ وابن الجَوَادَةِ والبخيلِ
إن المَذَمّةَ لِلْوَصِىّ هى المذّمةُ للرّسولِ
أتذُمُّ أولاد النبىّ وأنتَ من ولدِ النّغولِ[1]
[مجزوء الكامل]

المَوْصِلّى النصرانىّ:

عَدِى ونُعَيمٌ لا أحاول ذكْرَهُمْ بسوءٍ ولكنّى مُحبٌّ لهاشِم
وهل تأخذنّى فى علىٍّ وحُبِّهِ إذا لم أعِشْ يومًا ملامةُ لائمِ
يقولون ما بالُ النصارى تُحِبُّهُ وأهل التقى من معرب وأعاجم!
فقلت لهم إنى لأحْسِبُ حُبَّهُ طواه إلهى فى قلوب البهائمِ
[الطويل]

وفى بنى أمية، قيل: دخل خالد بن خليفة الأقطع على أبى العبَّاس، وعنده علىّ بن هشام بن عبد الملك، فأشار إلى أبى العباس وهو يقول شعرًا:

إن تُعاقبُهم علي رِقّةِ الدين فقد كان دِينُهُمْ سامريًّا
كان فحلًا زمانُهم يرمَحُ النا سَ، فأضحى الزمانُ مِنْهُمْ خَصِيًّا
[الخفيف]

---

(١) نغل المولود، أى فسد نسبه.

محاسن السّبق إلى الإسلام

روى عن عائشة رضى الله عنها قالت: خرج أبو بكر رضى الله عنه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلّم قبل الإسلام، وكان له صِديقًا فى الجاهلية، فلقيَه، فقال: يا أبا القاسم، قعدت فى[1] مجالس قومك، واتّهموك بالعيب لآبائها وأدْيانها. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّى رسول الله، أدعوك إلى الله»؛ فما كان إلاّ أن سَمِع أبو بكر كلامَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فشرح الله صدرَه، فأسلم، فانصرف عنه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وما بين الأخشبين[2] أحدٌ أكثر سرورًا بإسلام أبى بكر رضى الله عنه منه. ومضى أبو بكر حتى أتى طلحةَ بنَ عُبيد الله والزبيرَ بنَ العوّام، وسعد بنَ أبى وقاص، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا. ثم [مضى] عثمان بن مظْعون وأبو عبيدة بن الجرّاح وعبد الرحمن بن عوف وأبو سلمة بن عبد الأسد والأرقم بنَ أبى الأرقم مع أبى بكر، فأسلموا.

* * *

وأما إسلام عمر رضى الله عنه، فإن قريشا بعثت بعمر رضى الله عنه ليقتلَ النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم، فخرج عمرُ متقلّدًا سيفَه فى أثر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وهو يومئذ فى دار فى أَصْل الصَّفَا، فلقيَه نُعيم بن عبد الله بن أسِيد – وقد أَسلَم – فقال: يا عمر، أين أراك تريدُ؟ قال: أريد محمدًا؛ هذا الذى سَفَّه عقولَنا، وشتم آلهتنا، وخالَفَ جماعَتنا، لأقتلنَّه! قال نعيم: لبئس المشى والله مشيتَ يا عمر، ولقد أفرطتَ وأردت هَلَكَة عدىّ بن كعب بمعاداتك بنى هاشم! أَوَ ترى أنّك آمِنٌ من أعمامه وبنى زُهرة وقد قتلتَ محمدًا! فتحاوَرَا، حتى ارتفعت أصواتُها، فقال له عمر: والله لأظُنّك قد صَبَأت، ولو أعلم ذلك منك لبدأتُ بك. فلما رأى نعيم أنه غيرُ منته قال: أمَا إنّ أهلَكَ قد أسلموا وتركوك وما أنت عليه. فلما سمع ذلك نفرَ وقال: أيّهم؟ قال: خَتنُك وابنُ عمّك وأختُك، فانطلَق إلى أخته، وقد كان رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم اجتمع عليه طائفةٌ من ذوى الفاقة من أصحابه، فقال لأولى السَّعَة: يا فلان، فليكن عندَك فلان. فوافق ابن عمّ وخَتنُه سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل، قد دفع إليه رسَولُ الله صلّى الله عليه وسلّم خَبّابَ بن الأرَتّ مولى أمّ أنمار حَليف بنى زُهرة، وقد أُنْزِلَتْ سورة «طه». فأقبل عمر حتى انتهى إلى باب دار أختِه ليتعرّف ما بلَغه، فإذا خَبّابٌ عند أختِهِ يَدْرُس عليه سورة «طه»، و«إذا الشمس كُوِّرتْ». فلما دخل عمر حَذِرَته أختُه، وعرفت

---

(١) ل: «من».

(٢) الأخشبان: جبلان يضافان إلى مكة تارة، وإلى منى تارة، أحدهما أبو قبيس، والآخر قيقعان.

الشرُّ فى وجهه، وخَبأت الصحيفة، وراغ خَبّابٌ فدخل البيتَ، فقال عمر لأخته: ما هذه الهَيْنمة[١]؟ قالت: حديثٌ نتحدّثُ به بيننا، فحلف ألاّ يبرح حتّى يتبيّنَ شأنَها. فقال له زوجُها: إنّكَ لا تستطيع أنْ تجمع الناسَ على هواكَ يا عَمّى، وإن كان الحقّ سِواه. فَبطَش به عمرُ، ووطئه وطئًا شديدًا، فقامت أختُ عمر تحجُز بينهما، فنَفَحها بيدِه فشجَّها، فلما رأت الدمَ قالت: هل تَسمع يا عمر! أرأيت كلَّ شيء بلغكَ عنّى مّما يذكَر مِنْ تَرْكِي آلهتك وكُفْرى باللّات والعزّى فهو حقّ! وأنا أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأن محمدًا رسول الله، فَأتِمّ أمركَ، واقض ما أنت قاضٍ. فلما رأى عمرُ ذلك سُقِط فى يده[٢]، فقال لأخته: أرأيتِ ما كنت تَدْرُسين آنفًا؟ أعطيك موثقًا لا أمحُوه حتى أردَّه إليك، ولا أخونكِ فيه. فلما رأت أختُه حِرْصَهُ على الكتاب رَجَتْ أن يكون ذلك لدعوةِ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقالت له: إنَّك نجسٌ، ولا يمسّه إلاّ المطَّهرون. فقام واغتسل من الجَنابة وأعطاها مَوْثِقًا، فاطمأنَّت به ودفعت إليه الصحيفة، فقرأ «طه» حتى بلغ: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾[٣]. وقرأ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ حتى انتهى إلى قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾[٤]. فأسلم عند ذلك، وقال: أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله. وخَلَع الأنداد وكَفر باللّات والعُزّى. فخرج خَبّاب وكان داخلا فى البيت - مكبِّرًا، وقال: أَبْشِرْ بكرامة الله يا عمر! فإنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دعا أن يُعِز الله بك الإسلام، فقال عمر: دُلّونى على المنزل الذى فيه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال له خَبّاب: هو فى الدار التى فى أصل الصَّفا، فأقبل عمرُ وقد بلغ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم أن عمر يطلبه ليقتله، ولم يبلغه إسلامُه. فلما انتهى عمرُ إلى الباب ليستفتح، رآه رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم متقلّدًا سيفه، فأشفقوا منه، فلما رآه حمزةُ وحدَه، قال: افتحُوا، فإنْ كان الله يريد بعمرَ خيرًا اتّبع رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم وصدَّقه؛ وإن كان غير ذلك قتلناه بسيفه، ويكون قتله علينا هيِّنًا. فابتدره رجال من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ورسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم يُوحى إليه، فسمع صوتَ عمر، فخرج ليس عليه رداء حتى أخذ بمجمع رداء عمرَ وقميصه، وقال له: أما والله ما أراك تنتهى يا عمر حتى يُنزل الله عزّ وجلّ بك من الزَّجْر ما أنزله بالوليد بن المُغيرة! ثم قال: «اللهمّ اهد عمرَ» فضحك عمرُ وقال: يا رسول الله، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك محمد عبده ورسوله. فكبّر أهل الدار تكبيرةً سمعَها مَنْ وراء الدار، والمسلمون يومئذ بضعة وأربعون رجلًا وإحدى عشرة امرأة، ثم قال عمر: يا رسول الله، نحن بالإسلام أحقّ أن نبادى منّا بالكُفر، فليظهرنّ دين الله عزّ وجلّ بمكة، فخرج عمر وجلس فى المسجد وصلى علانيةً وأظهر الإسلام، فلم يزل الدِّين عزيزًا منذ أسلم عمر رضى الله عنه.

* * *

(١) الهينمة: الصوت الخفى.

(٢) أسقط فى يده: ندم.

(٣) سورة طه ١٥، ١٦.

(٤) سورة التكوير ١ - ١٤.

وأما إسلامُ عثمان، فإنه روى أن عثمانَ بنَ عفان رحمه الله قال: دخلت على جَدّتى[1] بنت عبد المطلب أعودها، فإنّى لعِندَها إذا جاء رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم يعودها، فجعلتُ أنظر إليه وقد نَشَر من شأنه حينئذ شيئًا، فأقبل علىّ فقال: ما شأنُك يا عثمان؟ فجعل لى إلى الكلام سبيلاً، فقلت: أعجبُ منك ومن مكانك فينا وفى قومك، وما يقال عليك! فقال: لا إلّه إلّا الله. فالله يعلم أنّى اقشعْررت. ثم قال: ﴿وَفِى السَّمَاءِ رِزْقُكم ومَا تُوعَدُون * فَوَرَبِّ السماء والأرض إنَّه لحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾[2]، فقام، فقمتُ فى أثره، فأسلمتُ.

---

(١) هى البيضاء بنت عبد المطلب، عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٢) سورة الذاريات ٢٢، ٢٣.

مساوئ من ارتد عن الإسلام

منهم جَبَلَة بن الأَيْهَم الغسانّي. لما افتُتِحت الشامُ، ونظر جَبلة إلى هَدْى المسلمين ووَقارهم، أحبَّ الدخولَ فى الإسلام، فسار نحوَ المدينة إلى عمرَ بن الخطاب رحمه الله، فلما بلغ عمرَ قدومَه قال للمهاجرين: استقبِلوه، وأظهروا تعظيمه وتبجيله، فإنه قريبُ العهد بالمُلْك، فاستقبله الناس، وأظهروا بِرّه، وأقبل جَبَلة حتى دخل على عمر رضى الله عنه.

فقرَّب مجلسَه وأَدْنَاه ووَعده من نفسه خيرًا، فأسْلَم، وأقام بالمدينة. حتى إذا حضر أوانُ الموسم حجّ عمرُ رحمه الله، وخرج معه جَبَلة، فبينما هو يطوفُ بالبيت مُحرِمًا، وعليه إزاران، قد تردّى بواحدٍ[1]، واتَّزر بالآخر، إذ وطىء رجلٌ طرف إزاره، فانحلّ عنه حتى بدتْ عورتُه فغضب ووثب على الرجل فلطمه. فتعلق به الرجل وجماعة معه وانطلقوا به إلى عمر رضى الله عنه، وشهدوا عليه، فقال عمر: أقِدِ الرجل أو استوهِب [نفسك][2] منه، فقال جبلة: وكذلك هذا الدين لا يُفضِّل فيه شريفٌ على وضيع، ولا مَلِك على سُوقة! قال عمر: قال الله تعالى، وقوله الحقّ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاكم﴾[3]. إنَّ الناسَ شريفُهم ووضيعهم فى الحقّ سواء. فانصرف جَبَلة، فلمَّا جَنَّ عليه الليل، خرج فى حَشَمه وعياله؛ حتى لحقوا بأرض الشام مرتدًّا عن الإسلام.

فكتب عمر إلى أبى عبيدة بن الجرّاح، فأمره أن يستتيب جَبَلة، فإن تاب وإلا ضرب عنقه. وبلغ ذلك جَبَلة، فخرج من أرض الشام حتى دخل أرض الرُّوم؛ وأتى الملك فأخبره بأمره، ورجوعه إلى النَّصْرانية، فسُرَّ الملك بقدومه، واستخلفه على مُلكه، وجعله جائز الأمر فى سلطانه، [وأقطعه حيث شاء، وأجرى عليه من النزل ما شاء وجعله من محدِّثيه وسمَّاره][4]: فأقام عنده، فلما وَلِىَ معاوية بن أبى سفيان بعث رجلا من الأنصار - يقال له تميم بنُ بشر[5] - إلى قيصر مَلِكِ الرُّوم فى بعض أموره.

قال تميم: فلما دخلت على قيصر أبلغته الرسالة، وجلست عنده، فحدَّثنى[6] مَلِيًّا ثم قال: هل لك فى لقاء رجل من العرب من أهل بيت الملك؟ فقلت: ومَنْ هو؟ قال: جَبَلة بن الأيهم؛ قلت: إن لى فى ذلك أملاً[7]، وإنى لرجُلٌ من قومه. فبعث معى رجلًا حتى أدخلنى عليه وهو فى مجلس له يغشى

---

(١) ك: «بأحدهما».

(٢) تكملة يقتضيها السياق، وفى الأغانى: «فإما أن ترضى الرجل أو أقيده منك».

(٣) سورة الحجرات ١٣.

(٤) من ل.

(٥) فى خزانة الأدب: «جثامة بن مساحق الكنانى».

(٦) ل: «فجذبنى».

(٧) ك، ل: «أهلا».

العيونَ حُسنُه وكثرةُ تَصاويره[١]، مطليّة حيطانُه بماء الذهب والفِضّة، يتلألأ تلألؤًا، وحولَه نفرٌ من بَطارقة الرُّوم، فسألنَى: مَنْ أنا؟ فانتسبتُ له، فقال: حيّاك الله، فإننا بنو عمّ،! ثم أمر جُلساءهُ فخرجوا من عنده، وخَلا بِى يسألُنى عن العرب وأماكِنِها، فخبَّرتُه بجميع ما سألنى عنه، فبكى حتى خضّلت لحيتَه الدموعُ، ثم أنشأ يقول:

تَنَصَّرتُ بعدَ الدِّين من عار لَطْمَةٍ[٢] ... وَمَا كانَ منها لوْ صَبَرتُ لها ضَرَر
تكنّفنِى منها لَجَاجٌ ونَخْوَةٌ ... وبعت بها العين الصحيحةَ بالعَوَرْ[٣]
فياليتَ أمِّى لم تلِدنِى وليتَنى ... ثَوَيْتُ أسيرًا فى ربيعةَ أو مُضَرْ!
وياليتنِى أرعَى المخاض بقَفْرةٍ ... ولم أُنكِر القَوْل الذّى قاله عُمَر
وياليتَ لى بالشام أدنى مَعيشةٍ ... أجالسُ قومى فى العَشّياتِ والبُكَرْ[٤]
أدِينُ بما دانوا به من شَريعةٍ ... وقد يجلسُ العَيْرُ الضَّجورَ على الدَّبَر

[الطويل]

قال: ثم دعا بغدائه، فلمافرغنا خرجت علينا جاريتان فى يد إحداهما بربط[٥] وفى يد الأخرى مزمارٌ، فجلسنا، ثم خرجت علينا جاريتان فى يد إحداهما جامٌ[٦] فيه مِسكٌ مسحوق، وفى يد الأخرى جامٌ مملوءٌ ماء ورد، ثم أقبل طائران كانا شبيهين بطاوسين أوتُدْرَجين[٧]، فسقطا فى الجام، واحتملا المسك بجناحيهما، فرشاهَ علينا.

وقال جَبَلة للمغنيتين. غنيانا، فغنتاه.

لمن الدارُ أقفرتْ بمعانِ ... بين أعْلى اليَرْموك فالصمّان[٨]
ذاك مغنىً لآل جفنة فى الدهـ ... ـر وحقٌّ تصرُّف الأزمان
قد أرانى هناك حقًّا مكينًا ... عند ذى التاجِ مَقْعَدى ومكانى

[الخفيف]

---

(١) ك: «وكثرة التصاوير فيه».

(٢) الأغانى والخزانة: «تنصرت الأشراف من عار لطمة».

(٣) الخزانة: «وكنت كمن باع الصحيحة بالعور».

(٤) الأغانى: «أجالس قومى ذاهب السمع والبصر».

(٥) البربط: العود (معرب).

(٦) الجام: إناء من الفضة.

(٧) التدرج: طائر.

(٨) لحسان، ديوانه ٤١٤: ومعان، بالفتح، والمحدثون يقولون بالضم: مدينة فى طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحى البلقاء. والصمان –وهى رواية ياقوت والأغانى والخزانة– من نواحى الشام بظاهر البلقاء، وفى ديوانه «الخمان»: وهى من نواحى البثنية من أرض الشام، وفى الأصلين: «المسريات» تحريف.

قال: ثم بكى حتى خضلت دموعُه لحيتَه، ثم قال: غنياني، فغنتا:

لله دَرُّ عِصَابةٍ نادمتُهمْ	يومًا بِجِلِّقَ في الزَّمان الأول[1]
أولادُ جَفنةَ قبر أبيهمُ	قَبْرُ ابن مارية الكريم المفضل
يَسقُونَ من هبط البريصَ عليهم[2]	بردَى يصفق بالرحيق السلسل[3]
يُغْشَوْنَ حتى ما تَهِرُّ كلابهم	لايَسألونَ عن السواد المقبل
بيضُ الوجوه كريمةٌ أحسابهم	شم الأنوف من الطّراز الأوَّل

[الكامل]

ثم قال لي: ما فعل ابن الفريعة[4]؟ يعني حسان بن ثابت. قلت: حي إلا أنه كف بصره، فوجد من ذلك وَجْدًا شديدًا وبكى، وقال لخادم له: انطلق فأتني بأربعمائة دينار، فأتاه بها فناوَلينها، وقال: أوصِلْها إلى حسَّان. ثم ودعته وخرجت حتى أتيت معاوية فأخبرتُه بجواب رسالة قَيْصر، ثم سِرْت من الشام حتى أتيت المدينةَ ولقيتُ حَسَّانًا، ودفعتُ إليه الدنانير، فقال:

إن ابن جفنة من بقية معشر	لم يغذهم آباؤهُم باللوم
لم ينسنى بالشام إذْ هو ربها	يومًا ولا منتصِّرًا بالروم
يعطى الجزيلَ فما يراهُ عندَه	إلّا كبعض عَطِية المذموم
ما جئتُهُ إلّا وقرَّب مجلسى	ودعا بأفضل زادِهِ المطعوم[5]

[الكامل]

---

(١) ديوانه ٣٠٨.

(٢) البريص: نهر بدمشق.

(٣) أى ماء بردى، وهو نهر بدمشق أيضًا.

(٤) هى الفريعة، بالتصغير، بنت خالد بن خبيش، خزرجية، أدركت الإسلام وأسلمت وبايعت. الإصابة ١: ٣٢٥.

(٥) رواية الأغانى:

وأتيته يومًا فقرَّب مجلسى ... وسَقَى فروّانى من الخرطوم

والخبر هناك مفصلًا فى ١٤: ٢-٧ (ساسى)، وفى الخزانة ٢: ٢٤٢-٢٤٥.

محاسن المفاخرة

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أنا سيّد ولد آدم ولا فخر».

وقال يوسف عليه السلام: ﴿اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم﴾[1].

قيل: وسمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رجلا ينشد:

إنّى امرؤ حميرى حين تنسبنى ... لا مِن ربيعةَ آبائى ولا مضر

[البسيط]

فقال: ذلك ألأَم لك وأبعَدُ من الله ورسوله!

وقال صلى الله عليه وسلم: «إذا اختلف الناس فالحق مع مضر».

وقال:

إذا مُضَرُ الحمرَاءُ كانت أُرُومتى ... وقام بنصرى خازم وابن خازم[2]

عَطَسْتُ بأنفى شامِخًا وتناولتْ[3] ... يداىَ الثُرَيَّا قاعدًا غير قائم

[الطويل]

شعيب بن إبراهيم، قال: حدثنى سيف بن عمر، عن علىّ بن يزيد، عن عبد الله بن الحارث، عن المطّلب بن ربيعة، قال: مرَّ العباسُ بنفر من قريش وهم يقولون: إنما مَثَل محمد صلّى الله عليه وسلّم فى أهله، كمثل نخلة نبتَتْ فى كِبا[4]. فبلغ ذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فوَجدَ منه، وخرج حتى قام فيهم خطيبًا فقال: «أيها الناس، من أنا؟» قالوا: أنت رسول الله، قال: «فأنا محمد بنُ عبد الله بن عبد المطّلب، إنّ الله عزّ وجلّ خلق خَلْقَه، فجعلنى من خير خلقِه، ثم جعل الخلق الذين أنا منهم فرقتين، فجعلنى من خيرِ الفرقتين، ثم جعلهم شعوبًا، فجعلنى من خيرهم شَعْبًا، ثم جعلهم بيوتًا فجعلنى من خيرهم بيتًا، فأنا خيرُكم بيتًا وخيركم والدًا، وإنّى مُباهٍ! قم يا عبّاس». فقام عن يمينه، ثم قال: «قم يا سعد[5]»، فقام عن يساره، ثم قال: «ليقرّب امرؤ من الناس عمًّا مِثل هذا، أو خالاً مثل هذا»!

* * *

---

(١) سورة يوسف ٥٥.

(٢) لخزيمة بن خازم، الأغانى ٥: ٥٣ (ساسى)؛ ورواية البيت الأول فيه:

إذا كانتِ الأحرارُ أصلى ومنصبى ... وَدافَعَ ضيمى خازم وابن خازن

(٣) الأغانى «بأنف شامخ».

(٤) الكبا: الكناسة.

(٥) هو سعد بن مالك بن وهب بن عبد مناف بن زهرة.

حدثنا سنان بن الحسن التسترى قال: حدثنا إسماعيل بن مِهران اليشكرى، قال؛ حدثنا أحمد بن محمد، عن أبان بن عثمان، عن عِكرِمة، عن ابن عبَّاس، عن علىّ بن أبى طالب، قال: لمّا أُمِرَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يعرض نفسه على القبائل خرج وأنا معه ومعه أبو بكر – وكان أبو بكر عالمًا بأنساب العرب – فدفعْنا[١] إلى مجلس من مجالس العرب، عليهم الوَقار والسكينة، فتقدم أبو بكر وسلَّم عليهم، فردُّوا عليه [السلام][٢]، فقال: مِمّن القوم؟ قالوا: من ربيعة، فقال: أمن هامتِها، أم من لهازمها[٣]؟ قالوا بل من هَامَتها العُظْمَى، قال: وأىّ هامَاتِها؟ قالوا: ذُهْل، قال: أذُهْل الأكبر أم ذُهْل الأصغر؟ قالوا: بل ذُهل الأكبر، قال: أمنكم عوْف الذى كان يقول:[٤] «لا حُرَّ بوَادِى عَوْف»؟ قالوا: لا. قال: أفمنكم بسطام بن قَيْس صاحبُ اللواء ومنتهى الأحياء؟ قالوا: لا. قال: أفمنكم جَسَّاس بن مرّة حامى الذِّمار ومانعُ الجار؟. قالوا: لا. قال: أفمنكم المُزدلِف صاحب العمامة الفردة؟ قالوا: لا. قال: فأنتم أخوال الملوك من كندة؟ قالوا: لا. قال: فأصهارُ الملوك من لخم؟ قالوا: لا. قال: فلستم من ذهل الأكبر إذن، أنتم ذهل الأصغر!

فقام إليه غلام أعرابىّ حين بَقَل وجهُه[٥]، فأخذ بزمام ناقته ورسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته يسمع مخاطبَتَه، فقال:

لَنا عَلَى من سـألَنَا أن نسـألَهْ[٦] ... والـعبْءُ لَـنْ تعـرفَـه أو تَحْـمِلَهْ

[الرجز]

يا هذا، إنك سألتنا أىَّ مسألة شئت فلم نكتمك شيئًا، فأَخبرنا مِمّن أنت؟ فقال: أبو بكر: من قريش؟ قال: بخٍ بخٍ! أهل الشرف والرياسة! فأخْبرنى من أىِّ قريشٍ أنت؟ قال: من تيم بن مُرّة، قال: أفمنكم قُصَىُّ بنُ كلاب الذى جمع القبائل من فِهر، فكان يقال له: مجمِّعًا؟ قال أبو بكر: لا. قال: أفمنكم هاشم الّذى قال فيه الشاعر:

عَمـرو العُلا هَشَم الثَّـريدَ لقـومه ... ورجـال مكة مسنتـون عجـافُ![٧]

[الكامل]

قال أبو بكر: لا؛ قال: أفمنكم شَيبةُ الحمد؛ الذى كان وجهه كالقمر يضىء ليلَةَ الظُّلْمة الداجنة، مطعم طيرِ السماء؟ قال: لا. قال: أفمِن المُفيضين[٨] بالناس أنت؟ قال: لا. قال: أفمِن

---

(١) ك: «فوقفنا على مجلس».

(٢) من ك.

(٣) الهامة: الرأس، واللهزمة: عظم نأتى فى اللحى تحت الأذن؛ والكلام على التمثيل.

(٤) ل: «يقال».

(٥) بقل وجه الغلام؛ إذا ظهر شعره وفى مجمع الأمثال: «يقال له دغفل».

(٦) مجمع الأمثال للميدانى: «إن على سائلنا».

(٧) أمالى المرتضى ٢: ٢٦٩، ونسبه إلى ابن الزبعرى.

(٨) أفاض: اندفع؛ وكانوا يفيضون من عرفات إلى مكة بالتلبية.

أهل الرِّفادة[١] أنت؟ قال: لا. قال: أفمِن أهل السقاية أنت؟. قال: لا. قال: أفمن أهل الحجابة أنت؟ قال: لا. قال: أما والله لو شئت لأخبرتك أنك لست من أشراف قريش! فاجتذب أبو بكر زِمام ناقته منه كهيئة المغضب، فقال الأعرابي:

صادف دَرّ السيل در يدفعه ... في هَضبة ترفعه وتضعه

[الرجز]

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال علي: فقلت: يا أبا بكر، إنك لقد وقعت من هذا الأعرابي على باقعة! فقال: أجل يا أبا الحسن، ما من طامّة إلا فوقها طامة وإن البلاء موكل بالمنطق[٢].

(١) الرفادة: شيء كانت قريش تترافد به في الجاهلية، فيخرج كل إنسان مالاً بقدر طاقته، فيجمعون من ذلك مالا عظيما أيام الموسم فيشترون به للحجاج الطعام؛ فلا يزالون يطعمون الناس حتى تنقضي أيام الحج، وكانت الرفادة والسقاية لبني هاشم، وأوّل من قام بها هاشم بن عبد مناف، وكانت السدانة واللواء لبني عبد الدار.

(٢) المثل والخبر في مجمع الأمثال ٤: ١٧؛ ١٦.

محاسِن كلام الحَسن بن على

رضى الله عنه

قيل: وأتى الحسن بن علىّ رضى الله عنهما معاوية بن أبى سفيان، وقد سبقه ابن عبّاس، فأمر معاوية فأنزل، فبينا معاويةُ مع عمرو بن العاص ومرْوانِ بن الحَكَم، وزياد بن أبى سفيان يتحاورون فى قديمهم وحديثهم ومجدهم، فقال معاوية: أكثرتم الفخر، فلو حضَرَكم الحسنُ بن علىّ وعبدُ الله بن عبَّاس لقصَّرَا من أعنَّتِكما ما طال. فقال زياد: وكيف ذلك يا أميرَ المؤمنين؟ ما يقومان لمروان بن الحكم فى غرْب[1] منطقه، ولا لنا فى بَوادِخِنا، فابعث إليهما فى غدٍ حتى تسمع كلامهما. فقال معاوية لعمرو: ما تقول؟ قال: هكذا، فابعث إليهما فى غدٍ.

فبعث إليهما معاويةُ ابنَه يزيد، فأَتَياه ودخلا عليه، وبدأ معاويةُ فقال: إنى أُجِلُّكما وأرفع قَدْرَكما عن المسامرة بالليل، ولا سيّما أنتَ يا أبا محمد، فإنك ابنُ رسول الله وسيِّد شباب أهل الجنّة. فتَشكَّرَا له[2].

فلما استَويا فى مجلسهما، وعلم عمرو أن الحدة ستقع به، قال: والله لابُدَّ أن أقول، فإنْ قَهَرتُ فسبيلُ ذلك، وإن قُهِرت أكون قد ابتدأت. فقال: يا حَسَنُ، إنا تفاوضنا فقلنا: إن رجالَ بنى أميّة أَصْبَرُ عند اللقاء وأمضى فى الوَغَى، وأوفَى عهدًا، وأكرمُ خِيما، وأمنَعُ لما وراء ظهورهم من بنى عبد المطلب!

ثم تكلم مروان فقال: وكيف لا نكون كذلك، وقد قارعْناكم فغلبناكم، وحاربْناكم فملكْناكم فإن شئنا عَفَوْنا، وإن شئنا بَطَشْنا!

ثم تكلّم زياد فقال: ما ينبغى لهم أن ينكروا الفضل لأهلِه، ويجحدوا الخيرَ فى مظانه، نحن أهل الحَمْلة فى الحروب، ولنا الفضلُ على سائرِ الناس قديمًا وحديثًا.

فتكلم الحسن رضى الله عنه فقال: ليس من العجز أن يصمت الرجلُ عند إيراد الحجة، ولكن من الإفك أن ينطقَ الرجل بالخَنا[3]، ويصوِّر الباطل بصورةِ الحقّ. يا عمرو، افتخارًا بالكذب وجَراءَة على الإفك! مازلت أعرف مثالبك الخبيثة، أبديها مرّةً وأمسِك عنها أخرى، فتأبى إلا انهماكا فى الضلالة. أتذكر مصابيحَ الدُّجى، وأعلام الهدى، وفُرسانَ الطِّراد، وحُتوفَ الأقران، وأبناءَ الطِّعان وربيع الضِّيفان، ومعدن النبوّة ومهبط العلم! وزعمتم أنّكم أحمَى لما وراء ظهوركم، وقد تبين ذلك

---

(١) الغرب هنا: حدّة اللسان، وقوة العارضة.

(٢) التشكر والشكر بمعنى؛ وفى المحاسن والأضداد: «فتشكرا له».

(٣) الخنا: القبيح من الكلام.

يوم بدر حين نَكَصَت الأبطالُ وتساوَرَت الأقران، واقتحمتِ اللّيوث، واعتركت المنيَّة، وقامت رحاها على قطبها، وافترّتْ، عن نابها، وطار شرار الحرب، فقتلنا رجالَكم، ومنّ النبىّ ﷺ عَلى ذراريِّكم؛ فكنتم لعَمرى فى هذا اليوم غير مانعين لما وراء ظهوركم من بنى عبد المطلب!

ثم قال: وأمّا أنت يا مرْوان، فما أنتَ والإكثار فى قريش! وأنت طليق، وأبوك طَريد، يتقلّب من خزاية إلى سوءة، ولقد جىء بك إلى أمير المؤمنين [يوم الجمل][١] فلمّا رأيت الضّرغام قد دَمِيَتْ براثنه واشتبكت أنيابُه؛ كنت كما قال:

ليثٌ إذا سمع الليوث زئيره   بصْبَصْن ثم قَذَفْن بالأبعارِ[٢]

[الكامل]

– ويُروَى : «رَمَيْن بالأبعار»[٣].

فلمّا مَنّ عليك بالعفو، وأرخى خناقَك بعد ما ضاق عليك، وغَصِصتَ بريقك؛ لم تقعد منّا مقعد أهلِ الشكر، ولكن تساوَيْنا وتجارينا، ونحن ممن لا يدركنا عارٌ، ولا يَلحَقُنا خِزاية. ثم التفَتَ إلى زياد فقال: وما أنت يا زياد وقريشًا! لا أعرف لك فيها أديمًا صحيحًا، ولا فرْعًا نابتًا[٤]، ولا قديمًا ثابتًا، ولا مَنْبتًا كريمًا، بل كانت أمّك بَغِيًّا، تداوَلَها رجالُ قريش، وفُجّار العرب، فلمّا وُلِدْت لم تعرف لك العرب والدًا، فادّعاك هذا – يعنى معاوية – بعد ممات أبيه، مالك افتخار[٥]! تكفيك سُمَيّة، ويكفينا رسول الله ﷺ. وأبى علىّ بن أبى طالب سيّد المؤمنين الذى لم يرتدّ على عَقِبَيْه، وعَمّىٌ حمزةُ سيد الشهداء وجعفر الطَّيّار، وأنا وأخى سيِّدا شباب أهل الجنة. ثم التفت إلى ابن عباس فقال: يا بن العمّ، إنما هى بُغاثُ الطير انقضّ عليها أجدَل[٦]. فأراد ابنُ عبّاس أن لا يتكلّم، فأقسم عليه معاوية أن يكفّ فكفّ، ثم خرجا.

فقال معاوية: أجاد عمرو الكلام لولا أن حجَّته[٧] دحِضتْ، وتكلّم مروانُ لولا أنّه نكَص، ثم التفت إلى زياد، وقال: ما دعاك إلى محاورته! ما كنت إلّا كالحجلِ فى كفّ البازى. فقال عمرو: ألا رَميت من ورائنا! قال معاوية: إذن كنتُ شريكَكُم فى الجهل! أأُفاخر رجلًا رسول الله جده، وهو سيّد من مضَى ومَنْ بَقِيَ، وأمّه فاطمة الزهراء سيِّدة نساء العالمين! ثم قال لعمرو: والله لئن سمع به أهلُ الشام لهى السوءة السوآء، فقال عمرو: لقد أبقى عليك، ولكنّه طَحنَ مروانَ وزيادًا طَحْن الرَّحا بثفالِها[٨]، ووطئها وطء البازل القُرادَ بمنسمِه[٩]، فقال زياد: قد والله فعل، ولكنّ معاوية يأبى

(١) تكملة من المحاسن والأضداد.
(٢) أى تحرك ذنبهن خوفًا.
(٣) وهى رواية المحاسن والأضداد.
(٤) ك: «ثابتًا».
(٥) المحاسن والأضداد: «فمالك والافتخار».
(٦) الأجدل: الصقر.
(٧) دحضت الحجة: بطلت.
(٨) فى اللسان «الثفال، بالكسر: الجلد الذى يبسط تحت الرحا باليد ليقى الطحين من التراب، وفى حديث على: وتدقهم الفتن دق الرحا بثفالها؛ هو من ذلك؛ والمعنى أنها تقدهم دق الرحا للحب، إذا كانت مثفلة، ولا تثفل، إلا عند الطحن».
(٩) البازل: البعير إذا دخل فى التاسعة، والمنسم: الخف؛ وهو للبعير بمنزلة الظفر للإنسان.

إلا الإغراء بيننا وبينهم. لا جَرَم والله! لا شهدت مجلسا يكونان فيه إلا كنت معهما على من فاخَرهما.

فخلا ابنُ عباس بالحسن، فقبَّل بين عينيه، وقال: أفديك يا بن عم! والله مازال بَحرُكَ يَزْخَر وأنت تصول؛ حتّى شفيتنى من أولاد البَغايا.

* * *

ثم إنّ الحسن رضى الله عنه غاب أيامًا؛ ثم رجع حتى دخلَ على معاوية وعند عبد الله بنُ الزُّبَير. فقال معاوية: يا أبا محمد، إنّى أظنك تَعِبًا نصبًا، فَأْتِ المنزلَ فأرح نَفْسَك، فيه. فقام الحسن، فلمّا خرج قال معاوية لعبد الله بن الزبير: لو افتخرت على الحسن فإنّك ابنُ حَوارىِّ رسولِ الله ﷺ وابنُ عمته، ولأبيك فى الإسلام نصيب وافر. فقال ابنُ الزبير: أنا له، فرجع وهو يطلبُ ليلته الحجج.

فلما أصبح دخل على معاوية، وجاء الحسنُ فحيّاه معاوية وسأله عن مبيتِه، فقال: خير مَبيت، وأكرم مستفاض فلما استوى فى مجلسه، قال ابنُ الزبير: لولا أنك خوار فى الحرب، غير مِقدام ما سلمت لمعاوية الأمر، وكنتَ لا تحتاج إلى اختراق السهود، وقطع المفاوز تطلب معروفه، وتقوم ببابه، وكنت حَريًّا ألّا تفعل ذلك، وأنت ابن على فى بأسه ونجْدته، فما أدرى ما الذى حملكَ على ذلك! أضَعْفُ رأىٍ، أم وَهَنُ نَجيزة! فما أظن لك مخرجًا من هاتين الخَلّتيْن. ما والله لو استجمع لى ما استجمع لك لعلمتَ أنّى ابنُ الزبير، وأنّى لا أنكُصُ عن الأبطال، وكيف لا أكون كذلك، وجدّتى صَفِيّةُ بنتُ عبد المطّلب، وأبى الزبير حوارىُّ رسول الله ﷺ، وأشدُّ الناس بأْسًا، وأكرمُهُم حسَبًا فى الجاهلية، وأطوَعُهم لرسول الله ﷺ!

فالتفت إليه الحسن وقال: أما والله لولا أن بنى أميّة تنسبُنى إلى العجز عن المقال لكففت عنك تهاوُنًا، ولكن سأبين ذلك لِتَعلم أنّى لستُ بالعَىِّ ولا الكَليلِ اللسان. إيّاى تُعيرِّ، وعلىَّ تفتخر، ولم يكن لجَدك بيت فى الجاهلية ولا مَكرُمة، فزُوِّجَتْه[١] جدّتى صفيّة بنتُ عبد المطلب، فبذخ على جميع العرب بها، وشَرُف بمكانها! فكيف تُفاخر مَنْ هو من القلادة واسطتها، ومن الأشراف سادتها! نحن أكرمُ أهل الأرض زَنْدًا؛ لنا الشرف الثاقب، والكرم الغالب. ثم تَزْعُم أنّى سلَّمت الأمر، فكيف يكون ذلك – ويحك – كذلك، وأنا ابن أشجَع العرب، وقد ولدتنى فاطمةُ سيِّدة نساءِ العالمين وخير الإماء! لم أفعل لك – وَيْحَك – جُبنًا ولا ضعفًا! ولكنّه بايَعَنى مثلك وهو يطلبنى ببِرّه، ويداجينى المودّة، ولم أثِقْ بنصْرته، لأنَّكم أهلُ بيتِ غَدْر، وكيف لا تكونُ كما أقولُ، وقد بايع أبوك أمير المؤمنين، ثم نكثَ بيْعتَهُ، ونكَص عَلَى عَقِبيه، واختدعَ حَشِيةً من حَشَايا رسول الله ﷺ ليضِل بها الناس، فلمّا دَلَفَ نحو الأعنة؛ ورأى بَريقَ الأسنة، قتل مَضيعة[٢] لا ناصر له، وأتىَ بك أسيرًا قد وطئتك الكُماةُ بأظلافها، والخيلُ بَسَنابكها، واعتلاك الأشْتر، فغصصت بريقك، وأقْعَيْتَ على عقبيك

(١) ك، ل: «فزوجه». وفى المحاسن والأضداد: «ولم يك لجدك فى الجاهلية مكرمة إلا تزوجه جدتى صفية».

(٢) المحاسن والأضداد: «بضيعة».

كالكلْب إذا احتوشته الليوث! فنحن - وَيْحك - نورُ البلادِ وَأَمْلاكها، وبنا تفْخر الأمة، وإلينا تلقى مقاليد الأزمة؛ أتصول وأنت تختدع النساء، ثم تفتخر على بنى الأنبياء! لم تزل الأقاويلُ منّا مقْبولةً، وعليك وعلى أبيك مردودة. دخل الناس فى دين جدى طائعين وكارهين، ثم بايعوا أميرَ المؤمنين رضى الله عنه، فسار إلى أبيك وطلحة حين نكثا البيعة، وخدعا عُرْسَ رسول الله ﷺ، فقُتِل أبوك وطلحةُ، وأُتى بك أسيرًا، فبصبصت بذنبك، وناشدته الرّحم ألّا يقتُلك، فعفا عنكَ، فأنت عَتَاقَةُ أبى، وأنا سيّدُك وسيّد أبيك، فذق وَبَال أمرِك!.

فقال ابن الزبير: اعذر يا أبا محمد؛ فإنّما حمَلنى على محاوَرتك هذا، وأحَبَّ الإغراء بيننا، فهلّا إذا جهلتُ أمسكتَ عنّى، فإنكم أهلُ بيتٍ سجيّتكم الحِلم والعفو. فقال الحسن: يا معاوية، انظر هل أكيع[1] عن محاورة أحد؟ ويحك! أتدرى من إىِّ شجرة أنا؟ وإلى من أنتمى؟ انتَهِ قبل أن أسِمَك بميسمٍ تتحدّث به الركبان، فى الآفاق والبلدان.

فقال ابن الزُّبير: هو لذلك أهل.

فقال معاوية: أما إنّه قد شفا بلابَل صَدرِى منك، ورمى مقتلك، فصرتَ كالحَجَل فى كف البازى يتلاعب بك كيفَ أراد! فلا أُراك تفتخرُ على أحد بعدها[2]

* * *

وذكروا أنّ الحسن بن علىّ دخل على معاوية، فقال متمثّلاً:

[الكامل]

فيمَ الكلامُ وقد سبقتَ مبـرِّزًا   سَبْقَ الجواد من المَدى والمِقوَسِ[3]

فقال معاوية: إيّاى تعنى؟ أما والله لأنبئنّك بما يَعرفُه قلبُك، ولا ينكره جلساؤك. أنا ابن بَطْحاء مكة، أنا ابن أجوَدِها جُودًا، وأكرمِها جُدودًا، وأوفاها عهودًا، أنا ابن من ساد قريشًا ناشئاً وكَهْلًا. فقال الحسن: أجَلْ، إيّاك أعنى؟ أفعلىّ تفتخر يا معاوية؟ أنا ابن ماء السماء، وعروق الثَّرَى، وابن مَنْ ساد أهلِ الدنيا، بالحسب الثابت[4]، والشرف الفائق، والقديم السابق. أنا ابن مَنْ رضاه رضا الرحمن، وسُخْطُه سُخط الرحمن. فهل لك أبٌ كأبى، وقديمٌ كقديمى؟ فإن قلت: لا، تَغلَب، وإن قلتَ: نعم، تكذّب. فقال معاوية: أقول: لا، تصديقًا لقولك؛ فقال الحسن:

الحقُّ أبلَجُ مـا تَخُـونُ سَـبيلُهُ   والصدقُ يَعرفُـه ذوو الألبابِ[5]

[الكامل]

ما تخون؛ أى ما تخون مَنْ ملَكها.

* * *

---

(١) أكيع: أجبن وأخاف.

(٢) الخبر فى المحاسن والأضداد ١٣٨-١٤٤.

(٣) كذا فى المحاسن والأضداد، وفى ط: «المقيس» والمقوس: الحبل الذى تصف عليه الخيل عند السباق.

(٤) ك: «الثاقب».   (٥) المحاسن والأضداد: «والحق».

قال: وقال معاوية ذات يوم وعندَه أشراف الناس من قريش وغيرهم: أخبرونى بخير الناس أبًا وأمًّا، وعمًّا وعمّةً، وخالاً وخالةً، وجدًّا وجدّة.

فقام مالك بنُ العجلان، فأومأ إلى الحسن، فقال: هاهو ذا؛ أبوه علىُّ بنُ أبى طالب رضوان الله عليه، وأمُّه فاطمةُ بنْتُ رسول الله ﷺ، وعمُّه جعفر الطّيّار فى الجِنان، وعمّتُه أمُّ هانئ بنت أبى طالب، وخالُه القاسم بنُ رسول الله ﷺ، وخالته بنت رسول الله ﷺ زينب، وجدُّه رسول الله ﷺ، وجدّتُه خديجة بنت خُوَيْلد رضى الله عنها. فسكت القوم، ونهَض الحسن، فأقبل عَمرو بن العاص على مالك، فقال: أحُبُّ بنى هاشم حَمَلَك على أن تكلمتَ بالباطل؟ فقال ابن العجلان: ما قلتُ إلاّ حقًّا، وما أحدٌ من الناس يَطلبُ مرضاةَ مخلوق بمعصية الخالق، إلاّ لم يُعْطَ أمنيَّتَهُ فى دنياه، وخُتِم له بالشقاء فى آخرته. بنو هاشم أنضَرُهم عُودًا[١]، وأوراهم زَنْدًا، كذلك يا معاوية؟ قال: اللهمّ نعم[٢].

* * *

قيل: واستأذن الحسن بن على رضى الله عنه على معاوية، وعنده عبد الله بن جعفر وعَمرو بنُ العاص، فأذن له، فلما أقبل قال عمرو: قد جاءكم الفَهُّ[٣] العيىُّ الذى كان بين لحييه عُقْلة[٤]. فقال عبد الله بن جعفر: مَهْ؟ فو الله لقد رُمت صخرةً مُلَمْلَمَةً[٥] تنحطّ عنها السُّيول، وتقصُر دونها الوُعول، ولا تبلُغها السِّهام، فإيّاك والحسَن إيّاك؟ فإنّك لا تزال راتعًا فى لحم رجل من قريش؛ ولقد رميت فما بَرِح سهمُك، وقدحْتَ فما أورَى زندُك.

فسمع الحسن الكلاَم، فلمّا أخذ الناسُ مجالسهم، قال: يا معاوية، لا يزال عندك عبدٌ راتعًا فى لحوم الناس؟ أمَا والله لو شئت ليكوننّ بيننا ما تتفاقم فيه الأمور، وتحرَجُ منه الصدور، ثم أنشأ يقول:

أتأمرُ يا معاوى عبد سهم ... بشتمى والملا منا شهود؟
إذا أخذتْ مجالسَها قريش ... فقد علمت قريش ما تريد
قَصَدْتَ إلىّ تشتِمُنى سفاها ... لِضغْنٍ ما يزولُ وما يبيد
فما لَك من أب كأبى تسامِى ... به من قدْ تسامِى أو تكيد[٦]
ولا جَدٌّ كجدى يا بن هند ... رسول الله إن ذكر الجدود
ولا أُمٌّ كأمى من قريش ... إذا ما يحصُل الحسب التليد[٧]
فما مَثلى تهكم يابن هند ... ولا مثلى تُجاريهِ العبيد[٨]

---

(١) ساقطة من ك.
(٢) الخبر فى المحاسن والأضداد ١: ١٤٥، ١٤٦.
(٣) ك: «الأفعى»، المحاسن والأضداد: «الفهه».
(٤) العقلة: ما يعقل به كالقيد وفى ط: «عبلة».
(٥) ململمة، أى مستديرة.
(٦) المحاسن والأضداد: «فهل لك من أب».
(٧) المحاسن والأضداد: «إذا ما حصل».
(٨) كذا فى ل، وفى ك: «تحاربه»، وفى المحاسن والأضداد: «ينهنهه».

فمهـلًا لا تَهِـجْ منـا أمـورًا يشيبُ لهولها الطِّفلُ الوليدُ[١]
[الوافر]

* * *

وذكروا أن عمرو بن العاص قال لمعاوية ذات يوم: ابعث إليّ الحسن بن عليّ؛ فمُرْه أن يخطب على المنبر، فلعلّه يَحصَر[٢] فيكون ذلك ممّا نُعَيِّره به. فبعث إليه معاوية، فأصعده المنبر وقد جمع الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يأيُّها الناس؛ من عَرَفنى فأنا الذى يُعْرَفُ، ومَنْ لم يعرفنى فأنا الحسن بنُ عليٍّ بن أبى طالب، ابن عمّ النبى ﷺ، أنا ابن البشير النذير، السّراج المنير، أنا ابن مَنْ بُعِث رحمةً للعالمين، وسخطًا على الكافرين، أنَا ابنُ من بُعث إلى الجنّ والإنس، أنا ابن المُستجاب الدَّعوة، أنا ابن الشفيع المطاع، أنا ابنُ أوّل من يَنْفُضُ رأسَه من التراب، أنا ابنُ أول من يقرع بابَ الجنة، أنا ابنُ من قاتلت معه الملائكة، ونُصِرَ بالرُّعب من مسيرة شهر.

فافتنّ[٣] فى هذا الكلام، ولم يزل حتى أظلَمَت الدنيا على معاوية، فقال: يا حسن، قد كنت ترجو أن تكون خليفة، ولست هناك؟ فقال الحسن: إنما الخليفة من سار بسيرة رسول الله ﷺ، وعمِل بطاعة الله، وليس الخليفة من دان بالجَوْر وعَطّل السّنَن، واتّخذ الدنيا أبًا وأمًّا، ولكن ذاك مَلِك أصاب مُلْكًا يمتّع به قليلًا، وكان قد انقطع عنه واستعجَل لذّتَه وبقيتْ عليه تَبِعَتُه، فكان كما قال الله جلّ وعزّ: ﴿وإنْ أدرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لكُمْ وَمَتَاعٌ إلى حين﴾[٤]. ثم انصرف، فقال معاوية لعمرو: والله ما أردت إلا هَتْكِى، ما كان أهل الشام يَرَوْن أنّ أحدًا مِثلى حتى سمعوا من الحسن ما سمعوا[٥].

* * *

قيل: وقَدِم الحسنُ بنُ عليّ رضوان الله عليه على معاوية، فلما دخل عليه، وجَدَ عنده عَمرو بن العاص، ومَرْوَان بن الحكم، والمغيرة بن شُعبة، وصناديدَ قومِه، ووجوه اليمن وأهل الشام، فلما نظر إليه معاوية أقعده على سريره، وأقبل عليه بوجهه يريه السرور بمقدَمِه، فلمّا نظر مروان إلى ذلك حسَدَه، وكان معاوية قال لهما: لا تحاورا هذين الرجلين فلقد قلّداكم العار، وفضحاكم عند أهل الشام - يعنى الحسن بنَ عليٍّ وعبد الله بنَ عباس رضى الله عنهما - فقال مروان: يا حسنُ لولا حلمُ أمير المؤمنين؛ وما قد بَنَى له آباؤه الكرام من المجد والعَلا؛ ما أقعدك هذا المَقْعَد، ولَقَتَلك وأنت لهذا مستوجِبٌ، بقَوْدِك الجماهير، فلمّا أحسستَ بنا[٦]، وعلمت[٧] أن لا طاقة لك بفرسان أهل

---

(١) كذا فى المحاسن والأضداد، وفى ك، ل: «يشيب لها معاوية الوليد» والخبر فى المحاسن والأضداد ١٤٦، ١٤٧.
(٢) يحصر: يعيا عن الكلام.
(٣) المحاسن والأضداد: «فامعن».
(٤) سورة الأنبياء ١١١.
(٥) الخبر فى المحاسن والأضداد: ١٤٧، ١٤٩.
(٦) المحاسن والأضداد: «فلما قاومتنا».
(٧) ك، ل: «علمت» بدون واو، وما أثبته من المحاسن والأضداد.

الشام وصناديد بنى أمية، أذعنت بالطاعة، واحتجرت بالبيعة، وبعثت تطلب الأمان. أما والله لولا تلك لأريق دَمُك، وعَلْمت أنا نعطى السيوفَ حقها عند الوغى. فاحمد الله إذ ابتلاك بمعاوية فعفا عنك بحلمه، ثم صنع بك ما ترى. فنظر إليه الحسن فقال: ويحك يا مروان؟ لقد تقلّدتَ مقاليدَ العار فى الحروب عند مشاهَدتها، والمخاذَلةِ عند مخالطتها. نحن - هبلتك الهوابل[١] - لنا الحجَجُ البوالغ؟ ولنا - إن شَكرتُم - عليكم النِّعم السوابغ، ندعوكم إلى النجاة وتدعوننا إلى النار؛ فشتّان ما بين المنزلتين! تفخر ببنى أميّة، وتزعم أنهم صبر فى الحروب، أسد عند اللقاء، ثكلتْك أمّك! أولئك البَهاليل السادة، والحُماة الذادة، والكرام القادة، بنو عبد المطّلب! أما والله لقد رأيتهم وجميع مَنْ فى هذا البيت ما هالتْهم الأهوال، ولم يحيدُوا عن الأبطال، كاللُّيوث الضارية الباسلة الحَنِقة، فعندها ولّيْتَ هاربا وأُخِذْتَ أسيرا، فقلدت قومَك العار، لأنّك فى الحروب خَوَّار. أيراق دمي[٢] زعمتَ! أفلا أرَقت دم من وثب على عثمان فى الدار، فَذَبحه كما يُذْبَحُ الجمل، وأنت تَثْغُو ثغاء النَّعجة، وتنادى بالويْل والثُّبور كالأَمَة اللكْعَاء! ألا دفعت عنه بيدٍ[٣]، أو ناضَلْتَ عنه بسهْم! لقد ارتعدت فرائصُك وغَشِى بَصَرُك، فاستغثت بى كما يستغيث العبدُ بربِّه، فأنجيتُك من القتل، ومنعتُك منه، ثم تحثّ معاوية على قتلى، ولو رام[٤] ذلك معك لذُبح كما ذُبح ابن عفان. أنت معه أقصرُ يدًا، وأضيقُ باعًا، وأجبن قلبًا من أن تَجسُر على ذلك. ثم تزعم أنّى ابتليت بحِلْم معاوية؛ أما والله لهو أعرفُ بشأنه، وأشكَرُ لما ولّيناه هذا الأمر، فمتى بداله فلا يُغْضِينّ جفنه على القذَى معك، فو الله لأعقّبن أهل الشام بجيش يضيق عنه فضاؤها، وتُستأصل فرسانها، ثم لا ينفعك عند ذلك الهرب والرَّوَغان، ولا يردّ عنك الطلب تدرُّعُك بالكلام[٥]. فنحن ممن لا يجهل؛ آباؤنا القدماء الأكابر، وفروعنا السادة الأخيار، انطِق إن كنت صادقًا. فقال عمرو: يَنطقُ بالخَنَا وتنطق بالصدق. ثم أنشأ يقول:

قد يَضرط العير والمكواةُ تأخذُهُ   لا يضرُطُ العَيرُ والمكواةُ فى النارِ[٦]

ذق وبالَ امرِك يا مروان!

وأقبل عليه معاويةُ فقال: قد كنتُ نهيتُك عن هذا الرجل، وأنت تأبى إلّا انهماكًا فيما لا يَعنيك. اربَعْ على نفسك[٧]؛ فليس أبوك كأبيه، ولا أنت مِثله، أنت ابن الطريد الشّريد، وهو ابن رسول الله ﷺ الكريم؛ ولكن رُبَّ باحثٍ عن حَتْفه، وحافر عن مُدْيَته.

فقال مروان: ارمِ من دون بَيْضَتِك، وقم بحجة عشيرتك. ثم قال لعمرو: طَعَنك أبوه، فَوَقَيْت نفسَك بخصييك، فلذلك تحذرُه. وقام مغضبًا.

---

(١) ك والمحاسن والأضداد: «أمك».

(٢) المحاسن والأضداد: «اتهريق».

(٣) المحاسن والأضداد: «بحرب».

(٤) كذا فى المحاسن والأضداد وفى ط: «ألورام».

(٥) ط: «الكلام» وفى المحاسن والأضداد: ولا تنتفع بتدريجك الكلام».

(٦) مثل، وأول من قاله عرفطة بن عرفجة الهذلى، وانظر مجمع الأمثال ٢ : ٩٥.

(٧) يقال أربع عليك أو على نفسك أو على ظلعك، أى توقف.

فقال معاوية: لا تُجاور البحور فتغمرك، ولا الجبال فتبهرك[١] واسترح من الاعتذار[٢].

* * *

قيل: ولقى عمرو بن العاص الحسن بن على رحمه الله فى الطّواف، فقال: يا حسنُ، أزعمتَ أنّ الدين لا يقوم إلّا بك وبأبيك! فقد رأيتَ الله جل وعز أقامه بمعاوية فجعله راسيا بعد مَيله، وبينا بعد خَفائه. أفرضِىَ الله قتلَ عثمان! أم من الحقّ أن تَدورَ بالبيت كما يدور الجمل بالطَّحين، عليك ثياب كغِرقِىءِ البيض[٣]، وأنت قاتلُ عثمان! والله إنه لألم للشعث، وأسهل للوَعث، أن يورِدَك معاوية حِياضَ أبيك. فقال الحسن عليه السلام: أن لأهل النار علامات يُعْرَفون بها، وهى الإلحاد لأولياء الله، والمُوالاة لأعداء الله؛ والله إنّك لتَعْلم أنّ عليًّا رضى الله عنه لم يتريَّبْ فى الأمر، ولم يشكَّ فى الله طرفة عين، وأيم الله لتنتهينَّ يابن أم عمرو أو لأقرعَنَّ جبينك بكلام تبقى سمَتُهُ عليك ما حَييت! فإيَّاك والإبراز علىّ، فإنّى من قد عرفت. لست بضعيف الغَمْزة، ولا بهَشّ المُشاشة[٤]، ولا بمرىء المَأْكَلة، وإنى من قريش كأوسَط القِلادة، يُعْرَف حَسَبى[٥]، ولا أُدْعى لغير أبى، وقد تحاكمتْ فيك رجال قريش، فغلب عليك ألأمهم نسبًا، وأظهرهُم لعنة، فإيّاك عنّى؛ فإنك رِجْس، وإنّما نحن بيت الطَّهارة، أذهب الله عنا الرِّجس وطهَّرَنا تطهيرًا[٦]!

* * *

قيل: واجتمع الحسن بنُ علىّ وعمروُ بن العاص، فقال الحسن: قد علمتْ قريش بأسرها أنّى منها فى عزّ أرومتها، لم أطبَع على ضَعف، ولم أعكَس على خَسْفَ، أُعرَف بشبَهى[٧]، وأُدْعَى لأبى.

فقال عمرو: قد علمتْ قريش أنك من أقلّها عَقْلًا، وأكثرها جهلًا وإنّ فيك خصالًا لو لم يكن فيك إلّا واحدة منهنّ لشمِلك خِزْيُها كما شمِل البياضُ الحالك. لعمرُ الله لتنتهينّ عمّا أراك تصنع، أو لأكبسنّ لك حَافَةً كجِلد العائط[٨]، أرميك من خَلَلها بأحرّ من وقع الأشافى[٩]، أعرُك منها أديمَك عَرْكَ السِّلْعة[١٠]، فإنك طالما ركِبتَ صعبَ المنحدَر، ونزلتَ فى أعراض الوَعر، التماسًا للفُرْقة، وإرصادًا للفتنة، ولن يزيدك الله فيه إلّا فظاعة.

---

(١) المحاسن والأضداد: «فتقهرك».

(٢) الخبر فى المحاسن والأضداد: ١٥٠، ١٥١.

(٣) الغرقىء: القشرة الملتزقة ببياض البيض.

(٤) المشاشة: رأى العظم اللين الذى يمكن مضغه، يقال: هو هش المشاش؛ أى رخو، وهو كلام على الذم.

(٥) كذا فى المحاسن والأضداد، وفى ك، ل: «حسبهم».

(٦) الخبر فى المحاسن والأضداد: ١٥١.

(٧) المحاسن والأضداد: «بنسبى».

(٨) العائط: الناقة التى لا تحمل، وفى المحاسن والأضداد: كجلد العائط إذا اعتاطت رحمها».

(٩) الإشفى: المثقب،وجمعه الأشافى، وفى ك: «الأثانى».

(١٠) السلعة: غدة تظهر بين الجلد واللحم إذا غمزت باليد تحركت.

٨١

فقال الحسن عليه السلام: أما والله لو كنت تسمو بحسبك وتَعملُ برأيك ما سلكت فج قصد، ولا حللت رابية مجد، وأيم الله لو أطاعنى معاويةُ لجعلك بمنزلة العدوّ الكاشح، فإنه طالما طَويت على هذا كَشْحك، وأخفيته فى صدرك، وطمِح بك الرجاءُ إلى الغاية القصوى التى لا يُورِق لها غُصنك، ولا يَخضَرُّ لها مَرْعاك، أما والله ليُوشكنَّ يا بن العاص أن تقع بين لَحْيَىْ ضرْغام من قريش قوىٍّ متمنّعٍ فَرُوس[1] ذى لِبد، يَضغَطُك ضَغْط الرَّحا للحبِّ، لا يُنْجيكِ منه الروغان، إذا التقت حَلْقتا البِطان[2].

---

(١) الفروس: الأسد.

(٢) الخبر فى المحاسن والأضداد: ١٥١ - ١٥٣.

محاسن كلام عبد الله بن العباس

رضى الله عنه

أبو المنذر، عن أبيه، عن الشعبى، عن ابن عباس، أنه دخل المسجد وقد سار الحسين بن على رضى الله عنه إلى العراق، فإذا هو بابن الزبير فى جماعة من قريش، قد استعلاهم بالكلام، فجاء ابن عبّاس حتى ضرب بيده بين عضُدى ابن الزبير، وقال: أصبحت والله كما قال الأوّل:[1]

يــا لــكِ من حمــرة بَمعمــرِ[2] خلاَ لك الجو فبيضى واصفِرى[3]

ونَقِّــرى مــا شئتِ أن تُنقِّــرى قد رُفِعَ الفَــخ فماذا تحـذَرِى!

[الرجز]

خلَتْ الحجاز من الحسين بن على، وأقبلت تهدر فى جوانبها! فغضب ابن الزبير، وقال: والله إنّك لترى أنّك أحقُّ بهذا الأمر من غيرك! فقال ابن عبّاس: إنما يرى [ذلك][4] مَنْ كان فى حال شكّ، وأنا من ذلك على يقين. فقال: وبأىّ شىء تحقَّق عندك أنّك أحقُّ بهذا الأمر منّى؟ فقال ابن عبّاس: لأنّا أحق ممن يدِل بحقه، وبأى شىء تحقَّق عندك أنك أحق بها من سائر العرب إلاّ بنا! فقال ابن الزبير: تحقّق عندى أنّى أحق بها منكم لشرفى عليكم قديما وحديثا. فقال: أنت أشرف أم من قد شَرُفْتَ به؟ فقال: إنّ من شرفت به زادنى شرفًا إلى شرف قد كان لى قديمًا وحديثا. قال: أفمنى الزيادة أم منك؟ قال: بل منك، فتبسم ابن عباس. فقال: يابن عبّاس، دعنى من لسانك هذا الذى تقلِّبه كيف شئت، والله لا تُحبوُّنَنَا يا بنى هاشم أبدًا. قال ابن عباس: صدقت، نحن أهل بيت مع الله عزّ وجلّ، لا نحبّ من أبغضه الله تعالى. فقال: يابنَ عباس، ما ينبغى لك أن تصفح عن كلمة واحدة! قال: إنما أصفَح عمن أقرّ، وأما عمّن هر[5] فلا؛ والفضل لأهل الفضل!

قال ابن الزبير: فأين الفضل؟ قال: عندنا أهل البيت، لا تصرفه عن أهله فتظلم، ولا تضعه فى غير أهله فتَنَدَم.

قال ابن الزبير: أفَلستُ من أهله؟ قال: بلى؛ إن نبذت الحسد، ولزمت الجدد.

وانقضى حديثُهما، وقام القوم فتفرّقوا[6].

* * *

(١) مجمع الأمثال ١: ٢٣٩، ونسبه إلى طرفة بن العبد.

(٢) الحمرة: ضرب من الطير كالعصافير؛ وفى مجمع الأمثال والمحاسن والأضداد: «من قبرة».

(٣) الشطر الثانى هو موضع المثل فى هذه الأبيات.

(٤) من المحاسن والأضداد.

(٥) هر: صوت، وفى إحدى نسخ المحاسن والأضداد: «هد» وهما بمعنى.

(٦) الخبر فى المحاسن والأضداد ١٥٢ - ١٥٥.

ورُوِىَ عن ابن عباس أنه قال: قدمت على معاوية، وقد قعد على سريره، وجمع أصحابَه ووفود العرب عنده، فدخلتُ فسلمت وقعدتُ فقال: مَن الناس يا بنَ عباس؟ فقلت: نحن، قال: فإذا غبتم! قلت: فلا أحد. قال: [فكأنّك][١] تَرى أنى قعدت هذا المقعد بكم! قلت: نعم، فبمنْ قعدت؟ قال: من[٢] كان مِثل حَرْبٍ بن أميّة؟ قلت: من أكفأ عليه إناءه، وأجاره بردائه. قال: فغضب، وقال: وارِ[٣] شخصك منى شهرًا، فقد أمرت لك بصِلَتِك وأضعفتها لك.

فلما خرج ابنُ عبّاس قال لخاصّته: ألا تسألوننى ما الّذى أغضب مُعاوية؟ [قالوا: بلى، فقل بفضلك، قال:][١] إن[٤] أباه حربًا لم يلتق أحد[٤] من رؤساء قريش فى عَقَبة ولا مضيق مع قوم إلّا لم يتقدمه أحد حتى يَجوزَه. فالتقى حرب بنُ أمية مع رجل من بنى تميم فى عَقبة، فتقدمه التميمىُّ، فقال حرب: أنا حرب بنُ أميّة. فلم يلتفت إليه وجازَه، فقال: موعدك مكة. فبقى التميمىُّ[٥] دهرًا ثم أراد دخول مكّة، فقال: مَنْ يجيرنى من حرب بن أميّة؟ فقالوا: عبد المطّلب، قال: عبدُ المطلب أجلُّ قدرًا من أن يُجير على حَرْب، فأتى ليلًا دارَ الزبير بن عبد المطلب فدقّ عليه، فقال الزبير للغيداق[٦]: قد جاءنا رجل؛ إمَّا طالب حاجة، وإما طالب قِرًى، وإما مستجير، وقد أعطيناه ما أراد، قال: فخرج إليه الزبير، فقال:

لاقيتُ حربًا فى الثنيّةِ مُقبلًا ... والصبحُ أبلجَ ضوءه للسارى[٧]

فدَعا بصَوْتٍ واكْتَنَى ليروعَنِى ... ودَعا بدعوته يريدُ فخارِى

فتركتهُ كالكلب يَنْبَحُ وحدَه ... وأتيْتُ أهل معالم وفخارِ

ليثًا هِزَبْرًا يُستجار بقُربِهِ ... رَحْبَ المَبَاءة مُكرِمًا للجار

ولقد حلفت بزمزمٍ وبمكةٍ ... والبيت ذى الأحجار والأستار

أن الزبير لمانِعِى من خوفِهِ ... ما كبر الحجاج فى الأمصار!

[الكامل]

فقال: تقدّم، فإنّا لا نتقدم من نجيره، فتقدّم التميمى فدخل المسجد، فرآه حرب، فقام إليه فَلَطَمه، فحمَل عليه الزبير بالسيف، فعَدَا حتى دخل دارَ عبد المطلب، فقال: أجرْنى من الزُّبير، فأكفأ عليه جَفْنَه كان هاشمُ يطعم فيها الناس، فبقى هناك[٨] ساعة تم قال له: أخْرج. فقال: كيف

(١) من المحاسن والأضداد.

(٢) كذا فى ل، وفى ل: «بن».

(٣) المحاسن والأضداد: «ارحنى من شخصك».

(٤-٤) كذا فى المحاسن والأضداد: وفى ط: «إنه لم يلتق أحد».

(٥) المحاسن والأضداد: «فخافه التميمى».

(٦) هو الغيداق بن عبد المطلب، أخو الزبير بن عبد المطلب واسمه المصعب، وفى المحاسن والأضداد: «لعبده»، وانظر نسب قريش ١٨.

(٧) بلج الصبح: ظهر وأشرق، ومثله أبلج.

(٨) المحاسن والأضداد: «تحتها».

أخرُج وتسعة[١] من وَلَدك قد احتَبَوْا بسيُوفهم على الباب! فألقى عليه رداءً كان كساهُ إيّاه سيفُ بن ذى يزن، له طُرَّتان خضراوان، فخرج عليهم، فعلموا أنه قد أجاره، فتفرقوا عنه[٢]

* * *

قال: وحضر مجلس معاوية عبدُ الله بن عباسَ وابن العاص، فأقبل عبدُ الله بن جعفر، فلما نظر إليه ابنُ العاص قال: قد جاءكم رجلٌ كثيرُ الخَلَوات بالتمنّى، والطَّربات بالتغنّى، محب للقيان، كثيرُ مُزاحهُ، شديدُ طمَاحهُ، صدوفٌ عن السِّنان[٣]، ظاهر الطَّيْش، ليّن العَيْش، أخّاذٌ بالسَّلف، مِنْفاق بالسَّرَف.

فقال ابنُ عباس: كذبتَ والله أنت! وليس كما ذكرت، ولكنه لله ذكور، ولنعمائه شكور، وعن الخَنَازَجُور. جواد كريم، سيدٌ حليم، ماجد لهميم[٤]، إن ابتدأ[٥] أصاب، وإن سُئِلَ أجاب، غيرُ حَصِر ولا هيَاب، ولا فَحاش عياب، حل من قريش فى كريم النِّصاب، كالهِزَبْر الضِّرْغام، الجرىء المِقْدام، فى الحَسَب القَمْقام[٦]، ليس يُدْعَى لِدعى، ولا يُدْنَى لَدَنىّ [لا][٧] كمن اختصم فيه من قريش شرارُها، فغلب عليه جَزّارها، فأصبح ألأمَها حَسَبًا، وأدناها مَنصبًا، ينوء منها بالذليل، ويأوى منها إلى القليل، يتذبذب بين الحيين كالساقط بين الفِراشيْن، لا المضطرّ إليهم عَرَفُوه، ولا الظاعنُ عنهم فقدوه. وليت شعرى بأىّ قدم تتعرض للرجال، وبأىّ حَسَب تبارز عند النِّضال! أبِنَفْسِك؟ فأنت الوغدُ الزَّنيم، أم بمن تنتمى إليه؟ فأهل السَّفه والطَّيش، والدناءةِ فى قريش، لا بشرفٍ فى الجاهلية شُهروا، ولا بقديم فى الإسلام ذُكروا، غير أنّك تتكلّم بغير لسانك، وتنطق بالزور فى غير أقرانك[٨]، والله لكان أبينَ للفَضْلِ، وأظهرَ للعدل أنْ يُنزلكَ معاوية منزلةَ البعيد السحيق، فإنه طالما ما سَلسَ داؤك، وطَمِح بك رَجاؤُك؛ إلى الغاية القصْوى، التى لم يخضر بها رغيك، ولم يُورِق بها غُصْنُك.

فقال عبد الله بن جعفر: أقسمت عليك لما أمسكت، فإنك عنى ناضلْت، ولى فاوضْت.

قال ابن عباس: دعنى والعبد، فإنه قد كان يهدِر خاليًا، إذ لا يجد مرامياً، وقد أتيح له ضَيْغَمٌ شرس، للأقران مفترس، وللأرواح مختلس.

فقال عمرو بنُ العاص: دَعْنى يا أمير المؤمنين أنتصِفُ منه، فوالله ما ترك شيئًا.

---

(١) ك، ل: «سبعة» وما أثبته من المحاسن والأضداد.

(٢) الخبر فى المحاسن والأضداد ١٥٤ – ١٥٥.

(٣) المحاسن والأضداد: «الشبان».

(٤) اللهميم: السيد الجواد، وفى المحاسن والأضداد: «حليم».

(٥) المحاسن والأضداد: «إن رمى».

(٦) القمقام: السيد الكبير العطاء.

(٧) من المحاسن والأضداد.

(٨) كذا فى المحاسن والأضداد: و«فى وط: «بغير إزكانك».

قال ابن عبَّاس: دعه فلا يبقى المبْقى إلاّ على نفسه، فوالله إنَّ قلبى لشديد، وإن جوابى لعتيد، وبالله الثِّقة، فإنى كما قال نابغة بنى ذُبْيان[١]:

وقبلَك ما قُذِعتُ وقاذَعونى فما نَزُرَ الكلامُ ولا شجانى[٢]

يصُدُّ الشاعر العرّاف عنّى صُدُودَ البِكْر عن قَرْمٍ هجانِ[٣]

[الوافر]

---

(١) ديوانه ٧٧.

(٢) المقاذعة: المهاجاة والمشاتمة. ونزر: قل، وشجانى: أحزننى.

(٣) القرم: الفحل الكريم من الإبل، والهجان الأبيض، والكلام على الاستعارة، وفى ديوانه: «الشعر الثنيان» والخبر فى المحاسن والأضداد ١٥٥ - ١٥٧.

محاسن كلام غانمة بنت غانم
فى شرف بنى هاشم وفخرهم

قيل: ولمّا بلغ غانمةَ بنت غانم سَب معاوية وعمرو بن العاص بنى هاشم، قالت لأهل مكة: أيُّها الناس، إن قريشا لم تلد مَنْ رَقم ولا رُقم؛ سادت وجادت، ومُلّكت فملَكت، وفُضّلت ففَضلت، واصطُفيت فاصطفَت، ليس فيها كدَر عَيْب، ولا أفْنُ[1] رَيْب، ولا حُشِروا طاغين، ولا جادوا نادِمين، ولا المغضوب عليهم ولا الضّالين.

إنّ بنى هاشم أطوَلُ الناس باعًا، وأمجد الناس أصْلا، وأحلم الناس حِلمًا، وأكثر الناس عطاءً، منّا عَبْد مناف الذى يقول فيه الشاعر[2]:

كـانَتْ قـريشٌ بيضـةً فتفلّقت   فـالمحُّ خـالِصُها لعبـد مَنَـافِ[3]

[الكامل]

وولده هاشم الذى هَشمَ الثريد لقومه، وفيه يقول الشاعر[4]:

هَشمَ الثـريدَ لقـوْمِهِ، وأجـارَهُمْ   ورجالُ مكّة مُسْنِتُـون عجافُ[5]

[الكامل]

ثم منا عبد المطلب الذى سقِينا به الغيث، وفيه يقول الشاعر:

ونحْنُ سِنِىَّ المحل قام شفيعنـا   بمكّـةَ يـدعـو والميـاهُ تغـورُ

[الطويل]

وابنه أبو طالب عظيم قريش، وفيه يقول الشاعر:

آتيتُـه ملِكًـا فقـام بحـاجتى   وترَى العليج خـائبًا مـذومـا

[الكامل]

ومِنّا العباس بنُ عبد المطلب، أردَفَه رسولُ الله ﷺ فأعطاه مالَه وفيه يقول الشاعر:

ردِيفُ رسولِ الله لم أرَ مِثْلَهُ   ولا مثلُهُ حتى القيامةِ يُـوجَدُ

[الطويل]

---

(١) المحاسن والأضداد: «ولا إفك ريب».

(٢) هو مطرود بن كعب الخزاعى. أمالى المرتضى ٢: ٢٦٨.

(٣) المحُّ: صفرة البيض.

(٤) هو عبد الله بن الزبعرى، أمالى المرتضى ٢: ٢٦٩.

(٥) المسنتون: الذين أصابتهم السنة المجدبة.

ومنا حمزة سيد الشهداء، وفيه يقول الشاعر:

أبا يَعْلَى لكَ الأركان هدت وأنت الماجد البر الوصول

[الوافر]

ومنا جعفر ذو الجناحين، أحسنُ الناس حُسنًا، وأكملُهُم كمالًا، ليس بغدّار ولا ختّار، بدّله الله جلّ وعزّ بكلّ يد له، جناحًا يطير به فى الجنة، وفيه يقول الشاعر:

هاتُوا كجعفرنا ومثلَ علّينا[١] كانا أعزَّ الناس عندَ الخالِقِ[٢]

[الكامل]

ومنا أبو الحسن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه، أفرس بنى هاشم، وأكرم من احتَفى وتَنَعّل[٣] بعد رسول الله ﷺ. ومن فضائله ما قَصُر عنكم أنباؤها، وفيه يقول الشاعر:

وهذا علىٌّ سيّدُ الناس فاتقوا عَليًّا بإسلام تقدَّم من قبلُ

[الطويل]

ومنّا الحَسَن بنُ على رضى الله عنه، سِبْطُ رسول الله ﷺ، وسيّد شباب أهل الجنة، وفيه يقول الشاعر:

ومن يكُ جده حقا نبيًّا فإنّ له الفضيلة فى الأنام

[الوافر]

ومنا الحسين بن علّى رضوان الله عليه، حَمله جبريلُ عليه السلام على عاتِقه، وكفى بذلك فخرًا، وفيه يقول الشاعر:

نَفَى عنه عيبَ الآدميِّين ربُّهُ ومَنْ مجدُهُ مجدُ الحسين المطهَّرِ

[الطويل]

ثم قالت: يا معشر قريش، والله ما معاوية بأمير المؤمنين، ولا هو كما يزعُم، هو والله شانئ رسول الله ﷺ! إنى آتيةٌ معاوية وقائلةٌ له ما[٤] يَعْرق منه جبينه ويكثرُ منه عويلهُ.

فكتب عاملُ معاويةَ إليه بذلك، فلمّا بلغه أنّ غانمة قد قرُبتْ منه، أمرَ بدار ضيافته فَنُظِّفَتْ، وأُلْقِىَ فيها فُرُش، فلما قربتْ[٥] من المدينة استقبلها يزيد فى حَشَمه ومماليكه، فلما دخلت المدينة أتت دارَ أخيها عمرو بن غانم، فقال لها يزيد: إن أبا عبدالرحمن يأمرك أن تصيرى إلى دار ضيافته – وكانت لا تعرفه فقالت: من أنت كلأك الله؟ قال: يزيدُ بنُ معاوية، قالتَ: فلا رعَاك الله

(١) كذا فى المحاسن والأضداد، وفى ط: «كجعفرنا الطيار».
(٢) كذا فى المحاسن والأضداد، وفى ط: «ألسنا أعز الناس عند الحقائق».
(٣) ك: «انتعل».
(٤) كذا فى المحاسن والأضداد. وفى ط «بما».
(٥) المحاسن والأضداد: «فلما بلغها أنها قربت منه».

يا ناقص، لست بزائد! فتمعَّر[١] لون يزيد وأتى أباه فأخبره، فقال: هى أسن قريش وأعظمهم. قال يزيد: كم تعدُّها يا أمير المؤمنين؟ قال: كانت تعدّ على عهد رسول الله ﷺ أربعمائة عام، وهى من بقيّة الكرام.

فلما كان من الغد أتاها معاوية، فسلّم عليها، فقالت: علَى المؤمنين السلام، وعلى الكافرين الهوان. ثم قالت: مَنْ منكم ابن العاص؟ قال عمرو: هأنذا. فقالت: وأنت تسُبُّ قريشًا وبنى هاشم، وأنت أهل السَّبّ، وفيك السَّبّ وإليك يعود السَّبّ يا عمرو! وإنِّى والله لعارفة بعيوبك وعيوب أمِّك، وإنِّى أذكر لك ذلك عيبًا عيبًا؛ وُلِدْت من أَمَةٍ سوداء، مجنونة حمقاء، تبُولُ من قيام، ويَعْلُوها اللئام، إذا لا مسَهَا الفحل كانت نطفتُها أنْفَذَ من نُطْفَتِهِ. رَكِبَها فى يوم واحد أربعون رجلًا وأمّا أنت فقد رأيتُك غاويًا غيرَ راشد، ومفسِدًا غيرَ صالح، ولقد رأيتَ فحل زوجَتك على فراشك فما غِرتَ ولا أنكرت!

وأمّا أنت يا معاوية، فما كنت فى خير، ولا رُبيت فى خير؛ فما لك ولبنى هاشم! أنساءُ بنى أمية كنسائهم! أم أُعطِى أميّةُ ما أعطِىَ هاشم فى الجاهلية والإسلام! وكفى فخرًا برسول الله ﷺ.

فقال معاوية: أيّتُها الكبيرة، أنا كافٌّ عن بنى هاشم، قالت فإنِّى أكتب عليك عهدًا؛ كان رسول الله ﷺ دعا ربّه أن يستجيب لى خمس دَعَوَات، أفأجعل[٢] تلك الدعوات كلّها فيك! فخاف معاوية وحلف لها ألّا يَسُبّ بنى هاشم أبدًا.

فهذا آخر ما كان بين معاوية وبنى هاشم من المُفاخرة، والله أعلم[٣].

(١) تمعر وجهه: تغير غيظا، وفى المحاسن والأضداد: «تغيّر».

(٢) كذا فى المحاسن والأضداد، وفى ط: «فاجعل».

(٣) الخبر فى المحاسن والأضداد ١٥٧ – ١٥١.

محاسن مجالس أبي العباس السفاح في المفاخرة

قيل: كان أبو العباس يُطيل السهر، وتعجبه الفصاحة، ومُنَازَعَة الرجال، فسهر ذات ليلة وعنده أناس من مُضرَ وفِهْر، وفيهم خالد بن صفوان بن الأهتم التميميّ، وناسٌ من اليمن، فيهم إبراهيم بن مخرَمة الكنْديّ، فقال أبو العباس: هاتوا واقطعوا ليلتَنا بمحادثتِكم.

فبدأ إبراهيم بن مخرمة، وقال: يا أمير المؤمنين، إن أخوالكم هم الناس، وهم العرب الأوَل الّذين دانت لهم الدنيا، وكانت[1] لهم اليدُ العُلْيا، مازالوا ملوكًا وأربابًا، توارثوا الرِّياسة كابرًا عن كابر، وآخِرًا عن أوّل، يلبس آخِرهُم سرابيلَ أوّلِهم، يعرفون بيت المجد ومآثرَ الحمد، منهم النّعمانات والمنذِرات والقابوسات[2]. ومنهم غسيلُ الملائكة، ومنهم من اهتزّ لموته العرش، ومنهم مكلِّم الذئب، ومنهم مَنْ كان يأخذ كلَّ سفينة غصبًا، ويحوى فى كلّ نائبة نهبًا. ومنهم أصحاب التِّيجان، وكماةُ الفُرسان، ليس من شيء[3] وإن عَظُمَ خَطَرُه، وعرِف أثره مِن فرَس رائع، وسيفٍ قاطع، أو مجنّ واق، أو دِرْع حَصين، أو دُرّة مكنونة، إلاّ وهم أربابُها وأصحابُها؛ إن حل ضيف قرَوْه، وإن سألهم سائل أعْطَوه، لا يبلغهم مكاثر، ولا يُطَاوِلُهم مطاول ولا مفاخر. فمنَ مِثلهم يا أمير المؤمنين! البيت يمان، والحِجر يمان، والرُّكن يمان، والسيف يمان.

فقال أبو العباس: ما أرى مضر تقول بقولك هذا، وما أظنُّ خالدًا يرضَى بذلك.

فقال خالد: إن أَذِنَ أميرُ المؤمنين وأمِنتُ الموجَدة، تكلمت.

فقال أبو العباس: تكلم ولا تَرْهَبْ أحدًا.

فقال خالد: يا أمير المؤمنين، خاب المتكلِّم وأخطأ المتقحِّم[4]، إذ قال بغير علم، ونطق بغير صواب. أَوَ يفخَر على مضرَ، ومنها النبى ﷺ، والخلفاء من أهل بيته! وهل أهل اليمَن يا أمير المؤمنين إلاّ دابغٌ جلدًا، أو قائدٌ قردا، أو حائكٌ بُرْدًا! دلَّ عليهم الهُدْهُدُ، وغرقَهم الجُرَذ، ومَلَكَتْهم أمُّ ولد.

وكيف يكون ذلك لقوم[5] يا أمير المؤمنين، ما لهم ألسِنة فصيحة، ولا لغة صحيحة، ولا حجّة تَدُلُّ على كتاب، ولا يُعرف بها صواب! وإنهم منّا لإحدى الخلتين[6]؛ إن حازوا ما قصدوا أكلوا، وإن حادوا عن حُكمنا قتِلُوا.

ثم التفت إلى الكِنَديّ فقال: أتفخر بأكرم الأنام وخيرها، محمد صلى الله عليه وسلم، وبه افتخر

(١) كذا فى المستطرف، وفى ك: «كانت».
(٢) المستطرف: «منهم النعمان بن المنذر».
(٣) كذا فى المستطرف، وفى ك: «نسل».
(٤) المستطرف: «المقتحم».
(٥) كذا فى المستطرف، وفى ط: «من قوم والله يا أمير المؤمنين».
(٦) الخلة، بالفتح: الخصلة.

مَنْ ذَكرت ! فالمن من الله عزّ وجلّ عليكم؛ أن كنتمْ أتباعَه وأشياعه. منا نبى الله المصطفى، وخليفة الله المرتضىَ، ولنا السؤْدُد والعلا، وفينا الحِلم والحجَا، ولنا الشرف المقدَّم، والركن المكرَّم، والبيت المعظم، والجناب الأخضر، والعدد الأكثر، والعزّ الأكبر ولنا البيت المعمور، والمشعَرُ المشهور، والسَّقف المرفوع، وزَمْزَم وبطحاؤها، وجبالُها وصحراؤها؛ وحِياضها وغياضُها، وأحجارها وأعلامها ومنابُرها، وسقايتها وحجابُتها؛ وسِدانةُ بيتها. فهل يَعدلنا عادِل ويبلغ فخرنا قائل ! ومنّا أعلمُ الناس ابن عباس، أَعْلَم البشر، الطَّيبة أخباره، الحسنةُ آثاره. ومنَا الوصِيّ وذوالنورَيْن[1] ومنا الصِّدِّيق والفاروق[2]. ومنّا أسد الله، وسيفُ الله[3] ومنا سيّد الشهداء وذو الجناحين[4]؛ ومنّا الكماة والفرسان، ومنا الفقَهاء والعلماء، بنا عُرِف الدين ومن عندنا أتاكم اليقين فمن زاحَمَنا زاحمْنَاه، ومن عادانا اصطَلَمناه، ومن فاخرنا فاخرناه، ومن بدَّل سنتنا قتلناه.

ثم التفت إلى الكندىّ، وقال: كيف علمُك بلُغات قومك؟ قال: أنا بها عالم، قال: ما الجَحْمة[5] فى لغَتكم؟ قال: العين، قال: فما المِبْزَم[6]؟ قال: السنّ، قال: فالشناتر[7]؟ قال: الإصبعُ، فالصنابر[8]؟ قال: الآذان. قال: فما القلوب[9]؟ قال: الذنب، قال: فما الزُّبّ[10]؟ قال: اللّحيَة، قال: أفتقرأ كتاب الله عزّ وجلّ؟ قال: نعم، قال: فإن الله عزّ وجل يقول: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[11]، وقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[12]، وقال جلّ ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلنا من رسولٍ إلا بلسانِ قوْمِهِ﴾[13]، وقال عزّ وجلّ: ﴿والْعَيْنَ بالْعَينِ﴾[14]، ولم يقل: «الجَحْمة بالجَحْمة»، وقال: ﴿جَعَلُوا أَصَابعَهُمْ فى آذَانِهِمْ﴾[15] ولم يقل «شناتِرهم فى صَنَابرهم»، وقال: ﴿والسنَّ بالسنِّ﴾[16]، ولم يقل: «المِبزَم بالمبزم»، وقال: ﴿فأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾[17]، ولم يقل: «القَلوب»، وقال: ﴿لا تأْخُذْ بِلِحيَتِى﴾[18]، ولم يقل: «بزُبِّى».

وأنا سائلك يا بنَ مخرمة عن ثلاث[19] خصال، فإن أنت أقررت بها قُهرت، وإن جحدْتها كَفرت، وإن أنكرت قُتِلْت، قال: وما هى؟ قال: أتعلم[20] أنّ فينا نبى الله المصطفى ﷺ؟ قال: اللهمّ نعم، قال: أتعلم، قال: أتعلم أن فينا كتابَ الله تعالى؟ قال: اللهمّ نعم! قال: أفتعلم أنّ فينا خليفة الله المرتضى؟ قال: اللهمّ نعم[20]! قال: فأىُّ شىء يعدِل هذه الخِصال!

---

(١) الوصى: على، وذو النورين: عثمان.
(٢) الصديق: أبو بكر، والفاروق: عمر.
(٣) أسد الله: حمزة، وسيف الله: خالد.
(٤) سيد الشهداء: الحسين، وذو الجناحين: جعفر.
(٥) اللسان ١٤: ٣٥٢.
(٦) اللسان ١٤: ٣١٥، وفى ط: «الميزم»؛ تصحيف.
(٧) اللسان: ٦: ٩٩.
(٨) اللسان ٦: ١٣٨.
(٩) اللسان ٢: ١٨٢، وفى المستطرف: «الكتع»، وهى يمانية بمعناها أيضا.
(١٠) اللسان ١: ٤٢٩.
(١١) سورة يوسف ٢.
(١٢) سورة الشعراء ١٩٥.
(١٣) سورة إبراهيم ٤.
(١٤) سورة المائدة ٤٥.
(١٥) سورة نوح ٧.
(١٦) سورة المائدة ٤٥.
(١٧) سورة يوسف ١٧.
(١٨) سورة طه ٩٤.
(١٩) المستطرف: «أربع».
(٢٠-٢٠) المستطرف: «الرسول منا أو منكم؟ قال: منكم، قال: فالقرآن أنزل علينا، أو عليكمف قال: عليكم، قال: فالمنبر فينا أو فيكم؟ قال: فيكم. قال: فالبيت لنا أو لكم؟ قال: لكم، فقال: فاذهب فما كان بعد هؤلاء فهو لكم».

قال أبو العباس: أكفف عنه، فوالله ما رأيت غَلبةً أنكَرَ منها! والله ما فَرغْتَ من كلامِك يا أخا مضر حتى ظننتُ أنّه سيُعرج بسرِيرى إلى السماء. ثم أمر لخالد بمائة ألف درهم[١].

* * *

وعن أبى بكر الهذلىّ: اجتمعنا عند أبى العبَّاس: أهل البصرة وأهل الكوفة، ولم يكن من أهل البَصْرة غيرى، وكان من أهل الكوفة الحجّاج بن أرْطاة، والحسن بن زيد، وابنُ أبى ليلى، فتذاكروا أهل الكوفة وأهل البصرة، فقال ابن أبى ليلى: نحن والله يا أمير المؤمنين [خير منهم][٢]، فقلتُ: وكيف يكون ذلك لنا! السِّند والهنْد، وكَرمان ومُكران، والفُرَض[٣] والعَرَض، والدِّيار وسعة الأنهار!

فقال: ابن أبى ليلى: نحن أعلم منهم علمًا، وأكثر منهم فهمًا، يُقرّ بذلك أهلُ البَصْرة لأهل الكوفة.

قلت: هم أكثر أنبياء، وأقل أتقياء، وأعظَمُ كبرياء. منهم المغيرة، الخبيث السريرة، وبَيّان وأبو بيّان؛ تنسب فيهم من الأنبياء، والله ما أتانا إلاّ نبىّ واحد.

قال الحسن بن زيد: أنتم أصحاب علىّ يوم سرنا إليه لنقتلَهُ، فكفّ الله أيدينا عنه، وسار إلى الكوفة فقتلوه، فأينا أعظَمُ ذنبًا!

فقال الحجاج: والله يا أمير المؤمنين، لقد بلغنى أنّ أهل البصرة كانوا يومئذ عشرين ألفًا، وكان أهلُ الكوفة خمسة آلاف. فلما التقت حلْقتا البِطان، وأخذَت الرِجال أقرانَها، شدّت خَيْلهم فى صعيد واحد.

فقلتُ: وكيف يكون ذلك؛ وخرجَتْ ربيعةُ سامعة مطيعة، تعين عليا، وخرج الأحنف بن قيس فى سعد والرِّباب وهم السَّنام الأعظم، والجمهور الأكبر يعين عليًّا! ولكن سَلْ هؤلاء يا أميرَ المؤمنين، كم كانت عِدّتُهم[٤] يوم استغاثوا بنا، فلما التقينا كانوا كرمادٍ اشتدّت به الريح فى يوم عاصف!

فقال ابن أبى ليلى: والله يا أمير المؤمنين، إنّا لأشرف منهم أشرافًا، وأكثر منهم أسلافًا.

قلت: معاذ الله يا أمير المؤمنين! هل كان فى تميم الكوفةِ مثل الأحنف بن قيس فى تميم البصرة، الذى فيه يقول الشاعر:

إذا الأبصار أبصرت ابن قَيس ... ظللنَ مهابةً منه خشوعًا

[الوافر]

---

(١) الخبر فى المستطرف: ١: ١٣١: ١٣٢.

(٢) تكملة يقتضيها السياق.

(٣) الفرض: جمع فرضة، وهى من البحر محط السفن.

(٤) ل: «كم عدتهم يا أمير المؤمنين؟».

وهل كان فى قيس الكوفة مثل قتيبة بن مسلم فى قيس البصرة، الذى يقول فيه الشاعر:

كلّ عامٍ يحوى قُتيبةُ نهبًا ويزيدُ الأموالَ مالاً جديدًا
دوَّخَ الصُّغْدَ بالقبائل حتى ترك الصُّغدَ بالعراءِ قُعُودًا
باهلىٌّ تعصّبَ التاجَ حتىّ شِبنَ منه مفارِقٌ كُنّ سُودَا

[الخفيف]

وهل كان فى أزْدِ الكوفة مثل المهلّب بن أبى صُفْرة فى أزد البصرة؛ الذى يقول فيه الشاعر:

إذا كانَ المهلّب مِنْ ورائى هَدا ليلى وقر له فؤادِى
ولم أخْشَ الدَّنيةَ من أُناسٍ ولو صالوَا بقوّةِ قوم عادِ

[الوافر]

وهل كان فى بكر الكُوفة مثل مالك بن مِسمَع فى بكر البصرة الذى يقول فيه الشاعر:

إذا ما خَشِينا من أمير ظلامةً أمَرنا أبا غسّانَ يومًا فَعَسْكَرا

[الطويل]

وهل كان فى عبد قيس الكوفة مثل الحكَم بن المنذر بن الجارُود فى عبد قيس البصرة، الذى يقول فيه الشاعر:

ياحَكَم بنَ المنذِر بن الجارود أنتَ الجوادُ ابن الجوادِ المحمود

فضحك أبوالعباس حتى ضرب برجله، وقال: والله ما رأيت مثل هذه الغَلَبَة قطّ!

محاسن الافتخار بالنبى
صلى الله عليه وسلم

قيل: كان على بن عبد الله بن العبّاس رضى الله عنه عند عبد الملك بن مَرْوان، إذ فاخره عبدُ الملك، فجعل يذكُر أيّام بنى أميّة، فبينا هو كذلك إذ نادى المنادِى للأذان، فقال: أشهد أن لا إلـه إلاّ الله، وأن محمدًا رسول الله ﷺ، فقال علىّ لعبد الملك:

تلكَ المكارمُ لا قَعبانِ من لبنٍ شِيبَا بماءٍ فعادا بعدُ أبوالا[1]

[البسيط]

فقال عبدالملك: الحقُّ فى هذا أبينُ من أن يكابرَ[2].

* * *

علىّ بن محمد النديم، قال: دخلتُ على المتوكّل وعنده الرضى، فقال: يا علّى، مَنْ أشعَر الناس فى زماننا؟ قلت: البُحترىّ، قال: وبعده؟ قلت[3]: مَرْوان بنى أبى حفصة عبدك[3]، فالتفت إلى الرضى، وقال: يا بن عمّ، مَنْ أشعَرُ زماننا؟ قال: علّى بن محمد العلوى، قال: وما تحفظ من شِعره؟ قال: قوله:

لقد فاخَرْتنَا من قريشٍ عصابة بَمط خـدود وامتـداد الأصـابـعِ
فلما تنـازعْنَا القَضـاء قضَى لنا عليهم بما نهوْىَ نِداءُ الصوامعِ

[الطويل]

يعنى المساجد.

قال المتوكّل: وما معنى نداء الصوامع؟ قال: أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأن محمدًا رسول الله. قال: وأبيك إنّه لأشعَرُ الناس[4].

---

(١) لأبى الصلت بن أبى ربيعة الثقفى، طبقات الشعراء لابن سلام ٤٨.
(٢) الخبر فى المحاسن والأضداد ١٦١.
(٣ - ٣) كذا فى المحاسن والأضداد، وفى ط: «ولد مروان بن أبى حفصة خدمك وعبيدك».
(٤) الخبر فى المحاسن والأضداد ١٦١.

محاسن ما قيل فى ذلك من الشعر

قال علىّ بن محمد العلوىّ:

عَصَيْتُ الهوى وهَجرْتُ النساءَ — وكنتُ دواءً فأصبحتُ داءَ
وما أنْسَ لا أنسَ حتّى المماتِ — نَزِيبَ الظِّباءِ تجيبُ الظباءَ[1]
دَعِينى وصَبرى على نائباتٍ — فبالصبر نلتُ الثّرى والثّواءَ
وإن يكُ دهرى لَوَى رأسَهُ — فقد لقِىَ الدّهرُ منّى التِوَاءَ
ليالى أروِى صدُورَ القَنَا — وأروِى بهن الصدور الظِّماءَ
ونحنُ إذا كان شِربُ المُدَامِ — شَرِبْنا على الصافنات الدّماءَ
بلْغنا السّماءَ بأنسابنا — ولولا السماءُ لجُزْنا السماءَ
فحسْبُك من سؤدُدٍ أنّنا — بحُسن البَلاء كشفْنا البَلاءَ
يَطيبُ الثناءُ لآبائنا — وذكرُ علىٍّ يَزين الثناءَ[2]
إذا ذُكرَ الناس كنّا ملوكًا — وكانوا عبيدًا وكانوا إماءَ
هَجانِىَ قومٌ ولم أهجُهُمْ — أبَىَ الله لى أن أقولَ الهجاءَ!

[المتقارب]

وقال غيره:

وإنّى من القومِ الّذين عَرفتهم — إذ مات منهم سيدٌ قام صَاحبُه[3]
نجومُ سماء كلّما انقضّ كوكبٌ — بدا كوكبٌ تأوِى إليه كواكبُه
أضاءت لهم أحسابُهم ووجوهُهُم — دُجَى الليلِ حتى نظَّمَ الجَزْعَ ثاقبُه
فلا تُوعِدنّى يا شُرَيحُ فإننى — كلَيثِ عَرِين فرَّ عنه ثعالبُه
يُمشّى بأوصال الرجالِ إذا شتا — قد احمرَّ من نضْحِ الدّماءِ مخالبُه

[الطويل]

وقال آخر:

حُلماءُ حِينَ يقولُ قائلُهُمْ — بيضُ الوجوهِ مقاولٌ لُسُنُ[4]

---

(١) النزيب: صوت الظبى.

(٢) المحاسن والأضداد: «يطيب الثناء».

(٣) لأبى الطمحان القينى، والأبيات فى الأغانى ١٣: ٩ (طبعة الدار)، ومع اختلاف فى الرواية.

(٤) المحاسن والأضداد ١٦٢.

لا يَفــطُنــون لعَيبِ جــارِهِمُ   وهــمُ لحـفظ جــوارِهِ فــطْنُ

[الكامل]

* * *

وأحسن من ذلك كلّه قولُ رسول الله ﷺ وقد أتاه أعرابيّ، فقال: بأبى أنت وأمى يا رسول الله! مَنْ أكرم الناس حَسَبًا؟ فقال: «أحسنُهم خُلُقًا، وأفضَلُهم تقوى»، فانصرف الأعرابى فقال: «ردّوه»، ثم قال: يا أعرابِّى، لعلك أردتَ نسبًا! قال: نعم، قال: يوسف صدِّيق الله، بنُ يعقوب إسرائيل الله، بن إسحاق ذبيح الله، بن إبراهيم خليل الله، فأين مثل هؤلاء الآباء فى جميع الدنيا! ما كان فيها مثلهم أبدًا.

وقال الشاعر:

ولم أرَ كالأسباطِ أبناءَ والدٍ   ولا كأبيهم والدًا حين ينسبُ

[الطويل]

ودخل عُيينة بنُ حِصْن الفزاريّ على النبى ﷺ، فانتسب إليه، ثم قال: أنا ابنُ الأشياخ الأكارم، فقال ﷺ: «أنت إذًا يوسف صدّيق الله، بن يعقوب إسرائيل الله، بن إسحاق ذبيح الله، بن إبراهيم خليلُ الله!».

وقال ﷺ: «خير البَشَر آدم، وخير العرب محمد، وخير الفُرْس سَلْمان، وخير الروم صُهَيْب، وخير الحبشة بِلال». رحمهم الله أجمعين.

مساوئ الافتخار

رُوى عن ابن عَباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تفخروا[1] بآبائكم فى الجاهلية، فوالذى نفسى بِيَده لما يُدَحرِجُ الجُعَلُ بأنفه خيرٌ من آبائكم الذين ماتوا فى الجاهلية».

قيل: وكان الحسن البصرىّ يقول: ابنَ آدم! لِمَ تفتخر، وإنما خرجتَ من مسيل[2] بَوْلَيْن، نطفةً مُشِجَتْ بأقذار.

قال بعضهم لرجل يتبختر[3]: يا هذا، إن أوّلَك نطفةٌ قَذِرة، وآخِرك جيفة مُنْتِنة، وأنت فيما بينهما وعاءُ عَذِرةٍ؛ فما هذه المِشيَة!.

قال: وقيل لعامر بن قيس: ما تقول فى الإنسان؟ قال: ما أقول فيمن إن جاع ضرع[4]، وإن شبع طَغَى.

وروى عن ابن عباس أنه قال: يتفاضلون فى الدنيا بالشرف والبيوتات والإمارات والعِتاق[5] والجمال والهيئة والمنطق، ويتفاضلون فى الآخرة بالتقوى واليقين، فأتقاهم أحسَنُهم يقينًا، وأزكاهم عَمَلًا، وأرفَعُهم درجة.

وقيل فى ذلك:

يزينُ الفتى فى الناس صحّةُ عقلِهِ ... وإن كان محظورًا عليه مكاسبه
يشين الفتى فى الناس قلّة عقلِهِ ... وإن كَـرُمَتْ آبـاؤه وَمنـاسِبـه

[الطويل]

* * *

وقال بعض الحكماء: لا يكون الشرف بالحسب والنَّسَب؛ ألا ترى أن أخوين لأب وأمّ؛ يكون أحَدُهما أشرَف من الآخر؛ ولو كان ذلك من قِبل النّسَب؛ لما كان لأحدٍ منهما على الآخر فضل؛ لأنّ نسبهما واحد، ولكنّ ذلك من قِبَلِ الأفعال؛ لأنّ الشرف إنما هو فيه لا فى النّسب. وقال الشاعر فى ذلك:

أبـوكَ أبى والجَدُّ لاشـكَّ واحدٌ ... ولكنّنا عُودَان : آسٌ وخِـرْوَعُ

[الطويل]

* * *

---

(1) المحاسن والأضداد: «لا تفتخروا».
(2) المحاسن والأضداد: «سبيل».
(3) المحاسن والأضداد: «أتفتخر».
(4) ضرع، أى ذل.
(5) العتاق من الخيل: كرائمها.

وبلَغَنا عن المدائنى أنه قال: ليس السؤدد بالشرف، وإنما ساد الأحنف بن قيس بحِلمه، وحُضَينُ بنُ المنذر برأيه، ومالك بن مسمع بمحبته فى العامة، وسُوَيد بن منجوف بعطْفه على أرامل قومِه، وساد المهلّب بنُ أبى صُفرة بجميع هذه الخصال.

* * *

قيل: وسمع عُمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو خليفة صوتا ولغطا[١] بالباب، فقال لبعض من عِنده: اخرُجْ فانظر من كان من المهاجرين الأوّلين فأدخِله، فخرج الرسولُ فأدخَل بلالًا، وصهيبا، وسَلْمان - وكان أبو سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو فى عصابة من قريش جلوسًا بالباب - فقال أبو سفيان: يا معشرَ قريش، أنتم صناديد العرب وأشرافها وفرسانها بالباب، ويدخل حبشىّ وفارسىّ ورومىّ! فقال سهيل: يا أبا سفيان، أنفسكم فلوموا[٢] ولا تلوموا أميرَ المؤمنين. دعا القومَ فأجابوا، ودعِيتهم، فأبيتم، وهم يوم القيامة أعظمُ درجات، وأكثر تفضيلًا.

فقال أبو سفيان: لا خير فى مكان يكون فيه بلال شريفًا[٣]!

(١) ط: ولقطا.
(٢) ك: «فالزموا أنفسكم».
(٣) المحاسن والأضداد ١٦٤، ١٦٥.

مساوئ أصحاب الصناعات

قال المأمون، وذكر أصحاب الصِّناعات: السوقة سفل، والصناع أنذال، والتجار بخلاء، والكتاب ملوك على الناس.

وقال المأمون: الناس أربعة: ذو سيادة، أو صناعة، أو تجارة، أو زراعة؛ فمن لم يكن منهم كان عِيالاً عليهم.

وذكروا أن أبا طالب كان يعالج العطر والبَزّ، وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه بزازا، وكان عمرُ بنُ الخطاب رضى الله عنه بَزّازًا، وكان عبد الرحمن بنُ عوف بزازا، وكان سعد بن أبى وقّاص رحمه الله يأبر[1] النَّخل، وكان أخوه عتبةُ رحمه الله نجّارًا، وكان العاص بن هشام، أخو أبى جهل بن هشام جَزّارًا، وكان الوليد بنُ المغيرة حدادًا، وكان عُقبة بن أبى مُعَيط خمارا، وكان عثمان بنُ طلحة، صاحبُ مفتاح البيت خيّاطًا، وكان أبو سفيان بن حرب يبيع الزيت والأدم، وكان أميّة بن خلَف يبيع البُرَم[2]، وكان عبدالله بن جُدْعان نَخّاسًا، وكان العاص بنُ وائل، أبوعمرو بن العاص يعالج الخَيْل والإبل، وكان جريرُ بن عمرو، وقيس، أبو الضّحاك بن قيس، ومعمر بن عثمان، وسيرين، أبو محمد بن سيرين؛ كلّهم حَدّادين، وكان المسيَّب، أبو سعيد زياتا، وكان ميمون بنُ مِهران بزّازًا، وكان مالك بنُ دينار ورَّاقًا، وكان أبو حنيفة صاحب الرأى خزّازًا، وكان مجمّع الزاهد حائكًا.

* * *

قيل: وتخذ يزيد بن المهلب بستانًا فى داره بخُراسان، فلما ولى الأمر قتيبة بن مسلم جعله لإبله، فقال له مرزبان[3] مرو: هذا كان بستانًا، وقد اتخذته لإبلك! فقال قتيبة: كان أبى «أشتربان»[4]، وكان أبو يزيد «بستانبان»[5]، فمنها صار ذلك كذلك[6].

---

(١) يأبر النخل: يصلحه.

(٢) البرم، كغرف: القدور، واحدة برمة كغرفة.

(٣) المرزبان: الرئيس من الفرس.

(٤) الأشتربان: سائق الجمل؛ فارسى.

(٥) بستانبان، هو البستانى، فارسى.

(٦) المحاسن والأضداد ١٦٥، ١٦٦.

محاسن النتاج

ذكروا أن جرهم من نتاج ما بين الملائكة وبنات آدم، وأن الملاك من الملائكة كان إذا عصى ربه في السماء أهبَطَه إلى الأرض في صورة رجل في طبيعته ما في طبيعة بني آدم، كما صنع بهاروت وماروت في خبرهما مع الزّهرة، حتى كان من شأنهما ما كان، فعصى بعضُ الملائكة ربنا جل ذكره، فأهبَطَه إلى الأرض في صورة رجل، فتزوّج أم جرهم، فولدتْ منه جرهما، فقال شاعرهم:

لا هُمّ إنّ جُرهُمًا عِبادُكا ... الناس طِرْفٌ وهمُ تِلادُكا[1]

وكان ذو القرنين أمّه قيرى آدمية، وكان عيرى من الملائكة[2].

* * *

وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلا ينادي: يا ذا القرنين فقال: فرغتم من أسماء الأنبياء، فارتقيتم إلى أسماء الملائكة!

* * *

وزعموا أن التناكح والتلاقُح قد يقع بين الجنّ والإنس، لقوله جلّ وعزّ: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوالِ والأَوْلاَدِ﴾[3]، ولأن الجنِّيَّات إنما يَعرِضْنَ لصَرْعَى رجال الإنس على جهة العِشْق وطَلَب السِّفاد، وكذلك رجالُ الجنِّ لنساء بني آدم، ومن زعم أن الصَّرْع من المِرّة، فقد رَدَّ قولَ الله عزّ وجلّ: ﴿الَّذِين يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إلاّ كَمَا يَقُومُ الذي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ﴾[4]، وقال جلّ ذكره: ﴿وَشَارِكْهُمْ في الأَمْوالِ والأولادِ﴾[5]، وقال عزّ وتعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ ولا جانٌّ﴾[6]، وكان عبد الله بن هلال سِبْط إبليس من قبل أمهاته.

وروى أبو زيد النّحوي أن سِعلاةً أقامت في بني تميم حتى ولدت فيهم، ورأتْ ذات يوم بَرْقًا من شِقّ بلاد السّعالَى فحنّت إلى وطنها وطارت إليهم.

وقد قيل: إن الواقَ واق، من نِتاج ما بين بعض النبات وبعض الحيوان.

وقد قيل: إن الثعلب يَسْفِد الهِرّة الوحشيّة، فيخرج من بينهما ولد فيه مشابَهةٌ منهما. قال حسان:

---

(١) الحيوان ١: ١٨٧ وفيه: «النارس طارف».
(٢) انظر الحيوان ١: ١٨٧، ١٨٨.
(٣) سورة الإسراء ٦٤.
(٤) سورة البقرة ٢٧٥.
(٥) سورة الإسراء ٦٤.
(٦) سورة الرحمن: ٥٦.

أبــوك أبــوك وأنــت ابـنــه ... وبئس الـبنى وبئس الأب![1]
وأمّــك ســوداء نــوبـيــة ... كــأن أنــاملهــا الخنــظب[2]
يبيــتُ أبــوكَ بهــا مُغــدفًــا ... كــما ســاورَ الهــرَّةَ الثعـلب

[المتقارب]

وقد يولد من بين الكلاب والثعالب هذه الكلاب السَّلوقيَّة الماهرة بالصَّيد.

وقيل: إنَّهُ يخرج من بين الذئب والكلبة ولد يسمَّى الدِّيْسم.

وقال بشار:

أدَيسمُ يـابن الـذِّئب من نجـل زارع ... أتـرْوى هِجائى سادِرًا غير مُقْصِـر!

[الطويل]

وزارع: اسم الكلب يعرف بزارع

وزعموا أنه يخرج من بين الذئب والضبع ولد يسمى السمع[3] كالحية لا يعرف العِلل، ولا يموت إلّا بعَرَض يَعرِض له، وأنه أشد عدوا، وأسرَعُ من الرِّيح؛ قال الشاعر:

مُشبـلٌ فى الحىّ أحْوى رِفَـلٌّ ... فـإذا يَعْـدُو فَسِـمْـعٌ أزلُّ

[الرجز]

ومن عجائب التركيب فوالجُ[4] البخت؛ إذا ضربت فى إناث البخت لم يخرج الحوار[5] إلّا قصير العُنق، لا ينال كلأ ولا ماء، وإذا ضربت الفوالج فى العِراب، جاءت هذه الجوامز[6] والبُخْت الكريمة، ومتى ضربت فحول العِراب فى إناث البخْتُ جاءت هذه الإبل القبيحة المنظر.

* * *

وقد قيل فى الإبل: إن فيها عرقا من سفاد الجن، وإن فيها إبلا وحشية هى من بقايا إبل وبار، لما أهلكهم الله جل وعز بقيت إبلُهم وإن الجمل منها ربما صار إلى أعطان الإبل فضرب فى ناقة، فتجىء منه هذه المهرية والعسجدية التى تسمى الذهبية[7].

* * *

---

(١) ديوانه ٦١، وفيه: ومر حسان رضى الله عنه بمجلس مزينة بعد ما كف بصره، فضحك به بعضهم فقال».. وذكر الأبيات، مع اختلاف فى الرواية.

(٢) الخنظب: دابة مثل الخنفساء.

(٣) السمع: سبع مركب، وهو ولد الذئب من الضبع، وهو حديد السمع جدًا. وفى المثل يقال: هو أسمع من سمع.

(٤) الفوالج: جمع فالج، وهو الجمل الضخم ذو السنامين يحمل من الهند للفحلة.

(٥) الحوار: ولد الناقة.

(٦) الجوامز: السراع العدو.

(٧) العسجدية: ركاب الملوك، وهى إبل كانت تزين للنعمان، منسوبة إلى سوق يكون فيها العسجد والذهب (اللسان).

وزعموا أن ببلاد الحبشة ذكر الضباع يعرض للناقة من الوحش، فيسفدها فتلقح بولد على خلقة الناقة والضبع، فإن كان أنثى يعرض لها الثور الوحشى فيضربها فيصير الولد زرافة، ويسمى بالفارسية «أشتر كاوبلنك»، أى خرج من بين الجمل والثور والضبع، وقد جحد الناس أن تكون الزّرافة الأنثى تَلَقح من الزُّرافة الذكر.

وأما النعامة فإنها لا تقع إلاّ من ذكر النعام وإناثها.

* * *

ومن نتاج الطير ما رواه بعضهم أنه رأى طائرًا له صوت حسن، زعموا أنه من نتاج ما بين القمرى والفاختة.

وقناص الطير يزعمون أن أجناسًا من الطير تلتقى على المياه فتسافد، وإنهم لايزالون يرون أشكالا لم يروها قط، فيقدِّرون أنها من تلاقيح تلك المختلفة.

* * *

مساوئ النتاج

فأما من يخرج من بين بنى آدم، فإنه إذا تزوج خرسانى بهندية، خرج من بينهما الذهب الإبريز؛ غير أنه يحتاج أن يحرس ولدهما إذا كان أنثى من زناء الهند، وإذا كان ذَكَرًا من لُواط رجال خراسان.

ومن خبث النتاج ابن المذكرة من النساء، والمؤنث من الرجال، يكون أخبث تاجا من البغل، وأفسد أعراقًا من السمع، وأكثر عيوبا من كل خلق، وأن يأخذ بأسوأ خصال أبيه، وأرْدَأ خصال أمِّه، فتجتمع فيه خصال الدواهى، وأعيان المساوئ، وأنه إذا خرج كذلك لم يَنجَع فيه أدب، ولم يطمع فى علاجه طبيب، وقد رأينا فى دُورِ ثقيفٍ فتىً اجتمعت فيه هذه الخصَال، فما كان فى الأرض يوم إلاّ وهم يتحَدَّثون عنه بشىء يصغر فى جنبه أكبر ذنب كان ينسب إليه.

والخِلاسِىّ من الناس الذى يخرج من بين الحبشىّ والبيضاء، والبَيْسِرىّ من الناس الذى من بين البيض والهند، ويكون من أحسن الناس وأجملهم.

محاسن الوَفاء

قيل فى المثل: هو أوْفَى من فكيهة[1]، وهى امرأة من قَيْس بن ثعلبة، كان من وفائها أن السُّليك بن السُّلَكة عزا بكْرَ بنَ وائل، فخرج جماعةٌ من بكر، فوجدوا أثر قَدَم على الماء، فقالوا: والله إنّ هذا لأثر قدم تَرد الماء، فقعدوا له، فلما وافى حَمَلوا عليه، فعدا حتّى وَلجَ قبة فكيهة، فاستجار بها فأدخلتْه تحت دِرْعها، فانْتَزَعُوا خِمَارَها، ونادت إخوتَها، فجاءوا عَشَرة، فمنعوه منهم، قال: فكان سليك يقول: كأنّى أجدُ خشونة اسْتِها على ظهرى حين أدخلتنى درعها، وقال:

لعمـرُ أبيـك وأنْبـاء تـنمِـى ... لنِعمَ الجـار أخت بنى عُـوارَا
من الخَفـرات لم تَفْضَحْ أخـاها ... ولم تـرفَـعْ لـوالِـدهـا شَنـارَا
عنيْتُ بهـا فُكَيْهَةَ حـين قامت ... كنَصْل السيف وانتزعوا الخِمارَا[2]

[الوافر]

* * *

وقيل أيضًا: هو أوفى من أمّ جميل، وهى من رَهْط أبى هريرة، من دَوْس، وكان من وفائها أنّ هشامَ بن الوليد بن المغيرة المخزومىّ قتل أبا أُزَيْهر[3]؛ رجلًا من الأزد، فبلغ ذلك قومَه بالسَّراة، فوثبوا على ضِرار ابن الخطَّاب ليقتلوه، فعَدَا حتى دخل بيت أمّ جميل، وعاذَ بها، فقامت فى وجوههم، ونادت قومَها، فمنعوه لها، فلما قام عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه بالأمر، ظنّت أنّه أخوه، فأتته بالمدينة، فلمّا انتسبتْ عرف القِصّة، وقال: إنى لستُ بأخيه إلّا فى الإسلام، وهو غازٍ، وقد عرفْنا مِنّتَكِ عليه، فأعطاها على أنها بنت سبيل[4].

* * *

ويقال: هو أوفى من السَّمَوْءل بنِ عادياء، وكان من وفائه أنّ امرأ القيس بن حُجر الكِنْدى لما أراد الخروج إلى قيصر ملك الروم استودع السموءَل، درُوعًا له، فلما مات امرؤ القيس غزاه مَلِكٌ من ملوك الشام، فتحرّز منه السموءل فأخذ المَلِك ابنا له، ذكروا أنه كان متصيّدًا، فصاح به: يا سموءل! هذا ابنك فى يدى؛ وقد علمت أن امرؤ القيس ابنُ عَمّى، وأنا أحقُّ بميراثه، فإن دفعتَ إلىَّ الدروع وإلّا ذبحت ابنَك، فقال: أجِّلنى، فأجّله. فجمع أهلَ بيته وشاورهم فكل أشار عليه أن

(١) فى مجمع الأمثال عن حمزة: «هى فكيهة بنت قتادة بن شنوءة، خالة طرفه؛ لأن أم طرفة وردة بنت قتادة».
(٢) الخبر فى مجمع الأمثال للميدانى ٢: ٣٧٨، والمحاسن والأضداد: ٧٠، ٧١.
(٣) فى مجمع الأمثال: «أبا زهير الزهرانى». وانظر الاشتقاق ٥٠٤.
(٤) الخبر فى مجمع الأمثال ٢: ٣٧٧ والمحاسن والأضداد ٧١.

يدفع الدّروع، وأن يستنقذ ابنَه، فلما أصبح أشرف فقال: ليس إلى دفع الدروع سبيل، فاصنع ما أنت صانع! فذبح الملك ابنَه، وهو ينظر إليه - وكان يهوديًّا - فانصرف الْملك، ووافى السموءل بالدُّروع المَوسم، فدفعها إلى ورثة امرئ القيس، وقال فى ذلك:

وفَيْتُ بأَدْرُعِ الكِندىِّ إنّى | إذا ما خانَ أقوامٌ وفيتُ
وقالوا عندَه كنزٌ رغيبٌ | فلا وّأبيك أغدِرُ ما مَشيتُ
بَنَى لى عادِيا حِصْنًا حَصينًا | وبئرًا كلَّما شئتُ استقيتُ[١]

[الوافر]

وقال الأعشى فى ذلك:

كن كالسموءَل إذ سار الهُمام له | فى جَحْفل كسوادِ الليل جرَّار[٢]
خَيّره خُطَّتَىْ خَسْفٍ، فقال لهُ | اذبح أسيرك، إنّى مانعٌ جارِى[٣]

[البسيط]

* * *

وقيل: هو أوفَى من الحارث بن عُباد، وكان من وفائه أنّه أسرَ عَدِيَّ بن ربيعة، ولم يعرفْه، فقال: دُلّنى على عَدِىّ فقال: إن أنا دللتُك على عدىّ أتؤمِّننى؟ قال: نعم. قال: فأنا عدىّ، فخلّاه. وقال فى ذلك:

لَهْفَ نفسى على عدى وقد | أسْقَبَ للمَوْتِ واحتوتْه اليَدَانِ[٤]

[الخفيف]

* * *

ويقال: هو أوفى من عوف بن محلم، وكان من وفائه أن مَرْوان القرظ[٥] غزا بكر بن وائل، ففضوا جيشه، وأَسَرَه رجل منهم وهو لا يعرفه، فأتى به أُمّه فقالت: إنك لتختال بأسيرك كأنك جئت بمروان القَرَظ! فقال لها مروان: وما تُرجِّين من مَرْوان؟ قَالت: عظم فدائه، قال: وكم ترتجّين من فدائه؟ قالت: مائة بعير، فقال مروان: ذلك لكِ على أن تردِّينى إلى خماعة بنت عوف بن محلِّم[٦]

---

(١) بعده فى مجمع الأمثال:

طِمِرًّا تزلقُ العِقْبانُ عَنْهُ | إذا ما نابنى ظُلم أبيتُ

(٢) من قصيدة طويلة فى ديوانه ١٢٦، ١٢٧، مطلعها:

شُرَيحُ لا تتركَنّى بعد ما عِلَقتْ | حبالك اليوم بعد القِدّ أظفارى

(٣) الديوان: «إذ سامه خطتى خسف» والخبر فى مجمع الأمثال ٢: ٣٧٤، والمحاسن والأضداد ٧١، ٧٢.

(٤) الخبر فى المحاسن والأضداد ٧٣، ورواية البيت فيه:

لَهْفَ نَفْسِى على عَدِىٍّ وَقَدْشَا | رفَهُ الموتُ واحتوتهُ المنونُ

وانظر مجمع الأمثال ٢: ٣٧٨.

(٥) فى مجمع الأمثال: «مروان القرظ بن زنباع»؛ وفيه أيضًا: «وإنما سمى بمروان القرظ، لأنه كان يغزو اليمن وهى منابت القرظ».

(٦) فى مجمع الأمثال: «وكان السبب فى ذلك أن ليث بن مالك المسمى بالمنزوف ضرطا لما مات، أخذت بنوعبس=

قالت: ومَنْ لى بمائة من الإبل! فأخذ عودًا من الأرض، فقال: هذا لك بها، فمضت به إلى عوْف، فاستجار بخماعة ابنته، فبعث عمرو بن هند أن يأتيَه به[١]، فقال: قد أجارته ابنتى، وليس إليه سبيل، فقال عمرو: قد آليت ألّا أعفُو عنه أو يضعَ يدَه فى يدى. فقال: عوْف يضع يدَه فى يدك على أن تكون يدِى بينهما فأجابه عمرو إلى ذلك، فجاء عوف بمروان فأدخله عليه، فوضَع يده فى يده، ووضع عوْفٌ يدَه فى أيديهما، فعفا عنه[٢].

* * *

ويقال: إن قُباذ أمر بقَتْل رجل من الطاعنينَ على المملكة، فقُتل، فوقف على رأسه رجل من جِيرانه وصنائعه، فقال: رحمك الله! إن كنت لتكرم[٣] الجار، وتصبر على أذاه، وتواسى أهلَ الخَلّة[٤]، وتقوم بالنائبة! والعجبُ كيف وجَد الشيطانُ فيك مساغًا حتى حملك على عصيان مَلِكِك! فخرجتَ من طاعته المفروضة إلى معصيته، وقديمًا ما تمكّن ممن هو أشد منك قوّة، وأثبتُ عزمًا.

فأخذ صاحبُ الشرطة الرجل فحبسه وأنهى كلامَه إلى قباذ، فوقع: «يُحسَن إلى هذا الذى شكر إحسانًا يُفضَلُ به، وتُرفع مَرتبتُه، ويزاد فى عطائه».

* * *

قيل: ولما قَتل كسرى النعمانَ بنَ المنذر، كتب إلى إياس بن قبيصة يأمره أن يبعث إليه بولد النعمان بن المنذر وتركته؛ من المال والإبل والخيل والسلاح، وكان النعْمان أودع ذلك هانئ بنَ مسعود، فبعث إليه إياس يُعلِمه بما كتب به كسرى، فأبى أن يسلِّم شيئًا من تركة النعمان، فكتب

= فرسه وسلبه، ثم مالوا إلى خبائه فأخذوا أهله، وسلبوا امرأته خماعة بنت عوف بن محلم، وكان الذى أصابها عمرو بن قارب وذؤاب بن أسماء، فسألها مروان القرظ: من أنت؟ فقالت: أنا خماعة بنت عوف بن محلم، فانتزعها من عمرو بن ذؤاب لأنه كان رئيس القوم، وقال لها: غطى وجهك؛ والله لا ينظر إليه هزلى حتى أردك إلى أبيك، ووقع بينه وبين بنى عبس شر بسببها. ويقال: إن مروان قال لعمرو وذؤاب: حكمانى فى خماعة، قالا: قد حكمناك يا أبا صهبان، قال: فإن اشتريتها منكما بمائة من الإبل، وضمها إلى أهله حتى إذا دخل الشهر الحرام أحسن كسوتها وأخدمها وأكرمها، وحملها إلى عكاظ، فلما انتهى بها إلى منازل بنى شيبان، قال لها: هل تعرفين منازل قومك ومنازل أبيك؟ قالت: هذه منازل قومى، وهذه قبة أبى؛ قال: فانطلقى إلى أبيك، فانطلقت فخبرت بصنيع مروان، فقال مروان فيما كان بينه وبين قومه، فى أمر خماعة وردها إلى أبيها:

رَدَدْتُ عَلَى عَوْفٍ خُماعَةَ بَعْدَمَا ... خلاها ذؤابٌ غير خَلْوَة خاطبِ
ولو غَيرُها كانت سبيئة رُمحِهِ ... لجاء بها مقرونةً بالذوائب
ولكنَّهُ ألقَى عَلَيْها حجابَهُ ... رجَاء الثواب أَوْ جِذارَ العَوَاقبِ
فدافَعْتُ عَنْهَا ناشبًا وقبيلَهُ ... وفارِس يعبُوبٍ وعَمْرو بن قاربِ
ففاديتها لّما تبين نصفُها ... بكوم المتالى والعشور الضوارب
صُهابِيَة حُمْرِ العثانين والذُّرَا ... مهاريس أمثالِ الصُّخورِ مصاعبِ

قال: فكانت هذه يدًا لمروان عند خماعة، فلهذا قال: «ذلك لك على أن تؤدينى إلى خماعة بنت عوف»

(١) فى مجمع الأمثال: «وكان عمرو وجد على مروان فى أمر، فآلى ألا يعفو عنه حتى يضع يده فى يده».

(٢) فى مجمع الأمثال: «وقال عمرو: لاحر بوادى عوف»، فأرسلها مثلًا مجمع الأمثال ٢: ٣٧٥، ٣٧٦، المحاسن والأضداد ٧٣، ٧٤.

(٣) ك: «إنك لكنت».

(٤) الخلة هنا: الحاجة.

إياس إلى كسرى يعلمه ذلك، فآلى على نفسه ليستأصلن بكر بن وائل. فكتب إلى إياس يأمره بالمسير إليهم لمحاربتهم فيمن معه من طيِّىء وإياد وغيرهم، وكتب إلى قيس بن مسعود الشيبانى المعروف بذى الجَدَّين – وكان عاملاً على سفوان – يمنع العرب من دخول أطراف السّواد؛ ويأمره أن يسيرَ بمن معه من قومه، فيُعين إياسًا على محاربة بكر بن وائل.

ثم عقد كسرى لقائد من قواده يسمى الهامرز[١] فى اثنى عشر ألف رجل من أبطال أساوِرَته[٢]، ووجّهه إلى إياس لمعاونته، ثم عقد أيضا هرمز جرابزين، وكان أعظم مرازبته فى مثل ذلك، وأمره أن يَقْفُو أثر الهامرز؛ حتى يوافى إياس بن قبيصة.

فسارت الجيوش إلى بكر بن وائل – وكانوا بمكان يسمَّى ذاقَار، منه إلى مدينة الرسول خمسُ مراحلَ، ممّا يلى طريق البَصرة – فأقبلت الجيوشُ حتى أناخت على بَكْر فأحدقتْ بهم.

ثم إن عظماء بكر بن وائل اجتمعوا إلى هانئ بن مسعود المزدلف، وقالوا: إن هذه الجيوشَ قد أحدقت بنا من كلّ ناحية، فما ترى؟ قال: أرَى أن تجعلوا حصونَكم سيوفَكم ورماحَكم، وتُوطِّنُوا أنفسكم على الموت، فقالوا: نعم. والله لنفعلنَّ. ثم إنَّ قيس بن مسعود أقبل فى سواد الليل من عسكر إياس حتى أتى هانئ بن مَسعود، فقال: يا بن عمّ، إنه قد حل بكم من الأمر ما قد ترون ففرِّق خَيْل النعمان وسلاحَه فى أشدّاء قومِك ليقوَوْا بذلك على القتال، فهى مأخوذة لا محالة إن قتلوا، وإن سلِمُوا أمرتهم فردّوها عليك. وعليك بالجدِّ والصبر، وإيّاك ثم إياك أن تخفر ذمتك فى تركة النعمان حتى تقتَل وعيالك ويُقتَل معك جميعُ قومك.

قال له هانئ: أوصيْتَ يا بن عمٍّ محافظًا، فوَصَلتك رَحِم؛ وأرجو ألاّ ترى منا تقصيرا ولا فُتُورًا.

فانصرف قيس ذو الجدين من عند هانئ كئيبا حزينا باكيا خائفا من هلاك قومه، حتى أتى عسكر إياس، وكان يريه أنه مجامع له على حرب قومه، خوفًا أن يجد عليه كسرى فيقتله.

فلما أصبح هانئ بن مسعود دعا بخيل النعمان وسلاحِه ففرقه فى أبطال قومه وأشدَّائهم، فَركِبوا تلك الخيول، وكانت ستمائة فرس وستمائة درع، واستلأموا[٣] تلك الدُّروع، وكان ذلك فى العام الذى هاجر فيه رسول الله ﷺ إلى المدينة، واتفقت بكر بن وائل أن تجعل شِعَارها باسم رسول الله ﷺ: «محمد يا منصور»، وذلك قبل أن يسلموا، وبذلك الاسم نُصِروا وقهروا عدوهم.

وعَمِدَ رجل من أشراف بنى عجل يقال له حنظلة بن سيار، إلى حزم رحالات النساء فقطعها كلها؛ أراد بذلك أن يمنَع قومه من الهرَب إن وقعت الهزيمة فسمى بذلك مقطع الوضين[٤].

وإن إياس بن قَبيصة أرسَل إلى بكر بن وائل يخيرهم خصلةً من ثلاث: إما أن يسلموا تركةَ

---

(١) كذا فى ك وتاريخ الطبرى، وفى ل: «هامون».

(٢) الأسوار، بالضم والكسر: القائد من الفرس، وجمعه أساورة.

(٣) ك، ل: «واستلموا».

(٤) الوضين: بطان عريض منسوج من سيور أو شعر.

النعمان، وإمّا أن يسيروا ليلا فى البرارى، فيعتل على كسرى أنهم هربوا، فإن أبوا هاتين الخلتين خرجوا إلى الحرب.

فتآمروا بينهم، فقالوا: أمّا أن نسلم خفارتنا فلا يكون ذلك، وإن نحن لحقنا بالفلاة أفضينا إلى بلاد تميم فيقطعون علينا، ويأخذون ما معنا ويأسروننا، وليس لنا حيلة إلا القتال، فاختاروا القتال، ووجهوا خمسمائة فارس من أبطالهم، عليهم يزيد بن حارثة اليشكُرىّ، وأمرهم أن يكمنوا للعجم.

ثم زحف الفريقان بعضهم إلى بعض، وتقدّم الهامرز ووقف بين الصفين، ونادى بالفارسية «مردى آمردى»، فقال يزيد بن حارثة: ما يقول؟ قال: يدعو إلى البراز رجلا لرجل، فقال: وأبيكم لقد أنصف، ثم خرج إليه؛ فاختلف بينهما ضربتان، فضربه يزيد ضربة بالسيف على منكبه فقدّ دِرْعه حتى أفضى السيف إلى منكبه فأبانه فخر ميتا، الهامَرز، أول قتيل بين الصّفّين.

وألقى الله عز وجل الرعب فى قلوب العجم، فولوا منهزمين، ولحق حنظلة بن سيَّار العجلىّ بهرمز جرابزين، قائد العجم فطعنه طعنة خرَّ منها ميتًا. ودفع هانئ بن مسعود فرسه فى طلب إياس بن قبيصة حتى لحقه، ومعه قيس بنُ مسعود ذو الجدين، فأراد هانئ قتل إياس فمنعه قيس، وحال بينه وبين قتله، وأتبع العجمَ خمسمائة فارس من بنى شيبان لا يلوُون على شىء، يقتُلون يومَهم ذلك من أدركوا منهم، حتى جنّهم الليل، وبلغتْ هزيمة الأعاجم كسرى بالمدائن.

قال دغْفل: فذُكر هذا الحديثُ لرسول الله ﷺ فقال: «هذا أوّل يوم انتصف فيه العرب من العجم وبى نصروا»، يعنى باسمه ﷺ. فقال: وسُقِط فى يدى كسرى واغتاظ من ذلك غيظًا شديدًا، ووقعت الوَلْوَلة والعويل بالمدائن فندب كسرى الجنود، وفرّق فيهم السلاح والمال لمعاودَة حرب بكر بن وائل.

ثم إن بطارقَة الرّوم خرجوا على مَلِكهم قيصر فقتلوه، فاشتغل به عن معاودة حرب بكر بن وائل، فكان هانئ بنُ مسعود المزدلِف أحد الأوفياء[١]

* * *

ومنهم الطائىّ صاحب النعمان بن المنذر، وكان من حديثه أن النعمان بن المنذر ركب فى يوم بؤسِه، وكان له يومان: يوم بؤس، ويوم سَعْد، لم يلْقَه فى يوم بؤسه أحد إلا قتله، وفى يوم سعده أحد إلا حَبَاه وأعطاه. فاستقبله فى يوم بؤسه أعرابىٌ من طَيِّئ فقال: حيا الله الملِك! إن لى صبية صغارًا لم أوص بهم أحدا، فإن يأذن لى الملكُ فى إتيانهم، أُعطِهِ عهد الله أَنى أرجع إليه إذا أوصيت بهم حتى أضع يدى فى يده. فرقّ له النعمان، فقال: لا، إلاّ أن يَضمنك رجل ممن معنا، فإن لم تأت قتلناه، وشريك بن عمرو بن شراحيل نديم النعمان معه، فقال الطائى:

---

(١) أيام العرب فى الجاهلية ٦، ابن الأثير ١: ٢٨٩، الأغانى: ٢٠ ١٣٢ (ساسى)، معجم البلدان ٣: ٣٥٢.

يا شريك يابن عمرو[١]   هل من الموت محاله؟
يا أخا كل مضاف   يا أخا من لا أخا له[٢]
يا أخا النعمان فك الـ   ـيوم عن شيخ غِلالَه
إن شَيبان قبيل   أحسنُ الناسِ فعالَهْ[٣]

[مجزوء الرمل]

فقال شريك: هو على أصلح الله الملك! فمر الطائى والنعمان يقول لشريك: إن صدر هذا اليوم قد ولّى، ولا يرجع، وشريك يقول: ليس لك على شبيل حتى نمسى، فلما أمسوا أقبل شخص والنعمان ينظر إلى شريك، فقال: ليس علىَّ سبيل حتى يدنو الشخص. فبينا هم كذلك إذ أقبل الطائىّ، فقال النعمان: والله ما رأيت أكرم منكما، وما أدرى أيُّكما أكرم، لا أكون والله ألأم الثلاثة؛ ألا أنّى قد رفعت يوم بؤسى. وخلى سبيل الطائى، فأنشأ يقول:

ولقد دعتنى للخلاف عشيرتى   فأبيتُ عند تجهُّر الأقوالِ
إنّى امرؤ منى الوفاء خَليقةٌ   وفَعال كلّ مُهَذّبٍ بذّال

[الكامل]

فقال النعمان: ما حملك على الوفاء؟ قال: دينى؛ قال: وما دينك؟ قال: النصرانية، قال: اعرضها على، فعرضها عليه، فتنصّر النعمان[٤].

* * *

ومنهم وزير مَلِك الصّين، وكان حديثه أنّ شَمِر بن أفريقيس بن أبرهة، خرج فى خمسمائة ألف مقاتل إلى أرض الصين، فلما قارب بلادهم بلغ ذلك مَلِك الصِّين، فجمع وزراءه، فاستشارهم، فقال رئيسهم: أيُّها المَلِكُ، أثِّرْ فىّ أثرًا، وخلِّنى ورأيى! فأمر به فجُدع أنفُه، فقام هاربا مستقبلا لشمر، فوافاه على أربعة منازل بعد خروجه من مفاوز الصين، فدخل عليه وقال: إنى أتيتك مستجيرا، قال شِمر: ممن؟ قال: مِنْ مَلِك الصين؛ لأنى كنت رجلا من خاصّة وزرائه؛ وإنه جمعنا لما بلغه مسيرُك إليه، فاستشارنا، فأشار القوم جميعًا بمحاربتك، وخالفتهم فى رأيهم وأشرت عليه أن يعطيَك الطاعة ويحمل إليك الخراج، فاتهمنى وقال: قد مالأتَ مَلِكَ العرب؛ وكان منه إلىّ ما ترى، ولم آمنه مع ذلك أن يقتلَنى، فخرجت هاربا إليك.

ففرح به شمر، وأنزله معه فى رَحْله، ووعَده من نفسه خيرا، فلما أصبح وأراد أن يرحل، قال لذلك الرّجل: كيف عِلمُك بالطّريق؟ قال: أنا من أعلمِ الناس به، قال: فكم بيننا وبين الماء؟ قال: مسيرة ثلاثة أيام، وأنا مُورِدُك اليوم الرابع على الماء فأمر جنوده بالرحيل، ونادى فيهم

---

(١) مجمع الأمثال: «يا شريكًا يا بن عمر». وكذلك فى المحاسن والأضداد.
(٢) مجمع الأمثال: «ضيفًا قد أتى له».
(٣) كذا فى ط، عن الأغانى، وفى ك ل، والمحاسن والأضداد: «ابن شيبان».
(٤) الخبر فى المحاسن والأضداد ٧٤، ٧٥ وهو برواية أوسع فى مجمع الأمثال ١: ٧٠، ٧٢ والأغانى ١٩: ٨٦ – ٨٨ (ساسى).

ألا تحملوا من الماء إلا لثلاثة أيام. ثم سار فى جنودِهِ والرجل بين يديه، فلما كان فى يوم الرابع انقطع بهم الماء واشتد الحر، فقال: لا ماء، وإنما كان ذلك مكرٌ منى لأدفعك بنفسى عن مَلِكى.

فأمر به فضربت عنقه، فعطش القوم، وقد كان المنجّمون قالوا لشمر عند مولده: إنه يموت بين جبلى حديد، فوضع درعه تحت قدميه من شدّة الرّمْضاء، ووضع تُرْسًا من حديد على رأسه من حر الرمضاء، فذكر ما كان قيل له فى ولادته، وقال للقوم: تفرّقوا حيث أحببتم، فقد أورطتكم. فهلك وجميع من كان معه.

* * *

وحُكى أنه لما حَمل رأسَ مروان بن محمد الجعدى إلى أبى العبّاس وهو بالكوفة قعد له مجلسا عامًّا، وجاءوا بالرأس، فوُضع بين يديه، فقال لمن حضره: أمنكم أحد يعرف هذا الرأس؟ فقام سعيد بن عمرو بن جعْدة بن هبيرة، فأكب عليه، وتأمله طويلاً، ثم قال: هذا رأس أبى عبد الملك، خليفتنا بالأمس رحمه الله! وعاد إلى مجلسه.

فوثب أبو العباس حتى خرج من المجلس وانصرف ابن جعدة، وتحدث الناس بكلامه، فلامه بنوه وأهْله، وقالوا: عرَّضتنَا ونفسَك للبوار! فقال: اسكُتوا قبَّحكم الله، ألستم أشرتم علىّ بالأمس بحرّانَ بالتخلّف عن مَرْوان! ففعلت ذلك غير فعل ذى الوفاء والشكر، وما كان ليَغسِل عار تلك الفَعْلة إلّا هذه، وإنّما أنا شيخ هامة[1]، فإن نجوتُ يَومى هذا من القتل متُّ غدًا، قال: وجعل بنوه يتوقّعون رُسُل أبى العباس أن تَطرُقه فى جوف الليل، فأصبحوا ولم يأتِه أحد، وغدا الشيخ، فإذا هو سليمان بن مجالد، فلمّا أبصره قال: يا بن جعدة، ألا أبشِّرك بحسن رأى أمير المؤمنين فيك! إنه ذَكَر فى هذه الليلة ما كان منك، فقال: أماما أخرَجَ هذا الكلام من الشيخ إلّا الوفاء، وهو أقرب بنا قَرابة، وأمَسُّ بنا رَحِمًا منه بمروان إن أحسَنّا إليه، قال: أجَلْ.

* * *

وذكر أن المنصور أرسل إلى شيخ من أهل الشام، وكان من بطانة هشام بن عبدالملك بن مروان، فسأله عن تدبير هشام فى حروبه مع الخوارج، فوصف الشيخ له ما دبر، فقال: فعل رحمه الله كذا، وصنع رحمه الله كذا! فقال المنصور، قم عليك لعنة الله! تطأ بساطى، وتترحم على عدوى! فقام الرجل، فقال وهو مول: إن نعمة عدوك لقلادة فى عنقى لا ينزعها إلا غاسلى.

فقال له المنصور: ارجع يا شيخ، فرجع فقال: أشهد أنك نهيض حرة وغراس شريف، ارجع إلى حديثك. فعاد الشيخ فى حديثه حتى إذا فرغ دعا له بمال، فأخذه وقال: والله يا أمير المؤمنين مالى إليه حاجة، ولقد مات عنى من كنت فى ذكره، فما أحوجنى إلى وقوف على باب أحد بعده، ولولا جلالة أمير المؤمنين، وإيثارى طاعته ما لبست نعمة أحد بعده.

---

(١) يقال: هامة اليوم أو غد، أى يموت اليوم أو غدا.

فقال المنصور: إذا شئت، لله أنت! فلو لم يكن لقومك غيرك لكنتَ قد أبقيت لهم مجدا مخلدا، وعزًّا باقيًا.

* * *

عن أبي دفافة العبسي، قال: حدّثتُ المنصورَ بحديث العجلان بن سَهْل، وكان دخل على عبد العزيز بن القعقاع؛ فبينا هو جالس إذ دخل رجلٌ متلطِّخ الثوب بالطين، فقال عبد العزيز: مالك؟ قال: ركبَ هذا الأحوال – يعنى هشام بن عبد الملك – فنفَرتْ ناقتى فسقطتُ. فانتزع العجلان سيفَه، فنفَحه به، ووَثب الرجل، فأخطأه السيف، ووقع فى وسادة فقطّعها، وقال: يا لكع! أعياك أن تسَمِّيَ بأمير المؤمنين وباسمه الذى سمّاه به أبواه أو بكنيته، ونظرت إلى الّذى يعاب به فسميته به! أما والله لوددت أن السيف أخذ منك مآخذه!

قال: فكان المنصور يستعيدُنى هذا الخبر كثيرا ويقول: كيف صنع العجلان بن سهل! مع مثله يطيب الملك.

* * *

قال: وأخبرَنا عطّاف، قال: بينا عبد الله بن طاهر مقبل من منزل عبيد الله بن السَّرِيّ بمصر، حتى إذا دنا من بابِه، إذا بشيخ قد قام إليه، فنَاوله رقعةً كانت معه، وقال: أصلح الله الأمير! نصيحة واجبة، فأخذ الرقعة ودخلَ فما هو إلاّ أن دخل وخرج الحاجب، فقال: أين صاحبُ الرقعة؟ فقام إليه الشيخ، فأخذ بيَدِه، فأدخله إلى عبدالله فقال: قد فهمتُ رقعتَك هذه، وما تنصَّحت به إلينا، فأنصِفْنى فى مناظَرتك، فقال الرجل: ليقُلْ الأمير ما أحَبّ، قال: أخبرنى، هل يجبُ شكر الناس بعضهم لبعض؟ قال: نعم. قال: وبِمَ يجبُ؟ قال: بإحسان المحسِن، وبفضل المنعم. قال: صدقت، جئتَ إلىّ وأنا على هذه الحال التى ترى، خاتمى بفَرْغانة[1]، وآخر ببرْقة، وحُكمى ونهيى وأمرى جائِزٌ فيما بين هذَين الطّرَفين، وقد جُمع لى من العمل ما لم يجمع لأحد قطّ من ولاة المشرق والمغرب والشرَطة، وما خرج من هذه الطبقة، ولست ألتفت إلاّ إلى نعمة[2] هؤلاء القوم ومِنَّتِهم، لا استفئ إلاّ بظلِّها، ولا أعرف غيرَهم سادة ولا كبراء، ولا أئمة ولا خلفاء فأردت أن أكفرُ هذه النعمة، وأجحدَ هذا المعروف وأبايع رجلاً ما امتحن للتقوى[3]، ولا أفاد عِلْمًا للهدى، ولا جرت له على مِلّيٍّ ولا ذِمّيٍّ يدٌ سالفة، ولا نعمةٌ سائرة، افترى على الله جلّ ذكره. ولو فعلت هذا الذى دعوتنى إليه كنت ترضى به فى مكارم الأخلاق وشكر المنعمين!

قال: فسكت الرجل ولم يحر جوابًا. وكان دعاه إلى بَيعة ابن طباطبا. وقال بعضهم: إنه كان دسيس المأمون.

---

(١) فرغانة: كورة واسعة بما وراء النهر.

(٢) ك «لنعمة».

(٣) ك: «بالتقوى».

برون الكبير، قال : وجه إلى المأمون، وقد مضى من الليل الثلث، فقال لى: يا برون، قد أكثر علينا أصحابُ الأخبار فى أن شيخا يرد خرابات البرامكة فيبكيهم ويندُبهم، ويُنْشِد أبياتًا من الشعر، فاركب أنتَ وعلىّ بن محمد، ودينار بن عبد الله، حتى تردوا هذه الخرابات، فتصيروا مِنْ وراء جُدْرانها فإذا رأيتم الشيخ وقد ورد وبكى وأنشدَ، فأتونى به. قال برون: فركبت مع القوم حتى وردنا الخرابات، وإذا الخادم قد أتى ومعه زِلّيَة[1] روميّة وكرسىّ جديد، وإذا شيخٌ وسيمٌ جميلٌ له صَلْعَة وهامة، فجلس يبكى، ويقول:

ولما رأيتُ السَّيفَ قد قدَّ جعفرًا ... ونادى منادٍ للخليفة فى يحيى

بكيتُ على الدّنيا وأيقنت أنهُ ... قُصارَى الفتى يومًا مُفارقةُ الدنيا

أجعفرُ إن تَهلك فربَّ عظيمةٍ ... كشفت ، ونُعمَى قد وَصلتَ بها نعمَى

فقُل للذى أبدَى ليحَيى وجعفرٍ ... شَماتَتَهُ: أبشْر لتَأتيهِمُ العُقْبى

لئن زال غُصنُ الملك عن آل بَرْمَكٍ ... فمازال حتى أثمرَ الغُصنُ واستعلى

وما الدهرُ إلاّ دولةٌ بعد دولةٍ ... تُبدِّلُ ذا مُلكًا، وتُعقبُ ذا بلوى

على أنها ليست تدُوم لأهلها ... ولو أنها دامت لكنتمْ بها أوْلى

بنى برمَكٍ كنتْم نجومًا مضيئةً ... بها يَهتدِى فى ظلمةِ الليل مَنْ أسْرى

لأيكمُ أبكى؟ أللفضل ذى النّدى ... أم الشيخ يحيى، أم لمحبوسه موسى!

أم الملك المصلوب من بعد عزةٍ ... أم أبكى بكاء المعولات أم الثّكلى!

لِكُلُكُم أبكى بعين غزيرةٍ ... وقلبٍ جريح لا يموت ولا يحيا

قال: فتراءينا له، ثم قَبضْنا عليه فجزع وفزع وقال: مَن القوم؟ فقال برون: أنا حاجب أمير المؤمنين، وهذا فلان وفلان، قال: وما الذى تريدون؟ قال برون: فأعلمتهُ ما أمَر به أمير المؤمنين؛ من أخذه إلى مجلسه، قال: ذَرْنَى أوص فإنى لا آمنهُ، ثم تقدَّم إلى بعض العلّافين فى فُرْضة الفيل، فأخذ بياضًا، وأوصَى فيه وصيّةً خفيفة، ودَفَعها إلى الغلام، وسرْنا به.

فلما مَثَل بين يدى المأمون زَبَرَه وقال: مَنْ أنت؟ وبماذا استوجَبَ البرامكةُ ما تفعله فى دورهم؟ قال: يا أمير المؤمنين، للبرامكة عندى أيادٍ خَضِرة أفتأذن لى أن أحدِّثك؟ فقال: سديدًا[2].

قال: أنا يا أمير المؤمنين المنذر بن المغيرة، من أهل دِمشق، كنت بها من أولاد الملوك، فزالت عنى نعمتى كما تزول عن الرجال، فلمّا ركبَتنى الديون، واحتجت إلى بَيْع مسقط رأسى ورءوس آبائى، أشاروا علىّ بالخروج إلى البرامكة، فخرجت من دمشق ومعى نيِّف وثلاثون امرأة وصبيًّا وصبيّة، وليس معنا ما يباع ولا ما يُرْهن، حتى دَخلتُ بغداد، ونزلنا بباب الشام فى بعض المساجد، ودعوت بثوَيْبات لى قد كنت أعددتها لا ستمِيح بها الناسَ، وتركتهم جياعاً، وركبتُ شوارعَ بغداد، فإذا أنا

---

(١) الزلية: تعريب؛ «زيلو» وهو البساط.

(٢) ك: «شديدًا».

بمسجد مزخرف؛ وفيه مائة شيخ قد طبقوا طيالستهم بأحسن زى وزينة وبزة، وإذا خادمان على باب المسجد، فطمعت فى القوم، وَوَلجتُ المسجد وجلست بين أيديهم؛ وأنا أقدم وأُوَخّر، والعَرَق يسيل منّى، لأنّها لم تكن صناعتى، فإنّى لكذلك، وإذا أنا بخادم قد أقبلَ وقال للخادمين: ازعِجا القوم، فأزعجا القوم وأنا منهم فأدخلونَا دار يحيى ابن خالد، ودخلتُ معهم، فإذا بيحيى جالسٌ على دَكّةٍ له وَسَط بُسْتان، فسلّمنا وهو يعدُّنا، مائة رجل وواحدًا، وبين يدى يحيى عشرة من ولده. وإذا غلام أمرَدُ حين عَذّر[1] خدَّاه، قد أقبل من بعض المقاصير، بين يديه مائة خادم من ذهب، ورجل من ذهب فى كل مجمرة متنطِّقون، فى وَسَط كل خادم من منطقة ألف مثقال، مع كل خادم مجمرة قطعة من العُود كهيئة الفِهْر[2]، قد ضُمّ إليه مِثلُه من العنبر السلطانّى، فوضعوه بين يدى الغلام، وجلس الغلام إلى جنب يحيى، ثم قال يحيى للزبرقىّ القاضى: تكلم، فقد زوجت ابنتى عائشة من ابن عمّى هذا من بيت نار النَّوبهَار[3]، فخطب القاضى، وشَهد القاضى والنَّفَر، وأقبلوا علينا بالنثار ببنادق المسك والعنبر، فالتقطتُ والله يا أمير المؤمنين مِلءَ كُمِّى، ونظرتُ وإذا يحيى فى الدَّكة ما بين المشايخ، ويحيى وولده والغلام، ونحن مائة رجل واثنا عشر رجلاً، فخرج إلينا مائةُ خادم واثنا عشر خادمًا، مع كل خادم صينيّة فضة عليها ألف دينار شاميّة فوضع بين يدىْ كلّ رجل منّا صينيّة، فرأيتُ القاضى والمشايخَ يصبُّون الدنانير فى أكمامهم، ويجعلون الصوانىّ تحت آباطهم، ويقوم الأوّل فالأول، حتّى بقيتُ وحدى بين يدى يحيى، لا أجسر على الصِّينيةِ فغمز لى الخادم، فجسرتُ عليها، وجعلتُها فى كُمّى، وأخذت الصِّينية وقمتُ وأنا أمرُّ طولَ الصَّحْن والتفتّ ورائى، هل يتبعنى أحد؟ فإنّى لكذلك أطاول الإلتفاتَ ويحيى يلحظنى، فقال للخادم: ائتنى بالرجل، فرُددت إليه، فأمر فسلِبْتُ الدنانير والصينية، ثم أمرنى بالجلوس، فجلستُ، فقال: ممّن الرجل؟ فقصصتُ عليه قصّتى، فقال: علىَّ بموسى، فأُتَى به، فقال: يابنى، هذا رجل غريب، فخذه إليك، اخلطْه بنفْسك ونعمتِك.

فقبض علىَّ موسى، وأخذنى إلى بعض دوره، فقصف علىّ يومى وليلتى، فلما أصبح دعا بأخيه العبّاس وقال له: إنّ الوزير أمرنى بالقَصف على هذا الفتى، وقد علمت تشاغلى فى دار أمير المؤمنين، فاقبض عليه وقاصِفه. فلمّا كان من غد تسلمنى أحمدُ، ثم لم أزل وأيدى القوم تتداولنى عشرة أيام، لا أعرف خبر عيالى وصبيانى، فى الأموات همْ أم فى الأحياء!

فلما كان فى اليوم العاشر دُفعتُ فى يدى الفضل، فقصَفَ علىّ، فلما كان فى الحادى عشر جاءنى خادم مع عشرة من الخَدَم، فقالوا: قم عافاك الله فاخرج إلى عيالك بسلام فقلت: واوَيْلاه! سُلبتُ الدنانير والصِّينيّة، وقد تمزّقتْ ثيابى واتسختْ، وأُخْرج على هذه الحالة! إنّا لله وإنا إليه راجعون!

فرفع لى الستر الأوّل والثانى والثالث والرابع والخامس والسادس، فقبل أن رُفِعَ السابع قال لى الخادم: تمنَّ ما شئتَ. ورفع لى ستر عن حُجرة كالشمس استقبلنى منها رائحة العود والنّدّ ونفحات

---

(١) عذر خداه: أى نبت الشعر فى عذاريه والعذار: الشعر الذى يحاذى الأذن.

(٢) الفهر: الحجر يملأ الكف.

(٣) النوبهار: معبد النار.

المسك، وإذا أنا بصبيانى يتقلبون فى الحرير والديباج وأنا قد حمل لى ألفُ ألف درهَم مبدَّرة[١] وعشرة آلاف دينار، وقبالتين[٢] بضَيْعَتين، وتلك الصينيّة مع الدنانير والبنادق.

فبقيت يا أمير المؤمنين مع البرامكة فى دورهم ثلاث عشرةَ سنةً، لا يعلمُ الناس: أمِن البرامكة أنا، أم من بيت نار النوْبهار، أم رجل غريب اصطنعونى!

فلما جاء القوم البليّة، ونزلتْ بهم من الرشيد النازلة، قَصدنى عَمرو بن مسعدة، وألزمنى من الخراج فى هاتين الضَّيْعَتَين مالا يفِى دَخلهُما به، فلما تحامل علىّ الدهر، كنت أنظر إلى خرابات القوم فأندُبهم.

فقال المأمون: علىّ بعمرو بن مسعدة، فلما أتى به قال له: يا عمرو، أتعرف الرجل؟ قال: نعم؛ هو من بعض صنائع البرامكة. قال كم ألزمته فى ضيعته: كذا وكذا قال: رُدَّ عليه كلّ ما استأديته إياه فى سنِيه، وأوغر[٣] ضيعتَيْه تكونان له ولعقِبه من بعده.

فعَلا نحيبُ الرجل بالبكاء يرثى البرامكة، فلما طال بكاؤه، قال له المأمون: فمم بكاؤك وقد أحسنًا إليك؟ قال: يا أمير المؤمنين، هذا أيضًا من صنائع البرامكة! أرأيتُك يا أمير المؤمنين، لو لم آت خراباتِ القوم، فأبكيهم وأندبهم حتى اتصل خبرى بأمير المؤمنين ففعل بى ما فعل؛ من أين كنت أصل إلى ما وصلت إليه!

قال إبراهيم بن ميمون: فلقد رأيت المأمون وقد دمعت عينه، واشتد حزنه على القوم وقال: صدقت لعمرى! هذه أيضًا من صنائعهم، فعليهم فابْكِ، وإياهم فاشكر.

---

(١) مبدرة، أى مجعولة بدرًا، والبدرة عشرة آلاف درهم.

(٢) فى الأساس: كل من تقبل بشىء مقاطعة، وكتب عليه بذلك الكتاب، فعمله القبالة (بالكسر)، وكتابه المكتوب عليه هو القبالة (بالفتح).

(٣) يقال: أوغر الملك فلانا أرضاً، أى جعلها له من غير خراج.

مسَاوئ قلة الوفاء والسعاية

يقال: إنّ رجلاً رَفَعَ رقعة إلى عمر بن الخطاب رحمه الله يسعى فيها ببعض أصحابه، فوقع فيها: «تقرَّبت إلينا بما باعَدَك من الرحمن، ولا ثواب لمن آثر عليه».

* * *

قيل: ورفع منتصِح رقعة إلى عبد الملك بن مروان، فوقع فيها: «إن كنت كاذبا عاقبناك، وإن كنت صادقًا مقتناك، وإن استقلتنا أقلناك». فاستقاله الرجل.

* * *

قيل: وكتب صاحبُ بريد همذان إلى المأمون بخراسان يعلِمه أن كاتب البريد المعزول، أخبره أنّ صاحبه وصاحب الخراج كانا تواطئا على إخراج مائتى ألف درهم من بيت المال، واقتسماها بينهما، فوقَّع المأمون: «إنا نرى قبول السعاية شرا من السِّعاية، فإن السعاية دلالة، والقبول إجازة، وليس من دَلَّ على شيء كمن قَبِلَه وأجازه، فانْفِ الساعيَ عنك، فلو كان فى سعايته صادقا، لقد كان فى صدقه لئيما، إذ لم يحفظ الحرمة، ولم يستر على أخيه»[1].

* * *

قال: وقال المأمون لولده: يابنى، نزهوا أقدارَكم، وطَهِّروا أحسابكم عن دنس الوشاة وتمويه سعايتهم، فكل جانٍ يده فى فيه، وليس يشِى إليكم إلا أحد رجلين: ثقة وظَنِين[2]؛ أما الثّقة فقد قيل: إنه لا يبلغ ولا يشين بالوشاة قدره؛ وأما الظنين: فأهل أن يتهم صدقه، ويكذب ظَنّه، ويرد باطله. وما سعى رجل برجل إلى قط إلا انحطّ من قدره عندى مالا يتلافاه أبدا، فلا تعطوا الوشاة أمانيهم فيمن يشون بهم؛ فقد قال بعضُ الملوك لرجل سَعَى بآخر: لو كنت أنت أنا؛ ما كنت صانعا به؟ قال: كنت أقتلُه، فقال: أمّا إذْ لم تكن أنت أنا؛ فإنى غير قاتِله، ومع ذلك فلا تَدَعوا الفَحص عمّا يُلقى إليكم مما تحذرون رجوعَ ضَرَرِه عليكم.

* * *

عَوانة قال: قام رجل إلى سليمان بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين، عندى نصيحة، قال: وما نصيحتك هذه؟ قال: كان فلان عاملاً ليزيد والوليد وعبد الملك، فخانهم فيما تولاه، واقتطع أموالاً جليلة، فمُرْ باستخراجها منه، فقال: أنت شر منه وأخون؛ حيث اطلعت على أمره وأظهرته،

---

(١) المحاسن والأضداد ٧٥.

(٢) الظنين: المتهم.

ولولا أنى [أخاف أن] أنفر أصحاب النصائح لعاقبتكم، ولكن اختر منى خصلة من ثلاث، قال: أعرضهن يا أمير المؤمنين، قال: إن شئت فتشتَ عما ذكرت، فإن كنت صادقا مقتناك، وإن كنت كاذبا عاقبناك، وإن شئت[1] أقلْناك، قال: تقيلنى يا أمير المؤمنين قال: قد فعلت، فلا تعودنّ بعدها إلى أن تظهر من ذى مروءة ما كتمه الله وستره[2].

(١) المحاسن والأضداد: «وإن استقلت».
(٢) المحاسن والأضداد ٧٦.

محاسن الشكر

قال بعض الحكماء: صن شكرَك عمّن لا يستحقه، واستر ماء وجهك بالقناعة.

وقال الفضل بن سهْل: مَنْ أحبَّ الازدياد من النعم فليشكر، ومن أحب المنزلة عند سلطانِهِ فليكفّ[1]، ومن أحبّ بقاءَ عِزِّه فليُسقِط دالَّته ومكره.

ومن ذلك قولُ رجل لرجل شكَره فى معروف:

لقد ثبتَتْ فى القلبِ منك محبّةٌ　　　كما ثبتت فى الراحتين الأصابعُ[2]

[الكامل]

قال: واصطنع رجل رجلا، فسأله يوما، أتحبنى يا فلان؟ قال: نعم؛ أحبك حبا لو كان فوقك لأظلّك، ولو كان تحتك لأقلك.

وقال كِسْرَى أنوشِرْوان: المنعم أفضل من الشاكر، لأنه جعل له السبيل إلى الشكر.

واختصر حبيبُ بنُ أوس من هذا شيئا فى مصراع واحد، فقال[3]:

* لهان علينا أن نقول وتفعلا *

[الطويل]

وقال بشار:

أثنى عليكَ ولى حال تكذبنى　　　فيما أقول وأستحيى من الناس

قد قُلْتُ إنَّ أبا حفص لأكرمُ مَنْ　　　يمشى، فخاصمنى فى ذاك إفلاسى[4]

[البسيط]

ولأبى الهول فى مثله:

فإنِّى إذا مدحتُك يابن مَعْنٍ　　　رآنى الناسُ فى رمضان أَزْنِى[5]

فإن أك أُبْتُ عنك بغير شيءٍ　　　فلا تفرَحْ كذلك كان ظنى

[الوافر]

---

(١) كذا فى المحاسن والأضداد ٣٧، ك، وفى ل: «فليكفه».

(٢) فى المحاسن والأضداد: «منك المودة» والبيت لقيس بن ذريح، ديوانه ١٠٧.

(٣) مطلع قصيدة يمدح فيها محمد بن عبد الملك الزيات. وبقيته:

* وَنَذْكر بعض الفضل عنك وتفضلا *

(٤) المحاسن والأضداد ٤١، وبعده هناك:

حَتّى إذا قِيلَ: ما أعْطَاكَ من صَفَدٍ؟　　　طأطأت من سُوءِ حَالِى عِنْدَها راسِى

(٥) المحاسن والأضداد ٤٢.

ولآخر في مِثله:

لَحَى الله قَوْمًا أعجبتْهم مدائحى فقالوا خفاتا فى ملام وفى عَتْبِ
أبا حازمٍ تمدح! فقلت مُعَذِّرا: هبونى امرأً جربت سيفى على كلْب!
[الطويل]

ولبعض المحْدَثين:

عثمانُ يعلمُ أنّ الحمدَ ذو ثمن لكنّهُ يَشْتهِى حمدًا بمجّان[1]
والناسُ أكيسُ من أن يحمَدوا أحدًا حتى يَرَوْا قبْلُه آثار إحسانِ
[البسيط]

وقال آخر:

فلو كان يستغنى عن الشكر سيّد لعزة ملك أو علو مكان[2]
لما أمرَ الله العبادَ بشكْره فقال اشكرونى أيُّها الثقلان
[الطويل]

الباهلى، عن أبى فَرْوة، قال: أخبرنى الحلبّى، قال: مكتوب فى التوراة: اشكر لمن أنعم عليك، وأنْعِم على من شكَرك، فإنه لا زَوالَ للنِّعَم إذا شُكِرَت، ولا إقامة لها إذا كُفِرت. والشكر زيادة فى النِّعم وأمانٌ من الغِيرَ.

قيل: قال رسول الله ﷺ: «خمس يعاجَل صاحبهُنَّ بالعقوبة: البَغْيِ والغَدْر، وعقوقُ الوالدين، وقطيعةُ الرّحِم، ومعروفٌ لا يُشْكَر».

وفى حديثٍ مرفوع: «دعاء المنعِم على المنعَم عليه مستجاب».

وقيل: أنشد عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه الحُطيئة هذا البيت؛ وعنده كعب الأحْبار:

مَنْ يَفْعَل الخير لا يعْدم جَوازِيَهُ لا يذهب العرفُ بين الله والناس[3]
[البسيط]

فقال كعب: يا أمير المؤمنين، هذا البيت الذى قال[4]، مكتوبٌ فى التّوراة. قال عمر: وكيف ذاك؟ قال: فى التّوراة مكتوبٌ: «من يَصْنع المعروفَ لا يَضيع عندى، لا يذهب العرفُ بينى وبين عَبْدى».

قيل: ودخل أبو مسلم صاحب الدّولة على أبى العبّاس - وأبو جعفر المنصور عندَه - فقال أبو العباس لأبى مُسلِم: يا عبد الرحمن، هذا أبو جعفر عبد الله بنُ محمد مولاك، قال: قد رأيتُ مجلسَه يا أمير المؤمنين، ولكنّ هذا المجلس لا يقضى فيه حقٌّ غيرك.

---

(١) المحاسن والأضداد ٤٢.
(٢) المحاسن والأضداد ٤٢.
(٣) ديوانه ٥٤
(٤) ل: «يقال».

فصل لكاتب[١] فى مثله: ولستُ أقابِل أياديَك، ولا أستديم إحسانك إلا بالشكر، الذى جعله الله عزّ وجلّ للنعم حارسًا، وللحقّ مؤديًا، وللمزيد سببًا.

وقيل لرسول الله ﷺ: أليس[٢] قد غُفِر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكونُ عبدًا شكورًا».

وفى الحديث، أن رجلًا قال فى الصلاة خَلْفَ رسول الله ﷺ: اللهمّ ربَّنا لك الحمدُ حَمْدًا زاكيًا طيبًا مباركًا فيه. فلما انصَرَف، قال رسولُ الله ﷺ: «أيّكم صاحب الكلمة»؟ قال أحدهم: أنا يا رسول الله فقال: «لقد رأيتُ بضعة وثلاثين ملَكا يبتدِرون أيهم يكتبها أوّلاً».

وقيل: نِسْيان النعمة أوّلُ درجات الكفر.

ولابن المقفّع:

منتتُ على قومى فـأبدوْا عـداوةً   فقلْتُ لهم كُفْـءُ العداوةِ والشكرِ
[الطويل]

وقال آخر:

ألا فى سبيـل الله وُدٌّ بَـذلتـه   لمن لم يكن عندى لمعشاره أهْلا
ولكن إذا فكرت فيه وجـدتُنى   بحُسْنى إليه قد أفَدتُ به عقلا
[الطويل]

وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب: لا تَدع المعروف لكفر من كَفَره فإنه يشكُرك عليه أشكر الشاكرين.

وقد قيل فى ذلك:

يدُ المعروفِ غُنمٌ حيث كـانت   تحمَّلَهـا شكُـورٌ أم كَفُـورُ[٣]
فعنـد الشـاكـرين لهـا جـزاءٌ   وعنـد الله مـا كَفَـر الكَفُـور
[الوافر]

قال بعضهم: ما أنعَمَ الله على عبد نعمةً فشكَرَ ذلك إلاَّ لم يحاسِبْه على تلك النعمة.

وقال بعض الحكماء: عند التّراخى[٤] عن شكر المنِعم تحُلُّ عظائم النِّقم.

قيل: وكان رسول الله ﷺ كثيرًا ما يقول لعائشة رضى الله عنها: ما فعل بيتك أو بيت اليهوديّ؟ فتقول:

يَجزيك أو يُثنى عليك وإنّ مَن   أثنى عليكَ بما فعلت كمن جَزَى
[البسيط]

---

(١) كذا فى ل، وفى ك: «لكاتبه».
(٢) ك: «أوليس».
(٣) المحاسن والأضداد ٣٩.
(٤) ك: «التراضى».

فيقول عليه وعلى آله السلام: «قد صدق يا عائشة، إن الله جل وعز إذا أجرى لرجل على يدى رجل خيرا فلم يشكره، فليس لله بشاكر».

قيل: وقيل لذى الرمة: لم خصصت بلال بن أبي بردة بمَدْحك؟ فقال: لأنه وطّأ مضجَعى، وأكرَم مجلسى، فحق لكثير معروفه عندى أن يستولِيَ على شكرى.

ومنهم من يقدّم تركَ مطالبَة الشكر، وينسبه إلى مكارم الأخلاق، من ذلك ما قاله بزرجمهر: من انتظر بمعروفِهِ شُكْرًا فقد استدعى[1] عاجل المكافأة.

وقال بعض الحكماء: كما أنّ الكفر يقطع مادة الإنعام، فكذلك الاستطالة بالصَّنيعة تمحق الأجر.

وقال على بن عُبيدة: من المكارم الظاهرة، وسنن النفس الشريفة[2] تَرْكُ طلب الشكر على الإحسان، ورَفْع الهمّة عن[3] طلب المكَافأة، واستقلالُ الكثير من الشكر، واستقلال الكثير ممّا يبذل من نفسه.

---

(١) كذا فى ك، وفى ل: «استدعاه».

(٢) ك: «الكريمة».

(٣) ك: «ممن».

مساوئ الشكر

قال بعض الحكماء: المعروف إلى الكرام يعقِب خيرا، والمعروف إلى اللئام يُعقِب شرًّا؛ ومثَلُ ذلك مثل المطَر، يشربُ منه الصدف فيعقِب لؤلؤا، وتشرب منه الأفاعى فتعْقِب سُما.

وقال سفيان: وجدْنا أصل كل عداوة اصطناع المعروف إلى اللئام.

قيل: وأثار جماعة[1] من الأعراب ضبُعًا، فدخلتْ خِبَاءَ شيخٍ منهم، فقالوا: أخرجْها، فقال: ما كنت لأفعل، وقد استجارتْ بى، فانصرفوا وكانت هَزِيلًا، فأحضر لها لَقوحًا[2] فجعل يَسقيها حتى عاشت، فنام الشيخُ ذاتَ يوم، فوثبتْ عليه فقتلته، فقال شاعرهم فى ذلك:

ومن يَصنع المعروفَ فى غير أهلهِ ... يلاقى الذى لاقَى مُجيرُ أمِّ عامرِ
أعدَّ لها لَمَّا استجارت بقُربِهِ ... غِذاءً مِنَ البان اللِّقاح الغَزَائِرِ
وأسمَنَها حتى إذا ما تَملَّأتْ ... فرَتْهُ بأنياب لها وأظافر
فقلْ لِذَوى المعروف: هذا جزاءُ مَنْ ... يَجودُ بمعروف إلى غير شاكِر[3]

[الطويل]

قيل: وأصاب أعرابىٌّ جِرْو ذئب، فاحتمله إلى خِبائه، وقرَّب له شاةً، فلم يزل يمتصّ من لبنها حتى سَمِن وكَبِرَ، ثم شدَّ على الشاةِ فقتَلها، فقال الأعرابىّ:

غذَتْكَ شوَيْهتى ونشأتَ عندى ... فما أدْرَاكَ أن أباكَ ذِيبُ
فجعتَ نُسَيَّةً وصغارَ قومٍ ... بشاتِهمُ وأنت لهم رَبيب[4]
إذا غَلَبَتْ طِباع الشرِّ فيه ... فَلَيس لغيرها فيه نَصيبُ[5]

[الوافر]

ويُروَى:

* نشأت مع السِّخال وأنتَ جِرْوٌ *

ويضرب المثَل بسنِمّار، وكان بنى للنعمان بنِ المنذر الخَوَرْنق، فأعجبه فكره أن يبنى لغيره مثلَه، فأمَرَ به فرُمِىَ من أعلاه حتى مات، فقيْل فيه:

---

(١) ك: «رجل».

(٢) اللقوح: الناقة الحلوب.

(٣) المحاسن والأضداد ٤٠.

(٤) ك: «بنية».

(٥) رواية البيت فى المحاسن والأضداد:

إذا كانَ الطِّباع طِباعَ سُوءٍ ... فليس بنافع أدبُ الأديب

جزتنا بنــو سعد بحسن بــلائنا   جزاءَ سِنِمّارٍ ولم يكُ ذا ذنبِ[1]
[الطويل]

ويروى: «وما كان ذا ذنب».
وفي المثل: سمن كلبك يأكلك.

وقال بعضهم:

وإنِّي وقَيْسًــا كــالمسمِّنِ كلبــه   فخــدّشَــه أنيــابُــهُ وأظــافــرُهْ
[الطويل]

(١) المحاسن والأضداد ٤١.

محاسن الدّهاء والحيل

ذكروا أنه لم يكن فى ملوك العَجَم أدْهى من كسرى أنوشروان، وأن الخزر كانت تغير فى سلطان فارس حتى تبلغ هَمَذان والموْصِل، فلمّا ملَكَ أنوشروان، كتب إلى مَلِكهم، فخطب ابنته على أن يزوِّجَه أيضا ابنته، ويتوادّعا ويتفرَّغا إلى سائر أعدائهما، فأجابه إلى ذلك، وعَمِد أنوشروان إلى جارية من جواريه نفيسة، فزفّها إلى صاحب الخَزَر، وأهدى معها ما يشبه أن يهدَى مع بنات الملُوك.

وزفّ صاحبُ[1] الخزر إلى أنوشروان ابنته، فلما وصلت إليه قال لوزرائه: اكتبوا إلى صاحب الخزر: لو التقينا[2] وأكّدْنا المودّة بيننا! فأجابه إلى ذلك وَوَعده موضع الدَّرْب[3] فالتقيا فكانا يَخْلُوان فى لذّتها. ثم إن أنوشروان أمر قائدًا من قُوَّاده أن يختار ثلاثمائة رجل من أشدّ أصحابه، فإذا هدأت العيونُ أغار فى ناحية من عسكر الخَزَر.

ففعل ذلك، فلمّا أصبح بعث إليه صاحب الخَزَر: ما هذا! ينهب عسكرى البارحةَ! فأنكر ذلك، وقال: لم تؤتَ من قِبَلى. فأمهَلَه أيامًا، ثم عاد إلى مثلها، ففعل ذلك ثلاثَ مرّات، فى كلّ ذلك يعتذر إليه أنوشروان، ويسألُه البحثَ، فيبحث فلا يقف على شىء، فلمّا طال ذلك، دعا صاحبُ الخزر بقائد من قُوَّاده، وأمره بمثل ذلك، فلما أصبحَ بعثَ إليه أنوشروان: ما هذا! أتستبيح عسكرى البارحة! فأرسل إليه: ما أسرع ما ضجرت! قد فُعِل هذا بعسكرى ثلاثَ مرّات، وإنما فُعِل بك مرّة واحدة!

فبعث إليه أنوشروان: إن هذا عمل قوم يريدون أن يفسدوا بيننا وعندى رأى إن قبلته! فقال: وما هو؟ قال: تدعنى أبنِى حائطًا بينى وبينك، وأجعل عليه بابًا فلا يدخل عليك إلا من تحبّ، ولا يدخل عَلَىّ إلاّ مَنْ أحب. فأجابه إلى ذلك، وتحمَّل ومضى.

وأقام أنوشروان، فأمر فبُنِىَ بالصخر والرصاص حائطٌ عَرْضُه ثلاثمائة ذراع؛ حتى ألحقه برءوس[4] الجبال! وجعل عليه أبواب حديد[5]، فكان يحرسه مائة رجل، بعد أن كان يحتاج إلى خمسة آلاف رجل، فلما فرغ من السدّ وقيّد القَنْد[6] فى البحر، وأحكم الأمر، سُرَّ سرورًا شديدًا،

(١) ك: «ملك».

(٢) ك: «ألو».

(٣) الدرب: طريق يسلك: ويطلق على موضع بنهاوند.

(٤) ك: «برأس الجبل».

(٥) ك: «أبوابًا من حديد».

(٦) كذا وردت الكلمة فى الأصول، وفى المسعودى ٢: ١٩٧ (طبع أوربا): ويسمى هذا الموضع من السور فى البحر القيد مانعًا للمراكب فى البحر إن وردت من بعض الأعداء. وانظر أيضًا ابن الفقيه ٢٨٩.

فأمر أن ينصب على الفند سريره ويفرش له عليه، تم قام فرقى إليه، وأغفى عليه، فطلع طالع من البحر، سدَّ الأفق بطوله، وأهوى نحو الفند، فثار الأساورة إلى قِسِيِّهم. فانتبه الملك فقال: ما شأنكم؟ أمسكوا، لم يكن الله عز وجل ليلهمني الشخوص عن وطني اتنتى عشرة سنةً، فأسُدّ ثغرًا يكون عزا رعيّتنا ورداء ومُرتقى لعباده، ثم يسلّط عليّ[١] دابةً من دواب البحر.

فتنحىّ الأساورة، وأقبل الطالع نحو الفند، فذكر الموبَذ أن الله جل وعزّ أنطق ذلك الحيوان، فقال: أيّها الملك، أنا ساكن من سكّان هذا البحر، وقد رأيت هذا الفَنْد مشدودًا سبع مرّات، وخرابًا سبع مرّات وأوْحى الله جلَّ وعزَّ إلينا معشرَ سُكّان هذا البحر، أنّ ملكًا عَصْرُه عصرُك، وصورتُه صورتك، يبعثه الله جلَّ وعزَّ يسدّ هذا الثغر إلى الأبد[٢]، وأنت ذلك الملك، فأحسن الله على البِرّ معونَتَك.

ثم غاب عن بصره كأنما غاب فى البحر، أو طارَ فى الجوّ، وسأل أنوشروان عند فراغه من ذلك السدّ عن ذلك البحر فقيل: هو ثلاثمائة فرسخ فى مِثلِها، وبينه وبين بيضاء الخَزَر مسيرة أربعة أشهر على هذا الساحل، ومن بيضاء الخَزَر إلى الفَنْد الذى بناه إسفَنْديار مسيرة شهرين.

فقال: أنوشروان: لابّد من الوقوف عليه والنظر إليه، قالوا: أيها الملك، إنّه طريق لا يُطمع فى سلوكه لموضِع فيه يقال له دَهان شير، يريد فم الأسد، وفيه دردور[٣]لا يكاد تسلم فيه سفينة، قال أنوشروان: لابّد من ركوب هذا البحر، والنظر إلى هذا السدّ. فقالوا: أيّها الملك، اتّق الله فى نفسِك وفيمن معك، فقال: أتوكّل على الله الذى خلق هذا البحر، وهو جلّ وعزّ يُنجينا من دُرُوِره، ولا أحسب أنى أمسح إيران شهر شرقه وغربَه، وأعرف عدَد جباله وأوديتِه إلّا بعد ركوب هذا البحر وسلوكه إلى البر.

فهيئت له السُّفُن، وركب معه عدة من النسّاك حتى لجّجوا[٤] فى البحر، ووافوْا ذلك الذى يعرف بدهان شير، فدفعوا إلى دردور هائل، فبقُوا فيه متحيِّرين لا يَرَوْن مَنارًا يجعلونه عَلَمًا لهم، ولا جَبَلًا يقيمونه أمارة لمنصرفهم.

فرجعوا على الملِك باللوم والعيب، فقال: أخلصوا نياتكم لله جل وعز، وتضرعوا إليه. ففعلوا، ونذر أنوشروان: إن نجاه الله جلّ ذكره، ليصّدّقنّ بخراج سبع سنين.

قال: فرفعت له جزيرة تعلوها الأمواج، وفوق الجزيرة أسد فى عظم جبل يتشرب الماء مؤخره، وينحطّ من فيه إلى ذلك الدردور. فبيناهم كذلك إذ بعث الله جلّ جلالُه سمكة عظيمة فطفرت[٥]

---

(١) كذا فى ك، وفى ل: «عليه».

(٢) ك: «للأبد».

(٣) فى القاموس: «الدردور موضع وسط: البحر يجيش ماؤه».

(٤) ك: «ولجوا».

(٥) ك: «فظفرت».

حتى صارت فى فم الأسد، فسكن الدُّرْدور، ونفذت السفينة حتى وصل إلى ما أراد، ثم انصرف إلى دار مملكته.

* * *

حمّاد قال: حدّثنى أبى قال: قال الأعشى فى مدحه إياسَ بنَ قبيصة، وذكره مسيره[١] إلى الروم حيث لقيه كسرى أَبَرْويز بساتِيدَما – وهو جَبل يزعم أهلُ العلم أنه دون الجبال، وأنه لابدّ من أن يراق عليه دمٌ كلَّ يوم. قال الواقدىّ: بل هو محيط بالدنيا، وزعموا أنه ليس فى الأرض يوم إلّا ويُسفَك عليه دم، وإنما سمىّ «ساتيدما» معناه «سيأتى دما» فكان من خبر إياس بن قبيصه، أنّ كسرى أبرويز كان رجلًا سيّئَ الظن، وأنه بعث شهر براز إلى الروم فى جيش عظيم، فأعطىَ من الظفرَ ما لم يعطَ أحدٌ كان قبله، وهو الذى أصاب خزائن الملك التى كانت تسمَّى «كنج باد آورد»، أى الكنز الذى جاءت به الريح، وكانوا حملوها ليحرزوها، فضربتها الرِّيح فى الجزر؛ من خليج البحر.

فأخذها وبعث بها إلى كسرى، فحسده كسرى وحذِره، وبعث إليه برجل تقدّم إليه فى قتله، وكان الّذى أتاه رجل من أهل اذْرَبيجان، فلما رأى جَماله وهَيئته، قال: لا يصلح قتلُ هذا فى غير جُرم ولا حقّ. فأخبره بما أمره به، فأرسل شهر براز إلى قيصر: إنى أريد أن ألقاك، فالتقَيا، فقال له: إنّ هذا الخبيث قد أراد قتلى، وإنّى وَالله لأريدن منه مثل الذى أراد منى، فاجعل لى ما أطمئن إليه، أعطيك مثلَ ذلك، ولئن قتلته لتجعلنّ لى ما أغلب عليه من الكور، وأجعل لك ألّا أغزُوَك أبدًا، ولا أتناول شيئًا من أرضك، وأن أعطيكَ من بيوت أموال كسرى بِمثل ما تنفق فى مسيرك هذا.

فأعطاه قيصر ما سأل، وسار قيصر فى أربعين ألف مقاتل، وخلّف شهر براز فى أرض الروم، وقد أخذ منه العهودَ والمواثيق. ولم يعلم كسرى [بذلك][٢] حتى دنا منه قيصر، فلمّا بلغه ذلك علم أن شهر براز علم بما كان دبّره من قتله، وكانت جنوده قد تفرّقت فى السَّواد وغيرها، وكان كِسْرَى قد أبغضه أهلُ مملكته ومَلّوه وعُرف حالهُ عند الناس فاحتال بحِيَل الرجال، واستعمل المكَر والدّهاء، فبعث إلى قسٍّ عظيم من النصارى يثق ملك الروم بقوله، فقال: إنِّى أكتب معك كتابًا لطيفًا فى حرير، وأجعلُه فى قَناةٍ إلى شهر براز، وجائزتُك علىَّ ألف دينار.

وقد عرف كسرى أن القسّ يذهب بالكتاب إلى ملك الروم. فكتب إلى شهر براز: إنّى كتبتُ إليك، وقد دنا قيصرُ منّى، وقد أحسن الله جلّ وعزّ إلىّ بصنيعك[٣] ونفوذ تدبيرك، وقد فرّقت لهم الجيوش وأنَا تاركُه حتى يدنُوَ منى، وأثِبُ عليه وَثبةً أستأصل شأفتَه بها، وإذا كان ذلك اليوم، وهو يوم كذا وكذا، فأغِرْ أنت عَلَى مَنْ قِبَلك منهم، فإنك تُبيدهُم وتُهلِكهم، وأرجو أن تكون لملك قيصر مصطلمًا.

---

(١) ك: «سيره».
(٢) من ك.
(٣) ك: «بصنعتك».

فخرج القس بالكتاب حتى لقىَ قيصر، وقد كانت صورت[١] لقيصر أرض العرب والعراق، وصورت له النهروان بغير حين المد.

فلما انتهى إليه فى المدّ وليس عليه جسر، وقرأ الكتاب من يد القسّ[٢]، قال: هذا هو الحقّ، ورجع منهزما مفلولا[٣]، واتّبعه كسرى بإياس بن قبيصة الطائىّ، فأدركهم بساتيدَما مرعوبين مفلولين[٤] من غير لقاء ولا قتال، فقتِلُوا قتلَ الكلاب، ونجا قيْصر فى خواصّ من أصحابه، فمدح الأعشى إياس بن قبيصة، وكان قد أصابه مرضٌ فقال[٥].

ما تعيفُ اليوم فى الطير الروح ... من غراب البين أوتيس بَرَحْ[٦]
جـالسا فى نفـر قد أيسـوا[٧] ... فى محيل القد من صحب قزح[٨]

قال ابن الأعرابىّ: وسأله حمّاد عن قوله:

* ما تعيف اليوم فى الطير الرّوح *

فقال: تطيرّ الأعشى من مرض إياس إلى الزجْر والفأل، فقال لنفسه: «ما تعِيف منه»، أى ما تكره منه وهو آخر أمرِه إلى السلامة.

فرجع قيصر وقد اتّهم شهر براز، فلم يزل به حتى أمكنته الفُرْصَةُ منه، فقتله وعامة رجاله وأفناهم[٩].

* * *

قيل: وَلما تشاغَل عبد الملك بن مروان بمقاتلة مُصْعَب بنِ الزبير، اجتمع وجوهُ الروم إلى مَلِكهم وقالوا له: قد أمكنتْك الفرصة من العرب، فقد تشاغل بعضُهم ببعض، ووقع بأسُهم بينهم، فالرأى أن تغزُوَهم فى بلادهم، فإنك تذلّهم وتنال حاجتَك منهم. فنهاهم عن ذلك، فأَبَوْا عليه إلاّ أن يفعل، فلما رأى ذلك دعا بكلْبين فأرّش بينهما، فاقتتلا قتالاً شديدًا، ثم دعا بثعلب فخلّاه بينهما، فلما رأى الكلبان الثعلب تركا ما كانا فيه، وأقبَلَا على الثعلب حتى قتلاه، فقال ملك الروم: هكذا العرب تقتتل بينها، فإذا رأوْنا وهم مجتمعون تركوا ذلك، وأقبلوا علينا، فعرفوا صدق[١٠] قوله، ورجعوا عمّا كانوا عليه.

---

(١) ك: «وصور».
(٢) ك: «فأخذ الكتاب من يد القس وقرأه».
(٣) ك: «مغلوبًا».
(٤) ك: «مغلوبين».
(٥) ديوانه ١٥٩، من قصيدة طويلة عدتها أحد وستون بيتا.
(٦) الطير البارح: ما أتاك عن يمينك يريد شمالك، والسانح خلاف ذلك.
(٧) ل: «أنسوا»، وما أثبته من ك والديوان.
(٨) ط: «فى مقيل» وما أثبته من الديوان. والمحيل: ما أتى عليه حول. وقزح: اسم ملك.
(٩) الخبر فى شرح ديوان الأعشى ١٦٨.
(١٠) ل: «صدقة». وما أثبته من ك.

وعن بكار بن ما هويه، قال: قال كسرى إبرويز لمنجّمه: كيف يكون أجلي؟ فقال له: تقتل؛ فقال: والله لأقتلن قاتلي، فأمر بسمّ فخُلِط في أدوية؛ وكتب عليه: هذا دواء الجماع، من أخذ منه وَزْنَ كذا جامع كذا مرّة، وصيّره في خزانة الطّب، فلما قتله ابنه شيرويه فتّش خِزانة أبيه، فمر بذلك السّمّ، فقال في نفسه: بهذا كان يقوَى أبي على الجماع وعلى شيرين وغيرها، فأخذ منه، فمات من ساعته.

* * *

وعن الهيثم، عن ابن عيّاش[١] قال: كان الحجّاج حسودًا لا تتم له صنيعةٌ حتى يُفْسِدَها، فوجّه عُمارةَ بن تميم اللخميَّ إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فظفر به، وصنع به ما صنَع، ورجع إلى الحجّاج بالفتح، فلم يرَ منه ما أحَبّ، وكَرَهَ - مَنَافَرتَه وكان عاقلاً رفيقًا - فجعل يترفّق به ويداريه ويقول: أنت أيها الأمير أشرفُ العرب، فمن شرَّفتَه شرُف، ومن وضعتَه اتّضع؛ وما ينكر لك ذلك، مع رفقك ويُمنِك وَمَشُورتِك ورأيك، وما كان هذا كلّه إلّا بصنع الله عزّ وجلّ وتدبيرك، وليس أحدٌ أشكَر لصنيعك منّي، ومَنْ ابن الأشعث! وما خَطرهُ!.

حتى عزم الحجّاج على المُضِيّ إلى عبد الملك. فأخرج عُمارة معه، فوفد عليه وعمارة يومئذ على أهل فِلَسْطِين أمير، فلم يزل يلطف[٢] بالحجاج في مسيره ويُعظّمه حتى قدموا على عبد الملك، فلما قامت الخطباء بين يديه وأثنت على الحجاج، قام عُمارة فقال: يا أمير المؤمنين، سَل الحجاج عن طاعتي ومناصحتي وبلائي؛ فقال الحجّاج: يا أميرَ المؤمنين، صَنع وَصَنَع، ومنْ بأسه ونجدته وعفافه ومكيدته [كذا وكذا][٣]. وهو أيمنُ الناس نقيبةً، وأعلمَهُم بتدبير وسياسة؛ ولم يُبقِ غايةً في الثناء عليه. فقال عُمارة: أرضيت يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، فرضيَ الله عنكَ. حتى قالها ثلاثًا؛ في كلّها يقول: قد رضيت:

فقال عُمارة: فلا رضى الله عن الحجّاج يا أمير المؤمنين، ولا حَفِظَه ولا عافاه، فهو الله السيّىء التدبير، الذى قد أفسد عليك أهل العراق، وألّب عليك الناس، وما أُتِيتَ إلّا من قلّة عَقْله، وضَعف رأيه، وقلّة بصره بالسياسة، ولك والله أمثالها إن لم تعزله.

فقال الحجاج: مه يا عمارة! فقال: لا «مه» ولا كرامة يا أمير المؤمنين! كل امرأة له طالق، وكلّ مملوك له حر؛ أن سار تحت راية الحجّاج أبدًا. فقال عبد الملك: ما عندَنا أوسَع لك! فلما انصرف عمارة إلى منزله بعث إليه الحجّاج وقال: أنا أعلمُ أنّه ما خرج هذا عنك[٤]

---

(١) في ك، ل: «ابن عباس» والصواب ما أثبته، انظر لسان الميزان ٣: ٣٢٢.
(٢) كذا في ل والمحاسن والأضداد، وفي ل: «يتلطف».
(٣) من المحاسن والأضداد.
(٤) ك والمحاسن والأضداد: «منك».

إلا معتبة، ولك عندى العتبى[١]، ولك ولك.. فأرسل إليه: وما كنت أظنّ أن عقلك على هذا، أرجع إليك بعد الذى كان من طعنى وقولى عند أمير المؤمنين! لا ولا كرامة لك[٢]!

***

وعن الهيثم بن الحسن بن عُمارة قال: قدِم شيخٌ من خُزاعة أيّام المختار، فنزل على عبدالرحمن ابن أبْزَى الخُزَاعىّ، فلمّا رأى ما تصنع شِيعة[٣] المختار به من الإعظام له جعل يقول: ياعبادالله، أبالمختارِ يصنع[٤] هذا! والله لقد رأيتهُ تبيع[٥] الإماء بالحجاز. فبلغ ذلك المختار فدعا به، فقال: ما هذا الذى يبلغنى عنك؟ قال: الباطل، فأمر بضَرْب عنقِه، فقال: لا والله، لا تقدر على ذلك، قال: ولِمَ؟ قال: أما دون أن أنظر إليك وقد فتحت مدينة دمشق ونقضتها حجرًا حجرًا، وقتلتَ المُقاتِلة، وسبيت الذرِّيّة، ثم تصلُبنى على شجرة على نهر! والله إنّى لأعرف الشجرة الساعة، وأعرف شاطىء ذلك النهر. قال: فالتفت المختار إلى أصحابه فقال لهم: أما إن الرجل قد عرف الشجرة[٦]، فحُبِس حتى إذا كان الليل بعث إليه فقال: يا أخا خُزاعة، أو مُزاح عند القتال! فقال: أنشدك الله أن أُقتل ضَياعًا! قال: وما تطلب ها هنا؟ قال: أربعة آلاف درهم أقضى بها دينى. قال: ادفعوها إليه، وإياك أن تصبح بالكوفة، فقبضها وخرج[٧].

***

وعنه قال: كان سُراقة البارقىّ من ظُرفاء أهل المدينة، فأسره رجل من أصحاب المختار، فأتى به المختار، وقال أسرت هذا؛ فقال: كذبتَ والله ما أسرَنى هذا، إنما أسرنى رجل عليه ثيابٌ بيض على فرس أبلَق. فقال المختار: أما إنّ الرجل قد عايَنَ - يعنى الملائكة - خلُّوا سبيلَه، فلما أفلت أنشأ يقول:

ألا أبلغ أبا إسحاقَ أنِّى رأيتُ الدُّهْمَ بُلْقًا مُصمَتَاتِ[٨]
أرى عَيْنَىَّ مالم تبصراه كِلَانَا مُولَعٌ بالتُّرَّهاتِ[٩]
كَفَرْتُ بدينِكُمْ وجعلتُ نذرًا عَلَىَّ قتالَكُمْ حتى المماتِ[١٠]

***

(١) ك،ل: «الغنى»، وما أثبته من المحاسن والأضداد، والعتبى: الرضا.
(٢) الخبر فى المحاسن والأضداد ١٣٢-١٣٤.
(٣) المحاسن والأضداد: «سوقة المختار».
(٤) كذا فى المحاسن والأضداد وفى ك،ل: نصنع.
(٥) المحاسن والأضداد: «يتبع».
(٦) ك: «السجن».
(٧) الخبر فى المحاسن والأضداد ١٢٧، ١٢٨.
(٨) ديوانه ٧٨. والمصمت: الذى لا يخالط لونه لون آخر.
(٩) بعده فى الديوان:
إذا قالوا أقول لَهُمْ كَذَبْتُمْ وإن خرجُوا لبستُ لَهُمْ أداتى
(١٠) الخبر فى ديوان سراقة ٧٥ - ٧٩، مع تصرف؛ وهو أيضًا فى المحاسن والأضداد ١٢٧، ١٢٨.

وعنه قال: خرج الأحوص بن جعفر المخزومى يتغذى فى دير اللج، وذلك فى يوم شديد البرد، ومعه حمزة بن بيض وسراقة البارقىّ فلما كانا على ظهر الكوفة وعليه الوبَر والخز وعليهما أطمار، قال حمزة لسراقة: أين يُذهب بنا فى هذا البرد، ونحن فى أطمارنا! قال سراقة: أنا أكفيكه، فبينا هو يسير إذ لقيهم راكب مقبل؛ فحرَّك سراقة دابَّته نحوه، وواقفه ساعة، ولحق بالأحوص، فقال: ما خبَّرك به الراكب؟ قال: زعم أن خوارجَ خرجتْ بالقطقطانة. قال: بعيد! قال: إن الخوارج تسير فى ليلة ثلاثين فرسخًا وأكثر – وكان الأحْوص أحدَ الجُبناء – فثنى رأس دابته، وقال: ردّوا طعامَنا؛ نتغدّى فى المنزل، فلما حاذى منزله قال لأصحابه: ادخلوا، ومضى إلى خالد بن عبد الله القسرىّ، فقال: قد خرجت خارجة بالقطقطانة، فنادى خالد فى العسكر فجمعهم، ووجّه خيلاً تركضُ نحو دير اللُّجّ لتعرف الخبر، فانصرفوا وأعلموه أنه لا أصل للخبر، فقال للأحْوص: مَنْ أعلمك هذا؟ قال: سراقة، قال: وأين هو؟ قال: فى منزلى، فأرسل إليه مَن أتاه به، فقال: أنتَ أخبرته عن الخارجة؟ قال: ما فعلت أصلح الله الأمير؟ فقال الأحْوص: أو تكذّبنى بين يدى الأمير؟ قال خالد: ويحك! أصدقنى، قال: نعم أخرجنا فى هذا البرد، وقد ظاهر الخز والوبر، ونحن فى أطمارنا هذه، فأحببت أن أردّه، فقال له خالد: ويحك! وهذا ممّا يتلاعب به! وكان سُراقة ظريفًا شاعرًا، وهو الذى يقول:

قالوا سراقة عنين فقلت لهم ... الله يعلم أنى غير عِنين
فإن ظننتم بى الشىء الذى زعموا ... فقَرِّبونى من بيت ابنِ يامين[1]

وذكروا أن شبيب بنَ يزيد الخارجىّ؛ مر بغلام مستنقع فى ماء الفرات، فقال له: يا غلام، اخرج إلىّ أسألك، فعرفهُ الغلام، فقال: إنى أخاف، أفآمِن أنا إن خرجت حتى ألبس ثيابى؟ قال: نعم؛ فخرج وقال والله لا ألبسُها اليوم! فضحك شبيب وقال: خدعنى ورب الكعبة! وَوَكّل به رجلاً من أصحابه يحفظه ألا يصيبه أحد من أصحابه بمكروه[2].

* * *

قال: وكان رجل من الخوارج قال فى قصيدة له:

ومِنّا يزيدُ والبطينُ وقعنَبُ ... ومنّا أميرُ المؤمنين شبيبُ

[الطويل]

فسار البيتُ حتى سمعه عبد الملك بن مروان، فأمر بطلب قائله، فأُتِىَ به، فلما وقف بين يديه قال: أنت القائل.

* ومنا أميرُ المؤمنين شبيب *

قال: لم أقل هكذا يا أمير المؤمنين، قال: فكيف قلت؟ قال: قلت:

* ومنّا أميرَ المؤمنين شَبيب *

(١) الخبر فى المحاسن والأضداد ١٢٩، ١٣٠.
(٢) الخبر فى المحاسن والأضداد ١٣٠.

فضحك عبدالملك وأمر بتخلية سبيله، فتخلّص بحيلته، وفطنته لإزالة الإعراب عن الرفع إلى النصب[١].

* * *

وزعموا أنّ عمرو بن معدى كرب الزُّبيدىّ، هجم فى بعض غاراته على شابة جميلة منفردة، فأخَذَها، فلمَّا أمْعَنَ بها بكتْ، فقال: ما يُبكيك؟ قالت: أبكى لفراق بنات عمى؛ كلهن مثلى فى الجَمال؛ وأفضل منّى. خرجتُ معهنّ فانقطعنا عن الحىّ، قال: وأين هُنّ؟ قالت: خلف ذلك الجبَل، وَدِدتُ إذْ أخذتنى أخذتَهنّ [معى][٢]. فأخذ[٣] إلى الموضع الذى وصفَتْه[٣] فما شعر بشىء حتى هجم على فارس شاكٍ[٤] فى السلاح، فعرض عليه المُصارعة، فصَرعه الفارس، ثم عرض عليه ضُروبًا من المناوشة[٥]، فغلبه الفارس فى كلّها، فسأله عمرو عن اسمه فإذا هو ربيعة ابن مكدم[٦]، فاستنقذ الجارية [منه][٧].

* * *

وعن عطاء: أن[٨] مخارق بن عفان، ومَعْنَ بنَ زائدة، لقيا رجلا ببلاد الشرك، ومعه جارية لم يريا مِثلها شبابًا وجمالا، فصاحَا به؛ ليخلِّيَ عنها. ومعه قوس فرمى بها، وهابا الإقدام عليه، ثم عاد ليرمى؛ فانقطع وتره وسلم الجارية، وأسندَ[٩] فى جبل كان قريبا منه، فابتدَرَا الجارية وفى أذنِها قرط فيه درة، فانتزعَه[١٠] بعضُهما من أذُنِها. فقالت: ما قدر هذا! لو رأيتُما دُرّتين معه فى قلنسوته، وفى القلنسوة وترٌ قد أعدّه؛ فنسيَهُ من الدهش.

فلما سمع قول المرأة ذكر الوتر، فأخرجه وعَقَده فى قوسه، فولّيا؛ ليست لهما همة إلا النجاة، وخلّيا عن الجارية[١١].

* * *

قيل: واستودع رجل رجلا مالا ثم طالَبَه به؛ فجحده، فخاصَمه إلى إياس بن معاوية القاضى، وقال: دفعت إليه مالا فى مكان كذا وكذا، قال: فأىّ شىء كان فى ذلك الموضع؟ قال: شجرة، قال: فانطلق إلى ذلك الموضع وانظرْ إلى تلك الشجرة، فلعلَّ الله أن يوضح لك هناك ما تبين به حقك،

---

(١) الخبر فى المحاسن والأضداد ١٣٠.
(٢) من المحاسن والأضداد.
(٣-٣) المحاسن والأضداد: «فامض إلى الموضع الذى وصفته لك؛ فمضى إلى هنالك».
(٤) يقال رجل شاكي السلاح؛ إذا كان ذا شوكة، وفى ط بتشديد الكاف؛ وهو خطأ.
(٥) المناوشة: المناولة فى القتال.
(٦) زاد فى المحاسن والأضداد: «الكنانى».
(٧) تكملة من ك؛ والخبر فى المحاسن والأضداد ١٣٠ - ١٣١.
(٨) ك، ل: «بن» تصحيف.
(٩) كذا فى المحاسن والأضداد، وفى ل: «واستد» تصحيف.وأسند فى الجبل: رقى.
(١٠) المحاسن والأضداد: «فانتزعاه من أذنها».
(١١) الخبر فى المحاسن والأضداد ١٣١.

أو لعلك دفنت مالَك عند الشجرة فنسيت فتتذكر إذا رأيت الشجرة.

فمضى، وقال إياس للمطلوب منه: اجلسْ حتى يرجع صاحبك، فجلس وإياس يقضى وينظر إليه بين كلّ ساعة، ثم قال: ترى صاحبَك بلغ موضع الشّجرة؟ قال: لا، فقال: يا عدّو الله، أنت الخائن!

قال: أقِلْنِى أقالَكَ الله، فأمر بحِفظه حتى جاء خصمُه[١]، فقال له: خذ [منه][٢] بحقك فقد أقرّ.

* * *

قال: واستودع رجلٌ رجلاً كيسًا فيه دنانير،فغاب، وطالت غَيْبَتُه،فشقّ المستودَعُ الكيسَ من أسفله، وأخذ الدنانير، وجعل مكانَها دراهمَ وخيّطه والخاتَمُ على حالِه، فجاء الرجلُ بعد ستّ عشرةَ سنة فقال: مالى! وطَالبَ به، فأعطاه الكيس بخاتمه، فنظر إليه وإذا مالُه دراهم، فأحضره مجلسَ إياس، فقال إياس للطالب: ماذا تقول؟ قال: أعطيته كيسًا فيه دنانير، فقال: منذ كمْ؟ قال: منذ سِتّ عشرةَ سنة، قال: فُضّا الخاتمَ ففَضّاه، فقال: انثُرا ما فيه، فإذا هى دراهمُ بعضُها من ضَرْب عشر سنين وأكثر وأقلّ، فأقر بالدنانير، وألزمه إياها حتى خرج منها.

قال: وأودع[٣] رجلٌ رجلاً من أمناء إياس مالاً، وحج. فلمّا رجع طالبه فجحدَه، فأتى إياسًا فأخبره، فقال: أتعلم أنَّك أخبرتَ غيرى بذلك؟ قال: لا. قال: فهل عَلِم أنَّك أعْلَمْتَنى[٤]؟ قال: لا؛ قال: أفنازعته[٥] بحضرة أحد؟ قال: لا؛ قال: فانصرف واكتُم أمرك ثم عُد إلىّ. ودعا إياس أمينه ذلك فقال: قد حضر مالٌ كثير، وقد رأيت أن أودِعَك إياه عندك، فارْتَدْ له موضعًا وأْتِنى بمن يحمله، معك. فمضى الأمينُ، وعاد الرجل إلى إياس؛ فقال له: انطلق إلى صاحبك فطالبْه بمالك، فإنْ أعطاك، وإلاَّ فقل إنك تُعلمنى، فأتاه فقال له: أعطنى مالى وإلاَّ أتيتُ القاضىَ فأعلمتهُ، فدفع إليه مالَه، وصار إلى إياس، فقال: قد رَدَّ مالى علىّ، وجاء الأمين إلى إياس لموعده، فانتهرَه وقال: اخرج عنّى يا خائن.

* * *

وأراد معاوية أن يوجّه ابنه يزيد إلى غَزْو الصائفة[٦]، وكره يزيدُ ذلك، وأنشأ يقول:

تجنَّى لا تزال تعُدّ ذنبًا ... لتقطَعَ وصل حَبْلِك عن حِبالى
فيُوشِك أن يريحَكَ مِن أذاتى[٧] ... نُزولى فى المهالك وارتحالى

وخرج، وخرج الناس معه، وفيمن خرج أبو أيوب الأنصارىّ. فلما قرُب من قسطنطينيّة اشتكى أبو أيوب، فأتاه يزيد عائدًا، فقال له: ما حاجتُك؟ قال: أمّا دنياكم فلا حاجة لى فيها، ولكنْ

(١) ساقط من ك.
(٢) تكملة من ك.
(٣) ك: «واستودع».
(٤) ك: «عرفتنى».
(٥) ل: «فنازعته».
(٦) الصائفة: الغزوة فى الصيف؛ وبها سميت غزوة الروم؛ لأنهم كانوا يغزون صيفًا لمكان البرد والثلج.
(٧) ط: «أذائى» تصحيف.

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يدفن بجنب قسطنطينية رجل صالح»، وقد رجوت أن أكونَه، فقدّ منى ما قدرت عليه، فمات. فلما فرغ من جهازه ووُضعَ على سريره قدّم الكتائب بين يديه، فنظر قيْصر، ورأى أمرًا عجيبا، وشيئًا يُحْمَل، والناس بالسلاح تحته، فأرسل إليه: ما هذا الذى أرى[1]؟ قال يزيد: هذا صاحب نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم، أوصى أن نَدفنه إلى جنب مدينتكم، ونحن نُنفّذ وصيّته أو نموت دونه. فأرسل إليه: العجَبُ من الناس وما يذكرونه من دَهاء أبيك، وهو يبعثك فى هذا البعث! تدفن صاحبَ نبيّك بجنب مدينتى، فإذا ولّيتَ عنه نبشتُه فطرحتُه للكلاب! فأرسل إليه يزيد: إنى ما أردت أن أجنه حتى أودعَ مسامِعَك كلامى؛ وكفرت بالّذى أكرمتُ له هذا الميّت، لئن تعرضت له لا تركت فى أرض العرب نَصْرانيًّا إلّا سفكتُ دمه واستصفيت ماله، وسبيت حرمه.

فأرسل إليه قيصر: كان أبوك أعرفَ بك منى، وإنى أحلف بحق المسيح عليه السلام: ألا يحرسه سنةً أحدٌ غيرى.

* * *

وعن بعض مشايخ المدينة؛ قال: كانت عند عبد الله بن جعفر بن أبى طالب رضوان الله عليهما جاريةٌ مغنّية، يقال لها عُمارة، فلما وفد عبدُ الله على معاويةَ خرج بها معه، فزاره يزيد ذات يوم وأقام عنده، فأخرجَها إليه، فلما نظر إليها وسمع غناءَها وقعتْ فى نفسه، فأخَذه عليها ما لم يَملك نفسَه، وجعل يَمنعُه من أن يبوحَ به مكانِ أبيه؛ مع يأسه من الظُّفَر بها. فلم يزل يُكاتمه إلى أنْ مات معاوية، وأفضَى إليه الأمر، وتقلّد الخلافة يزيدُ، فاستشار بعض من يَثق به فى أمرها، فقال: إنَّ أمْرَ عبد الله لا يُرام، وأنت لا تستجيزُ إكراهَه، ولا يبيعها بشىء أبدًا، وليس يُغنى فى هذا الأمر إلّا الحيلةُ، قال: اطلب لى رجلًا عاقلًا من أهل العراق، ظريفًا أديبًا له معرفة ودراية، فطلبوه فأتوه، فلمّا دخل عليه استنطَقَه، فرأى بيانًا وَحلاوَةً وفقهًا، فقال له: إنى دعوتُك لأمر، إن ظَفِرتَ به فهو حُظوَتك آخر الدهر، ويدٌ أكافئك عليها، ثم أخبره بأمره.

فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ عبد الله بن جعفر ليس يرام[2] ما قِبَلَهُ إلّا بالخديعة، وإن يَقدرْ على ما سألتَ رجلٌ فأرجو أن أكونه، والقوّة بالله، فأعِنّى يا أمير المؤمنين بالمال، قال: خُذْ ما أحببت.

فأخذ واشترى من طُرَفِ الشام وثياب مصر ومتاعها للتجارة، ومن الرّقيق والدّوابّ وغير ذلك حاجَتَه، وشخص إلى المدينة، فأناخ بعرصة عبد الله بن جعفر، واكتَرى منزلًا إلى جانبه، ثم توسّل إليه، وقال: أنا رجلٌ من أهل العراق، وقدِمْت بتجارة، فأحببت أن أكونَ فى جوارك وكنفك إلى أن أبيع ما جئت به.

فبعث عبد الله إلى قهارمته وقال: أكرموا جارَنا، وأوسِعوا عليه المنزل، فلّما اطمأنّ العراقىّ

---

(١) ل: «نرى».

(٢) كذا فى ك، وفى ل: «لا يرام».

وسلم عليه أياما، وعرفه نفسه، هيأ له بغلةً فارهة، وثيابًا من ثياب العراق وألطافا، وبعث بها إليه، وكتب رقعة يقول فيها: يا سيّدى، أنا رجل تاجر، ونعمةُ الله علىَّ سابغة، وعندى أحمال[١]، وقد بعثت إليك بشىء من اللطف وهو كذا، ومن الثّياب والعِطر، وبعثتُ [إليك][٢] ببغلة خفيفة العنان، وطيئة الظَّهر، فاتخذها لرِحْلك، وأنا أسألك بقرابتك من رسول الله ﷺ إلّا قبلتَ هدِيّتى، ولم توحشنى بردِّها، فإنى أدين الله عزّ وجلّ بحبّك وحبِّ أهل بيتك، وإنّ أفضل ما فى سفرى هذا أن أستفيد الأنس بك، والشرفَ[٣] بمواصلتك.

فأمر عبد الله بقبض هديّته، وخرج إلى الصلاة، فلما رجع مر بالعراقى فى منزله، فقام إليه، وقبّل يَده، وسلّم عليه، واستكثر منه، فرأى أدبًا وظرفًا وحلاوةً وفصاحةً، فأُعجب به وسُرَّ بنزوله عليه.

فجعل العراقىّ يبعث كلَّ يوم[٤] بلُطَف إلى عبد الله وبطُرف. فقال عبد الله: جزى الله ضيفَنا هذا خيرًا، فقد ملأنا شكرًا، وأعيانا عن مجازاته[٥].

فإنها لكذلك، إذْ دعاه عبدُ الله ودعا بعُمارة وجواريه، فلما تعشيًا وطاب لهما[٦]، وسمع غناء عُمارة تعجّب وجعل يزيد فى عجبه، إذ رأى ذلك يسرُّ عبد الله إلى أن قال له: رأيتَ مثل عُمارة؟ قال: لا والله يا سيِّدى، ما رأيتُ مِثلَها، وما تَصلُح[٧] إلّا لك، وما ظننت أنه يكون فى الدنيا مثل هذه: حسن وجهٍ وحِذْق عَمَل! قال: كم تساوى عندك؟ قال: ما لَها ثمنٌ إلّا الخلافة. قال: تقول هذا لما ترى من رأيى فيها، ولتجْلِبَ سرورى! قال: والله يا سيدى إنى لأحبّ سرورَك. وما قلت لك إلّا الجدّ. وبعد، فإنى رجلٌ تاجر، أجْمَعُ الدِّرهم إلى الدرهم طلبًا للربح، ولو أُعْطِيتُها بعشْرة آلاف دينار لأخذتُها. قال عبد الله: بعشرة آلاف دينار! قال: نعم – ولم يكن فى ذلك الزّمان جارية بعشرة آلاف دينار – فقال عبد الله كالمازح: أنا أبيعكَها بعشرة آلاف دينار، قال: قد أخذتُها، قال: هى لك، قال: قد وجَب البيع، وانصرف العراقىّ. فلما أصبح لم يشعر عبد الله إلّا وبالمال قد وافاه، فقال عبد الله: بعث العراقىُّ بالمال؟ قالوا: نعم، بعشرة آلاف دينار وقال: هذه ثمن عمارة. فردّها إليه وقال: إنما كنت أمزحُ معك، وما أعلَمَك أنّ مثلى يبيع مثلها! قال: جُعلتُ فِداك! إن الجدّ والهزْل فى البيع سواء، قال له عبد الله: ويحَك! لا أعلم موضع جاريةٍ تساوى ما بذلت، ولو كنت بائعَها من أحد لآثرتك، ولكننى كنت أمازِحُك، وما أبيعها بمُلْك الدنيا، لحرْمتها بى وموقِعها من قلبى. قال له العراقى: فإن كنت مازحًا فإنى كنتُ جادًّا، وما اطّلعتُ على ما فى نفسِك، وقد ملكت الجارية، وبعثت بالثمن، وليست تحِلُّ لك وما مِنْ أخْذِها بُدّ.

فمنعه إيّاها، فخرج العراقىُّ وهو يقول: أستحلفك فى مجلس أمير المؤمنين فلما رأى عبد الله الجدّ منه، قال بئس الضيف! ما طرقَنا طارق، ولا نزل بنا ضيفٌ أعظم بليةً علينا منك! تحلِّفنى فيقول

---

(١) ل «احتمال». ك: «اجتمال» تصحيف.

(٢) من ك.

(٣) كذا فى ل، وفى ك: «وأتشرف».

(٤) ك: «فى كل يوم».

(٥) ل: «وأعاننا على مجازاته».

(٦) كذا فى ك، وفى ل: «طاب لهما».

(٧) ك: «ولا تصلح».

الناس: اضطهدَهُ وقهَرَه وألجَأه إلى أن استحلَفه! أما والله لتَعْلَمَن أَنى سأبلى فى هذا الأمر بالصّبر وحسن العزائم وجميل العزاء.

ثم أمر قهرمانه بقبض المال، وتجهيز الجارية بما يشبهها من الثياب والخدم والطيب والمركب فجُهِّزت بنحوٍ من ثلاث آلاف دينار، ثم سلّمها إلى قهرمانه وقال: أوصِل الجارية إليه مع ما معها، وقل: هذا لَك، ولك عندنا عوضٌ مما ألطفتنا به.

فقبض العراقىُّ الجارية وخرج، فلّما برز من المدينة قال لها: يا عمارة، إنّى والله ما ملكتُكِ قَطّ ولا أنتِ لى، ولا مِثلى يشترى جارية بعشرة آلاف دينار، وما كنت لأَقْدُمَ على عبد الله بن جعفر فأسلُبَه أحبَّ الناسِ إليه لنفسى، ولكنى دَسِيسٌ من قِبَل أمير المؤمنين يزيد، وأنتِ له، وفى طلبك بعثنى، فاستتِرى منّى، فإن دخلنى الشيطانُ فى أمرك، أو تاقت نفسى إليك فامتنعى. ثم مضى بها حتى ورد دمشق، فتلقاه الناس يحملون جِنازَة يزيد، وقد استخلف ابنه معاوية.

فأقام الرجل أيامًا ثم تلطَّف للدخول عليه، فشرح له القصّة، فقال: هى لك. فارتحل العراقىُّ، وقال للجارية: إنى قلت لك ما قلتُ حين أخرجتُك من المدينة؛ لأنى لم أملِكْكِ، وقد صرت الآن لى، وأنا أُشْهِدُكِ أنِّى قد وهبتُكِ لعبد الله بن جعفر.

فخرج بها حتى قدم المدينة، فنزل قريبًا من عبد الله، فدخل عليه بعضُ خدمه فقال: هذا العراقى ضيفُك الصانع بنا ما صنع – لا حيّاه الله – قد نزل، فقال: مَهْ! أنزلوا الرجل وأكرموا مَثْواه، فأرسل إلى عبد الله: إن أذِنْتَ جُعلت فِداك لى فى الدخول عَلَيْك دَخْلَةً خفيفة أشافهك فيها بحاجتى وأخرج! فأذن له، فلما دخل خبّره بالقِصّة، وحلف له بالمحرّجات[1]. من الأيمان أنه ما رأى لها وجها إلاّ عنده، وها هى ذه. فأدخَلَها الدار، فلمّا رآها أهل الدار والحشم تصايحوا، ونادوْا: عُمارة! عُمارة! فلما رأت عبد الله خرّت مغشيًّا عليها، وجعل عبدُ الله يمسح وجهها بكمّه ويقول: يا حبيبتى، أحلم هذا؟ فقال له العراقىُّ: بل رَدَّها الله إليك بوفائك وكَرَمِك، فقال عبد الله: قد علم الله كيف كان الأمر! فالحمد لله على كلّ حال، ثم أمر ببيع عِيرٍ له بثلاثة عشر ألف دينار، وأمر بها للعراقّى، فانصرف إلى العراق وافَر العِرض[2] والمال.

أبو محارب، قال، قال معاوية بن أبى سفيان: إن عمرو بن العاص قد احتجَن عنا خراج مصر. فعزَلَه واستَعْمل أبا الأعوار السُّلمِىّ، فبلغ عَمْرًا الخبر، فدعا وَرْدَانَ مولاه وقال له: ويحك! عزلنى أميرُ المؤمنين، قال: فمن استعْمَل؟ قال: أبا الأعور، قال: دعنى وإيّاه أصنع له طعامًا، ولا تنظر فى كتابه حتى يأكل، قال: نعم؛ فلما قدِم عليه أخرج الكتاب بتسليم العمل إليه، فقال عمرو: ما نصنع بالكتاب! لو جئتنا برسالة لقبلنا ذلك منك[3]. فقال وَرَدان: ضع الكتاب وكلْ، فقال أبو الأعور لعمرو: انظر فى الكتاب. قال: ما أنا بناظر فيه حتى تأكل، فوضعه إلى جانبه، وجعَلَ يأكُلُ، فاستدار

---

(١) ك، ل: «بالمخرجات».

(٢) ل: «العوض».

(٣) ساقطة من ك.

وردان فأخذه[١]، فلما فرغ أبو الأعور من غذائه، طلب الكتاب فلم يجده، فقال: أين كتابى؟ له عمرو: أو ليس جئتنا زائرًا لنحسن إليك؟ قال: بل استعملنى أميرُ المؤمنين وعزَلَك، قال: لا يظهَرن هذا منك، فإنّه قبيح ونحن نصلُكَ ونحسن إليك. فرضى بالصِّلة، وبلغ معاوية فاستضحَكَ وتعجّب من فِعله، وأقرَّ عمرًا على عمله.

* * *

وعن الشعبىِّ قال: كتب المغيرة بنُ شعبة إلى معاوية، وكان خاف العزل: قد كبرتْ سِنّى، عَظْمى، واقترب أجلى، وسفّهنى[٢] سفهاء قريش، وأمير المؤمنين أوْلى بعَمَله؛ فكتب إليه معاوية: ما ذكرتَ من كِبَر سنّك فأنت أكلت عُمْرك. وأما اقتراب أجلك، فلو أستطيع دفْعَ الموت عن دفعْتُه عن نفسى وعن آل أبى سفيان، وما ذكرت من سفهاء قريش، فحلماؤها أنزلتْك هذه المنزل أمّا العمل، فاصبر رُوَيدًا يدرك الهيْجا حَمَل. فاستأذَنَه فى القدوم عليه، فأذِن له، فوافاه، فقال معاوية: يا مغيرة، كَبرتْ سِنّك، واقترب أجلك، ولمَ يبق منك شىء، وسأستبدِل بك.

فانصَرفَ فرأى أصحابُه الكآبة فى وجهه، فقالوا: مالَك؟ قال: قال لى: كَيْتَ وكَيْت، قالوا فما تريد أن تصنع؟ قال: ستعلمون، قال: فأتى معاوية فقال له: يا أمير المؤمنين، إن الإنسان ويَرُوح، ولست فى زمن[٣] أبى بكر ولا عمر، فلو أنّك نصَّبت لنا إنسانًا نصير إليه بعدك الرأى؛ على أنّى قد كنتُ دعوتُ أهلَ العراق إلى يزيد. قال: يا أبا محمّد، انصرف إلى عملك وأحْكِم هذا الأمرَ لابن أخيك، قال: فأقبل على البريد يركض، وقال: قد والله وضعت رجله ركابٍ طويلِ الركض قال: فذاك هو الذى بعثَ معاويةَ على أخذ البيْعة ليزيد.

---

(١) ل: فاتخذه.

(٢) ك: «سفهتنى».

(٣) ك: «زمان».

مساوئ العى وضعف العقل

قال ثمامة صاحب الكلام: كان المأمون قد هم بلعن معاوية، وأن يكتب بذلك كتابًا فى الطعن عليه، قال: ففثأه[1] عن ذلك يحيى بنُ أكثم وقال: يا أمير المؤمنين، العامّة لاتحتمل هذا، ولاسيما أهل خُراسان، ولا تأمن أن يكون لهم نَفْرةٌ ونَبْوةٌ لا تُستقال، ولا يُدرَى ما يكون عاقبتها، والرأى أن تَدَع الناسَ على ما هم عليه، ولا تُظهِرْ لهم أنَّك تميل إلى فِرْقة من الفرَق، فإنّ ذلك أصلحُ فى السياسة، وآمن فى العاقبة، وأجْرَى فى التدبير. فركَن إلى قوله.

فلمّا دخلتُ عليه قال: يا ثمامة، قد علمتَ ما كنّا دبّرناه فى أمر معاوية؛ وقد عارضَنَا رأىٌ هو أصلحُ فى تدبير المملكة، وأبقى ذِكرًا فى العامّة. ثمّ أخبَرنى أنّ يحيى بن أكثم حذّره، وأخبره بنفور العامّة عن مثل هذا الرأى، فقلت: يا أمير المؤمنين، والعامّة عندك فى هذا الموضع الذى وضعها فيه يحيى! والله لو بعثت إليها إنسانًا على عاتقة سوادٌ ومعه عَصًا، لساقَ إليك منها عشرةَ آلاف؛ والله يا أميرَ المؤمنين، ما رضى الله جلّ وعزّ أن سَوّاها بالأنعام حت جعلها أضلَّ سبيلًا. فقال تبارك وتعالى: ﴿أَمْ تحسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُم يَسْمَعُونَ أو يعْقِلُونَ إِنْ هُم إلاّ كَالأنعَام بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبيلا﴾[2]. والله لقد مررْتُ يا أمير المؤمنين منذ أيّام فى شارع الخُلْدِ وأنا أريد الدار، فإذا إنسانٌ قد بَسَطَ كِساءَه، وألقى عليه أدوية، وهو قائم ينادى: هذا الدّواء للبياض فى العين والغشاوة والظُّلْمة وضعف البصر، وإنّ إحدى عينيه لمطموسة، والأخرى مؤلَمَة وقد تألّبُوا عليه، واحتفلوا إليه، فنزلتُ عن دابتى ودخلتُ بين تلك الجماعة، فقلت: يا هذا، أرى عيْنَيْك أحْوَجَ الأعينُ إلى العلاج، وأنت تصف هذا الدواء وتخبر أنه شِفاء، فما بالك يا هذا لا تستعمِله! قال: أنا فى هذا الموضع منذ عشرين سنةً ما رأيتُ شيْخًا قطُّ أجهلَ منك ولا أحمق! قلت: وكيف ذاك؟ قال: يا جاهل، أتدرى أين اشتكت عينى؟ قلت: لا، قال: بمصرَ؛ فأقبل علىَّ الجماعة فقالت: صدق، والله! أنت جاهل. وهَمُّوا بى، فقلت: والله ما علمتُ أن عينَه اشتكت بمصر. فتخلّصت منهم بهذه الحجّة. قال: فضحك المأمون وقال: ما لقيتَ من الله جلّ ذكره من سوء الثّناء[3]، وقُبْح الذكر أكثر. قلت: أجَل.

* * *

وقيل: إنه كان رجل من المعتزلة، وكان له جارٌ يَرى رأىَ الخوارج، وكان كثير الصلاة والصيام، حسن العبادة، فقال المعتزلى لرجلين من أصحابه: مرا بنا إلى هذا الرجل، فنكلمه[4]، لعل الله جل وعزّ يُنقِذه من الهَلَكة بنا، ويَهديَه من الضلالة. فأتوه وكلموه، فأصغى إلى كلامهم، فلمّا سكتوا

---

(١) فثأه: منعه وكفّه، وفى ك: «فنهاه».

(٢) سورة الفرقان ٤٤.

(٣) يقال: أثنى عليه؛ إذ قال خيرا أو شرا.

(٤) ك: «لنكلمه».

انتعَل[١] وقام ومعه القوم حتى وقف على باب المسجد، فرفع صوته بالقراءة، واجتمع إليه الناس[٢]، وقعد الرجل وصاحباه، فقرأ ساعةً حتى بكى الناس، ثم وعَظَ فأحسن، ثم ذكر الحجّاج، فقال: أحرق المَصَاحِف، وهَدَّم الكعبة، وفعل وفعل، فالعنوه لعنهُ الله! فلعَنَه الناس، ورفعوا أصواتهم. ثم قال: يا قوم، وما علينا من ذنوب الحجّاج ومن أن يغفر الله عزّ وجلّ له ولنا معه، فإنا كلنا مذنبون! لقد كان الحجاج غيورا على حرم المسلمين، تاركا للغدر، ضابطا للسبيل[٣]، عفيفا عن المال، لم يتخذ ضيعةً ، ولم يكن له مال، فما علينا أن نترحّم عليه، فإنّ الله عزّ وجلّ رحيم يحبّ الراحمين! ثم رفع يَده، ودعا بالمغفرة للحجّاج، ورفع القومُ أيديَهم، وارتفعت الأصوات بالاستغفار مليًّا.

قال الرجل المعتزليّ وهو يلاحظنى ، فلما فرغَ وانصرف، ضرب بيده إلى منكبى، وقال: هل رأيت مثل هؤلاء القوم! لعنوه واستغفروا له فى ساعة واحدة! أَتَنْهَى عن دماء أمثالِ هؤلاء! والله لأجاهدنهم مع كل من أعاننى عليهم.

(١) ك: «انتقل».
(٢) ك: «خلق كثير».
(٣) ك: «السبيل».

محاسن التيقظ

قيل: كان أردَشير من أشدِّ خَلْق[1] الله فصحًا وبحثًا عن سرائر خاصّته وعامّته، وإذكاء للعيون عليهم وعلى الرعيّة. وكان يقول: إنما سُمّي الملك راعيًا ليَفحَص عن دفائن رعيته، ومتى غفل الملك عن تعرُّفه ذلك؛ فليس له من رسم الراعى إلّا اسمُه ، ومن الملك إلّا ذِكره.

ويقال: إنه كان يُصبح فيَعلم كلَّ شىء جرى[2] فى دار مملكته من خير وشرّ، ويمسى فيعلم كلَّ شىء أصبحوا عليه، فكان متى شاء قال لأرفعهم وأوضعِهم: كان عندك فى هذه الليلة كيتَ وكيتَ. ثم يحدّثه بكلّ ما كان فيه إلى أن أصبح، وكان بعضُهم يقول: يأتيه مَلك من السماء فيخبره، وما كان ذلك إلّا لتيقّظه وكثرة تعهُّده لأمور رعيّته.

ويقال: إنّ الأمم كلّها: أوّلها وآخِرَها، قديمها وحديثها؛ لم تَخَفْ ملوكَها خَوْفها أردشير من ملوك العجم وعمر بن الخطاب رضى الله عنه من ملوك العرب والإسلام؛ فإنّ عمر رضى الله عنه كان عِلْمه بمَنْ نأى من عُمّاله ورعيّته كعِلْمه بمن باتَ معه على مِهاد، فلم يكن له فى قُطْر من الأقطار؛ ولا ناحيةٍ من النواحى أميرٌ ولا عاملٌ إلّا ولَهُ عليه عَيْن لا تفارقه[3]. فكانت أخبارُ النواحى كلُّها عنده كلَّ صباح ومساء، حتى إن العامل كان يتوهّم على أقربِ الخلْق إليه وأخصِّهم به، فساس الرّعيّة سياسة أردشير فى الفَحْصِ عنها وعن أسرارها، ثم اقتفى معاويةُ فعلَه، وطلب أثره. فانتظم له أمرُه، وطالت فى الملك مدّته.

وكذا كان زيادُ بن أبى سفيان، يحتذِى فعل معاوية كاحتذاء معاوية فعلَ عمر رحمه الله فى تعرّف أمور رعيّته ومملكته، وفيما يحكى عنه أنّ رجلًا كلّمه فى حاجةٍ له، فتعرّف إليه وهو يظنُّ أنه لا يعرفه، فقال: أصلح الله الأمير! أنا فلان ابن فلان. فتبسّم زياد، وقال: أتتعرف إلىّ وأنا أعرفُ منك بنفسك! والله إنّى لأعرفك وأعرف إباك وأمَّك وجدَّك وجدَّتك، وأعرف هذا البُرْد الذى عليك، وهو لفلان. فَبُهِتَ الرجلُ وأُرعِد؛ حتى كاد يُغْشَى عليه.

وعلى هذا كان عبد الملك بنُ مروان، والحجّاجُ. ولم يكن بعد هؤلاء الثلاثة أحد فى مثل هذه السياسة، حتى ملك المنصور، فكان أكبر الأمور عنده معرفة الرجال حتى عرف العدو من الولى، والموادع والمسالم من المشاغِب، فساس الرعيّة على ذلك، ثم درست هذه السياسة حتى ملك الرشيد، فكان أشدَّ الملوك بحثًا عن أسرار رعيّته، وأكثرهم بها عناية، وأحزمهم فيها أمرًا.

---

(١) ك: «الناس».
(٢) ك: «يجرى».
(٣) ك: «يفارقه».

وعلى هذا كان المأمون فى أيامه[١]، والدليل على أمر المأمون رسالتُه إلى إسحاق بن إبراهيم فى الفقهاء وأصحاب الحديث وهو بالشام؛ خَبَّر فيها عن عيب واحدٍ، وعن نحلته وعن أموره التى خَفِيَتْ أو أكثرها على القريب والبعيد، ولم يكن أحدٌ من ذوى السلطان الأعظم أشدَّ فحصًا وبحثًا عن أمور الناس؛ حتى بلغ هذا المبلغ فى الاستقصاء، وجعله أكبر شُغْلِه، وأكثره فى ليله ونهاره، من إسحاق بن إبراهيم. حدثنى موسى بنُ صالح بن شيخ؛ قال: كلّمتُه فى امرأة من بعض أهلنا، وسألتُه النظر لها، فقال: يا أبا محمد، مِنْ قصة هذه المرأة ومن فعلها... قال: فوالله: ما زال يحدّثنى ويخبرنى[٢] عن قصّتها، ويصف أحوالها حتى بهت.

وحَدّث أبو البرق الشاعر، قال: يجرى علىَّ أرزاقا[٣] فدخلت عليه؛ فقال بعد أن أنشدته: كم عيالك تحتاج فى كل شهر[٤]؟ قلت: من الدقيق إلى كذا، ومن الحطب إلى كذا، فأخبرَنى بشىء من[٥] أمر منزلى جهلت بعضه وعَلمه كلّه.

وحدّث بعضُ من كان فى ناحيته، قال: رفعتُ إليه قصّةً أسأله فيها أجرًا وأرزاقًا، فقال: كم عيالُكَ؟ فزِدْتُ فى العَدَد. فقال: كذبتَ؛ فُبهت وقلت: يا نفس؛ من أين علم أنى كذبتُ! فأقمتُ سنةً أخرى لا أجسر على كلامه[٦]، ثم رفعتُ إليه القصة، فقال: كم عيالك؟ فقلت: كذا، قال: صدقتَ، ووقّع[٧] فى القصّة، يُجْرى على عياله كذا وكذا.

* * *

ويقال: إن كِسْرَى أبرويز كان [قد[٨]] نصّب رجلاً يمتحن به مَنْ فسدت عليه نيّته من رعيته، وطَعَن فى المملكة، فكان الرجل يُظْهِر التألُّه[٩] والدعاء إلى التخلّى من الدنيا، والرغبة فى الآخرة، وترك أبواب الملوك. وكان يقصّ على الناس ويبكّيهم ويشوبُ كلامه فى خلال ذلك بذمِّ الملك[١٠]، وتركه[١١] شرائع مِلَّتِه، وسُنَن سيرته ودينه الذى كان عليه، وكان هذا الرجل يمتثل ما حدّه له أبرويز ليمتحن بذلك خاصّته، وكان من يسعى يُخبر أبرويز بذلك، فيضحك ويقول: فلان فى عقله ضعف، وأنا أعلم أنه وإن كان يتكلّم لا يقصدنى بسوء، ولا المملكة بما يُوهنها ويُظهر الاستهانة بأمره والثقة به والطُّمأنينة إليه، ثم يوجّه إليه فى خلال ذلك من يدعوه، فيأبى أن يجيبه، ويقول: لا ينبغى لمن خاف الله أن يخاف أحدًا سواه، فكان الطاعن على الملك والمملكة يكثر الخلوة بهذا الرجل، والزيارة له والأنس به، فإذا خُلِّيا[١٢] تَذَاكَرَ أمْرَ الملك فابتدأ الناسكُ فطعن فيه وأعانه الخائن وطابَقَهُ[١٣] على ذلك وشايعه، فيقول الناسك: إياك وأن يَظْهَر[١٤] هذا الجبار على كلامِك،

---

(١) ل: «كان المأمون أيامه».
(٢) ل: «ويخبر».
(٣) ك: «رزقا».
(٤) ك: «كم عيالك يحتاجون نفقة فى كل شهر»؟.
(٥) ك: «فى أمر منزلى».
(٦) ك: «خطابه».
(٧) ك: «ووقع لى».
(٨) من ك.
(٩) التأله: التعبد والتنسك.
(١٠) ك: «الملوك».
(١١) ك: «وترك».
(١٢) ط: «أخليا»، وأثبت ما فى ك، ل
(١٣) ط: «طايعه».
(١٤) ك: «تظهر».

فإنه لا يحتمل لك ما يحتمله لى، فحصن[١] منه دمك. فيزداد الآخر إليه استنامة وبه ثقة، فإذا علم الناسك أنه قد بلغ من الطعن على الملك ما يستوجب به العقوبة[٢] فى الشريعة، قال لمن بحضرته: إنى قاعد غدًا مجلسًا للناس أقصُّ عليهم فاحضروه، ويقول لمن هو أشدُّ به ثقة: احضر أنت، فإنك رجل رقيق عند الذكر، حسن النية، ساكنُ الريح، بعيدُ الصوت، وإن الناس إذا رأوك قد حضرت زادت نيّاتهم خيرًا؛ وسارعوا إلى استجابتى فيقول الرجل: إنى أخاف من هذا الجبار، فلا تذكره إن حضرت، وكانت العلامة بينه وبين أبرويز، أن أبرويز قد كان وضع عيونًا يحضرون متى جلس، فكان الناسك يقصّ على العامّة، ويُزهِّد فى الدنيا، ويرغِّب فى الآخرة، والخائن حاضر، فيأخذ الناس فى ذكر الملك، فينهض الخائن، وتجىء عيون أبرويز فتخبره بما كان، فإذا أزال الشكّ عنه فى أمره، وجّهه إلى بعض البلدان، وكتب إلى عامله: قد وجّهت إليك برجل، وهو قادم عليك بعد كتابى هذا، فأظْهِرْ برَّه، والأنْس به والثقة إليه، والسكون إلى ناحيته، فإذا اطمأنتْ به الدار[٣] فاقتله قتلة تحيى بها بيتَ النار، وتَصِل بها حرمَةَ النُّوْبهار[٤]، فإنّ مَنْ فسدت نِيّتُهُ بغير علّة فى الخاصّة والعامّة لم يصلح بعلّة، ومن فسدَتْ نيّتُه بعلّة صَلَحَتْ بخلافها.

* * *

قال: وحدّثنا الوضاح بن محمد بن عبد الله، قال: سمعتُ أبا بُديل بن حبيب يقول: كنّا إذا خرجْنا من عند أبى جعفر المنصور، صِرْنا إلى المهدىّ؛ وهو يومئذ ولىُّ عهد. ففعلنا ذلك يومًا، فأبرز لى المنصور يدَه، فانكببتُ عليها وقبّلتها، فضرب يدى بيَده، فعلمت أنه لم يفعل ذلك إلّا لشىءٍ فى يده، فوضع فى يدى كتابًا صغيرًا تسترُهُ الكفّ، فلمّا خرجت قرأت الكتاب فإذا فيه: إذا قرأتَ كتابى هذا فاستأذن إلى ضياعك[٥] بالرّىّ. فرجعت فاستأذنت، فقلت: يا أمير المؤمنين، ضياعى بالرّىّ قد اختلّت، ولى حاجةٌ إلى مطالعتها، فقال: لا، ولا كرامة! فخرجتُ، ثم عدت إليه اليوم الثانى فكلّمتُه، فردَّ علىّ مِثْلَ الجوابِ الأوّل، فقلت: يا أمير المؤمنين، وهل أنا ومالى إلّا من نعمتِك! حقنت دمى، وردَدْت علىّ مالى، وآثرتَنى بصحبتِك، فقال: إنه يَهجس فى نفسى أنّ المرّار بن جَهْور يَهُمّ بخَلْعِى، وليس لى غيرك؛ لِما أُعرِف بينكما، فأظهر إذا صرت إليه الوقيعة فىّ، والتنقّص لى حتى تَعرِفَ ما عنده، فإذا رأيتَه يَهُمّ بخَلْعِى، فاكتب إلىّ؛ ولا تكتبنّ على بريد ولا مع رسول، ولا يفوتنى خَبَرُك فى كلِّ يوم، فقد نصبتُ لك فلانًا القطّان فى دار القطن، فهو يُوصِل كُتُبَك.

قال: فمضيتُ حتى أتيت الرَّىّ، فدخلت على مرّار، فقال: أفلتَّ! قلتُ: نعم والحمد لله، ثم أقبلتُ أؤانسه بالوقيعة فى المنصور؛ حتى أظهر ما كان المنصور ظَنّ به.

فكتبتُ إليه بذلك، فلمّا وصلتُ منه إلى ما أردت أتيت ضِياعى، ثم رجعتُ إليه بعد أيّام، فقال: نجّاك الله من الفاجر! قلتُ: نعم، وأرجو ألّا تقع عينُه علىّ أبدًا، فكنت أعرِّض به فيزيدنى مما

---

(١) ط: «فحص».

(٢) ك: «القتل».

(٣) ك: «الديار».

(٤) النوبهار: بيت النار.

(٥) ك: «ضياعى»، والصواب ما أثبت.

عنده، ثم قال لى: هل لك أن نخرج إلى منتزّه طيِّب؟ قلت: نعم؛ فخرجت أنا وهو نتساير حتى صرنا إلى موضع مُشرف قد بنيت له عليه قبّة، فأحدَّ النظر إلى ما هناك، ثم قال: يا أبا بديل، أترى الفاجرَ يظنّ أنّى أعطيه طاعةً أبدًا ما عشت! أشهد أنّى خلعته كما خلعت خفى هذا من رِجْلِي.

قال: فرجعت إلى منزلى، وأنا فى كلّ يوم أكتبُ بخبره، قال: وقد كنت أعددتُ تسعة فرسان من بنى يرْبوع، ورجلاً من بنى أسد، فواطأتهم أن نبطش[١] به، وكتبتُ إلى المصمَغان[٢] أن يأتيه فى جنده إلى الموضع الّذى اتفقنا عليه.

قال: وأخذ المرّار الدواء فى ذلك اليوم وسبق إليه الأسدىّ بالخبر، وقال: احذر؛ فقد اتّخذ لك كيت وكيت. قال: فدخلت عليه، فإذا هو على كرسى، فعرفتُ الشرّ فى وجهه والمنكرَ فى نظره، فقال: هِيهِ يا أبا بُديل! مع إكرامى لك أردتَ أن تقتلنى؟ قال: فتضاحكتُ وقلت: بلغ من مَكرِه أن دَسَّ إليك[٣] هذا الأسدىّ! لقد عملتْ فيك حيلتُه. ثم حرّكه بَطْنُه فقام إلى الخلاء، وقال: لا ترِمْ، فلما ولّى وثبتُ وخرجتُ مسرعًا، فقال الحاجب: أسرعتَ! قلت: نعم فى حاجة للأمير، وركبت فرسى، فرأيتُ القوم قد وافَوْا كلُّهم إلّا الأسدىّ، فعلمتُ أنه صاحبى، فلمّا خرج سأل عنّى فأُخْبِر بمضيّى فوجّه خيلاً فى طلبى، فمال اليَرْبوعيون فدفعوهم، ومضيتُ حتى صِرْتُ إلى المصمغان، وكتبت إلى أبى جعفر المنصور كتابًا مكشوفًا، فكتب: إنى قد عرفتُ ما وصفتَه، وقد صحّ الأمر. ثم كتب إلى خازم بن خزيمة، فصار إليه حتى أخذه.

* * *

على بن بُريهة الهاشمىّ، قال: صاحب عذابِ أبى جعفر، قال: دعانى أبو جعفر المنصور ذاتَ يوم، وإذا بين يديْه جارية صفراءُ، وقد دعا لها بأنواع العذاب، وهو يقول لها: ويلَك! اصْدُقينى، فو الله ما أريدُ إلّا الألفة، ولئن صَدَقتِنى لأصلَنّ الرَّحِم، ولأتابِعنّ البرّ إليه، وإذا هو يُسائلها عن محمد بن عبد الله، وهى تقول: ما أعرف مكانَه، ودعا بالدَّهَق[٤] وأَمَرَ به فوُضِعَ عليها، فلمّا كادت نفسُها أن تتلَف قال: أمسِكوا عنها، وكَرِه ما رأى، وقال لأصحاب العذاب: ما دواء مِثلِها إذا صار إلى مثلِ حالها؟ قالوا: الطِّيب تَشَمُّه، والماءُ الباردُ يُصَبّ على وجهها، وتُسقَى السَّويق. فأمر لها بذلك، وعالج بعضه بيده، وقال لأصحاب العذاب: ألا أعلمتمونى بما يَنالُها فأكفَّ عنها! قالوا: قد علمنا أنّها لا تقوَى على هذا، ولكنّا هِبْناك؛ فما زالوا يردِّدُون عليها نفسها حتى أفاقَتْ، وأعاد عليها المسألة، فأبتْ إلّا الجُحود، فقال لها: أتعرفين فلانة الحجَّامة؟ فاسودّ وجُهها وتغيّرت، وقال: نعم يا أميرِ المؤمنين، تلك فى بنى سُلَيم، قال: صدقت! هى والله أَمَتى ابتعتُها بمالى، ورزْقى يُجرَى عليها فى كلّ شهر، وكِسْوة شِتائها وصَيْفها علىّ، أمرتُها أن تدخُل منازلكم وتحجِمَكم وتتعرّف أخبارَكم. ثم قال:

---

(١) ك: «يبطش».
(٢) ل: «المصعمان»، ك: «المصمعان» وما أثبته من الطبرى.
(٣) ك: «عليك».
(٤) الدهق: خشبتان يغمر بهما ساقا المجرمين.

أو تعرفين فلانا البقال؟ قالت: نعم، هو فى بنى فلان، قال: هو والله مضاربى بخمسة دنانير، أمرتُه أن يَبتاع بها كلّ ما يحتاج إليه من البُيوع، فأخبَرَنى أنّ أمَةً لكم يومَ كذا وكذا،من شهر كذا، صلاةَ المغرب، جاءت تسأله حنّاءَ[١] ووَرقًا، فقال لها: ما تَصْنَعين بهذا؟ فقالت: كان محمد بنُ عبد الله فى بعض ضِياعه بناحية البَقيع وهو يدخل الليلة، فأردنا هذا لتتّخذ منه النساء ما يحتجن إليه عند دخول أزواجهنّ من المَغيب. فأُسقِط فى يَدِها، وأذعنتْ لِكلِّ ما أراد.

* * *

قيل: وإنّ أبا جعفر كتب فى حمل عبدالله بن الحسَن وأهْل بيته من المدينة إلى حضرته، فلما أُخْرِجُوا كَثُر عليهم البكاء، فقال عبدُ الله: أفيقوا من البكاء، وأَوْغِلوا فى الدعاء، فإنى أُشهد الله على ما أردتُ من إحياء الحقّ وإماتة الباطل، فجرَى القَدَر بما جرى، فجدّاى[٢] الحسنُ والحسين قُتِلا بسمٍّ وسَيْف، فالحمد لله الذى جعل مَنايانا جِهادًا، ولم يجعلها[٣] مِهادًا.

* * *

وأخبرنا إبراهيم بن السِّنديّ بن شاهِك[٤] – وكان من العلماءِ بأمر الدولة – قال: قال لى المأمون: نُبِّئْتُ أنّك عالم بأمر الدولة ورجال الدعوة. قلت: ذلك الذى يلزمني يا أمير المؤمنين بعد الفَرْض، أن أعرف أيام مَوالىّ ومحاسن سَاداتى. قال: فهات ما عندَك، ثم أنشأ يحادثنى[٥] ويسائلنى عن أمور خفيَّة لم تَخْطر ببالى قطّ، فكان منها أن قال: ما اسمُ أمّ قَحْطبة بن شبيب؟ قُلْتُ: لا أعلم، قال: لُبابة بنت سنان، ثم قال: ما اسم أبى عون؟ قلت: لا أدرى، قال: فلان، فوالله مازال يسائلنى عن خفىٍّ أمر الدولة، ولا يَجِد عندى جوابًا، ولا يزيدُنى على أن تبسّم[٦]، فكلّما فعل ذلك زاد فى عينىّ، وضَعُفْت عند نفسى. قال: فكان آخر ما قال: أخْبرك أنّ بعض أهلنا ذاتَ يوم رأتْ وهى حاملٌ مُتِمٌّ، كأنه أتاها آت فى منامها، فقال لها: يولَدُ فى هذه الليلة خليفة، ويموت خليفة، ويُسْتَخلف خليفة. فمات الهادى فى تلك الليلة، واستخلِف الرشيد، ووُلدت أنا.

* * *

وعن إبراهيم بن السندى بن شاهك؛ قال: لمّا اختار يحيى بن أكثم العَشَرة من الفقهاء. وأحضَرَهم مجلسَ المأمون لمذاكرة الفقه، جعل له يومًا فى الجمعة يحضُرون مجلسَهُ، فقال لى المأمون، يا إبراهيم؛ احضر، فلستَ بدون أكبرهم، فكنت أحضرُ، وكان قد اختار من أيّام[٧] الجمعة يوم الثلاثاء قال: فحضرتُ يومًا، فلمّا أمسَك المأمون عن المسائل نهض القوم – وكان ذلك إذنه بانصرافهم – فوثبت معهم، فقال بيده: مكانكَ يا إبراهيم، فقعدتُ، وقام يحيى، وساءه تخلفى، فقال لى – ودخل إبراهيمُ بن المهدىّ: هات ذِكرَ مَنْ فى عسكرنا ممن يَطلب ما عندنا بالرياء. فقلت

---

(١) ك: «عن حناء».
(٢) ط: «فجدى».
(٣) ك، ل: «يجعله».
(٤) ك: «الشاهك».
(٥) ل: «يحدثنى».
(٦) ل: «ابتسم».
(٧) ك: «جعل من أيام».

ما عندى؛ وقال إبراهيم ما عنده، فقال: ما أرى عند أحد ما يبلغ إرادتى، ثم أنشأ يحدث عن أهل عسكره، حتَّى واللهِ لو كان قد أقام فى رَحْل كلِّ رجل حولاً لما زاد على معرفته. وقال: إنه كان مما حفظتُ عنه فى ثَلْب أصحابه أنه قال: تسبيح حُميد الطوسىّ، وصلاةُ قَحطبة، وصيامُ النُّوشجانىّ، ووضوء بِشر المَرِيسىّ، وبناءِ مالك بن شاهك المساجد، وبكاءُ إبراهيم بن بريهة على المِنبَر، وجُمَع الحسين بن قريش التيامىّ[1]، وقصص مرجّى، وصدقة علىّ بن هشام، وحَمَلاتِ إسحاق بن ابراهيم فى سبيل الله، وصلاة أبى رجاء الضُّحى، فقال لى رجل من عظماء العسكر حين خرجنا من الدار: هل رأيتَ أو سمعتَ قطُّ مَلِكًا أعلَم برعيّته وأشدّ تنقيرًا من هذا؟ قلت: اللهمّ لا، فحدّثتُ بهذا الحديث بعضَ أهلِ الخطر، فقال: وما تصنع بهذا، وقد كتب إلى إسحاق بن إبراهيم فى الفقهاء بمعايبهم رجلاً رجلاً، حتى إنه أعلمُ بما فى منازلهم منهم!

* * *

قال: وحدَّثنا سليمان بن على النّوفلىّ قال: سمعت عمرو بن مسعدة يقول: قال لنا المأمون يومًا من الأيام: من أنبَلُ مَن تعلمون نُبلاً، وأعفُّهم عفّةً؟ قال: فقلنا وأكثَرْنا، فبعضُنا مَدحه وقرَّظه وقدَّمَه على كلِّ خليفة وإمام، وعدَّدنا ما نعرف من مكارم الأخلاق. فقال: ما كمال المَناقب إلاّ لبنى هاشم غير أنّا لم نُرِدْها ولا أردنا خلفاءها؛ قال علىّ بن صالح: أعرف القصّة فى عمر بن الخطّاب رحمه الله فأشاح بوجهه وأعرَض، وذكر كلامًا ليس من جنس هذا الكتاب فنذكره؛ ثم قال: ذاك والله أبو العباس عبدُ الله بن طاهر؛ دخل مصرَ وهى كالعروس الكاملة؛ فيها خَراجُها، وبها أموالها جَمّة، ثم خرج عنها، فلو شاء الله أن يخرُج عنها بعشرة آلاف دينار لَفَعل، ولقد كان لى عليه عَيْنٌ ترعاه، فكتب إلىَّ أنّه عُرِضَتْ عليه أموال لو عُرِضَتْ علىَّ أو بعضها لشرِهَتْ إليها نفسى، فما علمتُه خرج عن ذلك البلد إلاّ وهو بالصفة الّتى قدم عليها[2] إلاّ مائةَ ثوب وحمارَيْن وأربعةَ أفراس[3]، فمن رأى أو سمع بمثل هذا الفتى فى الإسلام، فالحمد لله الذى جعله غَرْسَ يدى، وخِرِّيجَ نِعْمَتى!

* * *

وقال بشر بن الوليد: كان والله المأمون المَلِكَ حقًّا، ما رأيتُ خليفةً قطّ كان الكذبِ عليه أشدَّ منه علىَ المأمون؛ وكان يحتمل كلَّ آفةٍ تكون بالإنسان إلاَّ الكذب. قال: فقال لى يومًا: صِفْ لى أبا يوسف القاضى فإنّى لم أره. فوصفتُه له فاستحسن صفته وقال: وددتُ أن مثلَ هذا بحضرتنا فنتزيَّن به. ثم أقبل علىَّ وقال: ما فى الخلافة شىء إلاَّ وأنا أحْسِنُ أن أدبره وأبلغ منه حيث أريد وأقوى عليه، إلاَّ أمر أصحابك – يعنى القضاة – وما ظنك بشىء يتحرّج منه علىُّ بنُ هشام، ويتوقّى سوء عاقبته ويكالِبُ عليه الفقهاء وأهل التصنُّع! قال: قلت: يا أمير المؤمنين، وما أدرى ما تقصده فأجيب عنه؟ قال: لكنى أُدْرِيه وأُدْرِيك، ولا والله ما تجيبنى عنه ولا فيه بجواب مقنع. ثم قال: وَلّينا رجلاً أشرتَ به قضاءَ الأُبُلّه، وأجرَيْنا عليه فى الشَّهْر ألفَ درهم، ومالَه صناعة ولا تجارة،

---

(١) كذا فى ك وفى ل من غير نقط.

(٢) ل: «التى قدمه فيها».

(٣) ك: «أقواس».

ولا كان له مال قبل ولايتنا إياه، وولينا رجلا آخر قضاء دمشق. وأجرينا عليه ألف درهم في الشهر، أشار به إلىّ محمدُ بن سماعة. فأقام بها أربعة عشَرَ شهرًا فوجّهنا من يتبع أمواله فى السر والعلانية، ويتعرّف حالَه، فأخبر أنّه وَجَد ما ظَهَر من مالِه فى هذا المقدار من دابّة وغلام وجارية وفُرُش وأثاثٍ، قيمتُه ثلاثةُ آلاف دينار، وولّينا رجلًا أشار به إلىّ فلان نهاوَند، فأقام بها أربعةً وعشرين شهرًا، فوجّهنا من يتّبع أموالَه، فأخبَرَنا أنّ فى منزله خَدَمًا وخِصيانًا بقيمة ألفٍ وخمسمائة دينار؛ سوى نَتاج قد اتّخذه. فهاتِ ما عندَك من الجواب. فقلت: ما عندى يا أميرَ المؤمنين جواب. قال: ألم أعلمك! ثم قال: وكبرُ مِنْ هذا وأَطَمّ أنى فزعتُ إلى علىّ بن هشام فى رجل أولّيه القضاء، فقال: قد أصبتُ واحدًا، والله يَشهد أنه سَرَّنى، ورجوتُ أن يكون بحيث أُحِبُّ. قلتُ: فاغْدُ بِهِ علىّ. قال: أَفعَلُ ثم غَدَا، فقلت: أين الرجلُ؟ فقال: لم أجده فى الفِقه بالموضع الّذى يجب أن يتّصل صاحبُه بأمير المؤمنين، قال: فأنكرت عليه. وأظهرتُ الغضب، فقال: يا أمير المؤمنين. إن الرجلَ الذى ذكرتُه لك بالأمس، هو علىُّ بنُ مقاتِل. وكان عندى من أهل العفَاف والستر. فانصرفتُ بالأمس على أن أُحضِرَه، فوجّهت إليه وأنا لا أشكّ أنّه سيُظهِر الكراهية فيما أراد له أمير المؤمنين. وإن كان يَستبطِن غيرَها ويَستعفى؛ كفعل من يتصنّع أويَكره ذلك بالحقيقة، فلمّا جاءَنى ألقيت إليه الذى أردتُه له. فما تمالَكَ أن وثب فقبّل رأسى. فعلمتُ أنه لا خيرَ عنده. وأنه لو كان من أهل الفضل والخير لعد الذى دُعِىَ إليه إحدى المصائب. فلم أر لنفسى أن أحضِره، ولا أن يُستعان بمثْلِه. فقلت: جَزَاك الله خيرًا عن إمامك أحسن ما جَزَى امرأً عن إمَامه. وعن دينك ونفسِك.

قال بشرٍ: فبهتُّ وانقطعتُ ولم أحِرْ كلمةً[1] فقال: لا، ولكن إن أردتَ العفِيفَ النظيفَ الزاكىَ النّقىَّ الطاهر، فقاضى الرَّىّ، هو بالحالة التى فارقتَه عليها، والله ما غيَّر ولا بدَّل. فأمّا قولهم فى يحيى بن أكثم، فما نَدْرى ما عَيْبُه، إلاّ أنَّ ظاهره أنّه أعفُّ خلق الله عن الصَّفراء والبيْضاء، حَمَل إلينا من أموال الحَشْرية[2] أربعمائة ألِف دينار، فأىّ نفس تسخو بهذه!

قال بشر: فقلت: يا أمير المؤمنين، مالك فى الخُلفاء شبيه إلا عمر بن الخطاب؛ فإنه كان يفحص عن عُمّاله، وعن دفين أسرار حُكامه فحصًا شافيًا، فكان لا يخفَى عليه مّا يُفيد كل امرىء وما يُنْفِق، وكان مَنْ نأَى عنه كمن دَنَا منه فى بحثه وتنقيره. فقال المأمون: إنّ أهمّ الأمور كلها أمور القضاةِ والحكّام، إذ كنّا قد ألزمناهم النظر فى الدِّماء والأموال والفروج والأحكام، فوددت أنى أجد مائة حاكم، وأنىّ أجوع يومًا وأشبع يومًا.

* * *

حمدون بن اسماعيل النّديم، قال: حضر العيدُ، فعبأ المعتصم بالله خيلَه تعبئة لم يسمع بمثلها، ولم

---

(١) لم أحر: لم أرد.

(٢) الحشرية: الأموال التى تضاف إلى بيت المال من التركات التى لا وارث لها أخذت من كلمة حشر، بمعنى «جمع» دوزى ١ : ٢٩٠.

ير لأحد من ولد العباس شبيه[١] بها، وأمرَ بالطريق فمسح من باب قصره إلى المصلّى، ثم قسم ذلك على القُوَّاد، وأعطى كلَّ واحد منهم مَصافَّه، فلما كان قبل الفطر بيوم، حضر القُوَّاد وأصحابهم فى أجمل زيٍّ[٢] وأحسن هيئة، فلزموا مصافَّهم منذ وقت الظهر إلى أن ركب المعتصم بالله إلى المصلى، فكان الموضع الّذى وقع لإبراهيم بن المهدى من بعد الحَرسِىّ بحذاء مسجد الخُوارِزْمىّ، وإبراهيم واقف وأصحابه فى المَصافّ، فلما أصبح المعتصم أمر القواد الذين لم يرتبوا فى المصاف بالمصير إلى المصلّى على التعبئة التى حدها، ولبس ثيابَه، وجلس على كرسىٍّ ينتظر مُضِىّ القُوَّاد، فلمّا انقضى أمرهم، تقدم إلى الرجاله فى السير بين يديه، فتقدّم منهم سبعة آلاف ناشب من الموالى، كلّ ثلاثمائة منهم زى مخالف لزِى الباقين، وأربعة آلاف من المغاربة، وأمَرَ الشِّيعة فكانوا وراءه بالأعمدة، وعدتهم أربعة آلاف، وركبتُ لا أدرى منزلتى أين هى، ولا أعرف مرتَبتى ولم أعلم أين أسيرُ من الموكب؛ فلمّا وَضَع رجلَه فى الركاب، واستوى على سَرْجه التفتَ إلىّ وقال: يا حمدون، كن أنت خلفى. فلزمت مؤخر دابّته، فلما خرج من باب القصر تلقاه القُوَّاد وأصحاب المَصافّ[٣]، يخرجُ الرجل من مصافة، فإذا قرب نزل وسلّم عليه بالخلافة، فيأمره بالركوب، ويمضى[٤]، حتى وصل إلى إبراهيم بن المهدى، فنزل وسلّم عليه بالخلافة، فردَّ عليه السلام، فقال: كيف أنت يا إبراهيم؟ وكيف حالك؟ وكيف كنتَ فى أيّامك؟ أركب. فركب، فلما جاوَزَه التفت إلىّ وقال: يا حمدون، قلت: لبّيك يا أمير المؤمنين، قال: تذكر؛ قلتُ: إى والله يا سيّدى، وأمسك، فنظرتُ[٥] فيما قال، فلم أجِدْنى أذكرُ شيئًا فى ذلك الموضع ممّا يشبه ما كنّا فيه، فنغّص علىّ يومى، وما رأيت من حسنِه وسرورى بالمرتبة الّتى أهّلنى بها، وقلت: الخلفاء لايعامَلون بالكذب، ولايجوز أن يسألنى عند انصرافه عن هذا الأمر. فلا يكون له عندى جواب ولا حقيقة، وتخوّفتُ أن ينالنى منه مكروه، فلم أزل واجمًا فى طريقى إلى وقت انصرافه، ثم أجمعت على مغالطته إن أمكننى، وأعمل الحيلة فى التخلّص أن يسائلنى.

فلمّا استقرّ فى مجلسه وبُسط السِّماط، وجلس القوّاد على مراتبهم للّطعام؛ أقبلتُ أخدم وأختلف، ليست لى هِمّة غير ما كان قاله لى، لا أغفل عن ذلك حتى انقضى أمرُ السِّماط ورُفِع الستر، ونهض أمير المؤمنين ودخل الحجرة ومضى إلى المرْقَد، فلم ألبثْ أن جاء الخادم وقال لى: أجب أمير المؤمنين.

فمضيت، فلمّا ضحك إلىّ وقال: يا حمدون، رأيت؛ قلت: نعم يا سيدى، قد رأيت، فالحمد لله الّذى بلغ بى هذا اليوم وأرانيه؛ فلما رأيت ولا سمعت لأحد من الخلفاء والملوك بأجل منه ولا أبهى ولا أحسن. قال: ويحك؛ رأيت إبراهيم بن المهدىّ؛ قلت: نعم يا سيدى؛ قال: رأيت سلامة على وردِّى عليه ونزوله إلىّ؟ قلت: نعم، فقال: إنه لما كان من أمره ما كان – يعنى الخلافة – قسم

---

(١) ك: «مثلها».

(٢) ك: «زينة».

(٣) ل، ل: «المصاحف».

(٤) (ك): «ومضى».

(٥) ك: «ففكرت».

الطريق فى يوم عيد من منزله إلى المصلى، كقسمتى إيّاه فى هذا اليوم بين قواده، فوقع موضعى منه الموضع الذى كان به هذا اليوم، فلمّا حاذانى نزلت فسلمت عليه، فردَّ علىَّ مِثلَ ما رددته حرفًا حرفًا على ما قال لى.

قال: فدعوتُ له، وانفرج عنى ما كنتُ فيه، وتخلّى عنىّ الغمّ والكرب، ثم قال: يا حمدون، إنى لم آكلْ شيئًا، وأنا أنتظر أن تأكلَ معى، فامض إلى حجرة الندماء، فإنك تجد إبراهيم هنالك، فاجلس إليه وعابِثْه وضاحكه وأجْر له هذا الحديث، وقل له: إنّك رأيتَه فى ذلك اليوم فعَل بى فِعْلى به فى هذا اليوم، وانظر إلى وجهه وكلامه، وما يكون منه فعرفنيه على حقيقته، واصدُقْنى عنه وعَجِّل ولا تحتبس.

قلت: نعم يا سيدى، فمضيت وقد دفعت إلى أغلظ مما كنتُ فيه؛ لِعلمى بأن إبراهيم لو كان من حجر لأثّرَ فيه هذا القول، وتغير وظَهَر منه ما يكره، وخفت أن يأتى[1] بما يُسفَك به دمه، فمضيتُ حتى دخلتُ الحجرة، فجلست إلى إبراهيم، وفعلتُ ما أمرنى به، وأنا مبادر خوفًا من خادم يلحقنى[2] أو رسولٍ؛ فلا يمكننى معه تحسين الأمر ومايظهر لى منه.

فقلت لإبراهيم: كيف رأيت يا سيّدى هذا اليوم؟ أما أعجبَكَ حسنه، وما كان فى تعبية أمير المؤمنين؟ فقال: بَلَى والله، إنه أعجبنى، فالحمد لله الذى بلّغنيه وأرانيه؛ وأطنب فى الدعاء للمعتصم، فلما أمسك قلتُ: يا سيدى، أذكرُك فى أيامك، وقد ركبت فعبّيتَ شبيهًا بهذه التّعبية، وقسمت الطريقِ مثلَ هذه القسمة، فوقع لأمير المؤمنين الموضعُ الذى وقع لك، واجتزتَ به فَنَزَلَ إليك وسلّم، فرددتَ عليه كردِّه عليك فى هذا اليوم؟ قال: فو الله إن كان إلّا أن قلتُ؛ حتى اربدَّ لونُه، وجفّ ريقُه، واعتقِل لسانُه، وبقى لا يتكلّم بحرف مليًّا، ثم قال بلسان ثقيل: لكأنىّ فى ذاك الموضع فى ذلك اليوم! فالحمد لله الذى رأيتُه لأمير المؤمنين، فعل الله به وَفعل!

قال: فتغنّمت ذلك، وقمتُ وأنا ألتفت، ونهضتُ حتى أتيتُ المعتصم، فقال لى: هِيه يا حمدون! فقلت: يا أمير المؤمنين، أتيت إبراهيم وقلت له ما أمرتَنى به، فأظهر سرورًا ودعاءً، وقال كيتَ وكيتَ، فقال: والله قال بحياتى! قلتُ: وحياتك يا أمير المؤمنين! قال: فكيف رأيت وجهه؟ فلم أدر ما أقول؛ فقلت: يا أمير المؤمنين، بالله لَمّا تركتَنى من وجه عمّك الّذى لا يتبيّن فيه فرح ولا حُزن! فاستضحك، ثم أمسك.

وتخلّص إبراهيم، ودعا بالطعام فأكلنا، ثم رقد فلما انتبه وجلس، دعا بإبراهيم وسائر الندماء، فشرب وبَرَّ إبراهيم وألطَفَه.

(١) ل: «أن يكون يأتى».

(٢) ك: «أن يلحقنى».

مَساوئ التّيقظ وتركه

قيل[1] لبعض بني أمية: وما كان سبب زوال مُلْكِهم؟ فقال: قلّة التيقّظ، وشُغلُنا بلذّاتنا عن التفرّغ لمهمّاتنا، وَوَثِقْنا بكُفَاتنا فآثروا مرافقَهم علينا وظَلَم عُمَّالُنَا رعيّتَنا ففسدتْ نيّاتُهم لنا. وحُمِل على أهل خراجنا؛ فقلّ دخْلُنا، وبطل عطاءُ جُندِنا فزالت طاعتُهم لنا. واستدعاهم أعداؤنا فأعانوهم[2] علينا، وقصَدَنا بغاتُنا. فعجزنا عن دفعهِم لقلّة أنصارنا[3]. وكان أوّل زوال مُلكنا استتار الأخبار عنّا فزال مُلكنا عَنَّا بنا.

---

(١) ك: «وقيل».

(٢) ك، ل: «فعانوهم» تصحيف.

(٣) ل: «نصارنا» وما أثبته من ك.

محاسن الرسل

يقال: إن ملوك العجم كانت إذا احتاجت إلى أن تختار من رعيّتها مَن تجعله رسولاً تمتحنه أوّلاً: بأن تُوَجّهه إلى بعض خاصّتها، ثم تقدّم عينا على الرسول يحضر ما يؤدّيه من الرسالة، ويكتبُ كلامَه، فإذا رجع الرسول بالرّسالة، جاء العين بما كتب من ألفاظه وأجوبته، فقابَلَ بها الملك ألفاظ ذلك الرسول، فإن اتفقت معانيها عَرَف بها الملك صحّة عقله، وصِدْق لهجته، ثم جعله رسولاً إلى عَدوِّه، وجعل عليه عيْنًا يحفظُ ألفاظه ويكتبُها، ثم يرفعُها إلى الملك، فإن اتّفق كلامُ الرسول وكلام عَيْن الملك وعَلِم أنَّ رسولَه قد صَدَقه عن عدوّه ولم يزد عليه، جعلَه رسولاً إلى ملوكِ الأمم، ووثق به، ثم بعد ذلك يقيم خبره مقام الحجّة، ويصدّق قوله.

وكان أردشير يقول: كم من دم سفَكه الرسول من غير حله ولا حقه! وكم من جيوش قد قُتِلتْ وعساكرَ قد انتهكَتْ، ومال قد انتهب، وعهد قد نقض بجناية الرسول وأكاذيبه!

وكان يقول: على الملك إذا وجّه رسولاً إلى ملك آخر أن يُردفه بآخر، وإن وَجّه رسولين أتبعهما[1] بآخرين، وإن أمكَنَه ألاَّ يجمع بينهما فى طريق ولا ملاقاة، وألاَّ يتعارفا فيتفقا ويتواطأا فى شىء، فعل.

ثم عليه إن أتاه رسولٌ بكتاب أو رسالة من مَلِك فى خير أو شَرٍّ ألاَّ يحدث حَدَثًا فى ذلك حتى يكتب إليه مع رسول آخر، ويحكى به[2] كتابه الأوّل حرفًا حرفًا، فإن الرسول ربما خرم ما أمِلَّ عليه، وافتعل الكتب، وحرص المُرسِل على المُرسَل إليه، وأغراه به، وكَذَبَ عليه ومنها قال أبو الأسود، وقد سَمِع رجلا ينشِد:

إذا كنتَ فى حاجة مرسلا ... فأرسل حكيما ولا توصِهِ

[المتقارب]

فقال: قد أساء القول، أيعلم الغيب إذا لم يوصه! كيف يعلم ما فى نفسه! ألا قال:

إذا أرسلتَ فى أمر رسولا ... فأفهمه وأرسله أديبا

ولا تتركْ وصيّته لشىء ... وإن هو كان ذا عقل أريبا

---

(١) ك: «أن يتبعهما».

(٢) ك: «له».

وإن ضيعت ذاك فلا تلمْه ... على أن لم يكن عَلِمَ الغيوبا[1]

[الوافر]

قال يحيى بن خالد البرمكيّ: ثلاثة أشياء تَدُلّ على عقول الرجال: الهديّة والرسول، والكتاب.

(١) الخبر فى الأغانى ١٦: ٨٢، ٨٣ عن حماد الراوية على هذا النحو: أنشدت أبا عطاء السندى فى أثناء حديث هذا البيت فقال:

إذا كنتَ فى حاجة مرسلًا ... فأرسِلْ حكيمًا ولا توصهِ

فقال أبو عطاء: بئسما قال! فقلت: كيف تقول أنت؟ قال أقول:

إذا أرسلْتَ فى أمرٍ رَسُولاً ... فأفهمه وأرسِلْه أديبا

وإن ضيّعت ذاك فلا تَلُمْهُ ... على أن لم يكن علم الغيوبَا

مساوئ الرسول

وحكى عن الإسكندر أنه وجه رسولا إلى بعض ملوك المشرق، فجاءه رسوله برسالة فشك فى حرف منها، فقال له الإسكندر: ويحك! إن الملوك لا تخلُو من مقوِّمٍ ومسدِّد إذا مالت بطانتها؛ وقد جئتنى برسالة صحيحة الألفاظ بيِّنة العبارة، غير أن فيها حرفًا ينقضُها[١]، أفعلى يقين أنت من هذا الحرف أو أنت شاكٌّ فيه؟ فقال الرسول: بل على يقين. قال: فأمر الإسكندر أن تُكتب ألفاظُه حرفًا حرفًا، وتعاد إلى الملك مع رسول آخر، فيقرأ عليه ويترجِم له، فلما قرأ الكتاب على الملك؛ فمرّ بذلك الحرف أنكره، فقال للمترجم: ضَعْ يدى على هذا الحرف، فوضَعها، فأمر أن يقطع ذلك الحرف بسكين، فقطع من الكتاب، وكتب إلى الإسكندر رأس المملكة صحّة فطنة الملك، وأسُّ المُلْك[٢] صدقُ لهجة رسوله؛ إذ كان عن لسانه يَنْطق، وإلى أذُنه يؤدّى، وقد قطعت بسكّينى ما لم يكن من كلامى؛ إذ لم أجد إلى قطع لسان رسولك سبيلاً.

فلّما جاء الرسول بهذا إلى الإسكندر، دعا الرسول[٣] الأول، فقال: ما حملك على كلمة أردت بها فساد مِلكيْن؟ فأقر الرّسول أن ذاك كان لتقصير رآه من الموجَّه إليه. قال الإسكندر: فأراك سعيتَ لنفسك لا لنا، فلما فاتك بعض ما أمّلت جعلت ذلك نارا فى الأنفس الخطيرة الرفيعة ثم أمر بلسانه فنزِع من قفاه.

(١) ك: «ينقصها».
(٢) ك: «المملكة».
(٣) ك: «بالرسول».

محاسن الحِجَاب

يقال: إنّ ملوك العَجَم كانت تأخذ أبناءها بأن يعاملوها بما تُعامَل به عبيدُها، وألّا من الولد عليها إلّا عن إذنها؛ وأن يكون الحجاب عليهم أغلظَ منهم على مَن دُونَهم وخدمها، لئلّا تحملهم الدّالّة على تعدّى ميزان الحقّ؛ فإنه يقال: إنّ يزدَجَرْد، رأى بَهر يكن له، فقال له: مررت بالحاجب؟ قال: نعم، قال: وعَلِمَ بدخولك؟ قال: نعم، قال: فاضرِبه ثلاثين سوطًا، ونَحِّه عن السّتر، ووكّل بالحجاب أزاذمرد. ففعل بهرام ذلك، ابن ثلاث عشرة سنة، ولم يعلم الحاجبُ فيم غضب عليه الملك!

فلما جاء بهرام بعد ذلك ليدخل[1]، دفع أزاذمرد فى صدره دفعة أوقذه[2] منها، وقال له بهذا الموضع ضربتك ستين سوطا لجنايتك على الحاجب الأول، وثلاثين لئلا تطمع فى

فبلغ ذلك يزدجرد، فدعا بأزاذمرد، فخلع عليه ووصله.

* * *

ويقال: إنّ يزيد بن معاوية كان بينه وبين أبيه باب، فكان إذا أراد الدّخول عليه جواريه: انظرى هل تحرَّك أمير المؤمنين؟ فجاءت الجارية حتى فتحت الباب، ومعاوية حِجْره مُصْحَف، وبين يديه جاريةٌ تصفّح[3] عليه، فأخبرت يزيد بذلك، فجاء يزيد حتى معاوية، فقال: يا بُنَىّ، إنما جعلتُ بينى وبينك بابًا كما بينى وبين العامّة؛ لتدخل علىّ وقت ترى أحدًا يدخل علىّ من ذلك الباب؟ قال: لا؛ قال: فكذلك إذنك.

* * *

وذكروا أنّ موسى الهادى دخل على المهدىّ وهو خليفة، فزَبَره[4] الحاجب، وقال: إيّاك إلى مثلها إلّا بإذن أمير المؤمنين لخاصته!

* * *

وذكروا أنّ المأمون لما اشتدّ به الوجع، سأل بعضُ بنيه الحاجب أن يُدخِلَه عليه ليراه، والله ما إلى ذلك سبيل، ولكنْ إنْ شئتَ أن تراه من حيث لا يراك، فاطّلعْ عليه من نَقْد الباب فجاء حتى اطّلع عليه، وتأمّله وانصرف.

* * *

وحكى عن إيتاخ أنه بَصُر بالواثق فى حياة المعتصم واقفًا فى موضع لم يكن له أن

---

(١) ل: «أن يدخل».

(٢) أوقذه: تركه عليلا.

(٣) ك: «تصلح بذلك».

(٤) ك: «فزجره».

ولا أنْ يقفَ به، فزبَره وقال: تنحّ، فوالله لولا أنى لم أتقدم إليك لضربتُك مائة سوط.

* * *

وكانت الأعاجم تقول: ما شىء بأضيع للمملكة، ولا أضيع للرعيّة منَ صعوبة الحجاب، ولا شىء أهْيَبَ للرّعيّة من سهولة الحجاب لأن الرعيّة إذا وَثِقَتْ من الوالى بسهولة الحجاب، أحجمت عن الظُّلْم، وإذا وَثِقَتْ منه بصعوبة الحجاب، هجَمتْ على الظُّلْم، وركبَ القوىُّ منهم الضعيف، فخيرُ خِلال السلطان سهولةُ الحجاب.

* * *

قال: وقال خالد بن عبد الله القسرىّ: لا يُحجَب الوالى إلاّ لثلاث خِصال: إمّا رجلٌ عيٌّ فهو يكره أن يعرِفَ النّاسُ منه ذلك، وإمّا رجلٌ مشتمل على سَوْءه[1] فهو يَكره أن يطّلعَ الناس على ذلك فيه، وإمّا رجلٌ يَكره مسألةَ[2] الناس إيّاه.

قيل: واستأذن أبو سفيان بن حَرْب على عثمان بن عفان رحمه الله فحجبه، فقيل له: حَجَبك أمير المؤمنين! فقال: لا عدمت من قومى مَنْ إذا شاء حجَبَنى[3].

* * *

قال: وقال الرّشيد لبشير بن ميمون لمّا ولّاه الحجبة: يا بِشْر، صُنْ طَلاقَة اسمِك بُحسْنِ فِعْلِك، واحجُبْ عَنّى من إذا قعد أطال، وإذا طَلَب أجال فِكرَه، ولا تَسْتَخِفَّنَّ بذوى المروءة والحُرْمة، فإنّهم إن مُدِحوا تلبَّوْا، وإن ذُمّوا أزالوا.

وذكروا عن الربيع الحاجب، أن المنصور دعا محمدَ بن عيسى بن علّى إلى الغَداء، فقال: يا أمير المؤمنين، قد أكلتُ. فلمّا خرج أخذه الرّبيع، وحمله على ظهر رَجُل، وضربه كما يُضرب الصِّبيان. فظن أهل بيته أنّ المنصور أمره بذلك، فخرج يبكى إلى أبيه، فجاء أبوه عيسى بنُ علّى، فخلع سيفَه بين يدى المنصور، وصاح، فقال: ما أَمَرْت بذلك، ولم يفعل الربيع ذلك[4] إلاّ لأمر فلما سئل الربيع عن ذلك قال: أمرتَه أن يتغدّى معك، فقال قد أكلت، وإنّما دعوتَه لتُشَرِّفَه وتَرْفَعَ منه، ولم تَدْعُه لتُشْبِعَه[5]، فأدّبْته إذ لم يؤدّبْه أبوه، فقال المنصور أحسنت! قد علمتُ أنّك لا تَخطئ.

* * *

قال: وقال المهدىّ للفضل بن الربيع حين ولاه الحجبة: إنّى مولّيك سَتْر وجهى وكشفَه، فلا تجعل السّتر بينى وبين الناس سبب إراقة دمائهم بعبُوس وجهك فى وجوههم، فإنّ لَهُمْ دالة الحُرْمة وحُرْمة الاتصَال، وقدم أبناء الدعوة، وثن بالأولياء، واجعلْ للعامّة وقتًا إذا وصلوا أعجلهم ضِيقُهُ عن التلبث والتمكث.

---

(١) ك: «سوء».

(٢) ك: «مساءلة».

(٣) الخبر فى العقد ١: ٧٣.

(٤) ك: «ما ذكرت».

(٥) ل: «تتشبع منه».

وكان أول من حجبه الحسن بن عثمان، ثم الفضل بن الربيع، وكان الهادى ولى حجبته الفضل بن الربيع بعد الربيع، وقال له: لا تحجب عنى الناس، فإن ذلك يزيل عنى التزكية، ولا تُلق إلىّ أمرًا إذا كشفته وجدته باطلًا، فإن ذلك يوهن الملك، ويضر بالرعية.

* * *

قيل: وقال الواثق لابن أبى دُؤاد: مَنْ أولى النّاس بالحجبة؟ فقال: مولىً شفيق يصون بطلاقة وجهه مَنْ ولّاه، ويستعبد الناسَ لمولاه، فنظر إلى إيتاخ - وكان واقفًا على رأسه - فقال: قد ولّاك أبو عبد الله الحجبة، فكان إيتاخ يَعرف ذلك له، ويتقدّم بين يديه إلى أن يبلغَ مرتبته.

* * *

قال: وقال رجلٌ لزياد: إنّ حاجبك؛ إنما يَبْدَأ بالإذن لمَعارفه، فقال: قد أحسن، المعرفةُ تنفَع عند الكلب العَقُور، والأسد الهصُور، وبين لَحْيَى البعير الصئول؛ كن من معارفه، فقد قيل: التعارف[1] نسب، وقبّح الله معرفةً لا تنفع!

* * *

وكان ليحيى بن خالد حاجبٌ قبل الوزارة، فلما صار إلى الوزارة[2] رأى كأنه تثاقل عن حجابته، فقيل له: لو اتّخذتَ حاجبًا غيرَه! قال: كلّا هذا يعرف إخوانى القُدماء.

* * *

وقال الشاعر فى مِثْله:

هَشٌّ إذا نَزَلَ الوُفودُ ببابـهِ   سَهلُ الحجاب مؤدّبُ الخُدّامِ
وإذا رأيتَ شقيقـهُ وصديقَـهُ   لم تـدر أيّهما أخـو الأرحـامِ!

[الكامل]

وقال خيط القنديل فى محمد بن عبد الله بن طاهر:

يـا أيُّهـا الملكُ المحجـوبُ آمِـلهُ   وراء بـابـك هَمٌّ غـيرُ مُشتَـركِ
وكم أقـولُ فـلا يجـدِى فينجـدنى   ولا أرى مُـدْنيًـا من قبـةِ الملكِ
وقـد تحـصَّنَ منّى فى مُحصَّنـة   خَلْقاء خلف وشيج السُّمْر والحسَكِ
أصبحت كالشمس لا تخفى على أحد   لكن مَـطلَعهـا فى سُـرَّة الفَلَكِ
يـاليت ريـحَ سليمـان مسخّـرَةٌ   إلـيـه تحملنى أوْ منْكبىْ مَـلَكِ
فَلَستُ دُون أنـاسٍ كـان سَهمهُمُ   سَهم النَّجيح فنالُوا غايـة الدَّرَكِ
فإن ظلِمتُ ولم أنصفْ فقد ظُلمَتْ   بنتُ النبىّ -كما قد قيل- فى فدَك[3]

[البسيط]

---

(١) ك: «المعارف».   (٢) ك: «رآه».

(٣) فدك: قرية بالحجاز؛ بينها وبين المدينة يومان؛ أفاءها الله على رسوله ﷺ فى سنة سبع صلحًا وفيه عين فوارة ونخيل كثيرة؛ وهى التى قالت فاطمة: إن رسول الله نحلنيها وانظر معجم البلدان ٧: ٣٤٣.

مَسَاوئ الحجبَة

قال ثمامة[١]: جَلَس المأمون يوما وقد حضر الناس، فأمر على بن صالح بإدخال إسماعيل بن موسى فغَلِط وأدخل إسماعيل بن جعفر، وكان المأمون من أشدّ الناس له[٢] بغضًا، فرفع يده إلى السماء فقال: اللهم أبدِلنى بعلى بن صالح مطِيعًا ناصحًا، فإنّه بصداقته لهذا آترَ هواه على هَواىَ.

فلمّا دنا قبّل يده فقال: هات حوائجَك، فقال: ضَيعتى بالفتنة قُهِرتُها وغُصبْتُ عليها. فأمر بردّها عليه، ثم قال: اذكر حاجتَك، فقال: دَيْنٌ كثيرٌ قد لحِقَنى فى جفوة أمير المؤمنين إيّاى، فأمر بقضاء دَيْنه. وقال: ما حاجتك؟ قال: يأذن لى أميرُ المؤمنين فى الحجّ، قال: قد أذنّا لك ما حاجتك؟ قال: يأذن لى أميرُ المؤمنين فى الحجّ، قال: قد أذنّا لك وحاجَتك[٣] أيضًا؟ قال: وقف أبى كان فى يدى، فأخرِج عنّى قال: يردّ[٤] عليك إن رَضِىَ ورثةُ أبيك[٤].

ثم قال: الذى أمكنَنَا فى أمرك قد جُدْنا به، ووقفُ أبيك إلى ورثَتِهِ. ثم قال لعلىّ بن صالح: يا عبدَ الله، مالى ولكَ، متى رأيتنى أنشَطُ لإسماعيل بن جعفر، وهو صاحبى بالأمس بالبصْرة! قال: يا أمير المؤمنين، ذهبَ عنى إسماعيل بنُ موسى، قال: ذهب عنك ما كان يجب عليك حفظُه، وحفِظتَ ما كان يجب ألّا تحفَظَه، فأمّا إذا أخطأتَ فلا تُعْلِم إسماعيلَ بن جعفر القصّة.

فظُن أنه عَنَى إسماعيل بن موسى، فأخبر إسماعيل بن جعفر حَرْفًا حرفًا، فأذاعها إسماعيل وبلغ المأمون فقال: الحمد لله الذى وهب لى هذه الأخلاقَ التى احتمل عليها علىّ بن صالح، وأبا عمران الطُّوسىّ، وحُميد بن عبد الحميد، ومنصور بن النعمان.

* * *

وحدثنا مسعود بن بشر عن ابن داحة[٥] قال: خرج إلينا يعقوب بن داود من عند المهدى، ونحن على بابه، فقال: ما صَدْرُ هذا البيت:

* ومحترس من مثله وهو حارس *

فإنّ أمير المؤمنين سأل عنه. فلم يكن عند أحد منهم جواب. فقلت أنا أخبرك، قال البردخت الشاعر – والبردخت[٦] الفارغ، بالفارسية:

---

(١) هو ثمامة بن أشرس: أحد كبار المعتزلة؛ وكان له اتصال بالرشيد؛ ثم بالمأمون من بعده؛ وأراد أن يستوزره فاستعفاه، وله نوادر وأخبار. تاريخ بغداد ٧: ١٤٥.

(٢) ل: «عليه».

(٣) ل: «حاجتك»، بدون «ما».

(٤ – ٤) ل: «يرد عليه إن رضى ورثة أبيه».

(٥) ط: «داجة» تصحيف.

(٦) واسمه على بن خالد، وانظر معجماالشعراء ١٣١، ١٤٣.

أقِلِّي عليك اللوْمَ يا أم مالك وذمى زمانا ساد فيه الفلافس
كساع إلى السلطان ليس بناصح ومحترس من مثله وهو حارس
[الطويل]

الفلافسُ من بنى نَهْشل بن دارِم، كوفى، وكان على شرطة الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومىّ.

وقال الأشهب[1] بن رُمَيْلة النَّهشَلىّ:

يا حارِ يابْنَ أبى ربيعة إنّه يَزنى[2] إذا اختَلطَ الظلامُ ويشرَبُ
جَعَلَ الفلافِسُ حاجبين لبابِهِ سبحانَ من جعل الفلافس يُحْجَبُ!
[الكامل]

فدعا به الحارث، وقال: قد علمتُ أنّه كذَب عليك، ولكن لا حاجة لى فيك، فاخرج عنّى.

وقال الشاعر[3] فى مثله:

سأترُكُ هذا البابَ ما دام إذنُهُ على ما أَرَى حتى تلينَ قليلَا
إذا لم نجد للإذنِ عندكَ موضعًا وجدْنا إلى ترك المجىءِ سبيلا

وقال آخر:

سأترُكُ بابًا أنت تملك إذْنَهُ وإن كنتُ أعمى عن جميع المسالِك[4]
فلو كنتَ بوابَ الجنان تركتُها وحوّلتُ رِجلى مُسرعًا نحو مالِكِ
[الطويل]

وكتب أبو العتاهية إلى أحمد بن يوسف:

لئن عدت بعد اليوم إنى لظالمٌ سأصرف وجهى حيث تُبغَى المكارمُ[5]
متى ينجح الغادى لدَيك بحَاجَةٍ ونصفُكَ محجوبٌ ونصفُكَ نائمُ!

وكتب رجل إلى عبد الله بن طاهر[6]:

إذا كان الجوادُ له حجابٌ فما فضلُ الجوادِ على البخيل!
[الوافر]

---

(١) ورد الاسم فى الأصول مصحفًا، وانظر اللآلى ٣٤.
(٢) ك: «يرنو».
(٣) العقد، ونسبها إلى أبى تمام ونسبها صاحب محاضرات الأدباء ١: ١٠٢ إلى محمد بن عمران.
(٤) المستطرف ١: ٩٣ من غير نسبة.
(٥) العقد ١: ٨٥، ٨٦، وذكر أنه قالها فى بعض الهاشميين.
(٦) العقد ١: ٨٦، وفيه: «وقف رجل بباب أبى دلف».

فأجابه[١] :

أتيتكَ زائرا لقضاء حق — فحالَ السِّتر دونك والحجاب
ولست بساقط فى قِدْرِ قوم — وإن كَرهوا كما يقع الذباب
[الوافر]

وقال آخر :

وأحضُرُ باب إبراهيمَ جهلا — بما فيه، وأرْشُو الحاجِبين
فأخرج إن خرجتُ بغير شيء — وأدخلُ إن دخلْتُ بِدِرهمين
[الوافر]

وقال آخر :

يَدُلُّ على أنّه كاتبٌ — سواد بأظفارهِ رَاتبُ
فإن كان هذا دليلًا لهُ — فإسكافُنا كاتبٌ حاسِبُ
حِجابٌ شديدٌ لأبوابهِ — وليس لبابِ استهِ حاجبُ
[المتقارب]

وقال آخر :

لَقَلْع ضرْسٍ وضَنْكُ حَبْسٍ — ونزعُ نفسٍ وردُّ أمسِ
وأكلُ كفٍّ وضِيقُ خُفٍّ — وفَقْدُ إلفٍ وإلْفُ فَلْسِ
وَقَوْدُ قِرْدٍ ونسجُ بُرْدٍ — وَدَبْغُ جِلْدٍ بغير شَمْسِ
وشُرْبُ سُمٍّ وقَتلُ عمٍّ — وكلُّ غمٍّ ويومُ نحسِ
ونَفْخُ نارٍ وحمْلُ عارٍ — وبَيْعُ جارٍ بُربعِ فَلْسِ
أيسرُ من وقفةٍ بِبابٍ — يَلقاكَ بَوَّابُه بعَبْسِ
[المتقارب]

وقال أيضًا :

لما رأيتك ذاهبا — ورأيتُني أجفى ببابك
عدَّيتُ رأسَ مَطيَّتى[٢] — وحَجَبْتُ نفسى عن حجابك
[مجزوء الكامل]

وقال آخر :

لئن كان التشرف فى الحجابِ — لقد أصبحت فى الشرفِ اللبابِ
لقد عاتبت نفسى فى وُقوفى — فقلتُ لها: وقَفْتِ بأى باب!
بباب تسلَبُ الموتى عَليه — ويُسْتَلبُ العُراقُ من الكلاب[٣]
[الوافر]

---

(١) فى العقد: «فأجابه أبو دلف». (٢) ك: «عذبت». (٣) العراق: العظم أكل لحمه.

منصور بن باذان:

أَمَا وَزَمْرِ ابن شَيْبَهْ وقبح لِحيةِ عُقْبَهْ
كأنما شَعْرُ قِرْدٍ مُأَصَّقٌ حَوْلَ ذَنْبَهْ[١]
ووَجْهُهُ حين يَبْدُو كَقُبْحِ أَوّلِ شربَهْ
لئن أطَلْتَ حِجابِى ما أنتَ إلَّا ابنُ قَحْبَهْ
وكيْفَ تبنى المَعَالى يا نجْل كلب لِكَلْبَهْ!
وهَلْ يَكونُ كريمًا يا قَوْمِ حَمَّالُ قِرْبَهْ

[المجتث]

وله أيضًا:

ياذا الذى قَصَّرَ فى مَجْدِهِ وزَادَ فى عِدّة حُجّابِهِ
أقسمْتُ لا أقرب بابَ امرئ يحجُبنى البواب عن بابه
فأدْخَلَ الله رؤيس امرئ يحجُبُ مِثلى فى استِ بوّابه

[السريع]

* * *

ولأبى عبد الله مريقة فى علّى بن أحمد المعروف بابن الحوارىّ، شاعر، وكان حجبه فتعرض له وقد ركب، فقال:

أسل الذى صَرفَ الأعنة بالمواكب نحوَ بابك
وأراك نَفْسَك دائما ما لَمْ يكن لك فى حسابك
وأذل مَوْقِفى العزيز علىّ فى أقصى رجائك
ألّا يُطِيلَ تجرعى غُصَصُ المنّيةِ من حِجابك

[مجزوء الكامل]

---

(١) الذنبة، بالتحريك: الذنب، وسكن للضرورة.

محاسِن الولايات

قال إبراهيم بن السنديّ: بعث إلىّ المأمونُ فأتيتُه، فقال: يا إبراهيم، إنّى أريدك لأمر جليل، والله ما شاورتُ فيه أحدًا، ولا أشارَ بك أحدٌ؛ فاتّق الله ولا تفضحنى. فقلتُ: يا سيدى، لو كنت شرَّ خَلْقِ الله ما تركتُ موضع قادح[1]، فكيف ونيّتى فى طاعة أمير المؤمنين نيّة العبد الذّليل لمولاه ! قال: قد رأيتُ أن أولِّيَك خَبرَ ما وراءَ باب دارى، فانظر أن تعمل بما يجب[2] عليك لله جلّ وعزّ ولى، ولا تراقبْ أحدًا، فقلتُ: يا سيّدى، فإنى أستعينُ بالله عزَّ وجلَّ على مَرْضاته ومرَضاتك.

فبعثتُ أصحاب الأخبار فى الأرباع ببغداد، فرفع إلىَّ[3] بعضهم أنّ صاحب ربعِ الحوض أخذ امرأةً مسلمةً مع رجل نَصرانىّ من تجار الكرْخ، فافتدَى نفسه بألفِ دينار، فرفعت إليه ذلك، فدعا عبدالله بن طاهر؛ فقال له: انظر فى هذا الذى رفعه[4] صاحبُ الخبر، فقرأه، وقال: رفع يا أمير المؤمني الباطل والزور؛ وأغراه بى، فعمِل[5] قولُه فىَّ، وملأ قلبه.

فبعث إلىَّ وقال: يا إبراهيم، ترفَعُ إلىّ الكذب، وتحملُنى على عمّالى !فكتبتُ رقْعةً دفعتُها إلى فتح الخادم ليوصِلَها إليه، قلت فيها: إنما يحضر الأخبار فى الأرباع المرأة والطِّفل، وابن السبيل، وغير ذلك. ولو كانت الأخبار لا تُرْفع إلاَّ بشهودٍ عدول ما صحّ خبر ولا كتب به، ولكنّ مَجْرى الأخبار أن يُحضرها قومٌ على غير تواطؤ، فإن أمرنى أمير المؤمنين ألاَّ أكتبَ إليه بخبر إلاَّ بعدول وبُرهان فعلت ذلك، وعلى هذا فلا يرتفع فى السّنة خبرٌ واحد.

فلما قرأ الرقعة فكّر فيها ليلته، وجاءَنى رسولُه مع طلوع الشمس، فأتيته من باب الحمّام، فلما رآنى قال: اطمئنّ، وقام فصلّى ركعتين أطال فيهما، ثم سلَّم والتَفتَ إلىّ وليس فى المجلس غيرى، فقال: يا إبراهيم، إنما قمتُ للصلاة ليَسكُنَ بَهرك، ويقوى[6] مَتْنك، ويُفرِخ[7] رَوْعك، فتمكَّنْ فى قعودك – وكنت قاعدًا على ركْبتى – فقلت: لا أضع قدرَ الخلافة يا سيِّدى، ولا أجلس إلاَّ جلوس العبد بين يدى مولاه ! ثم قام فصلّى ركعتين دون الأوليَيْن ثم قال: هذه رقعتُك تحت رأسى قد قرأتها أربع مرَّات، وقد صدقتَ فيها كتبتَ به، ولكنّى امرؤٌ أدارى عُمَّالى مداراة الخائف، وبالله ما أجد إلى أن أحملَهم على المحجَّة البيضاء سبيلا، فاعمل على حَسَب ذلك ولِنْ لهم تَسْلَمْ منهم، وفى حفظ الله إذا شئت.

---

(١) ل: «فادح».
(٢) ك: «يحق».
(٣) ك: «رفع لى».
(٤) ك: «رفعهاإلى».
(٥) ك: «ففعل».
(٦) ل: «وتقوى متنك».
(٧) ط: «ويفرج».

فانصرفت، فدعوت أصحاب الأخبار، فتقدّمْتُ إليهم فى مداراة القوم والرِّفْق بهم واللّين لهم.

* * *

وعن إسحاق بن أيوبَ بن جعفر بن سليمان، قال: دخل محمد بن واضح دارَ المأمون، وخلْفه أكثرُ من خمسمائة راكب كلّهم راغبٌ إليه، وراهبٌ منه، وهو إذ ذاك يَلِى أعمالاً من أعمال السَّواد. فدعا به المأمون فقال: يا أمير المؤمنين، اعْفِنى من عَمَل كذا وكذا؛ فإنّه لا قوّة لى عليه. فقال: قد أعفيتُك واستعفَى من عمل آخر، وهو يَظُنّ أنه لا يُعفيه، فأعفاه حتى خرج من كلّ عملٍ فى يده فى أقلّ من ساعة؛ وهو قائم على رِجلِه[١]، فخرج وما فى يده شىء من عمله، فقال المأمون لسالم الحوائجى: إذا خرج فانظر إلى موكبه، واحْصِ من معه - وكان المأمون قد رآه من مستشرَف له حين أقبل - فخرج سالم وقد استفاض الخبر بعَزْله عن عمله، فنظر فإذا هو لا يتبعُه [أحد][٢] إلاّ غلام له بغاشية، فرجع إلى المأمون فأخبره، فقال: ويلَهُم! لو تجمّلوا له رَيْثما يرجع إلى بيته كما خرج منه! ثم تمثّل فيهم:

ومَنْ يَجْعَل المعروفَ فى غَير أهْلِهِ ... يُلَاقى الّذى لاقى مجير أم عامِرِ

ثم قال: صدق رسولُ الله وكان للصِّدق أهلاً حين قال: «لا تنفع الصَّنيعة إلَّا عند ذى حَسَب أو دِين».

* * *

وذكروا أنّه كان سبب عزل الحجّاج عن الحجاز[٣]، أنّه وَفَدَ وفدٌ منهم - فيهم عيسى بنُ طلحةَ بن عبيد الله - على عبد الملك بن مروان، فأثنوا على الحجّاج وعيسى ساكتٌ، فلمّا قاموا ثبت عيسى حَتّى خلا له وجهُ عبد الملك، فقام وجلس بين يديه، فقال: يا أمير المؤمنين، مَنْ أنا؟ قال: عيسى بنُ طلحة بن عبيد الله. قال: فمن أنت؟ قال: عبد الملك بن مروان. قال: أفجهلتنا أو تغيّرتَ بعدنا؟ قال: وما ذاك؟ قال: ولَّيْتَ علينا الحجَّاج يسير فينا بالباطل، ويَحْمِلنا على أن نُثنى عليه بغير الحقّ[٤]، والله لئن أعدتَه علينا لنعصِينّك، فإن قاتلتنا وغلبتَنا وأسأت إلينا قطعت أرحامنا، ولئن قوينا عليك لنَغْصِبَنّك مُلْكَك.

قال: فانصرف والْزَمْ بيتَك، ولا تذكرن من هذا شيئًا.

قال: فقدم إلى منزله، وأصبح الحجَّاجُ غاديًا على الوفد فى منازلهم يجزيهم الخير، ثم أتى[٥] عيسى بن طلحة فقال: جزاك الله عن خَلْوَتِك بأمير المؤمنين خيرًا! فقد أبدَلَنى[٦] بكم خيرًا لى منكم، وأبدلكم بى غيرى، وولّانى العراق[٧].

* * *

(١) ك: «قدميه».
(٢) من ك.
(٣) المحاسن والأضداد: «المدينة».
(٤) كذا فى المحاسن والأضداد، وفى ك ل: «بالحق».
(٥) ك: «وأتى».
(٦) ك: «بدلنى».
(٧) الخبر فى المحاسن والأضداد ٦٣، ٦٤.

وعن الوضّاحيّ، عن مَعمَر بن وهيب، قال: كان عبد الملك عندما استعفى أهلُ العراق من الحجّاج بن يوسف قال لهم: اختاروا أيَّ هذَين شئتم؟ يعنى أخاه محمد بن مروان، أو ابنه عبد الله، مكان الحجّاج.

فكتب إليه الحجّاج: يا أمير المؤمنين، إن أهل العراق استعفوْا من سعيد بن العاص إلى عثمان بن عفّان، فأعفاهم منه، فساروا إليه من قابلٍ فقتلوه. فقال عبد الملك: صدق ورَبِّ الكعبة! وكتب إلى محمد وعبد الله بالسمع والطاعة له[1].

(١) الخبر فى المحاسن والأضداد ٦٤.

مساوئ الولايات

قال: كتب عبد الصَّمد بنُ المعذَّل إلى صديق له وَلِيَ النَّفَّاطات فأظهر تيهًا:

لَعَمْرى لقد أظهَرْتَ تيهًا كأنما ... تولَّيْتَ للفضْل بن مَرْوان مِنبرا[1]
وما كنْتُ أخْشى لو وَليتَ مكانَهُ ... عَلَيّ أبا العباس أن تتغيَّرا
بحفظِ عيونِ النِّفطِ أحدثْتَ نخوةً ... فكيفَ به لو كانَ مِسكًا وعنبرًا!
دَعِ الكِبْرَ واستبق التواضُع إنَّه ... قبيحٌ بوَالى النِّفط أنْ يتكبرا[2]

[الطويل]

قال: وسئل عمّار بن ياسر عن الولايات؟ فقال: هي حُلوة الرَّضاع، مُرَّة الفِطام.

ولابن المعتزّ فى مثله:

كَمْ تائةٍ بولايةٍ ... وبعزْله يَعْدُو البريدُ[3]
سُكْرُ الولايةِ طيّبٌ ... وخُمارها صَفْعٌ شَدِيدُ[4]

[مجزوء الكامل]

ولغيره:

لا تجزَعَنَّ فكلُّ وَالٍ يُعزَلُ ... وكما عُزِلْتَ فَعن قَريبٍ يُعزَلُ[5]
إنَّ الولَايَةَ لا تدُومُ لواحدٍ ... إنْ كُنْتَ تنكِرُه فأيْنَ الأوّلُ!
وكذا الزمانُ بما يسرّكَ تارةً ... وبِما يَسُوءُكَ مرّةً يَتَنَقَّلُ

[الكامل]

---

(١) المحاسن والأضداد ٦٤: «عكبرا».
(٢) المحاسن والأضداد «يتغيرا».
(٣) المحاسن والأضداد ٦٥.
(٤) المحاسن والأضداد «صعب».
(٥) المحاسن والأضداد ٦٥. والرواية هناك «يقتل».

محاسن بعد الهمة

قال: حدّثنا أحمد بن إسحاق التُّسْتُرِيُّ قال: دخل أحمد بن أبي دُؤاد على الواثق، فقال له الواثق بالله: يا أبا عبد الله، إنّي حَنِثْتُ في يمين؛ فما كفّارتُها؟ فقال: مائة ألف دينار. فقال ابن الزّيات: والله ما سمعْنا بهذا في الكفّارات، إنما قال الله جلّ وعزّ – وتلا الآية في كفّارة الأيمان[1] – فقال: تلك كَفّارةُ مِثله في بُعد همّته وجلالة قدره، أو مِثل آبائه، إنْما تكون كفّارة اليمين على قدر جلالة الله من قَلْب الحالِف بها، ولا نعلم أحدًا، اللّهُ جلّ وعزّ في قلبه أجَلّ من أمير المؤمنين. فقال الواثق: تُحمَل إلى أبي عبد الله يتصدّق بها[2].

* * *

قال: ودعا يحيى بنُ خالد البرمكيّ ابنه إبراهيمَ يومًا – وكان يسمّى دينارَ بنى برمك لجماله وحسنه – ودعا بمؤدّبه وبمن كان ضُمّ إليه من كتّابه وأحبابه[3]، فقال: ما حال ابنى هذا؟ قالوا: قد بلَغ من الأدب كذا وكذا، ونظر في كذا وكذا. قال: ليس عن هذا سألتُ، قالوا: قد اتّخذنا له من الضِّياع كذا، وغَلّته كذا، قال: ولا عن هذا سألتُ، إنما سألتُ عن بُعْد همّته، وهل اتخذتُمْ له في أعْناق الرجال مِنَنًا، وحبّبْتُموه إلى الناس؟ قالوا: لا، قال: فبئس العُشراء أنتم والأصحاب! هو والله إلى هذا أحوَجُ منه إلى ما قلْتُم ثم أمر بحَمْل خمسمائة ألف درهم إليه، ففُرّقتْ على قوم لا يُدرَى من هُمْ.

* * *

قال: وقال المأمون لولَدِه؛ وعنده عمرو بن مَسْعَدة ويحيى بن أكثم: اعتبروا في عُلُوْ الهمة بمنْ تَروْن مِن وزرائي وخاصّتي، إنّهم والله ما بلغوا مَراتِبَهُم عندى إلّا بأنفسهم، إنّه من تَبَع منكم صغارَ الأمور تبعَهُ التّصغير والتحقير، وكان قليلُ ما يُفتقد من كبارها أكثرَ من كثيرِ ما يُستدَرك من الصِّغار، فترفّعُوا عن دناءة الهمّة، وتفرّغوا لجلائل الأمور والتدبير، واستكْفُوا الثّقات، وكونوا مِثلَ كِرامِ السِّباع التى لا تشتغل بصغار الطير والوحش، بل بجليلها وكبارها. واعلموا أنّ أقدامَكم إن لم تتقدم بكم فإن قائدَكم لا يقدّمكم، ولا يُغْنى الوليّ عنكم شيئًا ما لم تعطوهُ حقّه، وأنشده[4]:

نحنُ الّـذين إذا تخمّطَ عُصبَـةٌ   من معشـر كنا لهـا أنكـالَا[5]

---

(١) هو قوله تعالى فى سورة المائدة من الآية ٨٩: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إطعامُ عَشَرة مَسَاكِينَ من أوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أهْلِيكُمْ أوْ كِسْوَتُهُمْ أو تَحْرِيرُ رقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فصِيامُ ثَلاثَةِ أيّامٍ ذَلِك كَفّارة أيمانِكُمْ إذا حَلَفْتُم﴾.

(٢) كذا فى ك، وفى ل: «ليصدق».

(٣) ط: «أجابه».

(٤) ك: «وأنشد فى ذلك».

(٥) تخمط: تكبر.

ونرى القُرُومَ مخافةً لقرومنا ... قبلَ اللّقاءِ تقطر الأبوالا
نردُ المنيّةَ لا نخافُ وُرُودَها ... تحتَ العجَاجةِ والعُيونُ تلالاَ
نُعطى الجزيلَ فلا نمنُّ عطاءَنا(١) ... قبل السؤال ونَحمل الأثقالاَ
وإذا البلادُ على الأنام تزلْزَلتْ ... كنّا لزلزلةِ البلادِ جبَالا
[الكامل]

ولبعضهم فى أبى دُلف:

لـهُ هِممٌ لا منتهى لكبارها ... وهمته الصغرى أجل من الدهر(٢)
له راحةٌ لو أنّ معشار جودها ... على البر كان البرُّ أندى من البحْر
ولو أنّ خلْقَ الله فى مَسْكِ فارسٍ ... فبارزه كان الخلى من العُمر(٣)
أبا دُلفٍ بُوركتَ فى كلّ وجهةٍ ... كما بوركت فى شهرها ليلةُ القدْر
[الطويل]

ولغيره:

لا تهدمَنْ بُنيان قومٍ وجدْتهمْ ... بَنوْا لك بُنْيانًا وكُنْ أنْت بانيا
وإنْ زهِدَ الأقْوامُ فى طَلب العُلا ... فسامَ بكفّيْك النّدى والمعاليا
[الطويل]

عبد الله بن طاهر:

فتىً خصّه الله بالمكرمات ... فمازج منهُ الحيا والكرم
إذا همّةٌ قصّرت عن يد ... تناول بالمجد أعْلَى الهمم
ولا ينكُتُ الأرض عند السؤال ... ليَثْنِىَ زواره عن نعم
بدا حين أثْرى بإخوانه ... ففلّل عنهم شباةَ العدمْ
وذكّرهُ الحزْمُ غِبّ الأمور ... فبادر قبل انتقال النِّعمْ
[المتقارب]

* * *

قال: وحدّثنا بعضُ أهل ذِى الرِّياستين(٤). قال: كان ذو الرياستين يبعث بى وبأحداث من أهل بيته إلى شيخٍ بخُراسان، ويقول: تعلّموا منه الحكمة، فكنا نأتيه ونستفيد منه الآداب(٥)، فلما كان بعد ذلك قال لنا: أنتم أدباء، وقد تعلّمتم الحكمة، ولكم نعمة، فهل فيكم عاشق(٦)؟ فاستحْيَيْنا من قوله وسكتنا، فقال: اعشقوا فإن العِشْق يُطلق لسانَ البَليد، ويُسخّى البخيل، ويُشجّع الجبان،

---

(١) ك: «فلا يمن عطاؤنا».
(٢) الكامل ٣: ١٢٨، ونسبه لبكر بن النطاح.
(٣) المسك: الجلد.
(٤) ل: «بيت الرياستين».
(٥) ك: «الأدب».
(٦) ك: «من عشق».

ويبعث على التلطف وإظهار المروءة[١] فى المطعم والمشرب والملبس وغير ذلك، وانظروا أن تعسقوا أهل البُيوتات والشرف.

قال: فخرجْنا من عنده، وصرنا إلى ذى الرياسَتين، فسألنا عما أفادنا، فهبناه أن نخبره، فقال: تكلّموا، فقلنا: إنه أَمَرنا بكذا، وكذا؛ فقال: صدَقَ وبرَّ، أتعلمون من أين قال لكم ذلك؟ قلنا: يخبرُنَا به الوزير، فقال[٢]: كان لبهرام جُور ابنٌ قد رَشحه للمُلك مِنْ بعده، واعتمد عليه فى حياته، وكان خامِلَ المروءَة، ساقِطَ الهمّة، فضمَّ إليه عِدَّةً من المؤدِّبين والحكماء والعلماء، ومن يُعلِّم الفُروسيّة، فبينا بُهرام فى مجلسه إذ دخل عليه بعضُ أولئك المؤدِّبين المضمومين إلى ابنه، فسأله عن خبر ابنه، وأين بلغ من الحكمة والأدب؟ فقال: أيّها الملِكُ، قد كنتُ أرجو أن يتوجّه أو يَعى بعضَ ما ألقيته وألقيه إليه؛ حتى حَدَث من أمره ما آيَسَنى منه. قال: وما هو؟ قال: بَصُر بابنة فلان المرزبان فَهوِيَها، فهو الآن يهذِى بها ليلَه ونهارَه، فقال: الآن رجوتُ فلاحَه، اذهبْ فشجّعه بمراسلة المرأة وخوِّفه بى. فذهب المؤدِّب، فانتهى إلى ما أمرَهَ به وبعث بهرام إلى أبى الجارية ودعاه فقال: إنِّى مزوِّج ابنى ابنتَك، فأْتِها ومُرْها أن تراسل ابنى وتطمعه فى نفسها، فإذا استحكَم طَمَعُهُ فيها ورجا الالتقاء تجنَّتْ عليه، وقالت: إنى لا أَصْلُح إلاّ لملِك عظيم القَدْر، بعيد الهمّة، حسَن المودَّة، أديب النفس، شجاع البطش، ولَسْتَ كذلك، ولا هناك[٣]! ثم عَرِّفْنى الكائن منك فى ذلك.

فمضى المرزُبان إلى ابنته، فأعلمها بذلك وبما قاله له الملك، فراسَلت الفتى وأطمَعَتْه، ثم قالت له ما أَمَرَها به أبوها، فلمّا سمع ذلك أَنِف أنفًا شديدًا، وتقاصرتْ إليه نفسُه، فأقبل على تعلُّم الأدب والحكمة والفروسيّة حتى صار رأسًا فى ذلك، فلمّا بلغ الغاية التى لا بعدها، رفع قصّته إلى أبيه يشكو تخلُّف حاله وقصور يده عما يَشتهيه[٤]، فوقّع له أبوه بإزاحة علّته [فيما سأل][٥] والتّوسعةِ عليه، ثم بعث إلى المؤدِّب فدعاه، فقال: قل لابنى يرفع إلىّ قصّته يسألنى إنكاحَهُ [من][٥] ابنة المرْزُبان. فقال له المؤدب ذلك، فكتب قصّة رفعها[٦] إلى الملك يسأله تزويجَها منه، وأن يصلَ جَنَاحَه بذلك، وأنها ممّن تَصلُح لمثله. فأمر الملِكُ بإحضار المرزبان، وسأله أن يزوّج ابنته من ابنه. ففعل، وجهَّزَها الملك بأجلّ ما يكون من الجهاز. وقال لابنه[٧]: إذا أنت خلوت فلا تحدثنّ شيئًا حتى آتيَك.

فلمّا كان ذلك الوقت دخل الملك على ابنه، فقال: يا بُنيَّ؛ إياك وأن تُصغِّر شأن هذه المرأة عندك، فإنّها من أعظم الناس مِنة عليك، وإنّ الذى كان من مراسلتها إيّاك، فإنّما كان عن أمرى وبإذنى وتدبيرى فاعرفْ حقَّها وحق أبيها، وأحسن معاشرَتَها، وبرَّها. ثم خرج الملِك وخلا الفتى بأهله.

ثم قال ذو الرياستين: سلوا الآن الشيخ عن السبب الّذى حمله على ما أمركم به. قال: فسألْناه، فحدّثنا بحديث ذى الرياستين.

---

(١) ك: «المودة».
(٢) ك: «قال».
(٣) ك: «لا هنالك».
(٤) ل: «يشبهه».
(٥) من ك.
(٦) ك: «ورفعها».
(٧) ل: «له يا بنى».

مَساوئ سقوط الهمّة

قال: وكان القاسم بن الرشيد ساقِطَ الهمّة، دنِىء النفس، وكان المأمون على أن يعهد إليه ويؤكد له ما كان الرشيد جعله له من ولاية العهد، وكان لايزال يبلُغه عنه ما يكره؛ مرة فى نفسه، وأخرى فى حشمه، قال: فرُفع إليه فى الخبر يومًا أنه قال لقُوَّام حَمّامِهِ: نوّروا[1] الناس بالمجّان، ففعلوا ذلك، فلم يبق محتاجٌ إلاّ جاء يتنوّر، فلما علم أنهم كَثُروا أخرَجَ عليهم الآسد من بابٍ كان يدخل منه إلى الحمّام، فخرج الناسُ عُراةً مغمى عليهم، مع ما عليهم من النّورةِ، هاربينَ من الأسَد فصاروا إلى شارع قصره. وقد أشرف عليهم وهو يضحك.

فحدّثنا الحسن بن قريش، قال: دعانى المأمون وقال: يا هذا، مالى ولهذا الفتى! إلى كم أحتمل منه هذا الأذى! قال: فقلت: قوّمْه يا أميرَ المؤمنين إن رأيت فى ذلك صلاحًا. قال: نعم، فقلت: يا سيدى، إنّه عضوٌ منك، وأنت به وأوْلَى الناس بتقويمه، قال: فجعل ينهاه ويأبى أن ينتهىَ، فلما كثر هذا مِنْ فعله؛ عزم على خَلْعِه، فكتب إلى هَرْثمة بنِ أعين فى ذلك كتابًا نسخته: «أمّا بعد، فإن أمير المؤمنين يستوفِق الله جلّ وعزّ فى جميع أموره ويستخيره فيها؛ خاصّها وعامّها، لطيفها وجليلها؛ استخارة من يُوقن أنَّ البركة وخيرة البدء والعاقبة فى قضائه، وما يُلهمه من إرشاد وتسديد رأى وإثبات صواب، وقد رأى أميرُ المؤمنين عندما استخار الله تبارك اسمُه فيه من أمر القاسم بن الرشيد، فيما كان إليه من ولاية العهد خَلْعَه عن ذلك وصَرْفه عنه، فأظهر ذلك فيمن بحضرتك، وأمُر بالكتاب إلى العمّال فى نواحى عَمِلك وثُغُورك ووُلاة الأمصار، فقد أمِل أميرُ المؤمنين أن يكون ذلك توفيقًا من الله تبارك اسمه. ورشدًا ألهمه إياه؛ إذْ كان به توفيقُه وعليه معوَّله، وإليه رجوعه فيما يُبرم ويُمضِى، فامتثَلْ ما حَدَّه لك أميرُ المؤمنين. وأنْتَهِ إليه، واكتب بما يكون منك فيه إن شاء الله».

* * *

قال: ونظر المأمون يومًا إلى ابنه العباس وأخيه المعتصم، فابْنُه العباس يتخذ المصانع ويبنى الضِّياع، والمعتصم يتّخذ الرجال، فقال شعرًا:

يبنى الرجالَ وغيرُه يبنى القُرى ... شَتّان بين قُرًى وبينَ رجالِ!
قَلِقٌ بكثرةِ مالِهِ وضياعِهِ ... حَتى يُفرّقَهُ على الأبطالِ
[الكامل]

وأنشد فى مثله:

لما رأيتُك لا تجودُ بنائل ... وتضن بالمعروف ضن الساقط[2]

(١) النورة: حجر الكلس، ثم غلب على أصناف تضاف إلى الكلس من زرنيخ وغيره؛ ويستعمل لإزالة الشعر.
(٢) ط: «وتظن» تصحيف.

ورأيت همّتَـكَ الّتى تَعلُو بها   سَوطَ الثريدِ وشم ريح الغائط
وإذا تُكلَّفُ حـاجـةً ضيَّعتَهـا   بتغـافُلٍ عنهـا كَأنـكَ واسِـطى
لاللمكـارم تشـرَئِبُّ بـنهضـةٍ   ولدَى المكاره كالحِمارِ الضـارِط
أيّسْتَ نفسى مِن رجائك دَهْرهَا   ونقشتُ شِبْهَك صورةً فى حائط
[الكامل]

وقال آخر سامحه الله عز وجل:

إذا أنت لا تُرْجَى لدفع ملمة   ولا أنت فى المعروف عندك مطمع
ولا أنت ذو جاه يعاش بجاهه   ولا أنت يوم الحشرِ ممن يشفع
فموتُكَ فى الدنيا وعيشك واحد   وعودُ خلال من نـوالك أنفـعُ
[الطويل]

ولآخر سامحه الله وعفا عنه:

كلّما قلت ويك للكلب إخسأ   لحظتْنى عيْنَـاك لحـظةَ تهمـه
أتَـرانى أظُـنّ أنـك كـلْبٌ   أنت عندى من أبعد الناس همه
[الخفيف]

محَاسن كرم الصحبة

قال ابن أبي طاهر: حدثونى عن عبد الله بن مالك؛ قال: كنتُ أتوَلى الشرطة للمهدى، وكان يبعث إلىّ فى نُدَماء الهادى ومغنيّه؛ أنْ أضربهم وأحبسهم صيانةً له عنهم، فبعث الهادى يسألنى الرفْقَ بهم والترفيه عنهم، فلا ألتفتُ إلى ذلك وأمضى إلى ما يأمُر به المهدىّ.

فلما ولى الهادى الخلافة أيقنتُ بالتّلَف، فبعث إلىّ يومًا فدخلتُ عليه متكفّنًا متحنّطًا؛ فإذا هو على كرسىٍّ والنِّطع والسّيف بين يديه، فسلّمت فقال: لا سلّم الله عليك! تذكُرُ يومَ بعثتُ إليك فى أمر الحرّانىّ لَمَّا أمر أمير المؤمنين رضى الله عنه بضربه، فلم تجبنى، [و][1] فى فلان وفى فلان! وجعل يعدّ نُدَمَاءَه – ولم تلتفت إلى قولى! قلت: نعم يا أمير المؤمنين، أفتأذن لى فى استيفاء الحجّة؟ قال: نعم. قلت: نشدتُك الله يا أمير المؤمنين، أيسرُّك أنْ ولّيتنى ما ولّانى أبوك وأمرتنى بأمر فبعث إلىّ بعضُ بنيك بأمر يخالف أمرَك، فاتّبعتُ أمرَه، وعصيتُ أمرَكْ؟ قال: لا، قلت: فكذلك أنا لك، وكذا كنتُ لأبيك وأخيك، فاستدنانى فقبّلتُ يدَه، وأمر بخلع فصبّت على؛ وقال: قد ولّيتك ما كنت تتولاه، فامض راشداً.

فخرجتُ من عنده وصرت إلى منزلى مفكّرًا فى أمره وأمرى، وقلت: حدث والقوم الذين عصيته فى أمرهم ندماؤه ووزراؤه وكُتّابُه، فكأنّى بهم حين يَغلِب عليه الشرابُ؛ وقد أزالوه عن رأيه فى وحَملوه فى أمرى على ما كنت أتخوَّفُه!

قال: فإنّى لجالسٌ وبين يدىّ بُنَيَّةٌ لى والكانون بين يدىّ، ورُقاقٌ أشْطُرُه بكامَخ وأسخّنُه وأطعِمْه الصبية، حتى توهّمت أن الدنيا قد اقتلعت بِى وزلزلتْ لوقع حوافر الدوابّ وكثرةِ الضَّوضاء؛ فقلت: هاهْ! كان والله ما ظننت، فإذا الباب قد فُتِح، وإذا الخَدَم قد دخلوا، وإذا أمير المؤمنين الهادى على حمارٍ فى وَسَطهم! فلمّا رأيتُهم، وثبتُ عن مجلسى مبادرًا وقبّلتُ يده ورجْله وحافر حماره، فقال: يا أبا عبد الله، إنى فكَّرْتُ فى أمرك، فقلت: يسبق إلى قلبك أنّى إذا شربتُ وجاءنى أعداؤك أزالوا ما حَسُنَ من رأيى فيك، فأقلقك وأوحشك، فصرتُ إلى منزلك لأؤنسك، وأعلمك أنَّ السخيمة قد زالتْ عن قلبى، فهات أطعِمنى ما كنت تأكل، وافعل فيه ما كنت تفعل؛ لتَعْلم أنّى قد تحرمت بطعامك؛ وأنِست بمنزلك؛ فى زول خوفك ووحشتك.

فأدنيت إليه ذلك الرقاقَ والسُّكُرَّجَة[2] التى فيها الكامخ، فأكل منها ثم قال: هاتوا الزلة[3] التى زللْتُها لأبى عبد الله من مجلسى،، فأدخل إلىّ أربعمائة بَغْل موقرةً دراهم، فقال: هذه زُلّتُك فاستعن،

---

(١) من الطبرى.

(٢) السكرجة: الصفحة؛ فارسى معرب.

(٣) الزلة: الصنيعة.

بها على أمرك، واحفظ هذه البغال عندك، فعلّى احتاج إليها لبعض أسفارى، [قال: أظلّك الله بخير][١]، وانصرف راجعًا.

فأخبرنى[٢] موسى بن عبد الله أن أباه أعطاه بستانه الّذى كان وسط داره، فبنى حوله معالِفَ لتلك البغال، وكان هو يتولى القيامَ عليها مدّة حياة الهادى[٣].

* * *

وحدّث مَنْ حضر مجلس المأمون؛ وقد أمر بإحضار العبّاس صاحب الشُّرطة ببغداد، وبين يديه رجلٌ مكبّلٌ بالحديد، فلمّا حضر قال: يا عَباس، خُذْ هذا إليكَ واستوثقْ منه ولا يفوتنّك، وبكِّرْه به واحذَرْه كلَّ الحذَر.

قال العباس: فدعوتُ جماعةً حملوه، ولم يقدر يتحرّك، فقلت فى نفسى: مع هذه الوصيّة التى أوصانى بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب[٤] أن يكون معى إلّا فى بيتى. ثم سألتُه عن قصّته وحاله، من أين هو؟ فقال: من دِمَشق، فقلت[٥]: جزى الله دِمشق وأهلها خيرًا! فمَن أنت من أهلها؟ قال: لا تَزَيَّدْ أن تسألنى! فقلت له: أتعرف فلانًا؟ فقال: ومن أين عرفت ذلك الرجل؟ فقلت: كانت لى قصّة معه، فقال: ما أنا بمعرِّفك خبره أو تعرِّفنى قصّتك! فقلت[٦]: ويْحك! كنت مع بعض الولاة بها، فخرج علينا أهلها حتى أراد الوالى أن يُدْلَى فى زِنْبيل من قَصْر الحجّاج، وهرَب هو وجميع أصحابه، وهربت فيمن هَرَب، فإنِّى لَفِى بعض الطريق إذا جماعة يعْدُون خَلْفى، فما زِلتُ أحاضِرُهم[٧] حتى مررتُ على هذا الرجل الّذى ذكرتُه لك وهو جالس على باب داره، فقلت: أغثْنى أغاثك الله! فقال: لا بأس عليك، ادخل الدار، فدخلت، فقالت لى امرأتُه: ادخُل الحَجَلة[٨]، فدخَلْتُها وأتت الرجالُ خلفى فما شعرتُ إلّا به وهم معه يقولون: هو والله عندَك! فقال: دونكم الدّار ففتشوها حتى لم يبقَ إلّا البيت الذى كنتُ فيه، فقالوا: ها هنا! فصاحت المرأة وانتهرتهم فانصرفوا، وخرج الرجلُ فجلس على باب داره ساعةً وأنا قائم فى الحَجَلة خائفًا، فقالت المرأة: اجلس لا بأس عليك، فجلستُ فلم ألبَثْ أن دَخَل الرجلُ وقال: لا تخَف فقد صرتَ إلى الأمن والدّعة إن شاء الله تعالى، فقلت له: جزاك الله عنى خيرًا! ثم ما زال يعاشرنى أحسن المعاشرة وأجملَها، ولا يَفترُ من القَصْف والأكل والشرْب والفَرَح أربعة أشهر؛ إلى أن سكنت الفتنة وهدأتْ، فقلت له: أتأذَنُ لى فى الخروج لأتعرَّف خبر غلمانى ومنزلى، فعلىّ أن أقف لهم على أثر أو خبرٍ!

---

(١) من الطبرى.

(٢) الطبرى: «فذكرى موسى بن عبد الله».

(٣) الخبر فى تاريخ الطبرى ٣: ٥٨٣، ٥٧٤ (طبع أوربا).

(٤) ط: «يجب».

(٥) ط: «فقال».

(٦) ط: «فقال».

(٧) أحاضرهم؛ لعله من الحضر، وهو العدو.

(٨) الحجلة: بيت يزين بالثياب والأسرة والستور.

فأخذ عليّ المواثيق بالرّجوع إليه، فخرجت وطلبت غِلماني، فلم أر لهم أثرًا، فرجعتُ إليه وأعلمتُه الخبر، وهو مع هذا لا يعرِفنى، ولا يعرف اسمي، ولا يخاطبنى بغير الكُنْيَة، ثم قال لى: ما تعزِم؟ فقلت: قد عزمْتُ على الشُخوص إلى بغْداد، فإنّ قافلةً تخرُج بعد ثلاثة أيام، وقد تفضّلتَ عليَّ هذه المدّة، فأسألك أن تعطينى ما أُنْفِقه فى طريقى وما أَلْبَسُه. فقال: يصنع الله عزّ وجلّ.

ثم قال لغلام له أسود: أنعِل[1] الفرس الفلانيَّ؛ وتقدَّم إليَّ مَنْ فى منزله بإعداد السفر. فقلت فى نفسى: ما أشكُّ إلاَّ أنّه يخرج إلى ضَيْعة له أو ناحية من النواحي، فوقعوا يومَهم ذلك فى تعب وكدّ، فلما كان خروج القافلة جاءنى فى السَّحَر وقال: يا أبا فلان، قُمْ فإن القافلة تخرُج الساعة؛ وأكرَه أن تنفردَ عنها. فقلت فى نفسى: ما أعطانى شيئًا ممّا سألتُه، ثم قمت، فإذا هو وامرأتُه يحملان إليّ خفاتين[2] مقطوعةً جُدَدًا وراناتٍ وآلة السَّفَر، ثم جاءنى بسيف ومِنطقَة فشدَّهما فى وسطى ثم قدّم البغل، فحمل عليه الصناديق وفوقها مِفرشَين، ودفع إليّ نسخة بما فى الصناديق وفيها خمسة آلاف درهم، وقدّم إليّ الفرس الّذى كان أنعَلَه بسَرْجِه ولجامه، وقال لى: اركب وهذا الغلام الأسود يَخدِمك ويَسوسُ دَوابَّك، وأقبل هو وامرأته يعتذران من تقصيرهما فى أمرى. وركب معى فشيَّعنى. وانصرفت إلى بغداد وأنا على مكافأته ومجازاته، فعاقنا عن ذلك ما نحن فيه من الشّغل بالأسفار واتصالها والتنقّل من مكان إلى مكان.

فلما سمع الرجل الحديث قال: قد أتاك الله عز وجلّ بمن تريد مكافأته بلا مئونة عليك، فقلتُ: وكيف ذلك؟ قال: أنا والله ذلك الرجل؛ ثم قال لى: ما أثبتّك[3]، فتعرّف إليّ! وأقبل يذكّرنى بأشياء يتعرف بها إليّ حتى أثبتّه وعرفته، فما تمالكتُ أن قمت إليه فقبّلتُ رأسَه، وقلتُ له: ما الّذى أصاركَ إلى هذا؟ فقال: هاجت فتنةٌ بدمشق مثل الفتنة التى كانت فى أيّامك، فنُسِبَتْ إليّ، وبعثَ أمير المؤمنين بجيوش فأصلحوا البلد، وحُملت إليه، وأمرى عنده غليظٌ جدًّا، وهو قاتلى لا محالة، وقد خرجْت من عند أهلى بلا وصيّة، وقد تبعنى من عبيدى مَنْ ينصرف إلى منزلى بخبرى، وهو نازل عند فلان، فإن رأيت أن تُنعم وتبعث إليه حتى يحضُر فأتقدّم إليه بما أريد، فإذا أنت فعلتَ ذلك فقد جاوزتَ حدَ المكافأة لى!

قال: فقال العبّاس: يصنع الله! ثم قال: عليّ بحدَّادِين، فأتوْا بهم، فحلّ قُيُوده وما كان عليه من أنواع الأنكال، ودعا بالحجّام فأحضِر، وأخذ من شَعْرِه ثم قال: عليّ بمولاه، فأنفذ فى طلبِه مَنْ يحضِره.

قال الرجل: فلّما أن أخذ شعرى أدخلَنى الحمّام فطرح عليّ من ثيابه ما اكتفيتُ به، ثم حضر مولاى وقعد يبكى، فقال العباس، عليَّ بفَرسى الفلانىّ والفرسِ الفلانىّ والبغل الفلانىّ، حتى عَدَّ عشرًا. ثم قال: عليَّ من الصناديق والكسوة بكذا، ومن صناديق الطعام بكذا، ثم أمر لى ببَدْرةٍ فيها

---

(١) أنعل الدابة: ألبس حافرها النعل.

(٢) الخفاتين: جمع خفتان، وهو صديرية تلبس تحت الدرع (فارسى).

(٣) ما أثبتك، أى ما عرفتك حق المعرفة.

عشرة آلاف درهم، وكيس فيه خمسة آلاف دينار، وقال لصاحب شرطتِه: خذه واعبرُ به إلى جسر الأنبار.

فقلت له: إن أمرى غليظ، وإن أنت احتججْتَ بأنى هَرَبْت بَعَثَ أمير المؤمنين فى طلبى كلَّ مَنْ على بابه، فأُرَدَّ وأُقتَل، فقال: انجُ بنفسك ودعْنى أدّبرُ أمرى. فقلت: والله لا أبرحُ من بغداد أو أعلم ما يكون من خبرك، فإن احتجتَ إلى حضورى حضرتُ، فقال لصاحب الشرطة: إن كان الأمرُ على هذا فليكن فى موضع كذا وكذا، فإن سلمتُ فى غداة غدٍ فسبيل المحبّة، وإن قتِلتُ كنت قد وقيتُه بنفسى كما وقانى بنفسه، وأنشدك الله أن تُذْهب[1] من ماله شيئًا قيمته درهم، وتخلِّصَه حتى تخرجَه من بغداد.

قال الرجل: فأخذنى صاحب الشُّرْطة؛ فصيرنى فى مكان يثق به، وتفرَّغ العباس لنفسه، واغتسل وتحنّط وتكفّن.

قال العباس؛ فلم أفرُغْ من ذلك حتى وافتْنى رسل المأمون فى السَّحر، وقالوا: أمير المؤمنين يقول؛ هاتِ الرجل، فسكت وأتيتُ الدارَ، وإذا أمير المؤمنين جالس؛ عليه ثيابُه أمام فراشه، فقال: الرجلَ! فسكت.

فقال ويْحَك! الرجل! فقلت: يا أمير المؤمنين، اسمع منّى، فقال: أعطِى الله عهدًا لئن ذكرت أنه هرب لأضربنّ عُنُقَك، فقلت: لا والله ما هَرَب، فاسمع منّى حديثى وحديثَه، ثم أنت أعلم بما تفعله فى أمرنا، قال: قل.

فقلت: يا أمير المؤمنين، كان من حديثى معه كذا وكذا.. وقصصتُ عليه القصّة، وعرَّفْته أنّى كنت أريد مكافأته، فشُغِلْت عن ذلك، حتى إذا كان البارحة عرَفته، وعبَرتُ به جسْرَ الأنبار، وقلت: أنا من سيّدى أمير المؤمنين بين أمرين: إما صَفَح عنّى وإمّا قتَلنى وأكون قد كافيتُه ووَقيتُه بنفسى كما وقانى بنفسه.

فلمّا سمع المأمون الحديثَ قال: ويحك! لا جَزاكَ الله خيرًا عن نفسك وعنّا وعن هذا الفتى الحُرّ! إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة، وتكافئه بعد المعرفة بهذا! لِمَ لا عرَّفتنى خبرَه، فكنتُ أكافئه عنك! فقلت: يا أمير المؤمنين، إنّه والله ها هنا قد حلَف أنّه لا يَبرح حتى يعرف سلامتى، فإن احتيجَ حضوره حَضَر، قال: وهذه والله منه أعظمُ من الأولى، فاذهب إليه الآن وطيِّبْ نفسه، وسكِّن روْعَه، وتعبرُ به إلى حتى أتولّى مكافأته عنك.

فصرتُ إليه وقلت: ليسكن رَوْعُك، إنَّ أمير المؤمنين قال كيْتَ وكيْتَ، فقال: الحمد لله الذى لا يُحْمَد على السَّرّاء والضَّرّاء غيرُه. ثم تهيّأ للصلاة فصلّى ركعتين، ثم جئنا.

فلمّا مَثَل بين يدى المأمون أدناه حتى أجلسَه إلى جانبه، وآنسه وحدّثه حتى حضر الغداء، ثم قال: الطعام، فأكل معه، وخلَع عليه، وعَرَض عليه أعمالَ دِمَشْق، فاستعفاه. ثم قال المأمون: عَلَيّ بَعشْرة

---

(١) ك: «يذهب».

أفراس بسروجها ولجمها، وعشرة بغال بجميع آلَتِها. وبعشر بدر، وبعشرة تخوت، وعشرةِ مماليك بذواتهم وجميع آلتهم. فدفع ذلك إليه، وكتب إلى عامله بالوصاية عليه وأَوْغَر خراجه، وكتب إلى صاحب البريد أن يُنفِذ كتبه، وصَرَفه إلى بلده.

قال العباس: فكان إذا ورد له كتاب فى خَريطة يقول لى المأمون: يا عباس، هذا كتاب صديقك!.

* * *

وحدّث رجلٌ عن جعفر العطّار قال: بينما يحيى بن أكثم يماشى المأمون فى بستان موسى، والشمس عن يمينه، والمأمون فى الظِّلّ؛ وقد وَضَعَ يَدَه على عاتق يحيى، وهما يتحدّثان[١]، إذا رأى المأمونُ أن يَرجع فى الطريق الذى جاء منه، فلما انتهى إلى الموضع الذى قصده، قال ليحيى: إنك جئتَ وعن يسارك الشمس، وقد أخذت منك، فكن أنت الآن فى منصرَفك حيث كنت، وأكون أنا حيث كنت أنت، فقال يحيى: والله يا أمير المؤمنين لو أمكننى أن أقِيَكَ بنفسى من هَوْل المطلع لفعلتُ، فكيف لا أصبر على أذى الشمس ساعةً! فقال: لا والله، لابّد من أن آخذ منها كما أخذتْ منك، وتأخذ من الظلّ كما أخذتُ منه[٢] فصار المأمون فى موضعه، وصار يحيى فى موضع المأمون[٢]. وتماشَيَا وأخذ بيدِه فوضعها على عاتِقه؛ حتى صار إلى المجلس.

* * *

وحدّث رجل من آل أسوار[٣] بن ميمون، عن عمّه عبد الله بن أسوار، قال: دخْلتُ على يحيى بن خالد البَرْمَكىّ يومًا فقال: أجْلِس - وكنْتُ أحدَ كُتَّابه - فقلتُ: ليست معى دَواة، فقال: وَيْحك! فى الأرض صاحب صناعة تفارقُه آلته! وأغْلَظَ لى فى حرفٍ علمتُ أنّه أراد به خَطّى، وأرانى بعضَ التّثاقُل فى كتاب ظهر لى به أنه أراد خَطّى على الأدب لا غير، ثم دعا بدَواة، فكتبتُ بين يديه كتابًا منه إلى الفضل ابنه، ورأى منّى بعضَ الضجر فيما كتبتُ، فَتوهَّم أن ذلك من أجل الكلمة التى كلّمنى بها. فأراد أن يمحو عن قلبى ما توهّمه علىّ، فقال: عليك[٤] دَيْن؟ قلت: نعم، قال: كم دَيْنُك؟ قلت: ثلاثمائة ألف درهم، فوقع بخطّه إلى الفضل فى الكتاب:

وكُلُّكُمْ قد نال شبعا لبطنِه ... وشبع الفتى لؤم إذا جاع صاحبُهْ

ثم قال: إن عبد الله ذَكَر أنّ عليه دينا يخرجه منه ثلاثمائة ألف درهم، فإذا نظرتَ فى كتابى هذا، وقبل أن تضَعَه فى يدِك، فأقسمتُ عليك لمّا حملت ذلك إلى منزله من أخَصِّ مال قبلك.

قال: فحملها الفضل إلىّ وما أعظم لها سببًا إلا تلك الكلمة.

* * *

(١) ك: «يتحادثان».

(٢-٢) ك: «فسار المأمون فى الشمس ويحيى فى الظل».

(٣) ك: «سوار».

(٤) ك: «أعليك».

وحدث إبراهيم بن ميمون قال: حدثنى جبريل بن بختيشوع قال: اشتريت ضيعة فنقدت بعض الثمن وتعذّر على بعضه، فدخلت على يحيى وعنده ولده وأنا أفكرّ، فقال لى: مالى أراك مفكرا! فقلْت: أنا فى خِدْمَتك - وقد اشتريت ضيعةً بسبعمائة ألف درهم، ونقدتُ بعض الثمن، وتعذَّر علىّ بعضُه - فدعا بالدَّواة وكتب: يُعطَى جبريل سبعمائة ألف درهم، ثم دَفع الكتابَ إلى وَلَده؛ فوقّع فيه كلٌّ واحد منهم بثلاثمائة ألف درهم، فقلت: جُعلت فداك! لقد أدَّيتُ عامَّة الثمن، وإنما بقَى أقلَّه، قال: اصرف ذلك فى بعض ما يَنُوبك. ثم صرتُ إلى الرشيد فقال: ما أبطأ بك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، كنت عند أبيك وإخْوتك ففعلوا بى كذا وكذا، قال: فما حالى أنا! ثم دعا بدابّته فركِب إلى يحيى فقال له: يا أبتِ، خبَّرنى جبريلُ بما كان، فما حالى من بين ولدك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، مُر له بما شئت يُحْمَل إليه، فأمر بحمْل مالٍ إلى جبريل.

* * *

وكان إبراهيم بنُ جبريل على شُرطة الفَضل، فَوَجَّهُ إلى كابُل فافتتَحها، وغَنِم غنائم كثيرة، ثم ولَّاه سِجِسْتَانَ، فلمّا انصرف منها كان عنده من مال الخراج أربعةُ آلاف ألف درهم، فلمّا قدِمَ بغداد وبنى داره فى البغويّين، استزار الفضل بنَ يَحيى ليُريهَ نعمته عليه، وأعد الهدايا والطُّرف، وآنية الذهب والفضّة، والوُصَفاء والوصائفَ والدوابّ، والقباب والثِّياب، وما تهيَّأ لمثله، ووضع الأربعة الآلاف ألف درهم فى ناحية من الدار، فلما تغدى الفضل قدم إليه تلك الهدايا، فأبى أن يَقبل منها شيئًا، وقال: لم آتِك لأسْلُبك، فقال: أيها الأمير، إنّها نعمتُك علىّ. قال: ولك عندنا مزيد. قال: فلم يزل يَطْلُب إليه، فأخذ من جميع ذلك سوطًا سِجْزِيًّا فقال: هذا من آلةِ الفُرْسان، فقال إبراهيم: أيها الأمير، فهذا المال مال الخراج، تأمر بقَبْضه. قال: هو لك، فأعاد عليه القول مرارًا، فقال: مالك بيتٌ يَسعهُ! فوهب له المال بعد أن كان قد صار إليه ألف ألف درهم.

* * *

قال: ودخل قوم من حاشية المنصور وخدمه عليه، فرأى منهم رجلًا عليه سَوَادٌ خلق، فقال له: يا فلان مالى أرى سوادك متقطعًا! أما تقبض رزْقَك! قال: بلى يا أمير المؤمنين، ولكن أبى تُوُفّى وترك دينًا، فبعت تركته فى قضاء ديْنه، وصرفتُ أكثر رزْقى إلى حُرمته وولْده من بعده، فقال: أعِد علىّ ما قلْتَ، فأعاده، فقال ما أحسَنَ ما فعلت! أغْدُ عَلَىّ فى غد. فغدا عليه فوجد الربيعَ جالسًا على الكرسىّ، فقال: قد سأل عنك أمير المؤمنين فأدخل. فدخل، فوجده قائمًا يصلّى، فقضى صلاتَه وقال: ألم آمُرْك أن تغدو! فقال: يا أمير المؤمنين، ما قصّرتُ فى الغُدُوّ عند نفسى! قال: خذ ما تحت تلك المُضرّبة وإذا السراج يزهر وسريرٌ صغير فى ناحية المجلس ينام عليه، فرفعتُ المضربة فإذا دنانير، فجعلت أحثُوها فى كمّى، ثم دعوتُ له وخرجت، فَبصُر بصُفْرة دينار فى ضوء السراج، فدعانى، فقال: انظر ما على السرير، فإذا دينارٌ، فأخذتُه فقال: ادْنُ منّى، فدنوتُ منه، فَعرّك أذُنى تعريكًا شديدًا، وقال: تترك دينارًا وفيه نفقةُ يومك! قال: فأخذت الدينارَ ووَزَنْتُ الدنانير، وإذا هى ألف دينار؛ عددُها تسعمائة وتسعة وتسعون دينارًا فى عافية، وأخذت واحدًا بَعرْك الأذن.

قيل: وقال علقمة بن لبيد[١] لابنه: يا بنى، إن نازعتك نفسك يوما إلى صحبة الرجال لحاجتك إليهم، فأصحب من إن صحبته زانك، وإن تخففت[٢] له صانك، وإذا نزلتْ بك نازلةٌ مانَك، وإن قلت صدَّق قولَك، وإن صلت به شدد صولك. أصحبْ من إذا مَدَدْتَ يدك لفضلٍ مدَّها، وإن رأى منك حسنة عدَّها، وإن بدت منك ثلمةٌ سَدَّها. اصحب من لا تأتيك منه البوائقُ، ولا تختلف عليك منه الطرائق، ولا يُخذلك عند الحقائق.

* * *

وقال بعض الحكماء: إذا رأيت كَلْبًا تَرَك صاحبه وتبعَك فارجُمه بالحجارة، فإنه تاركُك كما ترك صاحبه.

وقال آخر: اصحبْ من خولك نفسه، وملّكك خدمته، وتخيَّرك لزمانه، فقد وجب عليك حقه وذمامُه.

وكان يقال: منْ قَبِل صلَتك فقد باعك مروءته، وأذلّ لقَدْرِك عزّه.

وقال بعضهم: أنا أطوَعُ لك من اليد، وأذلُّ من النّعْل.

وقال بعضهم: أنا أطوعُ لك من الرداء، وأذلُّ من الحِذَاء.

قيل: وقال ابن أبى دؤاد لرجل انقطع إلى محمد بن عبد الملك الزيات: ما خبرُك مع صاحبك؟ قال: لا يقصِّر فى الإحسان إلىّ. قال: يا هذا؟ إن لسان حالك يُكذِّب لسان مقالك[٣]

---

(١) المحاسن والأضداد: «ليث».

(٢) كذا فى المحاسن والأضداد وفى ك: «تحققت»، وفى ل مهمل.

(٣) ل: «قولك»

مَساوئ الصّحبَة

قال: كان يوسف بن عمر الثقفى يتولى العِراقين لهشام بن عبد الملك، وكان مذموما فى عمله، فحدّثَ المدائنىُّ قال: وزن يوسف بن عمَر درهما، فنقص حبة، فكتب إلى دور الضرب بالعراق، فضرب أهلها مائة سوط[1].

قيل: وخَطَب فى مسجد الكوفة، فتكلم إنسان مجنون؛ فقال: يا أهلَ الكوفة، ألم أنهكم أن يدخل مجانينكم المسجد! اضربوا عنقه، فضربت عنقه[1].

قال: وقال لهَمام بن يحيى - وكان عامله: يا فاسق، أخْربْتَ «مِهْرَجان قُذق»! قال: إنى لم أكن عليها، أنما كنت على ماه دينار، وتقول: أخربت «مهرجان قذُق» افلم يزل يوسفُ يعذّبه حتى قتله[1].

قال: وقال لكاتبه: ما حبسك عنّى؟ قال: اشتكيت ضِرْسى. قال: تشتكى ضِرْسَك وتقعُد عن الدّيوان! ودعا له بالحجّام وأمره بقلع ضرسين من أضراسه[1].

* * *

وعن المدائنىّ، قال: حدّثنى رضيعٌ كان ليوسف بن عمرَ من بنى عَبْس، قال: كنت لا أحْجَب عنه وعن حُرْمَتِه[2]، فدعا ذات يوم بجوار له ثلاث، ودعا بَخصىٍّ أسود يقال له حديج[3]، فقرَّب إليه واحدةً، فقال لها: أريد الشخوص، أفأخلفك أم أشخصك معى؟ فقالت: صُحبة الأمير أحب إلى، ولكنّى أحسب أن مقامى وتخلفى أعفى وأخف على. قال: أحببت التخلف للفجور! اضرب يا حُدَيج - فضرَبها حتى أوجعها؛ ثم أمره أن يأتيَه بأخرى قد رأت ما لقيت صاحبتها! فقال لها: إنى أريد الشخوص، أفأخلفك أم أخرجك؟ قالت: ما أعدل بصحبة الأمير شيئًا، بل يخرجنى. قال: أحببتِ الجماع؛ ما تريدين أن يفوتك! اضرب يا حديج، فضربها حتى أوجعها، ثم أمر بالثالثة أن يأتيه بها وقد رأت ما لقيت المتقدمتان. فقال لها: أريد[4] الخروج، أفأخلفك أم أشخصك؟ قالت[4]: الأمير أعرف [5]أى الأمرّين أخفّ عليه. قال: اختارى لنفسك، قالت: ما عندى لهذا اختيار، فليختر الأمير، قال: قد فرغتُ أنا الآن من كل شىء ومن كلّ عمل، ولم يبق على إلا أن أختار

(١-١) المحاسن والأضداد ٦٦.

(٢) المحاسن والأضداد: «حدمته».

(٣) كذا فى المحاسن والأضداد؛ حديج من أسمائهم وفى ك، ل: «خديج».

(٤-٤) ك: «أتريدين الخروج معى أو أخلفك».

(٥) ك: «أعرف لينظر».

لك! أَوْجِع يا حُديج، فضربها حتى أَوْجعها، قال الرجل: وكأنما كان يضربني من شدّة غَيْظي عليه - فولّت الجارية وتبعها الخادم، فلما بعدتْ قالت: الخيرةُ والله في فراقكَ، ما تَقرّ والله عينُ أحد يصحبك، فلهم يفهم يوسف كلامها، فقال: ما تقول يا حُديج؟ قال: قالت: كذا وكذا، قال: يا بن الخبيثة! مَنْ أمرك أن تخبرني! يا غلام، خذ السوط من يده وأوجع به رأسه، فما زال يضربهُ حتى اشتفيت[1].

(١) الخبر في المحاسن والأضداد ٦٦، ٦٧.

محاسن السّخاء

روى عن نافع، قال: لقى يحيى بنُ زكريّاء عليه السلام إبليس، فقال له أخبرنى بأحبّ النّاس إليك، وأبغض الناس إليك! قال: أحَبّ الناس إلىّ كل مؤمن بَخيل، وأبغض الناس إلى كل منافِقٍ سخى. قال: ولم ذاك؟ قال: لأنّ السخاء خُلُق الله الأعظم، فأخشى أن يطّلع عليه فى بعض سخائه فيغفرَ له[1].

وقال ﷺ: «السخىُّ قريب من الله، قريب من الناس، قريبٌ من الجنة، بعيد من النار. والبخيل بعيدٌ من الله، بعيدٌ من الناس، بعيدٌ من الجنّة؛ قريبٌ من النار. ولجَاهلٌ سخى أحب إلى الله تعالى من عابد بخيل، وأدوأ[2] الداء البُخْل».

وعن النبّى ﷺ قال: «ما أشرقتْ شمس وبجنبتيها[3] مَلَكان يناديان، وإنّهما ليُسمعان[4] الخلائق إلا الثقَلَيْن الجنّ والإنس[3]: اللهم عَجّل لمنفق خَلَفًا، اللّهم عَجِّل لمسكٍ تَلَفًا. ومَلَكان يناديان: يأيّها[5] الناس، هَلُمّوا إلى ربّكم، فإنّ ما قَلّ وكَفى، خيرٌ ممّا كثُر وألْهى»[6].

وعن الشّعبىّ، قال: قالت أمّ البنين بنت عبد العزيز أخت عمر بن عبد العزيز [وكانت تحت الوليد بن عبد الملك][7]: لو كان البخل قميصًا ما لبِستُه، ولو كان طَريقًا ما سَلَكتُه[8]. وكانت تُعتِق كلّ[9] يومٍ رقبة، وتحمل على فرسٍ فى سبيل الله. وكانت تقول: البخل كلُّ البخل من بَخِل على نفسه بالجنّة[10].

قيل: وأعتَقتْ هند بنتُ المهلّب[11] فى يوم واحدٍ أربعين رَقَبة.

وروى عن أمّ ذرّ، قالت: أرسل ابن الزبير إلى عائشة بثمانين ومائة ألف درهم، فدعَتْ بطَبقٍ - وهى يومئذ صائمة - فقسمتْه بين الناس حتى أمْسَتْ وما عندها من جميع ذلك درهمٌ واحد، فقالت: يا جارية هلُمّى فطّرينى[12]، فجاءَتْها بخُبْز وزَيْت، فقالت لها: عائشة، أما استطعتِ ممّا قسمت أن

(١) ، المحاسن والأضداد ٧٦، ٧٧.

(٢) ط: «أدوى»، الصواب ما أثبته من المحاسن والأضداد ٧٧.

(٣-٣) المحاسن والأضداد: «إلا ومعها ملكان يناديان يسمعان الخلائق، غير الجن والإنس وهما الثقلان»

(٤) كذا فى ك، وفى ل: «ليعرفان».

(٥) ، المحاسن والأضداد: «أيها».

(٦) ، المحاسن والأضداد ٧٧.

(٧) من المحاسن والأضداد.

(٨) المحاسن والأضداد: «أو طريقا ما سلكتها»، والطريق تذكر وتؤنث.

(٩) ك: «فى كل يوم».

(١٠) المحاسن والأضداد ٧٧.

(١١) المحاسن والأضداد ٧٧: «هند بنت عبد المطلب».

(١٢) فطره: أعطاه فطورا.

تشترى لحمًا بدرهم! فقالت: لا تغضبى؛ فلو ذكرتِنى لفعلت.

وقيل: إنها تصدّقتْ بسبعين ألف درهم؛ وإن درعها لمرقع.

وقال بعض الحكماء: ثوابُ الجود خَلفٌ ومحبّة ومكافأة، وثواب البخل حِرْمانٌ وإتلاف ومَذَمّة[١].

وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «يا علىّ كن شجاعًا، فإنّ الله جلّ وعزّ يحبُّ الشجاع. يا علىّ كن سخيًّا فإنّ الله عزّ وجلّ يحبُّ السّخاء؛ يا علىّ كن غيورًا؛ فإنّ الله عزّ وجلّ يحبُّ الغيُور. يا علىّ، وإنْ سائلٌ سألكَ حاجةً ليس لها بأهل؛ فكن أنت لها أهلا»[١].

وقال ﷺ: «السخاءُ شجرةٌ فى الجنَّة، أغْصَانُها فى الدّنيا، من أخذ منها بغُصْنٍ قاده[٢] ذلك الغُصن إلى الجنّة».

قيل: وقال عبد العزيز بن مَرْوان: لو لم يدخل على البُخَلاء فى بُخْلهم إلَّا سوءُ ظنِّهم بالله عزّ وجلّ لكان عظيما[٣].

وقال ﷺ: «تجافوْا عن ذَنْب السخىِّ؛ فإن الله جلّ وعزّ يأخذ بيدِه كلّما عَثَر»[٣].

وقال بهر ام جور: من أَحَبَّ أن يعرفَ فضلَ الجود على سائر الأشياء، فلينظر إلى ما جادَ الله عزّ وجلّ به من المواهب الجليلة[٤] النفيسة، والنسيم والريح وما وَعدهم فى الجنان، فإنّه لولا رضاهُ الجود لم يصطَنِعه لنفسه[٥].

قال: وقال المويَذ[٦] لأبرويز: أكنتم وآباؤكم تَمُنُّون بالمعروف، وتترصَّدُون عليه بالمكافأة؟ فقال: لا، ولا نستحسن ذلك لخَوَلنا وعبيدنا، فكيف نرى ذلك لأنفسنا! وفى كتاب ديننا: إنَّ مَنْ أظهر معروفًا خفيًّا ليتطاوَلَ به على المنعَم عليه، فقد نَبَذَ الدِّينَ وراء ظَهْرِه، واستوجَبَ ألا يُعَدّ فى الأبرار، ولا يُذكَر فى الأتقياء والصالحين[٥].

قال: وسئل الإسكندر: ما أكثر ما سُرِرتَ[٧] به من مُلْكِك؟ قال: اقتدارى[٨] على اصطناع الرجال والإحسان إليهم[٥].

قال: وقال أرسطاطاليس فى رسالة له إلى الإسكندر: اعْلَمْ أَنَّ الأيّام تأتى على كلّ شىء فتُخلق الآثار، وتميت الأفعال، إلا ما رَسَخ فى قلوب الناس. فأودِع[٩] قلوبَهم محبّةً بمآثرك تبقِى بها حُسنَ ذكرك، وكريمَ فِعالِك. وشريفَ آثارك[١٠].

قيل: ولما قُدِّم بُزُرْجُمْهر إلى القتل قيل له: أنت فى آخر وقت من أوقات الدنيا، وأوّلِ وقتٍ من

---

(١) المحاسن والأضداد ٧٧

(٢) المحاسن والأضداد: «مد به»

(٣) المحاسن والأضداد ٧٨.

(٤) ل: «الجلية».

(٥) المحاسن والأضداد ٧٨.

(٦) الموبذ: رئيس الكهنة.

(٧) المحاسن والأضداد: «ما شيدت به ملكك».

(٨) المحاسن والأضداد: «ابتدارى إلى اصطناع الرجال».

(٩) كذا فى المحاسن والأضداد. وفى ط: «وأودع».

(١٠) المحاسن والأضداد ٧٩.

أوقات الآخرة، فتكلّم بكلام تذكر به، فقال: أىّ شىء أقول؛ الكلام كثير، ولكن[١] إن أمكَنَك أن تكون حديثًا حَسَنًا فافعل[٢].

قيل: وتنازع رجلٌ من أبناء الأعاجم وأعرابىٌّ فى الضِّيافة، فقال الأعرابىّ: نحن أقْرَى للضيف، قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنّ أحدنا ربّما لم يَملك إلّا بعيرًا فإذا حلّ به ضيف نَحَر له، قال العجمى: فنحن أحسن مذهبا فى القِرَى منكم. قال: وما ذاك؟ قال: نُسَمّى الضَّيْف «مِهْمان»، ومعناه أنّه أكبر مَنْ فى المنزل وأملكنا به.

وقال بعض الحكماء: قام[٣] بالجودُ، من قام بالمَجْهود[٢].

وقيل: من لم يضنّ[٤] بالموجود هو الجَوَاد.

وقال المأمون: الجود بذْل الموجود، والبخلُ سوء الظّن بالمعبود.

* * *

قيل: وشكا رجلٌ إلى إياس بن معاوية كَثْرة ما يَهَب ويَصِل ويُنْفق، فقال: إن النفقة داعية إلى الرزق - وكان جالسًا بين با بين - فقال للرجل: أغلِق هذا الباب فأغْلَقَه، فقال: هل تدخُل الريح البيْت؟ قال: لا، قال: فافتحْه، ففتحَه، فجعلت الرياحُ تخترق البيت، فقال: هكذا الرزق، إنّك إذا غلّقْتَ الباب لم تَدخل الرّيح، وكذلك إذا أمسكتَ لم يأتِك [الرزق][٥].

* * *

قيل: ووَصَل المأمون محمد بن عبّاد المهلّبىّ بمائة ألف دينار، ففرقها على إخوانه، فبلَغ ذلك المأمون، فقال: يا أبا عبد الله، إنَّ بيوت المال لا نقوم بهذا، فقال: يا أميرَ المؤمنين، البخل بالموجود، سوءُ ظنٍّ[٦] بالمعبود[٧].

* * *

وعن أمية بن يزيد الأموىّ؛ قال: كنا عند عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية، فجاءَه رجلٌ من أهل بيته، فسأله المعونة على تزويج[٨]، فقال له قولاً ضعيفًا فيه وعدٌ وقلّةُ طَمَع، فلمّا قام[٩] من عنده ومضى، دعا صاحبَ خِزانته، وقال: أعطه أربعمائة دينار، فاستكثرناها وقلنا: كنت رددت عليه ردًّا ظننّا أنك تعطيه شيئًا قليلاً، فإذا أنت قد أعطيته أكثر ممّا أمّل؛ فقال: إنى أحب أن يكون فِعلى أحسَن من قولى[١٠].

* * *

---

(١) ك: «ولكنك».
(٢) المحاسن والأضداد ٧٩.
(٣) المحاسن والأضداد: «بلغ الجود».
(٤) ك: يضر، ل: «يظن».
(٥) تكملة من المحاسن والأضداد ٧٩، ٨٠.
(٦) ك: «الظن».
(٧) المحاسن والأضداد ٨٠.
(٨) ك: «التزويج».
(٩) ك: «قدم».
(١٠) المحاسن والأضداد ٨٠.

وبحاتم يضرب المثل فى السّخاء، فحدَّثنا عن بعض رجالات[١] طيىء قال: كان حاتمٌ جوادًا شاعرًا، وكان حيثما نزل عُرِف منزله، وكان مظفَّرًا، إذا قاتلَ غَلَب؛ وإذا غَنِمَ أنْهَبَ، وإذا سُئِل وَهَبَ، وإذا ضَرَب بالقِدْح سَبَق، وإذا أَسَرَ أطلق. وكان أقسم ألّا يقتُلَ واحِدَ أُمِّهِ، ولمّا بلغ حاتمًا قولُ المتلمِّس:

وأعلمُ علمَ حقٍّ غيرَ ظَنٍّ ... وتقوى الله من خير العَتاد[٢]
لحفظُ المالِ خيرٌ من بُغاهُ ... وطَوْفٍ فى البلادِ بغيرِ زادِ
قليلُ المالِ تصْلِحه فيبقَى ... ولا يَبقى الكثيرُ على الفَسَاد
[الوافر]

قال: ماله قطع الله لسانَه، حرّض الناسَ على البُخل! أفلا قال:

فلا الجودُ يُفنى المالَ قبلَ فنَائِه ... ولا البخلُ فى مال الشّحيح يزيدُ[٣]
فلا تَلْتَمِس بُخلا بعيشٍ مقتّرٍ ... لكلِّ غدٍ رزقٌ يعودُ جديدُ
ألم ترَ أن الرزقَ غادٍ ورائحٌ ... وأنّ الذى يعطيك سوف يعيدُ![٤]
[الطويل]

* * *

قيل: ولمّا مات حاتمٌ خرج رجل من بنى أَسَدٍ يُعرف بالخيبرىّ فى نفر من قومه، وذلك قبل أن يَعلمَ كثيرٌ من العَرَب بموتِه، فأناخوا بقَبره، فقال: والله لأحلفنَّ للعرب أنِّى نزلتُ بحاتمٍ وسألتُه القِرَى فلم يَفْعَل، وجعل يَضْرِبُ برجله قبره؛ وهو يقول:

أعْجِلْ أبا سفانة قراكا ... فسوف أُنبى سائِلى ثَناكا[٥]
[الرجز]

فقال بعضهم: مالك تنادى رِمّة! وباتوا مكانهم. فقام صاحب القول من نومه فَزِعًا، فقال: يا قوم، عليكم مَطَاياكم، فإنّ حاتمًا أنْشَدَنى:

أبا الخَيْبرىّ وأنتَ امرُؤٌ ... ظلومُ العشيرةِ شَتّامُها
أتيتَ بصَحْبك تبغى القِرى ... لدى حُفْرةٍ صَخِبٍ هامُها
تَبغى لى الذم عند المبيتِ ... وحَوْلك غَوْثٌ وأنعامها
فإنا سنشبع أضيافَنا ... ونأتى المطىَّ فنعتامُها[٦]

---

(١) المحاسن والأضداد: «حالات».

(٢) الأغانى ٢١: ١٣٦ (ساسى).

(٣) المحاسن والأضداد ٨٠.

(٤) كذا فى المحاسن والأضداد، وفى ط: «غير بعيد».

(٥) النحل: العطية.

(٦) الخبر والأبيات فى المحاسن والأضداد ٨٢، وفى الأغانى ١٦: ٩٧، ٩٨، والخزانة ١: ٤٩٥، واللآلى ١٤٧، مع اختلاف فى الرواية.

قيل: ونزل على حاتم ضيفٌ ولم يَحضُره قِرًى، فنحرَ ناقَة الضَّيف وعَشّاه وغدَّاه، ثم قال له: إنَّك أقرضتنى ناقتَك فغدَّيتُك[١]، فاحْتكِم[٢]، قال: راحلتيْن، قال: لك عشرون، أرضيتَ؟ قال: نعم، وفوق الرِّضا. قال: فلك أربعون، ثم قال لمن بحضرته من قومه: مَنْ أتانا بناقة فله ناقتان بعد الغارة؛ فأتَوْه بأربعين فدَفَعها إلى ضيفه.

* * *

وحَكوْا عن حاتم أنَّه خرج فى الشهر الحرام يطلب حاجة، فلما كان بأرض عَنَزة ناداه أسير لهم: يا أبا سفّانة، أكلَنى الإسار! قال: ويْلَكَ! والله ما أنا فى بلادى، وما معى شىء، وقد أسأت أن نوّهت بى! فَذَهب إلى العنْزِيِّين فساوَمَهُمْ به واشتراه منهم، وقال: خَلُّوا عنه وأنا أقيم مكانَه فى قيدِه حتى أؤدّى فَداه. ففعلوا فأتاهم بفدائه[٣].

* * *

وقيل فى المَثَل: هو أجوَدُ من كعب بن مامة. وكان من إياد، وبلغ من جُوده أنه خرج فى رَكْب وفيهم رجل من أهل النَّمِر بن قاسطٍ فى شهر ناجر - والنَّجَر العطش - فضَلُّوا وتَصافنوا[٤] ماءَهم، فجعل النمرىُّ يَشْرَب نصيبَه فإذا أصاب كَعْبًا نصيبه قال: أعط أخاك يَصطبح، فيؤثره على نفسه حتى أضرّ به العطش[٥]، فلما رأى ذلك استحثَّ راحلتَه وبادَرَ حتى رُفِعت له أعلام الماء، وقيل له: رِدْ كعبُ فإنك وارد، فغلبه العطش، فمات ونجَا رفيقُه[٦].

* * *

وقيل فى المَثل: هو أسمحُ من لافِظة، وهى العَنْز تُستدعَى للحَلْب، فتجىء إليه وهى تَلفظ بجرتها فرَحًا بالحَلْب.

وقال الشاعر:

يـداك يد خيـرُهـا يـرتجى	وأخـرى لأعدائها غـائـظَهْ
فـأما التى خيْـرُها يُـرتجَى	فأجودُ جُـودًا من اللّافِـظَه
وأمـا التى شَـرُّهـا يُتّقى	فنفسُ العـدوّ بهـا فـائـظَه

[المتقارب]

* * *

قيل: وخرج معاويةَ بن أبى سفيان ذاتَ يوم، فقام إليه رجل فقال: قد أملتك لمهم، فما عوضى من ذلك! قال: إبلاغُك أمنيّتَك، فتمنّ، قال: ألف دينار، قال: هى لك ومثلُها؛ استظهارا لبقاء النعمة عليك.

---

(١) ك: «فغديتك بها».
(٢) ك: «فأحتكم على».
(٣) المحاسن والأضداد ٨٢.
(٤) تصافن القوم: تقاسموا الماء بالحصص.
(٥) محاضرات الأبرار: «فأضر بهم».
(٦) المحاسن والأضداد ٨٢ ومحاضرات الأبرار ١: ٢٦٠.

وقال المهلّب بن أبى صُفْرة لبنيه: يا بَنِىّ إن ثيابَكم على غيركم أحسنُ منها عليكم، ودوابكم تحت غيركم أحسن منها تحتَكُم.

وكان يقول لولده: لا تَتكلوا على ما سبق مِن فعلى، وافعلوا ما يُنْسِب إلىَّ، ثم قال متمثِّلا:

إنما المجدُ ما بَنَى والدُ الصِّدْ ... قِ وأحيَـا فِعالَـهُ المولـودُ

[الخفيف]

ويقول: ابتداء الفَضْل يَدٌ موفورة، والبَذْل بعد الطلب يدٌ مقبوضة.

* * *

فأمّا صِلات الخلفاء وسخاؤهم؛ فإنه حدّثنا هارون بن محمد بن إسماعيل بن موسى الهادى، قال: حدَّثنى علىّ بن صالح، قال: كنت يومًا على رأس الهادى وأنا غلام، وفد جَفَا[١] المظَالم ثلاثةَ أيّام عاقَر العُقار فيها، فدخل عليه الحرّانى[٢] فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ العامّة لاتقاد – أو قال: لا تنقادُ – لما أنت عليه، لَمْ تنظُر فى أمرِ المظالم منذ ثلاثة أيام. فالتفت إلىّ فقال: يا علىّ، ائذنْ الناس علىَّ بالجَفَلى لا بالنَّقَرى، فخرجتُ من عنده وأنا أطير على وَجْهى لا أدرى ما قال لى. فقلت: أرجعُ فأسأله عمّا قال، فيقول: تحجُبنى ولا تعلم كلامى! ثم أدْرَكنى ذِهنى؛ فبعثتُ إلى أعرابىّ كان وَفَدَ علينا، فسألتُه عن الجفَلى والنّقَرى، فقال: الجفَلى جُفالة الرجال، والنَّقرى ترتيبُهم. فأمرتُ بالسُّتور فرفُعت، وبالأبواب فَفُتِحت، فدخل الناسُ على بَكْرة أبيهم، فلم يزل ينظر فى المظالم إلى الليل، فلما تقوّض المجلس [مثلتُ بين يديه، فقال: كأنّك تريد أن تذكر شيئا يا علىّ][٣] قلت: [نعم] يا أمير المؤمنين، كلّمتَنى بكلام لم أعرفه[٤]، [قبل يومى هذا، وخفت مراجعتك فتقول: أتحجبنى وأنت لم تعلم كلامى!] فبعثت إلى أعرابىّ كان عندى[٥] ففسّره لى، وفهمنى؛ فكافئه عنّى يا أمير المؤمنين، فقال: نعم مائة ألف درهم تحمل إليه، فقلت: يا أمير المؤمنين، [إنه] أعرابىٌّ جِلْف، وفى عشرة آلاف درهم ما أغناه [وكفاه]، فقال: وَيحك[٦]! أجودُ وتَبخَل[٧]!

قال: وحدّثنا عبدُ الله بنُ عمرو الْبَلْخىّ، عن ابن دأب، أنّه كان يأكل مع الهادى وينادِمُه وكان يدعو له متّكَأ[٨] – وما كان يفعل ذلك فى مجلسه بغيره؛ وكان لذيذ المفاكهة، طيِّبَ المُسامرة، كثير النادرة، جيد الشِّعر، حَسَنِ الانتزاع – قال: فأمر له ذاتَ ليلة بثلاثين ألفَ دينار، فلما أصبح وجّه قَهْرمانَهُ إلى باب موسى وقال له: الق الحاجبَ، فقل له يوجّه إلينا بهذا المال. فلقَى الحاجبَ، وأتاه

(١) كذا فى الطبرى، وفى ل: «خفى»، وفى ك: «خفى عليه».

(٢) كذا فى ل والطبرى. وفى ك: «الخزامى».

(٣) من تاريخ الطبرى.

(٤) الطبرى: «لم أسمعه».

(٥) الطبرى: «عندنا».

(٦) الطبرى: «ويلك».

(٧) الخبر فى الطبرى ٣: ٥٨٢ (طبع أوربا)، وتاريخ ابن الأثير ٥: ٨٠.

(٨) ط: «بتكاء» وما أثبته من الطبرى.

برسالته، فتبسّم وقال: هذا ليس إلىّ؛ فانطلق إلى صاحب التوقيع ليُخْرج إليك[١] كتابًا إلى الديوان فَتدبّره ثم تفعل فيه كذا وكذا. فرجع إلى ابن دأب فأخبَره، فقال: دعها ولا تعرّضْ لها. قال: فبينا موسى فى مستشرَف له [ببغداد][٢] إذ نظر إلى ابن دَأبُ قد أقبل، وليس معه إلاّ غلام واحد، فقال لإبراهيم الحرّانى[٣]: أما ترى ابن دأب! ما غيرَّ من حاله شيئًا، [ولا تزيّن لنا][٢]؛ وقد بررناه بالأمس، لِنَرى أثرَ ذلك عليه.

فقال إبراهيم: إن أمرنى أمير المؤمنين تعرّضتُ له بشيء من أمره[٤]؛ قال: لا، هو أعلم بأمره. ودخل ابنُ دأب وأخذنا فى حديثه إلى أن عَرّض له موسى بذكر ذلك، فقال: أرى ثوبك غسيلا، وهذا شتاء يُحتاجُ فيه إلى الثوب الجديد اللّين. فقال: يا أمير المؤمنين، باعى قصير عمّا احتاج إليه. قال: وكيف وقد صرفنا إليك من برِّنا ما ظننا أنّ فيه صلاَحَ شأنِك! قال: ما وَصَل إلىّ ولا قبضته.

فدعا صاحب بيت مالِ الخَاصّة وقال: عجّل له السّاعة ثلاثين ألف دينار، فأحضرتْ وجُعلت بين يديه[٥].

* * *

وقال الحسن بن يحيى بن عبد الخالق: حدّثنى محمد بن القاسم بن الربيع، قال: أخبرنى محمد بن عمرو الروميّ؛ قال: حدثنى أبِى قال: جَلَس الهادى مجلسا خاصًّا، فدعا بإبراهيم بن جعفر بن أبى جعفر، وإبراهيم بن سلم بن قُتيبة بن مسلْم، والحرَّانىّ، فجلسوا عن يساره، ومعهم خادمٌ للهادى أسود يقال له أسلم، إذ دخل صالح صاحب المصلّى، فقال: هارون بن المهدىّ! قال: ائذنْ له، فدخل وسلّم عليه وقبّل يدَه، وجلس عن يمينه بعيدًا، فأطرقَ موسى، ثم التفت إليه وقال: يا هارون، كأنِّى بك تحدِّث نفسك بتمام الرؤيا وتؤمِّل ما أنت منه بعيد، ودون ذلك خَرْط القَتاد! تؤمِّل الخلافة! قال: فبرك هارونُ على ركبتيه وقال يا موسى، إنّك إن تجبرت وضعت، وإن تواضعتَ رُفِعْتَ، وإن ظَلَمت خُتِلْتَ[٦]، وإنى أرجو أن يُفْضِى إلى الأمر فأنصف من ظلمت، وأصلَ من قطعتَ، وأصير أولادَك أعلى من أولادى، وأزوِّجهم بناتى، وأبلُغَ ما يجب من حق الإمام المهدىّ.

فقال له موسى: ذلك الظّن بك يا أبا جعفر، أدن منىّ. فدنا وقبّل يدَه، ثم ذهب يعود إلى مجلسه فقال: لا والشيخ الجليل، والملك النبيل - أعنى أباك المنصور - لاجلستَ إلاّ معى. فأجلسه فى صدر المجلس معه، ثم قال: يا حرانىّ، أحمِل إلى أخى ألفَ ألفَ دينار، وإذا افتتُح الخراجُ فاحمل إليه

---

(١) الطبرى: «له».

(٢) من الطبرى.

(٣) ك: «الخزامى».

(٤) ك: «من ذلك» الطبرى: «من هذا».

(٥) الخبر فى تاريخ الطبرى ٣: ٥٨٩: ٥٩٠ (طبع أوربا) وتاريخ ابن الأثير ٥: ٨٧.

(٦) ك: «خبلت»، وفى ابن الأثير: «قتلت».

النِّصف، واعرضّ عليه ما فى الخزانة(١) الخاصّة وسائر الخزائن من مالنا، وما أُخِذ من أهل بيت اللّعنة(٢) فيأخذ منه ما أراد.

قال: ففعل ذلك، فلّما قام قال لصالح: أُدن دابّته إلى البساط.

قال عمرو الروميّ: وكان هارون يأنَس به قلت: يا سيدى، ما الرؤيا التى قال لك؟ قال المهديُّ: رأيت فى منامى كأنى دفعتُ إلى موسى قضيبًا، وإلى هارون قضيبًا(٣ أورقَ من قضيب موسى وأعلى منه٣)؛ فأما قضيبُ هارون فأورقَ من أوّله ألى آخره، وكان قضيب موسى دونَ قضيب ذلك.

فدعا المهديُّ الحكَم بن موسى العَنَزِىّ(٤) – وهو الّذى بنى أبوه واسطًا للحجّاج - فقال له: عبر هذه الرؤيا. قال: يملكان جميعًا، فأما موسى فتقلّ أيّامه، وأمّا هارون فيبلغ مدى آخر ما عاشَ خليفة، وتكون أيّامه أحسن أيامٍ وأنضرها، ودهره أحسن دهر. قال: فلم يلبث إلّا أيامًا يسيرة حتى مات موسى، وتولّى الأمر هارون، فزوّج حمدونة من جعفرَ بن موسى، وفاطمة من إسماعيل، ووفّى بكلّ ما قال. فكان دهره أحسنَ الدهور(٥).

* * *

محمد(٦) بن علىّ بن الحسين العَلَوىّ، قال: كنتُ عند عمر بن الفرج الرُّخَّجىّ فى اليوم الّذى عقد فيه المأمون لأخيه أبى إسحاق على ثغر المغرب، ولابنه العبّاس على الشام والجزيرة، ولعبد الله ابن طاهر على الجُند ومحاربة بابَك، وعند عمر جماعةٌ من الهاشميين، فتذاكرْنا أمر هؤلاء الثلاثة، فقال عمر: فرَّق أميرُ المؤمنين فى(٧) هؤلاء الثلاثة ما لم يفرِّق مثله أحدٌ منذ كانت الدنيا؛ أمر لأخيه أبى إسحاق بخمسمائة ألف دينار، ولابنه العباس بخمسمائة ألف دينار، ولعبد الله بن طاهر بخمسمائة ألف دينار، فمن سختْ نفسُه بمثل هذا!

* * *

وكان للبرامكة فى هذا الشأن ما لم يكن لأحد من الناس؛ منها أنّهم كانوا يخرجون باللّيل سرا، ومعهم الأموالُ يتصدّقون بها، وربما دَقّوا على الناس أبوابَهم، فَيدفَعون إليهم الصرة فيها ما بين الثلاثة آلاف إلى الخمسة آلاف والأكثر من ذلك والأقّل، وربما طَرَحوا ما معهم فى عَتَب الأبواب،

(١) الطبرى: «الخزائن».
(٢) زاد ابن الأثير: «يعنى بنى أمية».
(٣-٣) الطبرى: «فأورق من قضيب موسى أعلاه».
(٤) الطبرى: «الضمرى».
(٥) الخبر فى تاريخ الطبرى ٣: ٥٧٦ – ٥٧٨ وتاريخ ابن الأثير ٥: ٧٨.
(٦) ك: «حدثنا».
(٧) ك: «على».

فكان النَّاس لاعتيادهم ذلك يَعْدُون إلى العَتَب إذا أصبَحوا يَطلُبون ما أُلقِى فيها.

* * *

ومنهم خالد بن برمك فإنه حدّثنا يوسف بن سلّام الزعفرانيّ، قال: حدثنى أبى قال: قال خالد بن برمك - وهو بالرّىّ، وأراد الخروج يومًا إلى مجلس له وإخراج[١] دوابِّه إلى الخضرة[٢] ونحن قيام بين يديه: من يخرج مع هذه الدوابّ؟ قال أبِى: أنا -وليس أحد يجترئ أن يتكلّم- فقال: أخرُج معها، فخرجت وكنت أحسِن إليها، فلما رددتُها حَمد أثرى فيها، فقلت: أيها الأمير، لى حاجة! فقال: وما حاجتك؟ قلت: أمى مملوكة لقوْم[٣] بالبصرة، وحاجتى أن يشتريَها الأمير، قال: وكم ثمنُها؟ قلت: ثلاثة آلاف درهم، قال: ثلاثة آلاف؟ قلت: نعم، قال: اعطوه ثلاثة آلاف درهم، وقال لى: اشْتَرها الآن وأعْتِقْها. ثم قال: ما تريد؟ قلت: الحجّ، أحج وتحج هى أيضًا[٤]، قال: أعطوه ثلاثة آلاف درهم: قلت: نحتاج إلى خادم يخدمنا. قال: أعطوه ثلاثة آلاف درهم لثمن خادِم. قلت: نحتاج إلى ثمن كِسْوة[٥]. قال: أعطوه ثلاثة آلاف درهم لكسوتهم[٦] فلم أزل أقولُ وأعدّ شيئا شيئًا حتى قلت: واحتاجُ إلى منزل، واحتاج إلى فَرَس، وهو يقول: أعطوه ثلاثة آلاف درهم، حتى أخذتُ ثلاثين ألف درهم.

* * *

قال: وحدّثنا يزيد البرمكىّ، قال: كسا خالد كل ثوب كان له حتى لم يبقَ عليه من كِسوته إلاّ طَيْلَسَان خَلَق، فاتّصل خبرُه فى كسوته بامرأته أم خالد بنت يزيد، وكانت بالرّىّ، فبعثتْ إليه بكسوة من الرىّ؛ طَيْلَسان مُطبَّق لم أرَ مثله جودَةً وحسنًا وسعةً، وكان خالدٌ ذا بَسْطةٍ فى الجسم، فكان يحتاج إلى أسبَغ ثوبٍ وأتمه، فَوُضع بين يديه، فنظر إليه، تم رفع رأسَه إلىّ، فقال: يا يزيد، كيف ترى هذا الطيلسان؟ قلت: ما رأيتُ مثله، وإنّ بالأمير إليه لحاجة[٧]. قال خالد: أصنع به ماذا؟ قلتُ: تلبَسه أيها الأمير. قال: أنا والله إلى غير هذا أحوَج. قلتُ: وما هو؟ قال: أن تقومَ الساعةَ على شريف من أشراف الناس، أو حرٍّ من أحرارهم فَتُتْحِفَه به، فيقوم فَيَلبسه كلَّ يوم عيد، أو يخرج[٨] إذا خرج نحو أهله، فيلبسه عند قدومه عليهم، فيقول: هذا كِسوة خالد؛ هذا والله أفضلُ وأشرفُ من لبسى إيّاه[٩].

قال: فكساه بعضَ عُفاته.

* * *

(١) ك: «وأخرج».
(٢) ك: «الحضرة».
(٣) ك: «لقرم»، والقرم: السيد.
(٤) ك: «معى فقال».
(٥) ك: «الكسوة».
(٦) ك: «لثمن كسوتهم».
(٧) ك: «حاجة».
(٨) ك: «ويخرج».
(٩) ك: «له».

ومنهم يحيى بن خالد، فإنه حدثنا عليّ بن الحسين الأشقر، عن عبد الله بن أسوار، قال: كنت أخُطّ بين يدىْ يحيى، وكان خطِّى يُعجبه، فبينا أنا جالس بين يديه إذ ناولَه رجل كتابا، فثنى أعلاه وجَعَل يقرؤه فدخل الفضل ابنُه فسلّم وجلس، ثم أقبل على رجل يحدّثه وطَرْف يحيى فى الكتاب الذى بيده، فقال الفضل لذلك الرجل: إنى لأعجب كثيرًا من أمرٍ نحن فيه! كان الرجل يصل الرجلَ بخمسين ألف درهم فتُغنيه وعشيرته، فيكتفُون بها، ونَرَى ذلك فى وجوههم ويتبيّن عليهم أثره، ونحن نصل الرجل بخمسمائة ألف درهم والأكثر فلا نَرى ذلك فى وجوههم. فالتفت إليه يحيى وقطع قراءة الكتاب، فقال: يا أبا العباس، إذا كان أملُ الرجل ألف ألف درهم وأعطيته خمسمائة ألف لم تَقَع منه مَوقعًا، وإنما يُرَى[1] فى وجه الرجل ما بلغ به الأمل.

فعجَب أهلُ المجلس من كرمه وقوله، ومازالوا يَحكُونه[2] عنه.

* * *

وحدّث ابن مزْروع، عن أبيه قال: كنتُ أسيرُ فى موكب يحيى بن خالد، فعرَض له رجلٌ من العامة ومعه كتاب، فقال: أصلح الله الأمير[3]! اختِمْ هذا الكتاب، فبادر إليه الشاكريّة يزجُرونه من حواشى موكبه، فقال: دَعوه قبل ألّا ننتفعَ به – يعنى خاتمه – واستدناه فَخَتَمه له. وتعجّب مُسايروه من اغتنامه المعروف، وعلمه بأفعال الرجال[4].

* * *

وحدّث صالح بنُ سليمان، قال: وذُكِرَ ليحيى وهو مجاور بمكّة أن بجُدّة قومًا يصيدون السّمك ويبيعُونه ويشترون طعامهم به فإن[5]، لم يجدوا صيدًا مكثوا أيامًا لا يأكلون، يشدّ الرجل على بطنه حجرًا، ولا يسألون الناس شيئًا، وربما مات أحدُهم جوعًا. فقال: هؤلاء أعجَبُ قومٍ سمعت بهم! ينبغى أن نلتمس الثواب فيهم. فبعث فحُمل إليه بعضهم، فسأله عن حالهم، فأخبره، فقال: وكم أنتم؟ فذكر عدّة، فقال: وكلُّكم على هذه الطريقة[6]؟ قال: نعم. قال: فما يُغنيكم؟ قال: تُحفَر لنا بركةٌ يجتمع فيها ماء السماء، فإن الماء يعِزُّ بالبلاد إلّا على من كانت له مَصْنَعة، فيشرَب منها ويبيع فَضْلَها وينتفع ثمنه.

قال: فبكم يَكتفى أحدُكم فى الشهر؟ قال: بأربعة دراهم لكلّ رجل، وللمرأة ستة دراهم، قال: فإنى قد أجرَيْتُ لكلّ رجل عشرةَ دراهم، ولكل امرأة ثمانية عشر درهما. فهل تتزوّجون؟ قال نعم، قال: فكم مُهور[7] نسائكم؟ قال: أربعمائة دِرْهم. قال: فإنى آمر بإعطائكم ما أجريْت عليكم لسبعٍ سنين، ولمهور نسائكم عشرين ألف درهم. قال: مَنْ يدفع هذا المال إلينا؟ فأشار إلى غلام أمرَدَ معه، فقال: ادفعْ إلىّ هذا المال. فدفع[8] إليه، فقال: أتأذن أن أشترىَ – أصلَحك الله – من

---

(١) ك: «ترى».
(٢) ك: «يحكون».
(٣) ك بعدها: «الوزير».
(٤) ك: «الزمان».
(٥) ك: «فإذا».
(٦) ك: «الحالة».
(٧) ك: «مهر».
(٨) ك: «فدفعه».

هذا المال تابوتًا أجعله فيه! قال: نعم، وأمرَ باتّخاذ برْكةٍ لهم، بلغت النفقة عليها[١] عشرين ألف درهم.

* * *

وحدّثنا يزيدُ البرمكيّ قال: قدم الواقديّ من المدينة بأسوأ حال، فصار إلى يحيى وهو لا يعرفُه، فوضع الطويلة على رأسه، فركب يحيى وخرج، فرآه جالسًا على باب داره فى زِىِّ القُضاة، فقام الواقديّ وأثنى عليه، ودعا له. ومرّ يحيى فى موكبه إلى دار أمير المؤمنين، ثم انصرف وإذا الواقديُّ فى مجلسه ذلك، فقام إليه ودعا له وأثنى عليه، فدخل فى منزله، وجلس الواقديُّ فسأل يحيى عنه، وقال: مَنْ هذا الشيخ الرَّثّ الهيئة؟ فلم يعرفه أحد. فقال: ويْحَكُمْ! لا أشك إلاّ أنه شيخٌ أصيل، معه عِلْم وفِقه، ودعا بكيس فيه أربعة آلاف دينار، وأمر وكيلاً له أن يدْفعَها إليه، وكان قُصارى الواقديّ ومُناه أن يصلَه بألف درهم. فخرج الرسول ووضع الكيس فى حِجْره، فلمّا رأى عِظَم الكيش، أقبل يدعو ليحيى ويثنى عليه، ثم قام وانصرف إلى منزله، وقد أخذته الرعدة والحرصُ أن يرى ما فى الكيس فيعرف منتهاه، فلما صار إلى حُجْرته استعار من بعض جيرانه ميزانًا وصنجات، ثم فتح الكيس وإذا أربعة آلاف دينار، فكاد أن يُغشى عليه من السرور، فرمّ من حاله، واتّخذ ثيابًا سوية، وعزم على أن ينصرف إلى المدينة، فلما كان من الغد بكّرَ على يحيى ليودّعه، فدخل وأنْشَد، فرآه عالمًا فقيهًا مسامرًا بليغًا. فأعجب به، فقام ليودعه، فقال: أقِمْ عندنا ولك فى كلّ حول هذا المقدار. فأقام عنده.

* * *

وحدّثنا يعقوب بن إسحاق، قال رأى رجل من الموالى ليحيى رؤيا عجيبة، وكان يحيى على حال الخوف والوجل من الهادى، فقصّ الرؤيا على أبيه، فقال: يا بُنىّ، هذه والله رؤيا[٢] عجيبة، وأخْلِق به؛ لأنّ الرشيدَ فى حِجْره، وولايةُ العهد له.

قال: يا أبتِ؛ أفترى[٣] أن أُخْبِرَه بها؟ قال: يا بنى لا تفعل، فإن السلطان غليظ عليه، وهو يرميه بالزَّندقة، وأنا أشفق عليه من إتيانه، لأنّه لا يَقبل مثلَ هذا فى هذا الوقت، فعصى الرجل أباه وأتاه. قال الرجل: فلمّا دخلتُ عليه رأيتُ المصحف بين يديْه يقرأ فيه، فعجبت مما قيل فيه فلما خف مَنْ عندَه دنوتُ منه، فقصصتُ عليه الرؤيا، فقال: يا بن أخى، ما أحسن بالرجل أن يَلتمسَ الرزقَ بالأحسن الأجمل! وأقبحْ به أن يَلتَمِسهُ على هذا وبما تذكره مما يشبههُ. فخرجت من عنده وقد سقط وجهى، فأتيت أبى فأعلمتهُ فقال: بعدًا لك وسُحْقًا! قد نصحتُ لك فلم تقبل. ثم أقبل يشتمه وتَشتُمه أمّه وأهله، يقولون: نشهد عليك أنّك من الزنادقة المعطِّلين.

قال: ثم[٤] لم يلبث أن توفى الهادى، وأفضى الأمر إلى الرشيد، وصار يحيى إلى ما صار إليه، فبينا هو فى موكبه يومًا، إذ بَصُرَ بى، فوجّه إلىّ ودعانى فدخلتُ عليه وهو على كرسىّ قد طرحَ ثوبه،

(١) ك: «عليه».
(٢) ك: «الرؤيا والله».
(٣) ل: «فترى».
(٤) ك: «فلم».

وجعل يمسَح وجهَه، فلما دنوت منه قال: أين كنت عنّا؟ قلت: أعزَّك الله! والله ما لقيت منك ما يدعو إلى إتيانك، قال: ويحك! إنك أتيتَنَا ونحن فى حال[١] كنّا نتخوّف الجُدُر أن يكون فيها مَنْ يَسْعَى بنا، والإخوانَ أن يسعوا بنا ويحتالوا علينا، ولم يكن الرأى أن أجيبكَ إلاَّ بما أجبتُك، ووالله[٢] ما فارقنى الفِكر فى العناية بك، والإيجاب لك، والمعرفةِ بحقِّك، منذ وقعتْ عليك عينى.

ثم أمر سلاَّمًا بإحضار عشرة آلاف درهم، فأُحضِرَتْ، وأمر بالكتاب[٣] إلى سليمان بن راشد بأرْمِينيَّة. فدفع المال إلىّ ، وحَمَلَنى وخَلَع علىَّ، وقال: اذهب فأصلِحْ [بها][٤] شأنَك وتعال فتسلَّمْ كتبك، وأمر لى بعشرة من دوابّ البريد، فانصرفتُ إلى منزلى وتحتى دابّة وعلىَّ خِلْعة، ومعى عشرة آلاف درهم. فقال أبى: ما هذا يا بنىّ؟ فأعلمتُه الخبر، فما زلت وأهلى وأبى ندعو له ونَشهدُ أنَّه من الصّديقين والشهداء والصالحين. فقلت لبعض جيراننا: ما أصنع بعشْر دوابِّ البريد؟ فقال: أكرِها فإنك تصيب فى السِّكك من تقصُر به دوابُّه عن حاجته، فيكترى منك. قال: فلمّا كان من الغد عدْتُ إليه، فأخذت كُتُبى وجَوازى، فلمّا صِرتُ إلى السّكّة وجدت رجلاً كبيرًا قد وُجِّه إلى تلك الناحية، ولم يكتف بما حُمِل عليه من الدوابّ ، فأكريتُ له[٥] ثمانىَ دوابّ، وخرجتُ على دابّتين، أنا على دابّة، وغلامى على أخرى، ولم أزَلْ فى حَشم المكترى حتى صِرْنا إلى أوّل العَمَل، فإذا يحيى قد سبقنى بالكتاب إلى سليمان: أنّ رجلاً من حاله كيت وكيت، وله عندى أيادٍ، فاخترتُك له، فكن عند ظنّى بك فى أمره، وافعلْ به وافعلْ.

قال: فوجّه سليمانُ قائدًا فى جند عظيم لاستقبالى، حتى إذا اتّصل به دنوى استقبَلنى فى وجوه أهل البلد، فلمّا دنا منّا بادر إلى الرجل المكترى منّى، ولم يشكّ أنّى هو، وسأله فأعلَمه المكترى أنه فلان ابن فلان، فقال سليمان: توهّمتُك فلانًا! قال: لستُ هو، ولكنّه ذاك - وأشار إلىَّ - فأقبل سليمانُ ركضًا إلىَّ، وتضاءَلتُ منه حياءً لرثاثة حالى، فسألنى وأعلمنى أنَّه وجّهَ[٦] إلىّ وكيلَه، وحَمَلَ معه هدايا، فقلتُ: ما وصل ذلك إلىَّ. فلما نزلنا وحططنا فى بعضِ تلك المنازل؛ إذا وكيله قد وافَى بهداياه[٧]، وإذا دوابّ وبغال مُوقَرة، وتخوت وثياب، فدخلتُ البلد وقد حسُنت حالى.

فلما كان من الغد ركب إلىَّ وقال: قد أعلمنى أبو علىٍّ - أعزّه الله - عن حالك، ووكّد[٨] علىَّ فى كتابه، وليس عندى إلاّ إطلاق العَمَل لك، وهاهنا نَشْوَى الكبرى، ونَشْوى الصغرى؛ وهما من أجلّ الأعمالِ بأرمينيّة ونواحيها، فإن شئْتَ أن تخرجَ إليهما فاخْرج، وإن شئت فها هنا من يَبذُل عنهما خمسمائة ألف درهم.

قلت: لا والله - أبقاك الله - إلاّ الخمسمائة الألف؛ عجِّلها لى، فأنصرف إلى أبٍ، شيخ كبير، وعيالٍ قد خلّفتهم ورائى. قال سليمان: ذاك إليك، فلمّا خرج سليمانُ سألت عن نشوى ونشوى قال: فقيل مقاطعتها[٩] خمسمائة ألف درهم، ويصير إلى المقاطِع مثلُها. ثم لم ألبث من الغد أن أتى

---

(١) ك: «على حال».
(٢) ك: «فوالله».
(٣) ك: «بكتاب».
(٤) من ك.
(٥) ط: «منه».
(٦) ك: «إليه».
(٧) ك: «بهدايا».
(٨) ك: «أكد».
(٩) ك: «مقاطعها».

رسوله بالمال، فخرجت وأهديت يحيى هدايا كثيرة، وألطافا جليلة مما كان يرنى به سليمان. فلما دخلت إليه تبسّم إلىَّ وقال: إنّا لم نوجِّهك لننتفع[١] بك، بل وجّهناك لتنتفع بنا، وسيتّصِل[٢] معروفنا إليك فالزمنا، فكسَبْت بجاهه - ما مع وصل إلىَّ منه، ولم يزل يَصِلُنى به - عشرين ألف ألف درهم.

* * *

وحدّثنى أيوب بن هارون بن سليمان بن علىّ، قال: جاء يحيى ومعه ابنه جَعْفر إلى عبدالصّمد بن علىّ، فسلّم عليه، وبيابه فتىً من ولَد عبد الله بن علىّ، فقام إلى جعفر؛ فقبَّل يدَه، فقال له: ائتِنى وارفعْ إلىَّ حوائجَك [لأرفعها] إلى أمير المؤمنين، وقد أمرتُ لك بخمسة آلاف دينار. فقال يحيى: وقد أمرتُ لك بمثلِها، وأجريتُ عليك ثلاثة آلاف درهم فى كلّ شهر، فابعث بمن يَقْبِض ذلك!

فلما انصرف، دعاهُ عبد الصمد فقال: لم فعلتَ ما فعلت[٣]؟ فقال: أنا ابن أخيك، وإنما تصلنى فى السنة بأربعة آلاف درهم، وقد أغنانى هذا وأبوه فى ساعة واحدة، فكيف تلومنى على ذلك!

* * *

وحدّث يحيى بن محمد، قال: لمّا خرجَ الرّشيدُ إلى القاطول[٤] قال ليحيى: يا أبتِ لا تَفْجَعْنى بك، وكُنْ معى فى هذا الوجه لآنسَ بك. فَعِمدَ إلى الشُّخُوص معه، فقال لرجاء بن عبد العزيز- وكان على نفقاتِه: كم عند وكلائنا من المال؟ قال: سبعمائة ألف درهم. قال: فاقبضها إليك، فغدا إليه، فقبّل يدَه - ومنصور بن زياد عندَه - فلمّا خرج رجاء قال لمنصور: قد ظننتُ أنَّ رجاء توهّم أنّا وهبنا له هذا المال، وإنما أمرناه بقبضه ليكون معنا فى هذا الوجه: فقال منصور: فأنا أعلِمُه ذلك. قال: إذن يقول: «فقل له: يقبّل يدى كما قبّلت يده»؛ فلا تقل له شيئًا وترك المال له.

وكان يحيى يقول: أسرِف فإن الشَّرَف فى السرف.

* * *

ومنهم الفضل بن يحيى البرمكىّ، فإنه حدّثنا محمد بن علىّ بن عيسى بن ماهان، عن محمد بن زيد، أنّه قال: دخلت على الفضل بن يحيى وقد خرج من الحمّام بعد العصر وهو يقول: أعوذ بالله من النار! فقلتُ: جُعلتُ فِداك! اشترِ هذا الوَجْهَ الحسنَ من النار، فدعا بخمسمائة ألف درهم، وقال: اشْتَرِ[٥] بها وجهى الساعة. فقلتُ جُعلت فداك! الوقت ضيّق، ولكن غدًا إن شاء الله، فقال: لا والله، إلاَّ الساعة. فوجّهتُ إلى القضاة فى الجانبين بثلاثمائة ألف درهم، وحملت إلى أبى محمد

---

(١) ك: «بما يصير إليك».

(٢) ك: «وسيصل».

(٣) يريد تقبيل يد جعفر.

(٤) القاطول: نهر كان فى موضع سامراء، حفره الرشيد وبنى على فوهته قصرًا سماه أبا الجند لكثرة ما كان يسقى من الأرضين، وجعله لأرزاق الجند (مراصد الأطلاع).

(٥) ك: «استر».

السمرقنديّ منها صَدْرًا، وأمرتهم عنه بتفريقه، وفرقت البقية بحضرتى، فلم تغب الشمس حتى فرق ذلك كلّه.

* * *

وحدّث محمد بن الحسين بن مصعب، قال: وقَفَ الفضلُ بن يحيى بخُراسَان موقِفًا لم يَقفْه أحَدٌ قطّ، خرج إلى الميدان ليَضرِب بالصَّوالج، فأمر بدفاتر البقايا التى على النّاس فأحضرتْ، وأمر الحاجب بالخروج إلى الناس، وإعلامِهم[1] أنّه قد وهبها لهم. ثم أمر بها فضُربت بالنار، وكان مبلغ ذلك أكثر من عشرين ألف ألف درهم.

* * *

وحدَّث بعض الهاشميين عن خلَف المصرىّ قال: مررتُ يومًا بباب يحيى بن مُعاذ، فوجدته مغلَقًا ولم أر بالباب أحدًا، فأنكرتُ ذلك، فدنوتُ إلى الباب واستفتحتُ، فَفُتِح لى، ودخلتُ عليه، وسألتُه عن حاله، فذكر أنّه توارَى عن غرمائه، فقلت: وكم لدُيَّانِك عليك؟ فقال: ثلاثمائة ألف درهم، ثم مضيتُ إلى الفضل بن يحيى فأخبرتُه، فسكَت، فلمَّا انصرفتُ إلى منزلى كتب إلىّ: إنّك دلَّلتنا على مَكرمةٍ، فشكَرْناك[2] على ذلك، وأمرنا لك بمائة ألف درهم لدلالتِك، وبعثْنا إليك بثلاثمائة ألف درهم؛ لتُوصلها إلى يحيى بن معاذ.

فأوصلتها إليه، فقضى دَيْنه بها.

* * *

قيل: ودفع حمزةُ بن جعفر بن سليمان إلى أبى النّضير الشاعِرُ رُقعةً ليُوصلَها إلى الفضل؛ يسأله فيها الإذن له فى ابتياع ضَيْعة بفارس، وكان مبلغ ما يُوزَن فى ثمنها مائة ألف درهم. قال أبو النّضير: فأخذتُها منه، فدفعتها إلى الفضل، فنظر ووضعَها فاغتممتُ لما رأيتُ من قِلّةِ نشاطِه لها؛ فلمّا أصبحت قيل لى: خزّان بيت المال يطلبونك، فظننتُ أنه نظر لى بشىء فى خاصتى، فأتيتهم، فقالوا لى: أحضِر مَنْ يَحْمل المائة الألف إلى صاحب الرُقعة، فحملتُها إلى حمزة، قال حمزة: فصرتُ إليه، فقلت له: أصلح الله الأمير! وصلَتْ إلىّ صِلَتُك، ولا والله ما أدرى كيف أشكُرك إلّا بقول أبى النضير فيك:

وللنـاسِ مَعْروفٌ وفيهم صَنـائـعٌ	ولَنْ يجبر الأحْزَان إلَّا جَدَا الفَضْلِ
إذا ما العَطايـا لم تكن بَرْمَكِيّـةً	فتلْكَ العَـطايَا مـا تُمِرُّ ومـا تُحْـلِي

قال أبو النَّضير: فالتفت إلىّ الفضل فقال: يا أبا النّضير، جزاؤك عندى.

فوَصَلَنى حتى أغنانى.

* * *

(١) ك: «وأعلمهم».

(٢) ل: «فشكرت لك ذلك».

وحدَّث أحمدُ بن على السيفى[١] وغيره ممن ينزل بنهر المهدىّ، قال: أقبل الفضلُ بْن يحيى يومًا على نهر المهدىّ يريد منزله بباب الشمَّاسيّة[٢]، فاستقبله فتىً من الأبناء قد أُملِكَ[٣]، ومعه جماعة كثيرةٌ قد ركبوا معه فى السّواد والسيوف- وهكذا كانوا يفعلون، يركبون مع الرجل عند إملاكه، ويستعيرون الدوابّ ويسيرون خلفَه ويطرّقون بين يديه- قال: فترجّل الفتى للفضل وقبّل يدَه ورِجْلَه. فسأله عن شأنه، فأخبره فقال: كم أصدقتَ[٤] أهلَك؟ قال: أربعَة آلاف درهم، فدعا قهرمانه وقال: أحملْ إليه السّاعة أربعة آلاف درهم لصداقِ أهله، وأربعة آلاف درهم لشراء منزلٍ ينزله، وأربعة آلاف درهم لنفقة تحويل أهله، وأربعة آلاف درهم للنفقة على الوليمة وأربعة آلاف درهم ليتصرّف بها فى معيشته.

قال أحمد بن علىّ: فأشاروا على الفتى أن يسأله أن يأمر قواده وحشمه بإتيانه، فأمرهم بذلك، فأتوه، وجعلوا يَطرحون العشرة الآلاف الدّرهم والخمسة الآلاف الدّرهم والأقلَّ والأكثرَ فى مجلسه، حتى اجتمع له خمسون ألف درهم سوى ما أعطاه الفضل.

* * *

وحدّث أحمد بن علىّ، قال: حدّثنا رجل من جيراننا أنّ الفضل بنَ يحيى مرّ فى يوم صائف[٥] منصرفًا من المدينة، يريد منزله، فقال الرجل: لا والله إنْ[٦] فى منزلى قليل ولا كثير، فعَطِس الفضل فقلت: يرحَمُك الله! وقد كان سمع يمينى، فأمر بعض غلمانِه أن يَحمِلنى معه على دابّته فلمّا صار بى إلى قصره أخرج إلىّ خمسة آلاف درهم، وعشرةَ أثواب، فانصرفتُ بها إلى منزلى، فقالت لى امرأتى: والله لقد خرجت من عندنا وما [٦]تملك قليلًا ولا كثيرًا، فمن أين سرقتَ هذا؟ قال: فأعلمتُها القصّة، فلم تصدِّق قولى، واسترابَ الجيران بحالى، وتناهَى الخبرُ إلى السّلطان، فَطمِع فىّ، وأخذنى فحبسنى، فقلتُ له: إنّه كان من أمرى كيت وكيت، فوقع خبرى إلى الفضل، فأمر بإحضارى فلما أُحضِرت ورآنى عَرَفَنى، وأمر بإطلاقى ووَصَلنى بخمسة آلاف أخرى، وبعشرة أثواب، وقال: تَعَهّدْنا نَنْفعْك.

فلم يَزَلَ يَنفَعه[٧] حتى حَدثَ من أمرِهم ما حَدَث.

* * *

وعن أحمد بن محمد بن عبد الصمد، أنّ رجلًا كان ينزل على نهر المهدىّ، وكانت عليه نعمة فزالتْ، فلم يقدر على شىء، فَمُطِر الناس ثلاثة أيام متتابعة، فبقىَ فى منزله لا يقدر على الخروج،

(١) كذا فى ك. والسيفى: بفتح السين ، نسبه إلى سيف اسم رجل، وقد اشتهر بها كثيرون. وفى ل: «الشيقى» وانظر اللباب لابن الأثير.

(٢) السماسية، بفتح أوله وتشديد ثانيه: صحراء كانت فى أعلى بغداد ينسب إليها باب من أبوابها مراصد الاصلاع ٢: ٨١٠.

(٣) أملك، أى تزوج.

(٤) أصدق الرجل المرأة، أى سمى لها صداقًا.

(٥) يوم صائف أى حار.

(٦) ك: «ما» وما وإن هنا نافيتان.

(٧) ك: «ينفعنى».

فأضر به ذلك، وبلغ إليه الجوع وإلى عياله، فلمّا كان فى آخر الليل، جاء إلى البقّال[1] بقَصْعة له ليرهنَها عنده على خبز، فانتَهره البَقّال وقال: ما أصنع بهذه القَصْعة! وأبى أن يعطيَه عليها شيئًا.

قال: فعاد إلى منزله مغمومًا لا حيلة له، فرفع يدَه إلى السماء وقال: اللهمّ سُقْ إلىّ فى هذه الليلة عبدًا من عبادك تحبُّه، يُفرِّج عنّى ما أمسيتُ فيه! فما شعرتُ إلاّ والباب يدقّ علىّ، فإذا رجل على حمار قد حَفّ به خَدَمٌ، فقال لى: كم عيالُك؟ قلت: كذا وكذا، فأعطانى كيسًا قدّرت أن فيه خمسة آلاف درهم، فقلتُ: الحمد لله الذى استجاب دعائى، وفرّج عنّى. فقال لى: وما كان قولُك ودعاؤك؟ فخبّرته الخبر بصنيع البقّال وما دعوتُ الله جلّ وعزّ به، فاستحلَفنى أنى دعوتُ بهذا الدعاء! فحلفتُ له، فأمر لى بمائة ألف درهم فسألت بعض أولئك الخَدَم عنه لأعلم: هل يقدر على ما أمر لى به أم لا! فقال: هو الفضل بنُ يحيى بن خالد البرمكىّ، فسكنتُ إلى ذلك[2]، وانصرفت إلى منزلى ومضيت إلى قهرمانه لمّا أصبحتُ، فقبضتُ منه المال.

* * *

وحدّث خلف بن عمرَ المصرىّ، قال: كنّا عند الفضل ذات ليلة[3] فقال: أتعرفون رجلًا كانت عليه نعمةٌ فزالت عنه حتىّ أردّها عليه! فقال الأشعرىّ - وكان قاضيًا: أعرفُ أصلحَك الله رجلًا شريفًا من آل خالد بن عبد الله القَسْرىّ بالكوفَة؛ قد أضرَّت به الحاجة - وسمّاه له - فكتب إلى عامل الكوفة: أحْمِل إلىّ فلانًا على البريد، فقد بعثت بجَوازه، فلم يعلم الخالدىّ حتى حمله العاملُ على البريد ووجّهه إليه، فلما قدم عليه دعاه وسأله عن حاله، وأمر له بمائة ألف درهم وقال: أقِمْ بها مُروءتك حتى أنظر فى أمرك، وأدبِّرَ لك ما يُصْلِحُ[4] حالك، ثم ولاّه كَرْمان، فصار إليها، وحَسُنت حالُه[5].

ثم إن كتاب صاحب البريد بها ورد على الفضل بن يحيى بوفاة الكوفى، فقال لنا: أتدرون ما قال الفارسىّ فى مَثَل له، فذكر[6] المَثَل بالفارسيّة، ثم فسّره بالعربية، فقال: إلى أن يُدرك الحشيش قد مات الحمار؛ أردت بهذا الرجل الغِنَى، فمات قبل ذلك.

واغتمّ لوفاته، ولما فاته من الإحسان إليه بعد الّذى قد كان أعطاه وأكسَبَه من مرافق العمل الّذى ولاّه، وتقدّم بحَمْل جميع ما خلّفه إلى أهله فحمل إليهم[7].

وحدّثنا أبو طالب الجعفرىّ قال: حدّثنى سليمانُ بن أبى جعفر، أنّ محمد بنَ إبراهيم الإمام، ركب إلى الفضل بن يحيى يومًا، وكان قد ركِبَه دين، وحمل حُقه[8] فيها جوهر، فلما وصل إليه قال: قد لَزمنى دين أحوَجَنى إلى احتيال ألف ألف درهم، وعلمتُ أن التّجار لا يَسْمَحون بإخراج مِثلِها،

---

(١) البقال: «بائع البقول».

(٢) ك: «لذلك».

(٣) ك: «يوم».

(٤) ك: «ما تصلح به حالك».

(٥) ك: «أحواله».

(٦) ك: «ثم ذكر».

(٧) ك: «فحمله».

(٨) الحقة: دعاء من خشب وقد تسوى من العاج.

وإن وثقنا الرهن، ولك معاملون، وتجار مطيعون، ومعى رَهْن، فإن رأيت أن تأمرَ بِقَبْضه، وحَمْل هذا المال إلينا، فأنت أولى بذلك! فقال الفضل: نعم نا تجار يطيعوننا، ويسارعون إلى أمرنا، ولكن ما هذا الرَّهْن؟ فوضع الحُقّة بين يديه، ففتحها حتى نظر إليها، فأُعجِب بالجَوْهر الَّذى فيها، ثم أمر بإعادتها إلى حالها وقال: ضع خاتَمك عليها؛ فَخَتمها.

قال: فقال الفضل: إنّ نُجْحَ الحاجة أن تقيم فى منزلى الذى أنا فيه. فقال: يشقّ علىّ المُقام. فقال: وما يشقّ عليك! إن رأيت أن تلبسَ من ثيابنا شيئًا دعوت لك به، وإلاَّ فابعث إلى منزلك لتؤتَى به. فأقام عنده ونهض الفضل فدعا وكيله، وأمر أن يحمل إلى منزل محمد بن إبراهيم ألف ألف درهم مبدَّرة، ويضعها قبالَةَ مجلسه ليراها إذا دخل، ففعل الوكيل ذلك، وانصرف محمدٌ إلى منزله مع المغرب، فلما دخل وقعتْ عينُه على المال، فقال: ما هذا؟ قالوا: وجّه به الفضل، قال: أحسن الله جزاءه! فإنه وإن كان وجّه بذلك على ما رهنّاه[1] فقد ظهر لنا من عنايته ما قدّرناه فيه، قالوا: وما الرهن؟ قال: الحُقّة، قالوا: ردَّها بختْمِك[2]، فقال: أين هى؟ فأُتى بالحُقّة ففتَحها حتّى نظر إليها وفرح فرحًا شديدًا. فغدا إلى الفضل فوجَده قد سبقه إلى دار أمير المؤمنين فتبعه، فلم يزل واقفًا ينتظره حتى خرج الفضلُ من بابٍ آخر، فصار إلى منزله وشكرَ له ما كان منه، وانصرف عنه، فلمّا دخل منزله وجد فيه ألف ألف درهم سوى الأولى، فقال: ما هذا؟ قالوا: بعث به الفضل فأتاه، فقال له: جُعلت فِداك! أما كان فيما وجّهت به أمسِ كفاية؛ حتى أردفتَهُ بمثله! فقال: إنّه والله طالت علىّ ليلتى فركبت إلى أمير المؤمنين، وأعلمته حالَك، فأمرنى بالتقدير لك، فقدّرتُ مائة ألف دينار؛ فمازال يقول ويُماكِسُنى حتّى وقفتُ على ألف ألف، فأمر لك بها، فلما انصرف إلى المنزل حتى حملَ المال إليك. فقال محمد: لستُ أجدُ لك شكرًا أقضى به حقَّك، غير أنَّه علىّ من الأيمان المغلّظة إنْ وقفتُ بباب أحد سواكَ أبدًا حتى ألقَى الله جلّ وعزّ، ولا أسأل أحدًا حاجةً - ما بقيتُ - سواك.

فكان لا يركب إلى أحدٍ سوى الفضل، ولا يقفُ بباب أحدٍ غيره.

* * *

ومن كرمِهِ ما حُدِّثَ به المأمون - فكبرُ عندَه واستحسنه، وعجب من جُوده وسَعَة صدره - فإنه بلَغنا عن عمرو بن مَسعَدة قال: رفعت قصة إلى المأمون منسوبةٌ إلى محمد بن عبد الله؛ يمُتّ فيها بحرمة، ويزعم أنّه من أهلِ النِّعمة والقَدْر، وأنّه مولًى ليحيى بن خالد، وأنّه كان ذا ضَيْعة واسعة، ونعمة جليلة، وأنّ ضِياعه قُبِضت فيما قُبِض للبرامكة، وزالت نعمتُه بحلول النِّقمة عليهم. فدفعَها المأمون إلى ابن أبى خالد، وأمَرَه أن يضُمَّ الرجلَ إلى نفسه، وأن يُجرِىَ عليه، ويُحسِن إليه. ففعل ذلك به وصلَحت حالُه[3]، وتراجع أمرُه، وصار نديمًا لابن أبى خالد لا يفارقه. فتأخّر عنه ذات يوم لمولودٍ ولِدَ له، فبعث إليه، فاحتَجَب عنه، فغضِب عليه ابن أبى خالد، وأمر بحبسه وتقييده وإلباسه جُبَّةَ صوف، فمكث كذلك أيّامًا، فسأله المأمون عنه، فقص عليه قصَّته، وعظّم عليه جُرمَه؛ وشكا

(١) ك: «أرهناه».

(٢) ل: «تحت خاتمك»: وما أثبته من ك.

(٣) ك: «أحواله».

ما يراه عليه من التيه والصلف والافتخار بالبرامكة، والسمو بآبائهم. فأمر بإحضاره، فأحْضر فى صوفِهِ، فأقبل عليه المأمون بالتوبيخ، مصغِّرًا لقدْره، مُسَفِّهًا لرأيه، وعظَّم فى عينه إحسان ابن أبى خالد إليه؛ مع طعْن على البرامكة ووضْعٍ منهم، فأطْنَبَ فى ذلك.

فقال محمد: يا أمير المؤمنين، لقد صَغَّرْتَ من البرامكة غير مصغَّر، ووضعت منهم غير موضوع، وذممتَ منهم غيرَ مذموم؛ ولقد كانوا شفاءَ أسقامِ دهرهم، وغياثَ إجدابِ عصرهم، كانوا مَفزَعًا للملهوفين، وملجأً للمظلومين. وإن أذن لى أمير المؤمنين حدَّثْته بعض أخبارهم. ليستدلَّ بذلك على صدق قولى فيهم، ويقفَ على جميل أخلاقهم، ومحمود مذاهبهم فى عصرهم؛ والأفعال الشريفة والأيادى النَّفِيسة. قال: هات. قال: ليس بإنصاف ! محدِّثٌ مُقيَّد فى جُبَّة صوف ! فأمر فأخذ قيْده، فقال: يا أمير المؤمنين، ألم الجبَّة يحول بينى وبين الحديث، فأمر فَخُلِعَ عليه، ثم قال: هات حديثك.

قال: نعم يا أمير المؤمنين، كان وَلائى وانقطاعى إلى الفضل. فقال لى الفضل يومًا بِمحضَر من أبيه وأخيه جعفر: ويحك يا محمد ! إنِّى أحبُّ أن تدعوَنى دعوةً كما يدعو الصديق صديقَه، والخليل خليلَه، فقلتُ جُعلتُ فِداك ! شأنى أصغر من ذلك، ومالى يَعجزُ عنه، وباعى يَقصرُ عن ذلك، ودارى تَضيقُ عنه، ومُنَّتى لا تقوم له، قال: دعْ عنك ذلك، فلابدّ منه. فأعدتُ عليه الاستعفاء؛ فرأيتهُ جادًّا فى ذلك مقيما عليه، وسألاه ذلك، وأعلَمَاه قصورَ يدى من بلوغ ما يجب ويشبِه مثله، فقال لهما: لست بقانع منه دون أن يدعُوَنى وإيَّاكما، لا رابع معنا.

فأقبل علىَّ يحيى وقال: قد أبى أن يُعفِيَك، وإذْ لم يكن غيرنا، فأقْعِدْنا على أثاث بيتك فلاحِشْمةَ منّا، وأطعمْنا من طبيخ أهلك، فنحن به راضون، وعليه شاكرون. فقلت: جُعِلتُ فداك ! إن كنت قد عرضت على ذلك وأبيت إلاَّ هَتْكى وفضيحتى؛ فلاأقل أن تؤجلنى حتى أتأهَّب؛ فقال: أستأجل لنفسك. فقلت: سنة؛ فقال: ويحك ! أمعنا أمان من الموت إلى سنة ! فقال يحيى: أفرطت فى الأجل، ولكنى أحكم بينكما بما أرجو ألاَّ يردَّه أبوالعباس، وأقبله أنت أيضًا. فقلت: احكم –وفقك الله للصواب– وتفضَّلْ علىَّ بالاستظهار والفسخ فى المدَّة فقال: قد حكمت بشهرين.

فخرجتُ من عندهم. وبدأت برمِّ دارى، وإصلاح آلتى، وشراء ما أتجمَّل به من فرش وأثاث وغير ذلك، وهو فى ذلك لايزال يذكِّرنى، ويعدُّ الأيام علىَّ؛ حتى إذا كانت الجمعة التى تجب فيها الدعوة قال لى: يا محمد، قد قرُب الوقت، ولا أحسبهُ بقِىَ عليك إلاّ الطعام. قلت: أجل يا سيِّدى، فأمرت باتِّخاذ الطعام على غاية ما انبسطَتْ به يدى ومقدرتى، وجاءَنى رسولُه عشيَّة اليوم الذى فى صبيحته الدعوة، فقال لى: إلى أيْن بلغت ؟ وهل تأذن بالركوب ؟ قلت: نعم؛ بكِّر. فبكَّر هو ويحيى وجعفر، ومعهم أولادُهم وفِتْيَانُهم، فلما دخلوا أقبل علىّ الفضل وقال: يا محمد، إنَّ أوَّل ما أبدأ به النَّظر إلى نعمتك كلِّها صغيرها وكبيرها، فقم بنا إليها حتى أدورَ فيها وأقفَ عليها، فقمتُ معه، وطاف فى المجلس، ثم خرج إلى الخزائن وصار إلى بيوت الشراب، وخرج فى الاصطبلات، ونظر إلى صغير نعمتى وكبيرها، ثم عَدَل إلى المطبخ فأمر بكشف القُدُور كلِّها، وأبصَرَ قِدْرًا منها فأقبل على أبيه وقال: هذا قِدْرك الَّذى يُعجبك، ولست أبرَحُ دونَ أن تأكل منه. ثم كره أن يأكل

فيثلم عليّ في أكله، ويفسد طعامه، فدعا برغيف فغَمَسه في القِدْر، وناولَ أباه، ثم فعل ذلك بأخيه، ودعا بخلّال وخرج إلى الدار، ووقفَ في صَحْنِها مقَلِّبًا طرْفَه في فنائها وبنائها وسُقوفها وأرْوقتها، ثم أقبل عليّ وقال: مَنْ جيرانُك؟ قلتُ: جعلتُ فداك! عن يميني فلان ابن فلان التاجر، وعن شمالي فلان ابن فلان الكاتب، وفي ظهر داري رجلٌ بنى برجًا كبيرًا، فهو في بنائه لا يفْتُرُ ولا يقصِّر، فقال لي: أو تعرفه؟ قلت: لا، قال: كان ينبغي لك في قَدْرك ومَحَلِّك من هذه الدولة ألا يجترئ أحد أن يشتري شيئًا في جوارك إلاّ بأمرك لا سيّما إذا كان ملاصقًا لك، ولا ترضى لنفسك إلاّ بجارٍ تعرفه، فقلتُ: لم يمنعني من ذلك إلاّ ما كنتُ فيه من الشُّغْل بهذه الدعوة المباركة! فقال لي: فأين الحائط الذي يتصل بداره؟ فأومأت إليه، فقال: عليّ بنجّار، فأتى به، فقال: افتح هاهنا بابًا، فأقبل عليه أبوه وقال: نشدتُك الله يا بُنيّ ألاّ تهجُم على قوم لا تعرف لهم سببًا! وأقبَلَ عليه أخوه بمثل ذلك، فامتنع دون فتح الباب، فلما رأيته قد ردّ أباه وأخاه، أمسكت عن مسألته، ففَتح البابَ ودخلَ وأدخَلَني معه، فدخَلْتُ دارًا حارَ بصري فيها من حُسْنِهَا، كلّها لؤلؤ يُعشِي العيون، فانتهى إلى رواق فيه مائة مملوك في قَدٍّ واحد، وزيٍّ واحد، عليهم أقبية الدِّيباج المنسوجة، والمناطق المُذهَّبة. فلما نظروا إلى الفضل عَدَوْا ووقفوا بين يديه، وإذا شيخ بهي قد خرج من بعض تلك المجالس، فقبّل يَده، فقال: مرّ بنا ننظر في مرافق هذه الدار، فما دخلت مجلسا من مجالسه إلاّ وقد أفرغ تحشيته بالفرش الذي لا يحيط به الوصف وكذلك مَرافقها من الستور والبسُطِ، وغير ذلك.

ثم قال للشيخ: مر بنا إلى عند الدوابّ، فدخلنا اصطبلاً فيه أربعمائة رأس من الدوابّ والبغال وغيرها، فوجدتُ ذلك الاصطبَل أحسنَ بناءً من داري. ثم خرج نحو دور النساء - والشّيخ بين يديه - فلما انتهى إلى الباب، وقف الشيخُ ودخل الفضل، وجذبَني إلى نفسه وأنا معه؛ حتى دخلتُ بعض تلك الدُّور، فإذا فيها مائة وصيفة كأنهنّ الأقمار؛ قد أقبلن في حُليِّهِنّ وحُلَلِهنّ، فوقفن بين يديه، فقال: يا محمد، هذه الدار أجلّ أم دارك؟ فقلت: يا سيّدي، وما أنا، وما داري! هذه تصلح للأمير لا غَيره - على تحرُّج منّي في قولي. فقال: يا محمد، هذه الدار بما فيها من الدوابّ والرقيق والفُرُش والأواني لك، ولك عندي زيادةٌ! فقلتُ في نفسي: يهب لي مِلكَ غيره! فعلم ما في نفسي، فقال: يا محمد، إني لمّا سألتُك هذه الدعوة تقدّمت إلى هذا القهرمان بشراء البراح[1]، وأن يعجّل الفراغ منه ومن بنائه، وحوّلت إليها ما ترى، فبارك الله لك فيها!

وانصرف بي إلى عند أبيه وأخيه وحدَّثهما بما جرى، فرأيت أخاه جعفرًا قد أُمعِض[2] من ذلك، وتغيّر وجهُه تغيُّرًا عرفتُه، ثم أقبل على بيه يشكو الفضل ويقول: يتفَرّدُ بمثل هذه المكرمة من دوني! فلو شاركني فيها لكانت يدًا أشكرها منه. فقال: يا أخي بقي لك منها قُطْبها قال: وما هو؟ قال: إنّ مولانا هذا لا يتهيّأ له ضبطُ هذه الدار بما فيها إلاّ بدخْلٍ جليل، فأَعْطِه ذلك، فقال: فرّجتَ عنّي يا أخي، فرج الله عنك! فدعا من وقته بصِكاك لخمس قُرَيّات واحتمل عن خراجَها، فخرج عنّي وأنا أيسر أهل زماني! فهل تلومني يا أميرَ المؤمنين على ذكرهم والقول بفضلهم! فقال

---

(١) البراح: المكان الفضاء.

(٢) أمعض: أغضب.

المأمون: ذهب القوم والله بالمكارم! ثم أمر لمحمد بمائة ألف درهم.

وتقدّم إلى ابن أبى خالد برد مرتبته وتصييره فى جملة خواصّه.

* * *

وحدّثنا غيره قال: اصطحب رسولٌ للفضل ورجلٌ كوفىٌّ فى طريق خراسان، فأقبل الكوفىّ يسأل عن أفعال الفضل، فأخبره بإنهابه الأموالَ الجليلة فى العطايا، فقال له الكوفىّ: خبِّرنى عن هذه الأموال التى يهبها؛ يراها وينظر إليها؟ فقال: لا، قال: فمن هناك تَهُون عليه، فلما وصلا إلى الموضع دعا الفضلُ بالرسول، وسأله عمّا رأى فى طريقه وعمّا سمع، فأقبل يخبره حتى انتهى إلى خبر الكوفىّ، فذكر له ما قال – وكان متّكِئًا فاستوى جالسًا، ثم قال: يا غلام ائت صاحب بيت المال، فاسأله عن حاصله، فقال: هو: عشرة آلاف، فقال: تحمل الساعة إلى دار العامّة، وتشق عنها البِدَر شقًّا، وتنثر فى وسط الدار. قال: ففعل ذلك بها. ثم قال للرسول: هاتِ صاحبَك الكوفىّ، فأتى به، وأمر الفضلُ بتفريق ذلك المال على زُوّاره رجلًا رجلًا، واسمًا اسمًا على مقاديرهم. وما وقع لكلّ رجل منهم. ثم أمر للكوفىّ بمائة ألف درهم، وقال: هذه لك؛ لتنبيهك إيّاى على هذا الفعل.

* * *

ومما قيل فى ذلك:[1]

كـريمُ كـريمُ الأمّهـاتِ مُهـذّبٌ تحـلّبَ كـفّـاه الـنـدَى وأنـامِلُهْ
هو البحرُ من أىّ النواحى أتيتَهُ فَلُجّتُـهُ الْمَعـروفُ والجـودُ سَاحِلُهْ
جَوادٌ إذا ما جئتَ للعُـرْفِ طالبًـا حَبـاكَ بمـا تحوى عليـه أنـامِلُهْ
ولو لم يكن فى كفّهِ غيرِ رُوحِهِ لجـادَ بهـا فـليتّـق الله سَـائِلُهْ
[الطويل]

وللبحترىّ فى ذلك:

لـو أنّ كـفّـكَ لم تجُـدْ لِمُـؤَمِّـلٍ لكفـاهُ عـارضُ وَجْهِـكَ المُتَـهلّلِ[2]
أو أنّ مجـدَك لم يـكـن مـتـقـادمًـا أغـنـاكَ آخـرُ سـؤددٍ عَـنْ أوَّلِ
[الكامل]

* * *

علىّ بن يحيى النديم، قال: دعانى المتوكّلُ ذات يوم وهو مخمور، قال: أنشِدْنى قولَ عُمَارة[3] فى أهل بغداد، فأنشدته:

مَنْ يشْتـرِى مِنّى مُـلوكَ المخـرّمِ أبـغ حسَنًـا وابنىْ هشـام بـدرهم[4]

(١) لأبى تمام، ديوانه ٣: ٢٩، مع اختلاف فى الرواية.

(٢) ديوانه ٢: ١٨٠.

(٣) نسبها ياقوت فى معجم البلدان ٧: ٤٠٩ إلى دعبل وقال: يهجو الحسن بن رجاء وابنى هشام: أحمد وعليا، ودينار بن عبد الله ويحيى بن أكثم، وهؤلاء كانوا يسكنون «المخرّم».

(٤) المخرّم: محلة ببغداد بين الرصافة ونهر المعلى.

وأُعْطِى رجاء بعد ذاكَ زيادة   وأمنح دينارا بغير تندُّم
وإن طلبوا منى الزّيادةَ زِدْتهم   أبَادُلفٍ والمستطيلَ ابنَ أكثم[١]
[الطويل]

فقال المتوكل: ويلى على ابن البوال على عقبيه! يهجو شقيق دولة بنى العباس! قلت: يا سيّدى، من شقيق دولة بنى العباس؟ فقال: القاسم بن عيسى، فهل عندك من مديحه شىء؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قول الأعرابىّ الذى يقول:

أبادلَفٍ إنّ السماحة لم تَزَلْ   مُغَلَّلَةً تشكو إلى الله غلها
فبَشَّرها رَبِّى ببلادِ قاسمٍ   فأرسلَ جبريلاً إليها فحلّها[٢]
[الطويل]

ولبكر بن النطّاح فى أبى دُلَف:

بَطَلٌ بصدرِ حُسَامِهِ وسنانه   أجَلانِ من صَدَرٍ ومن إيرادِ[٣]
وَرِثَ المكارِمَ وابْتَنَاها قاسم   بصفائحٍ وأسنَّةٍ وجيادِ
يا عصمَةَ العرَبِ التى لو لم تكن   حَيًّا إذًا كانت بغير عِمادِ
إنَّ العيون إذا رأتْكَ حِدَادها   رَجعتْ من الإجلالِ غيرَ حِدادِ
وإذا رَمَيْتَ الثغرَ منك بعَزْمةٍ   فتّحتَ منهُ مواضِعَ الأسْدَادِ
وكأنّ رُمحَكَ مُنْقَعٌ فى عُصفُرٍ   وكأن سَيْفَكَ سُلَّ من فِرْصادِ[٤]
لوْ صَالَ من غضبٍ أبُو دُلَفٍ على   بيض السّيوف لَذُبْنَ فى الأغمادِ
أذْكى ونورَ للعداوةِ والهوى   نارَين: نارَ دَمٍ ونارَ رمَادِ[٥]
[الكامل]

وقال أبو هفّان: أنشدته عبد العزيز بن أبى دلف بسر من رأى، فبرنى ثم قال: هل خلق مثله؟ قلت: لا.

* * *

ولغيره فى أبى دُلَفٍ:

ولو يَجوزُ لقالَ الناس كلّهُمُ   لولا أبو دُلَفٍ ما أورقَ الشجرُ[٦]
قزمٌ إذا ما حوَى فى كفّهِ حَجَرًا   يفيضُ فى كفِّهِ من جُودِهِ الحجرُ
[البسيط]

---

(١) رواية ياقوت للبيت:
فإن وُدَّ مِنْ عَيْبٍ عَلَىّ جميعُهُمْ   فَلَيْسَ يَرُدُّ العَيْبَ يحيى بن أكثم
(٢) المحاسن والأضداد ٨٤.
(٣) المحاسن والأضداد ٨٣.
(٤) الفرصاد: صبغ أحمر.
(٥) المحاسن والأضداد: «زناد».
(٦) المحاسن والأضداد ٨٤.

وأنشد أيضا رحمه الله:

خل إذا جئته يوما لتسأله ... أعطاكَ ما ملكت كفاه واعتذرا[١]
يخفى صنائعه والله يظهرها ... إنَّ الجميل إذا أخفيته ظهرا

[البسيط]

وأنشد:

يَداك يدٌ غيثُها مرسل ... وأخرى لأعدائها غائظَهْ
فأمّا التي سيبُها يُرتجى ... فأجَودُ بالمال من لافظهْ
وأما التّي شَرُّها يُتّقى ... فنفسُ العدُوّ بها فائظهْ

[المتقارب]

وقال آخر:

فتىً عاهدَ الرحمنَ فى بَذْلِ ماله ... فليس تراه الدهرَ إلّا على العَهدِ[٢]
فتى قَصُرَت آمالُه عن فِعالِه ... وليس على الحرّ الكريم سِوَى الجَهْدِ

[الطويل]

وقال آخر:

عادَ السُّرور إليك فى الأعياد ... وسعِدْتَ من دُنياكَ بالإسعادِ[٣]
رِفقًا بشكر جلّ ما أوليتَهُ ... رِفقًا فقد أثقلتَهُ بأيادى
ملأ النفوسَ مهابَةً ومحبّةً ... بدْرٌ بدَا متغمّرًا بسوادِ[٤]
ما إن أرى لكَ مُشبِهًا فيمن أرى ... أمّ الكرامِ قليلةُ الأوْلادِ[٥]

[الكامل]

وقال آخر:

إذا ما أتاهُ السّائلونَ توَقَّدَتْ ... عليه مصابيحُ الطلاقَةِ والبِشْرِ[٦]
له فى ذُرَا المعروفِ نُعْمَى كأنَّها ... مواقِعُ ماءِ الْمزنِ فى البلدِ الْقفْرِ

[الطويل]

(١) المحاسن والأضداد ٨٤، والرواية هناك: «حر إذا جئته».
(٢) المحاسن والأضداد ٨٥.
(٣) المحاسن والأضداد ٨٤.
(٤) كذا فى ك والمحاسن والأضداد، وفى ل: «متعمًا».
(٥) المحاسن والأضداد: * إن الكرامَ قليلةُ الأنداد *
(٦) المحاسن والأضداد ٨٥.

محاسِن صِلات الشعَراء

قيل: دخل جرير على عبد الملك بن مروان؛ وقد أوفده إليه الحجّاج بن يوسف، فدخل محمدُ بن الحجّاج، فقال: يا أمير المؤمنين، هذا جريرٌ مادِحُك وشاعِرُك؛ فقال: بل مادِحُ الحجّاج وشاعرُه! فقال جرير: إن رأى أميرُ المؤمنين أن يأذَنَ لى فى إنشاده مدْحَةً! قال: هات. ابدأ بالحجّاج؛ قال: بل بك يا أميرَ المؤمنين؛ فقال: هات، ابدأ بالحجّاج، فأنشده:

صَبْرتَ النفسَ يَابْنَ أبى عَقِيلٍ ... مُحافظَة فكيف ترى الثوابَا[1]

ولوْ لَمْ تُرْضِ ربَّكَ لم يُنزِّلْ ... مع النَّصْر الملائكةَ الغِضابَا

إذا سعر الخليفةُ نارَ حربٍ ... رأى الحجّاجَ أثقَبها شِهابًا

[الوافر]

فقال: صدقت! كذاك هو؛ ثم قال للأخْطل: قُمْ فهاتِ مديحًا؛ فقام فأنشد وأجاد وأبلغ، فقال: أنت شاعرُنا، وأنتَ مادحُنَا، قم فاركبْه، فألقى النّصرانىُّ ثوبَه، وقال: خِبَّ يا بن المَراغة! فساءَ ذلك من حضَر من مُضر، وقالوا: يا أميرَ المؤمنين، إن النّصرانىّ لا يَركَب الحنيف المُسلِم، فاستحيا عبدُ الملك وقال: دَعْه.

قال جرير: فانصرفتُ أخزَى خلق الله، حتى إذا كان يوم الوداع دخلتُ لأودِّعه فأنشدته:

ألستم خيرَ مَنْ ركِبَ المطايَا ... وأندَى العالمين بطونَ راحِ![2]

[الوافر]

فقال: بلى، نحن كذلك، أعِدْ، فأعدتُ، وأسفَر لونُه، وذهب ما كان فى قلبه، فالتفت إلى محمد بن الحجّاج فقال: أترى أمّ حَزْرة يرويها مائة من الإبل؟ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، إن كانت من فرائض كلبٍ فلم تُروها، فلا أرواها الله!

فأمر لى بمائة من الإبل.

* * *

وحدثنا المدائنى؛ عن كيسان، عن الهيثم قال: حجّ عبدالملك بن مروان ومعه الفرزدق، فبينا هو قاعد بمكّة فى الحِجْر، إذ مر به علىّ بنُ الحسين بن علىّ بن أبى طالب، وعليه مطرف خز، فقال عبد الملك: من هذا يا فرزدق؟ فأنشأ يقول:

---

(١) ديوانه ١٧، من قصيدته التى مطلعها:

سَئمْتُ من المواصَلةِ الْعِتَابا ... وَأمْسَى الشَّيْبُ قَدْ وَرِثَ الشبابا

(٢) ديوان ٩٨.

هذا الّذى تَعرِفُ البطحاءُ وطْأَتَهُ والبيت يعرفه والحل والحَرَمُ(١)
هذا ابنُ خيرِ عبادِ الله كلِّهِمُ هذا التقيُّ النقيُّ الطاهرُ العَلَمُ
إذا رأتْهُ قريْشٌ قالَ قائلُها: إلى مكارمِ هذا يَنْتَهى الكَرَمُ
يكادُ يُمْسِكُهُ عِرفانَ راحتِهِ رُكْنُ الحطيم إذا ما جاءَ يستلِمُ
ينْمى إلى ذُرْوَةِ العزّ التى قَعَدَتْ عَنْ نَيْلِها عربُ الإسلام والعجمُ
مُشتقّةٌ منْ رسول الله نبْعَتُه طابَتْ عناصِرُهُ والخِيمُ والشيمُ
فى كفِّهِ خيزُرَانٌ ريحُهُ عَبِقٌ منْ كفِّ أرْوَعَ فى عِرْنينه شَمَمُ
ينشقُّ نورُ الدجى عن نُور غُرَّتِه كالشمس تنجابُ عَنْ إشراقها الظُّلَمُ
يُغضِى حياءً ويُغْضَى من مهابتِهِ فَما يكلَّمُ إلاّ حينَ يبتسِمُ
من معْشَر حبُّهمْ دِينٌ وبغضُهُمُ كُفْرٌ وقُربُهُمُ مَنْجًى ومعتصَمُ
يُستدفَعُ السوءُ والبلْوى بحُبِّهِمُ ويُسترَبُّ به الإحسان والنِّعَمُ
لا يستطيعُ جوادٌ بُعْد غايتهم ولا يُدانيهُمُ قومٌ وإن كَرُموا
إنْ عُدّ أهلُ النّدى كانوا أئمتهمْ أوْقيلَ مَنْ خيرُ أهلِ الأرض قيل:هُمُ
مقدَّمٌ بعدَ ذكر الله ذكرُهُمُ فى كلِّ برٍّ ومختومٌ به الكَلِمُ

[البسيط]

قال: فلما فرغ من شعره، قال له عبد الملك: أَوَرافضيّ أنتَ يا فرزدق؟ فقال: إن كان حبُّ أهل البيْت رَفْضًا فنَعَم. فحَرَمَهُ عبد الملك جائزتَه، فتحمّل عليه بأهل بيته، فأبى أن يعطيَه، فقال له عبد الله بن جعفر بن أبي طالب: ما كنتَ تؤمِّل أن يُعطيَك؟ قال: ألف دينار فى كلّ سنة. قال: فكم تؤمِّل أن تعيش؟ قال: أربعين سنة. قال: يا غلام، عليّ بالوكيل فدعاه إليه وقال: أعطِ الفرزدقَ أربعين ألفَ دينار: فقبضها منه.

* * *

قيل: ودخل الفرزدق على سكينة بنتِ الحسين، فقالت له: منْ أشعر الناس؟ فقال: أنا، قالت: كذبتَ! أشعَرُ منك الذى يقول(٢):

بِنَفْسِي مَنْ تجنّبهُ عَزيزٌ علىّ ومَنْ زيارتُهُ لِمامُ
ومَن أمسِى وأصبحُ لا أراهُ ويَطْرُقنى إذا هَجَع النيامُ

[الوافر]

فقال: أما والله لئن تركتَنى لأسمعنّك ما هو أحسن منه. فقالت: أخرجوه عنّى،اثم عادَ من الغَد. فقالت: مَنْ أشْعَر الناس؟ قال: أنا. قالت: كذبتَ، أشعر منك الذى يقول:

(١) أبيات منها فى الأغانى ١٥: ٣٢٧ (طبعة دار الكتب) وقال: «ومن الناس من يروى هذه الأبيات لداود بن مسلم فى قثم بن العباس، ومنهم من يرويها لخالد بن يزيد معه.. والصحيح أنها للحزين الكنانى.

(٢) الخبر فى الأغانى ٧ : ٥٠ (ساسى)، وفيه: «أشعر منك جرير الذى يقول»، والبيتان فى ديوانه ٥١٢.

يــا بيت عــاتكــة الّــذى أتعــزل   حــذر العِـدَا وبـه الفؤادُ مـوكّـلُ[١]
إنى لأمــنــحــك الــصــدود وإنــنى   قسـمًا إليـكَ مــع الصـدودِ لأميــل
[الكامل]

فقال: أما والله لئن تركتِنِى لأسمعنّكِ أحسن منه، فقالت: أخرجوه عنّى. ثم عاد من الغد وعندَها جَوارٍ كالتماثيل، فأخذت جاريةٌ منْهنَّ بقلبه، فقالت سُكينة: من أشعَرُ الناس؟ قال أنا؛ قالت: كذبْتَ! أشعر منك الذى يقول:

إنّ العيونَ الّتى فى طَرْفِها حور   قتلننا ثم لم يحيين قتـلانا[٢]
[البسيط]

فقال: يا بنتَ رسول الله، إن لى حقًّا بإقبالى عليك من مَكّة، ولا أراك تَدَعِينَنى أسمِعُك شِعْرِى، ولا تريدينِى على التكذيب، مع أنى لأخاف لما بى أنّى لا أبرح إلاّ مَيّتًا، ولى حاجة! قالت: فما هى؟ قال: إن أنا متُّ تأمرين بتكفينى فى ثياب هذه - وأشار إلى الجارية - فقالت: هى لك، وضمّت إليها جائزةً وكسوة.

* * *

وعن أبى الزِّناد، قال: اجتمع جرير والفرزدق وجميل وكثيّر ونُصَيب فى منزل سُكينة بنتِ الحسين، فخرجت جاريةٌ ومعها قِرطاس وقالت: أيّكم الفرزدق؟ فقال: هأنذا! قالت: أنت الذى تقول:

أبيتُ أمنّى النفسَ أنْ سوفَ نَلتَقى   وهل هو مقدورٌ لنفْسى لِقاؤها[٣]
فإنْ ألْقَها أو يجمَعِ الدَّهْر بَيْنَنَا   ففيها شفاءُ النَّفْسِ منْهَا وداؤها
[الطويل]

قال: نعم. قالت: قولك أحسن من منظرك، وأنت القائل:

ودعــنــنِى بــإشــارة وتحيــة   وتــركتنى بين الـديـار قتيـلا
لم أستطع رد الجواب عليهم   عند الوَداع وما شفين غليلا
لو كنت أملكهم إذن لم يبْرَحوا   حتىّ أودِّعَ قَلْبِىَ المخبــولاَ
[الكامل]

قال: نعم. قالت: أحسنْتَ أحسن الله إليك! وأنت القائل:

هــا دَلّتـانى مِنْ ثمــانـينَ قــامــةً   كما انقض باز أقتم الريش كاسره[٤]

(١) للأحوص، الأغانى ١٨: ١٩٥ (ساسى).
(٢) لجرير، ديوانه ٥٩٥.
(٣) ديوانه ١: ٧ مع اختلاف فى الرواية.
(٤) ديوانه ١: ٢٥٩ مع اختلاف فى الرواية.

فلمّا استوت رجلاى فى الأرض نادتا: أحى فيرجى أم قتيل نحاذره(١)
فقلت ارفعوا الأسباب لايَشْعر وابنا ووليت فى أعجاز ليل أبادره
أحاذِرُ بوَّابين قد وُكّلا بها وأحمرَ من ساجٍ تبصُّ مسامرُه(٢)
فأصبحتُ فى القوم القعودِ وأصبحتْ مغلّقةً دونى عليها دَساكرُه(٣)
[الطويل]

قال: نعم، قالت: سوْءةً لك؛ قضيتَ حاجتَك فأقشيت عليها وعلى نفسك! فضرب بيده على جبْهته؛ وقال: نعم. فسوأةً لى!

ثم دخلتْ وخرجتْ وقالت: أيّكم جرير؟ فقال: هأنذا! قالت: أنت القائل:

رُزقنا به الصّيْدَ الغزير ولم نكُن كمن نبلُهُ محرومَةٌ وحبائله(٤)
فهيهاتَ هيهاتَ العقيقُ ومَنْ به وهيهاتَ حيٌّ بالعقيق نواصله!(٥)
[الطويل]

قال: نعم، قالت: أحسن الله إليك! وأنت القائل:

كأن عيون المجتلين تعرضت وشَمْسًا تجَلَّى يومَ دَجْنٍ سحَابُها(٦)
إذا ذكرت للقلب كاد لذكْرِها يطيرُ إليها واعتراهُ عَذابُها
[الطويل]

قال: نعم؛ قالت: أحسنت، وأنت القائل:

سرتِ الهمومُ فبتْنَ غيرَ نيامِ وأخو الهموم يرومُ كلَّ مرام(٧)
طرقتْكَ صائدَةُ القلوب وليس ذا وقْتَ الزيارةِ فارْجعى بسلامِ
لو كان عهدُكِ كالّذى حدّثْتنِى لو صلْتُ ذاكِ فكان غير زمام
تُجرِى السِّواكَ على أغَرَّ كأنّهُ بَرَدٌ تحدّر من مُتون غمام
[الكامل]

قال: نعم، قالت: سوءة لك! جعلتها صائدةَ القلوب، حتى إذا أناخت ببابِك جعلتَ دونَها حجابًا! ألا قلت:

---

(١) الديوان: «يرجى» بالجيم المشددة.

(٢) فى الديوان:

* وأسْمَرَ من سَاجٍ تَئِطُّ مَسَامِرُهْ *

(٣) دساكره: قبابه.

(٤) ديوانه ٤٧٩، وروايته: «ولم أكن».

(٥) رواية الديوان:

فأيْهَاتَ أيْهاتَ العقيقُ وَمَنْ بهِ وأيْهاتَ وَصْلُ بالعقيق نواصِلُهْ

(٦) ديوانه ٥٢.

(٧) ديوانه ٥٥١.

طرقتك صائدة القلوب فمرحبا نفسى فداؤكِ فادخلى بسلام
[الكامل]

قال: نعم. فسوءة لى! ودخلت وخرجت، وقالت: أيكم كثير؟ فقال: هأنذا! قالت: أنت القائل:

وأعجبنى يا عَزَّ منك خلائقٌ حِسانٌ -إذا عُدّ الخلائق- أربعُ[1]
دُنُوّكِ حتى يطمعَ الصَّبُّ فى الصِّبا وقطعُكِ أسبابَ الصِّبا حين تَقَطَّعُ
فواللّهِ ما يَدْرى كريمٌ مطَلْتِه أيشتدّ إن قاضاكِ أمْ يتضرَّعُ!
[الطويل]

قال: نعم، قالت: أعطاك اللّهُ مناك! وأنت القائل:

هَنيئًا مَرِيئًا غيرَ داء مخامر لعَزّةَ من أعراضنا ما استحلّت[2]
فما أنَا بالدّاعِى لعزة فى الورى ولا شامت إن نعل عزة زلتِ
وكنْتُ كَذِى رجلين رجل صحيحةٍ ورِجل رمى فيها الزمان فشلّتِ
[الطويل]

قال: نعم! قالت: أحسن الله إليك! ثم دخلت وخرجتْ، وقالت: أيّكم نصَيب؟ فقال: هأنذا، قالت: أنت القائل:

وَلَوْلَا أَنْ يقالَ صبَا نُصيْبٌ لقلت: بنفْسِيَ النَّشأ الصِّغارُ[3]
ألا يا لَيْتَنى قامَرْتُ عنها وكان يَحِلُّ للناس القِمارُ!
فصارتْ فى يدى وَقمرْتُ مالى وذاكَ الرِّبحُ لوْ عَلِمَ التّجارُ!
على الإعراض منها والتّوانى فإنْ وَعَدَتْ فموعِدُها ضِمارُ
بنفسى كلِ مهضوم حَشَاها إذا قهرَتْ فليسَ بها انتصارُ
إذا ما الزُّلُ ضاعَفْنَ الحشايا كفاها أنْ يلاث بها إزارُ
ولوْ رأتِ الفَراشَةَ طارَ منها مع الأرواح روح مستطارُ
[الوافر]

قال: نعم. قالت: والله أنَّ إحداهنّ لتَقوم من نَوْمتها فما تُحسِن أن تتوضأ! لا حاجة لنا فى شعرك.

ثم دخلت وخرجت وقالت: أيكم جَميلٌ؟ فقال: هأنذا، قالت: أنت القائل:

لَقَدْ ذَرَفَت عينى وطالَ سُفوحُها فأصبحَ مِن نَفْسى سقيًا صحيحُها[4]

---

(١) الموشح للمرزبانى ١٦٨، ١٦٩، مع اختلاف فى الرواية.
(٢) أمالى القالى ٢: ١٠٧.
(٣) بيتان منها فى الأغانى ١٤: ١٦٦ (ساسى).
(٤) ديوانه ٥١.

ألاَ لَيْتنـا كنّا جميعًـا، وإن نمت | يجاور فى الموتى ضريحى ضريحها
أظَـلُّ نهارى مستهـامًـا ويلتقى | مع اللّيل رُوحى فى المنام ورُوحُها
فهل لىَ فى كتمان حبّىَ راحـةٌ | وهـل تنفعَنّى بَوْحَـةٌ لو أبـوحُها!

[الطويل]

قال: نعم، قالت: باركَ الله عليك! وأنت القائل:

خليـلىَّ فيما عشتـما هلْ رأيتـما | قتيلاً بَكى من حُبِّ قاتِلِهِ قَبْلى![1]
أبيتَ مـع الهُلّاكِ ضيفًـا لأهلها | وأهلى قريبٌ مُوسِعون ذوو فَضْل
فيارَبِّ إنْ تهلك بُثينَةُ لا أعِشْ | فُوَاقًا ولا أفرَح بمالى ولا أهلى[2]
ويـاربِّ أنْ وقّيْتَ شيئًا فـوَقِّها | حُتُوفَ المنايا، ربِّ واجمع بها شمْلى

[الطويل]

قال: نعم، قالت: أحسنْتَ أحْسنَ الله إليكَ! وأنت القائل:

ألا ليتَ شعْرى هل أبيتَنَّ ليلةً | بوادى القُرى! إنّى إذن لسعيد[3]
لكـلّ حديثٍ عنـدهُنّ بَشـاشَـةٌ | وَكـلُّ قتيـل بـينهـنّ شهـيـدُ
ويا ليتَ أيامَ الصِّبـا كنّ رُجّعًا | ودهـرًا تـولّى يـا بُثَيْنَ يعـودُ!
إذا قلتُ ما بى يا بُثينَـةُ قاتـلى | من الحبِّ، قالت: ثابتٌ ويزيدُ
وإن قلتُ رُدّى بعضَ عَقْلى أعش به | تَنَاءَتْ وقالتْ: ذاكَ منْـكَ بعيدُ
فـما ذُكِـرَ الخـلاّنُ إلاّ ذكـرتُهـا | ولا البخْلُ إلاَّ قلتُ سوْف تَجودُ
فـلا أنا مـرْدودٌ بما جئتُ طـالبًا | ولا حبُّهـا فيما يَبيـدُ يَبيـدُ
يموتُ الهوى منّى إذا ما لقيتُها | ويَحْيَـا إذا فـارقتُهـا ويـزيـدُ

[الطويل]

قال: نعم، قالت: لله أنت! جعلتَ لحديثها ملاحةً وبشاشة، وقتيلَها شهيدًا، وأنت القائل:

ألا ليتنى أعمَى أصمُّ تقودُنى | بُثينَةُ لا يَخْفَى علىَّ مكانُها!

قال: نعم، قالت: قد رضيتَ من الدنيا أن تقودَك بثينةُ وأنت أعمَى أصمُّ! قال: نعم. ثم دخلت وخرجتْ ومعها مُدْهُن فيه غالية[4]، ومنْديل فيه كسوة، وصرّة فيها خمسمائة دينار، فصبت الغالية على رأس جَميل حتى سالت على لحِيته ودفعت إليه الصّرة والكسوة، وأمرت لأصحابه بمائة مائة.

* * *

(١) ديوانه ١٧٦؛ ١٧٧.

(٢) فواقا، أى قليلا، وأصله ما بين الحلبتين من الراحة.

(٣) ديوانه ٦١، ٦٢.

(٤) المدهن: القارورة، والغالية: أخلاط من الطيب.

وقال سوّار بن عبد الله: قال رؤبة بن العجاج: أرسل إلىّ سليمان بن علىّ وهو[١] بالبصرة. فقال: هذا رسول الأمير أبى مسلم قدِم فى إشخاصِك. قلتُ: سمعًا وطاعة! أرجع إلى أهلى، فأصلح من شأنى. قال: ليس إلى ذلك سبيل. ثم التفت إلى الحَرَسِىّ فقال: هذا صاحبُك فشأنك، فلم أنهنْهْ أنْ حُمِلْت على البريد، فوافيت الأنبار مع الجمعة الأخرى، فأدخِلْتُ سُرادقًا فيه عشرة آلاف رجل فى السواد، واضعِى أذقانهم على قبائع[٢] سيوفِهم لا ينظر بعضهم إلى بعض إلاّ شَزْرًا، ولا يكلمه إلا همسًا، ثم اخترق بى سرادقًا آخر مثل الأوّل على مِثل حالهم. فقلت فى نفسى: أحسِبه تذكّر علىّ بعضَ قولى فى بنى أميّة، فأراد قتلى. فأيستُ عند ذلك من الحياة، ثم خرجتُ إلى سُرادق ثالث، فإذا قبّة مضروبة فى وَسَطه، فدُفعتُ إليه، فسلّمت بالإمارة عليه، فقال لى: أنت رؤبة بن العَجّاج؟ قلت: نعم، جعلنى الله فداك أيُّها الأمير! فقال: أنشِدْنى كلمتَك:

* يرمى الجلاميدَ بجُلْمودٍ مِدَقّ[٣] *

فحقق فى نفسى ما كنتُ قدَّرتُ وظننتُ. ثم قلتُ: بل أنشدك، جعلت فداك:

لَبّيْــكَ إذْ دَعَــوْتَـنى لَبَّيْكــا تـطلب حقا واجبًا علَيَكـا[٤]

فسكتَ حتى فرغتُ منها، ثم أقبل علىَّ فقال: أنشِدْنى قولَكَ:

* يرمى الجلاميد بجلمود مِدَقّ *

قلت: بل أُنشِدُك قولى[٥]

مـا زال يَبْنى خَنـدقًـا ويَهدِمـهْ وعسكــرا يشــرعــه ويهــزمــه
ومَـغْنَــمًا يجْـمعُـهُ ويَـقسِمــهْ مـــروان لمـا غــرَّه مُنجّمــهُ[٦]

[الرجز]

فأمسك حتى فرغت ثم قال: أنشدنى كلمتك:

* يرمِى الجلاميد بجلمود مدق *

---

(١) هو والى البصرة، وانظر الأعلام.
(٢) قبيعة السف ما على طرف مقبضة من فضة أو حديد، وجمعه قبائع، وفى ط: «قوابع» تحريف.
(٣) المدق: ما دققت به الشىء، والأرجوزة فى ديوانه ١٠٤ - ١٠٨
(٤) فى ملحق ديوانه ١٨١.

قلت ونَشْجِى مستجِـدٌ حَـوْكـا لـبّيْـكَ إذْ دَعَـوْتَـنى لـبَّيْكَـا
أحمـد ربًّـا سـاقنى إلـيْـكـا الحـمـد والنّعمـةُ فى يـديكَـا

(٥) ملحق ديوانه ١٨٦.
(٦) الديوان:

* مَرْوَانُ لمّا أن تَهاوَتْ أنجُمُهْ *

فقلتُ: بل أنشِدُك:

مــازال يأتى الأمــر من أقطارِهْ   عــلى اليمــين وعــلى يســاره
حَـتّى أقــرَّ المُـلكَ فى قــرارِهْ   مُشَمّــرًا لا يـصــطلى بنـــاره[١]

فقال: أنشِدْنى ويحك: «يرمى الجلاميد»! فأنشدته:

وقاتِمِ الأعماقِ خاوِى المخترق   مشتبـه الأعـلام لمـاع الخَفق

فأنصتَ حتى انتهيت إلى قولى:

* يَرْمى الجلامِيدَ بجلمود مدق *

فوقفت. فقال: إنّ أميرَ المؤمنين وجهنى إلى خراسان وبها جبال الحديد من الرجال؛ فدمّثتها حتى جعلتها دَهْسًا[٢]، فلم أجد لى مثلا إلا قولك:

* يرمَى الجلاميد بجلمود مِدَق *

أنا والله ذلك الجلمود، اذْكُرْ حَاجَتَكَ. قلت: جعلت فداك! حاجتى أن تردَّنى إلى أهلى، فقد خرجتُ مِن عندِهم وهم على وَجَل! فقال: يا غلام، علىّ ببَدْرةٍ، فكأنّها لم تزل بين يديه. فقال: يا أبا الجحّاف، إنك أتيتنا والأموال مشفوهة[٣]، وقد أمرنا لك بشىء وهو زَمِر[٤]، ولو أتيتَنا ونحن على طُمَأْنينة لأوطأت العربَ عقِبيْك، والدهرُ بيننا وبينَك؛ الطريق[٥] مستتبٌ ولك عودة، وعلينا معوّل! قال رؤبة: فوالله ما دريتُ بِمَ أجيبه! ثم قال: يُرَدُّ على السير الذى جاء عليه، فما شعر بى سليمانُ فى الجمعة الثانية إلاّ وأنا عنده، فأخبرته الخبر، فقال: يا أبا الجحاف، هذه ديتك، وربحت نفسَك[٦]!

* * *

قال: وحدّثنى عبد الله بن عمرو بن عبيد الله، قال: حدثنى جدى عبيد الله، قال: لما دخل مروان بن أبى حفصة على المهدى، وأنشده شعرَه الذى يقول فيه:

---

(١) ملحق ديوانه ١٧٤، وبعده

* ومر مروان على حماره *

(٢) الدهس: المكان السهل، ليس برمل ولا تراب.
(٣) أموال مشفوهة؛ أى كثرت نحوها ما الأيدى.
(٤) ك: «حشد» تحريف.
(٥) الطريق المستتب: الواضح اللاحب؛ وفى ط. «أطرق» تحريف.
(٦) الخبر فى الأغانى ١٨، ١٢٣ (ساسى).

أنى يكون وليس ذَاكَ بكائن لبنى البناتِ وراثه الأعمام ![1]
[الكامل]

أجازه بسبعين ألف درهم، فقال مروان:

بسبعين ألفا راشَنى مِنْ حبائهِ وما نَالها فى النّاس من شاعر قبْلى
[الطويل]

فحدثنا إدريس بن سليمان بن يحيى بن يزيد بن أبى حفصة، قال: كان سبب اتّصال مرْوان بخلفَاء بنى العبّاس، أن جارية يمانية أهديت إلى أبى جعفر المنصور، فأنشدتْه شعرًا لمروان يمدَح به السّرىّ[2] بن عبد الله، يذكر فيه وراثة العباس، فسألها: لمن الشعر؟ فأخبرتْه؛ فأمر بإحضار مروانَ، فوافاه بالرَّبَذة حاجًا، فلقى الربيع[3] والمنصور عليل، العلة، التى مات فيها، فقال: كن قريبًا حتى ندعو بك، فلم تزل العلّة تشتدّ به حتى مات قبل أن يصل إليه مروان، فقال له الربيع: الحَقْ بالمهدىّ ولا تتخلّف عنه. وانصرف مَرْوانُ إلى اليمامة فجعلها طريقا، وعليها بشر بن المنذر واليًا، فأوفده بِشْر فيمن أوفَد، وأعطى كلَّ رجل ألف درهم؛ فقدم مروان على المهدىّ، وقد مدحه بأربع قصائد؛ قوله:

صحا بعد جهد فاستراحت عواذله وأقصر عنه حين أقصر باطله
[الطويل]

وقوله أيضا:

طاف الخيال فحيه بسلام أنى ألم وليس حين لمام!
[الكامل]

وقوله أيضا:

اعص الهوى وتعز عن سعداكا فلمَثِل حِلمكَ عن هَواكَ نَهاكا
[الكامل]

وقوله أيضا:

مرى العين شوق حال دون التجلد ففاضَتْ بأسراب من الدمع جُسّد[4]
[الطويل]

(١) الشعر والشعراء ٧٤١.
(٢) ك: «السدى».
(٣) هو الربيع بن يونس حاجب المنصور ووزيره، وانظر ترجمته فى ابن خلكان ١: ١٨٥.
(٤) ك: «حشد» تحريف.

– جسد؛ من الجساد[١]، يريد أن يخلِطها به.

قال إدريس: فأعطى المهدىّ مرْوان ثلاثين ألف درهم. فانصرف إلى اليمامة، ثم عاد فى سنة أربع وستّين ومائة، فطلب الوصولَ بيعقوب بن داود، فأقام نحوًا من سنة، وغضب المهدىّ على يعقوب بن داود.

قال إدريس: فحدَّثنى مروان قال: بينا أنا واقف على باب المهدىّ؛ إذ خرج خالد بنُ يزيد بن منصور، فقال: يا بنَ أبى حفصة، ذكَرك أميرُ المؤمنين آنفًا، وهو يراك أشعَر الناس، غير أنّه يقول: لا حاجة لنا فيما قبَلك؛ فانصرف عن بابنا. قال: فانصرفتُ مغمومًا، ثم تذكّرت رجلًا أتحدّثُ عنه وأتَفرّج به، وآنس لديه، فأتيت يزيد بن مَزْيَد، فشكوت إليه ما قال لى خالد بن يزيد، فقال أدلّك على رجل صَدوقٍ له رقّةٌ لعلّه ينفعك! قلتُ: ومن هو؟ قال: الحسن الحاجب، فغدوتُ إلى الحسن، فشكوتُ إليه ما حكاه خالد من رأى أمير المؤمنين، فقال: بل من يعقوب بن داود. فقلتُ: بأبى أنت وأمى! أنت ترجو أن يكون ذلك مفتاحا لما أنا فيه! قال: ذاك كما أقول لك؛ فانصرفتُ وقلت:

أتـانى مِنَ المهـدىّ قـول كـأنمـا ... به احتزّ أنفِى مدمن الضغن جادع[٢]
وقلت وقد خِفتُ التى لا شوى لَها ... بلا حَدَثٍ: إنى إلى الله راجع[٣]
وما لى إلى المهدِىّ لو كنتُ مذنبًا ... سِوَى حِلْمِه الصَّافى من الناس شافعُ
ولا هوَ عندَ السُّخْطِ منه ولا الرِّضا ... بغير الذى يَـرْضَى به الله صـانعُ
عَلَيْـه من التقْـوى رداءٌ يكُنّـهُ[٤] ... وللحَقِّ نـورٌ بـين عَيْنيـهِ سـاطِـعُ
يُغَضُّ لـه طرْفُ العيـونِ وَطَـرْفُـهُ ... على غيره من خَشيةِ الله خاشِعُ
هل البابُ مُفْضٍ بِى إليكَ ابنَ هاشمٍ ... فعُذْرِى إنْ أفضى بى البابُ ناصعُ
أتيتُ امـرَأ أطلقْتَـه من وَثَـاقـه ... وقـد أُنشِبَتْ فى أخدَعيْـهِ الجوامـع
وَجـلّى ضبابَ العُـدْمِ عنه وراشـه ... وأنهضَـهُ معـروفُـك المتـتـابـع
فقلتُ: وزيـرٌ ناصـحٌ قد تتـابعت ... عَلَيْـهِ بـإنعـام الإمام الصنـائـع
ومـا كـانَ لى إلاّ إليـك ذريعـة ... ومـا ملك إلا إليـه الـذرائـع
وإن كان مطويًّا على الغدرِ كشحه ... فلم أدر منـه مـا تجن الأضـالـع
وقُلْ مثلَ ما قال ابن يعقوب يوسف ... لإخـوته قـولا له القلب تـالـع[٥]
تنفّس فَـلَا تثـريبَ إنّـك آمِن ... وأنى لـك المعروفَ والْقَـدْرَ جامعُ

---

(١) الجساد: الزعفران.

(٢) ك: «مدمن الضعف».

(٣) لا شوى لها؛ أى لا برء منها.

(٤) ل: «يكفه».

(٥) التلع: «التلف».

فما الناس إلا ناظر متشوف ... إلى كلّ ما تسدى إلىّ، وسامعُ

[الطويل]

قال: وقد قلت فى قصيدة أخرى:

سيحشر يعقوبُ بنُ داود خائبا ... يلوح كتاب بين عينيه كافر

خِيانتُه المهدىَّ أودت بذكره ... فَأَمْسى قد كمن غيبته المقابُر

بدَا منكَ للمهدىّ كالصُّبح ساطعا ... من الغش ما كانت تجن الضمائر

وهلْ لبياضِ الصبح أنْ لاحَ ضوءُه ... فجاب الدجى من ظُلمةَ الليل ساترُ!

أمَنزلة فوق التى كنتَ نلتَها ... تَعاطيْتَ، لا أفلحتَ ممّا تحاذِرُ!

قال: ثم أتيت بها الحسن بعد يومين، فقال: ما صنعت؟ فأنشدتها إيّاه، قال: اكتبها لى؛ فقلت: قد فعلت. فقال: هاتها، فتناولها، وقال: لست واضعها من يدى حتى أضعها فى يد المهدى. ثم مضى. وأتيته من الغد فقال: ما وضعتها من يدى حتى وضعتُها فى يد المهدى[1]، فقرأها، فرق لك وأمر بإدخالك عليه، فاحضر يوم الاثنين. فحضرت، فخرج علىٌّ فقال: قد علم أمير المؤمنين بمكانك، وقد أحب أن يجعل لك يومًا يشرفك فيه ويبلغ بك! قلت: فمتى بأبى أنت وأمّى! قال: يوم الخميس، فعدت إليه يوم الخميس، فإذا وجوه بنى العباس يدخلون على المهدىّ، فلما تتامَّ المجلسُ دعانى، فدخلت، فسلمت، فرد السلام، فقال: إنما حبسك عن الدخول انقطاعُك إلى الفاسق يعقوب بن داود، فافتتحْت النشيد بما قلتُ فى يعقوب، فأنشدته؛ ثم أنشدته، قولى فيه:

* طَرَقَتْكَ زائرة فحىّ خيَالَها[2] *

[الكامل]

فأُعجب بذلك وقال: جزاك الله خيرا! فقلت اشهدوا، هذا والله الشرف! أمير المؤمنين يجزينى خيرًا.

ثم أنشدته:

* أعادَكَ من ذكر الأحبَّة عائدُ *

[الطويل]

فلما صرت إلى قولى:

أيادِى بنى العبّاس بيض سوابغ ... على كل قوم بادئات عوائد

---

(١) زاد بعدها فى ك: «امير المؤمنين».

(٢) الأغانى ٩: ٣٩ (ساسى) وبقيته:

* بيضاء تخلط بالجمال دلالها *

فهم يَعدِلون السَّمْك من قُبَّةِ الهدى	كما يعدُل البيت الحرامَ القواعدُ[١]
سواعِدُ عزّ المسلمينَ وإنّما	ينوءُ بصَوْلاتِ الأكف السَواعِدُ
يزينُ بنى ساقى الحجيجِ خَليفَةٌ	على وجههِ نورٌ من الحقّ شاهدُ[٢]
يَكونُ غِرارا نومُهُ من حذاره	على قُبّةِ الإسلام والخَلْقُ راقدُ
كأنّ أميرَ المؤمنينَ محمدا	لرأفته بالناس، للناسِ والدُ[٣]
على أنه من خالفَ الحقَّ منهم	سقته به الموتَ الحُتوفُ الرّواصد[٤]

[الطويل]

أشار إلّى، فأمسكت. فقال: يا بنى العبّاس! هذا شاعرُكم المنقطِع إليكم، المعادَى فيكم، فآتوا إليه ما يسرّه.

فقلت: ينبغى إذ سمعوا كلامَ أميرِ المؤمنين وعَرَفوا رأيه أن يصلونى من أموالهم! فقال: أنا فارضٌ عليهم لك مالا، ففرض على موسى ابنه خمسةَ آلاف درهم، وعلى هارون خمسة آلاف، ثم فرض على القوم على قدر حالاتهم، حتى فرض عليهم سبعةً وثلاثين ألف درهم، والربيعُ يَكتب كلّ ما فرض على كلّ رجل منهم.

فقال أبو عبد الله: يا أمير المؤمنين؛ إنما نحن من أهلك، فأدخِلنا فيما أدخلتهم فجعل عليه ألفًا، وعلى الربيع ألفين، فتمّتْ أربعين ألفًا.

فقلت: يا أمير المؤمنين، مَنْ لى بهذا المال؟ قال: هذا – وأشار إلى الربيع – ثم قال: إن أميرَ المؤمنينَ يعطيك من صُلْب ماله. فأمر لى بثلاثين ألف درهم فى ثلاث بدَر، فجىء بهنَّ فطُرِحْن قريبًا، فدعوتُ وشكرتُ، فقال: يا بنَ أبى حفصة، ستجيئك صلاتى وبرّى، ويأتيك منى ما يؤدِّيك إلى الغنى.

فقلت: يا أمير المؤمنين، قد رأيت من قَبولك وبِشْرِك وسرورك[٥] بما سمعتَ منّى ما سأزداد به شرَفا[٦]، وستسمعُ ويَبلغك. وقلتُ: يا أمير المؤمنين، لا يبلغ ما أعطيتَنى لشاعر بعدى! قال: أجَلْ، قلتُ، وآذنِّى فى زيارتك! قال: نعم، قلت: يا أمير المؤمنين، لى عدوّ فيك وفى أهل بيتِك، فإن رأىِ أميرُ المؤمنين ألّا يجعل لأحد علىّ سلطانًا دونه! قال: لا سلطان عليك دُون أمير المؤمنين. فقلتُ: اكتب إلىَّ بذلك كتابًا، فأمر بالكتاب بذلك.

---

(١) ك: «البيت العتيق».

(٢) ساقى الحجيج، يريد العباس، جد الخلفاء.

(٣) الأغانى ١٠: ٨٩ (مطبعة الدار).

(٤) الأغانى: «سقته يد الموت».

(٥) ك: .«سؤددك».

(٦) ل. «شعرا».

فانصرفت، فلما صرت خلف السِّتْر خرج إلىّ خادمٌ[١] بمنديل فيه أربعة أثواب: ثوب وشى، وثوب خَزّ، وجبَّة بياض محشوةٌ، وقميص. فقال ألبسوه وأعيدوه إلىَّ، فلبست الخز والوشى على الثِّياب التى كانت علىَّ وألقيتُ القميصَ على أحد منْكِبَىَّ والجُبَّة على المنكب الآخر، فقال لى: يا بن أبى حفصة، أتدخلُ على أمير المؤمنين هكذا وقد متلْت بنفسك! فقلت: والله لو كانت كرامة أمير المؤمنين أُحُدًا لما خلعتُ منها شيئًا أطيقُ حمله.

ثم دخلتُ، فلما رآنى تبسَّم، ثم قال: مِطْرَف! فأبطئوا به، فقال: المطْرَف! وأنا قائم، ثم قال الثالثة: المِطْرف! فلما أبطئوا انصرفتُ وقعدتُ خلفَ السِّتر، فلم أَلْبَثْ أن رُفِع الستر وخرج أمير المؤمنين على دابَّةٍ، فقمتُ إليه، فلما رآنى قال: المطْرَف! فما برح حتى أُتى به، فَنُشِر[٢] علىَّ بين يديه، وأمر بعشرة من خَدَمَ الرُّوم، وقطيعة بناحية السَّواد، فبعث القَطِيعةَ من عيسى بن موسى بعشرين ألف درهم، وبرذَوْن بسَرْجه ولجامه، قال: فلم يَزَلْ مروانُ على باب المهدىّ حتى هلك.

* * *

وعن عبد الله بن هارون قال: حدّثنى عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله، عن المغيرة، قال: دخل المغيرةُ بن عبد الرحمن المخزومىّ، وأبو السائب، والعثمانى بن لؤلؤ الرطب، وابن أخت الأحوص على المهدىّ وهو بالمدينة فقال: أنشدونى، فأنشد المغيرة:

وللناس بدر فى السماء يرونه ... وأنت لنا بدر على الأرض مقمر
فبالله يا بدْرَ السماء وضوءَه ... تزالُ تكافى عشر مالَكَ أضمر
وما البدر إلاّ دونَ وجهك فى الدُّجى ... يغيب فتبْدُو حين غابَ فتقمر
وما نظرَتْ عينى إلى البدر ماشيًا ... وأنتَ فتَمْسِى فى الثياب فتسحر[٣]

[الطويل]

وأنشد ابن أخت الأحوص:

قالَتْ كلابة: من هذا؟ فقلت لها: ... هذا الذى أنتِ من أعدائه زعموا
إنى امرُؤٌ لجَّ بى حبٌّ فأحْرَضَنى ... حتى بليت وحتى شفنى السقم

[البسيط]

وأنشده العثمانى المخزومىّ:

رمى القلبُ من قلبى السَّوادَ فأوْجَعا ... وصاحَ فصيحٌ بالرَّحيل فأسْمَعا

---

(١) ك: «الخادم».
(٢) ل: «فشن»، وما أثبته من ك.
(٣) ك: «وأنت فتمشى».

وغرد حادِى البَين وانشقت العَصا   فـأصبحت مسلوبَ الفؤادِ مفجعا[١]
كَفى حزَنًا منٍ حَادِثِ الدّهر أنني   أرى الْبيْنَ لا أسْتطِيع للبين مدْفَعَا
وقد كنْتُ قبلَ اليوم بالبيْن جاهِلاً   فيـالـكَ بيْنًـا مـا أمـر وأوْجَعـا!
[الطويل]

وأنشده أبو السائب:

أصِيخَـا لداعى حُبِّ ليـلَى فَيمِّمَا   صـدور المطايَـا نحـوهـا فتسمعـا
خليـلَيَّ إنْ ليـلَى أقـامت فـإنّنى   مقيم، وإن بانَتْ فبِينا بنـا معا
وأنْ أُثبِتتْ ليلَى بربع يحوزُها[٢]   قعيـدَ كـما بـالله أن تتـزَعْـزَعـا
[الطويل]

فقال: والله لأغنّينّكم الليلة!

ثم قال للمغيرة: هل لك من حاجة؟ فإنه بلغنى أنّك بعْت جاريتَك فى دَيْن كان عليك، قال: والله يا أمير المؤمنين، لقد فعلتُ ذلك، قال: فلأردُّنّها عليك، فأجاز ثلاثةً منهم بعشرة آلاف دينار؛ إلّا ابن لؤلؤ الرُّطْب، فإنه سار معه، فمرّ بدار فقال: لمن هذه الدار؟ فقال: للأحوص الذى يقول:

يـا بيْتَ عاتكـةَ الذى أتعـزَّلُ   حَذَرَ العِدَا وبـه الفؤادُ موكَّـلُ
وأراك تَفْعـلُ ما تقـول وبعضُهم   مَذِقُ الحديثِ يقولُ ما لا يفعلُ
[الكامل]

فقال: عز على ألا تأخذ شيئا! ثم قال للربيع: اعتِق ما تملك إن لم تعطه أنت عشرة آلاف دينار، وأنا عشرة آلاف دينار.

فقبضها وخرج.

* * *

قال: ودخل ابن الخياط[٣] على المهدى فمدحه، فأمر له بخمسين ألف درهم، فلمّا قبضها فرَّقها على الناس وأنشأ يقول:

لمست بـكفـى كفَّـــه أبـتغـى الغِـنى   ولم أدر أن الجود من كفه يعدِى[٤]

---

(١) ك: «مضيعا».

(٢) كذا فى ك، وفى ل: «إنثنت».

(٣) ك، ل: «الخياط» وما أثبته من الأغانى ١٨: ٩٤.

(٤) الأغانى ١٨: ٩٤.

فلا أنا منه ما أفادَ ذوو الغِنى أفَدْتُ، وأعْدَانى فبدَّدْتُ ما عندى[١]
[الطويل]

فأعطاه بكلّ درهم دينارا.

* * *

قال: ودخل سَلْم بن عمرو الخاسر على المهدىّ، فقال:

أليْسَ أحقَّ الناس أنْ يُدركَ الغنى مُرَجِّى أمير المؤمنينَ وسائله
لقد بسطَ المهدىُّ عَدلاً ونائلاً كأنهما عَدْلُ النّبىِّ ونائله!
[الطويل]

فقال: أمّا ما ذكرت يا سلْمُ من الجود، فوالله ما تعدِل الدنيا عندى خاتمى هذا. وأما العَدْلُ فإنه لا يقاس برسول الله صلى الله عليه وسلم أحدٌ، وإنى لأتحرَّاه جُهْدى. ثم أمر له بعَشْرة آلاف درهم، وعشرة أثواب.

ثم وفد عليه فى السنة الثانية، فأنشده:

إنّ الخلافَةَ لم تكن بخلافَةٍ حتى استقرت فى بنى العبّاس
شُدَّتْ مناكِبُ مُلكِهم بخليفةٍ كالدَّهرِ يخلِط لِينَهُ بشماسِ[٢]
[الكامل]

فأمر له بعشرين ألف درهم، وعشرين ثوبًا.

فلما كان فى العام الثالث وفَدَ عليه فأنشده:

أفْنَى سؤالَ السائلينَ بجودِهِ ملكٌ مواهبه تروح وتغتدى
هذا الخليفة جودُهُ ونوالُه نَفِد السؤال وجوده لم يَنْفَدِ
[الكامل]

فأمر له بثلاثين ألف دِرهم وثلاثين ثوبًا.

* * *

وعن أحمد بن بكر الباهلىّ؛ قال: حدَّثنى حاجبُ المهدىّ قال: قال لى المهدىّ يومًا نصفَ النهار: أخرج وانظر مَنْ بالباب! فخرجت فإذا شيخٍ واقف، فقلت: ألك[٣] حاجة؟ فقال: ما يمكن أن أخبر بحاجتى[٤] أحدًا غيرَ أمير المؤمنين. فتركته ودخلتُ على المهدىّ، فقال لى: أخرج فانظر من بالباب! فخرجت، فإذا الشيخ، فقلت: إن كان لك حاجة فاذكرها، قال: لا أذكرها إلاّ لأمير

(١) الأغانى: «فأتلفت».
(٢) ك: «لبثه بشماس».
(٣) ل: «لك».
(٤) ك: «بها».

المؤمنين، ففعل هذا مرّاتٍ، فقال المهدىّ: انظر من بالباب! فقلت: شيخٌ[(١] قد سألتُه غير دفعةٍ عن حاجته. فقال: ما يمكن أن أخبِر بحاجتى أحدًا دون أمير المؤمنين[١)]، وقلت:[(٢)] أيدخُل؟ قال: نعم، ومُرْهُ بتخفيف؛ فخرجتُ، فقلت له: أدخل وخَفِّف، فدخل وسلّم بالخلافة، ثم قالْ: يا أميرَ المؤمنين، إنا قد أُمِرْنا بالتّخفيف[(٣)]:

فإن شئْت خفَّفْنا فكنّا كريشَةٍ ... متى تلقها الأنفاس فى الجوّ تَذْهَبِ
وإن شئتَ ثَقَّلْنا فكنّا كصَخْرةٍ ... متى تلقها فى حومْةِ البحرِ تَرْسُبِ
وإن شئتَ سلَّمْنا فكنّا كراكبٍ ... متى يقض حقًّا من سلامِكَ يَعْزُبِ

فضحِك المهدىّ وقال: بل تُكْرَم وتُقْضِى حاجتُك. فقضى حاجَتَه، ووصَلَه بعشرة آلاف درهم.

* * *

قال المبرّد: حدَّثنى محمد بنُ عامر الحنفىّ[(٤)]، قال: ذكروا أن فِتْيَانًا كانوا مجتمعين قد ائتلفوا فى نظام واحد، كلُّهم ابن نَعْمة، وكلُّهم قد شُرِّد عن أهله، وقَنِع بأصحابه، فذكر ذاكرٌ منهم وقال: كنّا قد اكترَيْنا دارًا شارعةً[(٥)] على أحدِ طرق بغداد المعمورة بالناس، [وكنّا نفلِس أحيانًا ونوسِر أحيانًا، على مقدار ما يمكن الواحد من أهله][(٦)]؛ وكنّا[(٧)] لا نستكثر أن تقع مئونتنا على واحدٍ منّا إذا أمكنه، ويَبْقى الواحد منّا لا يقدر على شىء، فيقوم أصحابُه بأمره الدّهرَ الأطْول. فكنّا إذا أَيْسَرْنا أكلْنا من الطعام أطيَبَه، ولبْسنا من اللباس[(٨)] أليقه، ودعوْنا الملْهين والمُلْهيات، وكنّا[(٩)] فى أسفلِ الدار، وإذا عدمنا الطّرب فمجلسُنا[(١٠)] فى غرفة لنا، نتمتّع فيها بالنّظر إلى الناس، وكنّا لا نُخِلُّ بالنبيذ فى عسرٍ ولا يسر ولا نبيع الثوبَ من الأثواب. فإنّا لكذلك يومًا إذًا[(١١)] بفتًى يستأذن علينا، فقلنا له: اصعَدْ وادخل، فإذا رجل حُلْوُ الوجه؛ سرىُّ الهيئة، تنبىءُ رؤيتُه[(١٢)] أنّه من أهل النِّعَم، فأقبل علينا فقال: إنى سمعتُ بمجتمَعكم وحُسنِ منَادَمتكم وصحّة أُلْفَتِكم؛ حتى كأنّكم أُدْرِجتم جميعًا فى قلب[(١٣)] أحدِكُم، فأحببت أن أكونَ واحدًا منكم، وألّا تحتشمونى[(١٤)]. قال: وصادف ذلك منّا إقتارًا من القُوت، وإكثارًا من النبيذ، فقال لغلام[(١٥)] معه: هاتِ ما عِندَك. فَغَبَرَ عنًّا[(١٦)] غير بَعيد،

(١-١) ك: «شيخ قد سألته: ألك حاجة؟ قال: ما يخبر إلا أمير المؤمنين».
(٢) ط: «فقلت».
(٣) ك: أضاف: «وأنشأ».
(٤) فى العقد ٦: ٣٨٢: «حدثنا محمد بن عامر الحنفى، وكان من سادات بكر بن وائل، وأدركته شيخًا كبيرًا مملقًا، وكان إذا أفاد على إملاقه شيئًا جاد به، وقد كان قديما ولى شرطة البصرة؛ فحدثنى هذا الحديث الذى نذكره ووقع إلى من غير ناحيته، ولا أذكر ما بينها من الزيادة والنقصان، إلا أن معانى الحديث مجموعة فيها أذكر لك». ثم ساق بقية الخبر.
(٥) كذا فى العقد؛ ودار شارعة، أى قريبة من الطريق النافذ، وفى ط: «شارعته» تحريف.
(٦) من العقد.
(٧) كذا فى العقد، وفى ط: «فكنا».
(٨) ل: «الثياب».
(٩) العقد: «وكان جلوسنا».
(١٠) ط: «فجلسنا»؛ والصواب ما أثبته من العقد.
(١١) ك: «إذا نحن».
(١٢) العقد: «رواؤه».
(١٣) العقد: «فى قالب واحد».
(١٤) العقد: «فلا تحتشموا».
(١٥) ك: «لغلامه»، العفد: «لغلام له».
(١٦) غبر: ذهب، وفى العقد: «غاب».

ثم أتى بسَلّةِ خيزُران فيها طعام [المطبخ][١]، من جِداء ودجاج وفِراخ ورُقاق[٢] وأشْنان وأخلّة[٣] ومَحْلَب[٤]، فأصبْنا من ذلك الطعام ثم أفضْنا[٥] فى شرابنا، وانبسط الرجل؛ فإذا هو أحلَى خَلْق الله إذا حَدَّث، وأحسنُهم استماعًا إذا حُدِّث. وأمسَكهُم عن مُلاحاةٍ إذَا خُولف، ثم أفضَيْنا معه إلى أكرم مخالَعة، وأجملِ معاشرة، فكنّا ربما امتحنّاه بأن ندعوَه إلى الشىء الذى نعلم أنَّه يكرهه، فيُظْهِر لنا أنه لا يحبُّ غيره، ويُرَى ذلك فى أسارير وجهه، فكنّا نغْنَى به عن حسن الغنى[٦] ونتمثّل بكلامه، ونتدارس أخبَارَه، فشُغِلنا بظَرْفه، وبما عاشَرَنا به عن وصفه، والسؤال عن تعرُّف اسمه ونسبه، فلم يكن عندنا من أمره إلاّ معرفة الكنية، فإنّا سألناه عنها فأنبأنا أنه يكنَى أبا الفضل.

فقال لنا يومًا بعد اتّصال الأنس: ألَا أخبركم كيف عرَفْتُكم؟ قلنا له: إنّا لَنُحِبّ ذاك، فقال: أحببتُ جاريةً فى جِوارِكم، وكانت مولاتُها[٧] ذاتَ حبائب، فكانت تختلف بالرّسائل بينها وبين حبائبها، وكنت أجلس لها فى الطريق، ورأيت غرفتَكم هذه، فسألت عن خبرها، فخُبِّرتُ عن ائتلافكم ومساعدة بعضكم بعضًا، فكان الدخولُ عندى فيما أنتم فيه آثر عندى من الظَّفر بالجارية. فسألناه، فخبرنا بمكانها، فقلنا له: فإنّا نخدعها لك[٨] حتى يُظْفِرَك الله بها، قال: يا إخوتى[٩]؛ إنّى والله على ما ترَوْنَ من شدّة الشوق إليها[١٠] والكَلَف بها[١١]، ما قدَّرتُ فيها حرامًا قطّ، وما تقديرى إلاّ مطاولتها ومصابرتها؛ وإلى أن يمنّ الله جلّ وعزّ بثروة فأشتريها.

فأقام معنا شهرين ونحن به على غاية الاغتباط، وبقربه على غاية السرور، ثم احتبس[١٢] عنّا فنالنا[١٣] بفراقه ثُكْلٌ ممِضٌ[١٣] ولوعةٌ مؤلمة، ولم نعرف له منزلاً نلتمسه فيه، فيكون فقْدُه أخفَّ علينا، فكَدَر عيشُنا الذى كان صافيًا قد طاب لبابُه، وقُبح ما كان قد حَسُن لنا بقرةه، وانصرم الغمّ بحادثته، فكنّا فيه كما قال القائل:

يُــذكّــرنيهِمْ كــلُّ خــيــر رأيتُــهُ وشرٌّ، فما أنْفَكُّ منهم على ذُكْرِ[١٤]

[الطويل]

فغاب عنّا عشرين يومًا لا نلتذّهنّ[١٥]، ثم نحن يومًا مجازون فى الرُّصافة، فإذا به وقد طلع فى موكب[١٦] نبيل، وزِيٍّ جليل، فحيث بَصُر بنا انحطّ عن دابّته، وانحطّ غلمانُه، ثم قال: يا إخوتى،

---

(١) من العقد.
(٢) الرقاق: الخبز المنبسط الرقيق.
(٣) الأخلة: جمع خلال؛ وهو ما تخلل به الأسنان.
(٤) المحلب، كمسكن: شجر له حب يجعل فى الطيب.
(٥) كذا فى ل، وفى ك والعقد: «أفضينا».
(٦) العقد: «عن تعرف اسمه ونسبه».
(٧) العقد: «سيدتها».
(٨) العقد: «نختدعها».
(٩) العقد: «يا إخوانى».
(١٠) ساقطة من ل والعقد.
(١١) العقد: «ما» من غير واو.
(١٢) العقد: «اختلس».
(١٣-١٣) ط: «فتألمنا لفراقه كل ممض». والأجود ما أثبته العقد.
(١٤) لعكرشة العبسى، من كلمة له فى الحماسة - بشرح التبريزى ٣: ٧٨ - ٧٩، يرثى بنيه.
(١٥) ساقطة من العقد.
(١٦) العقد: «مركب» وفى ك «موكب عظيم».

ما هَنأنى عيش بعدَكم ! ولست أماطِلُكم بحديثى وخبرى حتى نبلغ المستقر[١]. ثم مال بنا إلى مسجد فقال: أعرِّفكم أوّلًا نفسى[٢]، أنا العباس بن الأحنف؛ وكان من خَبرى أنّى انصرفت من عندكم إلى منزلى؛ والمسوّدة قد أحاطت بى فَمُضِىَ[٣] بى إلى دار أمير المؤمنين، فصرت إلى يحيى بن خالد، فقال: ويحك يا عبّاس ! إنّما اخترتك من ظرفاء الشعراء لقرب مأخَذِك وحُسن تأتّيك. وإنّ الذى ندبتُك له من شأنك، وقد عرفتَ خطراتِ الخلفاء؛ وإنى أخبرك أن ماردة هى الغالبة على أمير المؤمنين، وقد جرى بينهما عَتْب؛ وهى بِدَالّة[٤] المعشوقِ تأبَى أن تعتذر، وهو بعزة الخلافة وشرف الملك يأبى ذلك، وقد رُمت الأمر من قِبَلهما فأعيانى، وهى أحْرَى أن تستعزّه[٥] الصبابة، فقل شعرًا تسهّل به هذا السبيل. فقضى كلامَه، ثم دعاه أمير المؤمنين فصار إليه، وأعطِيتُ قرطاسًا ودواةً، فاعترانى الزَّمَع[٦] ونَفر عنّى كلّ شىء من العروض، ثم انفتح لى شىء من الأشياء، والرسل ما تغبنى، فجاءتنى أربعةُ أبيات رضيتها؛ وقعت صحيحةَ المعنى، سهلة الألفاظ، ملائمةً لما طُلِب، منى فقلت لأحد الرسل: أبلغ الوزير أنى قد قلت أربعةَ أبيات، فإن كان فيها مقنَع [وجّهت بها]. وفى قَدْر ذهاب الرسول ومجيئه حضرنى بيتان من غير ذلك الروىّ، فكتبتُ الأربعة الأبيات فى صدر الرُّقعة وعقّبت بالبيتين. فكتبتُ:

العـاشقـان كِـلاَهمـا متغضبٌ ... وكِـلاَهمـا متـوَجِّـدٌ مُتجنّبٌ[٧]
صَدّتْ مغاضِبةً وصدَّ مُغَاضِبًا ... وكِـلاَهمـا ممّـا يعالـجُ مُتْعَبُ
راجـع أحِبّتَـكَ الـذين هجرتَهمْ ... إنَّ المتيّـم قَلّمَا يـتجـنّـبُ
إنَّ التجنّب إنْ تـطاوَل منكـما ... دَبَّ السلُوُّ لـه، فعـزَّ المـطلبُ
[الكامل]

ثم كتبتُ تحت ذلك:

لابـدّ لـلعـاشقِ مِـنْ وقفَـةٍ ... تكونُ بينَ الوصل والصَّرمِ[٨]
حـتى إذا الهَمُّ تمـادَى بِـهِ ... راجَـعَ مَنْ يَهْوَى عَـلى رُغْمٍ
[السريع]

قال: ووجّهت بالكتاب، فدفَعه إلى الرشيد، فقال: والله ما رأيتُ شعرًا أشبَه بما نحن فيه من هذا، والله لكأنى قُصِدتُ به. فقال يحيى: فأنت والله المقصودُ به يا أمير المؤمنين؛ هذا يقوله العبّاس بن الأحنف فى هذه القصّة، فلما قرأ البيتين وأفضى إلى قولى:

---

(١) العقد: «حتى آتى المنزل».
(٢) «بنفسى».
(٣) ك: «فمضوا». وما أثبته من ل والعقد.
(٤) كذا فى العقد، وفى ط: «بعزة دلالة».
(٥) تستعزه: تغلبه، وفى ط: «تستفزه» وما أثبته من العقد.
(٦) الزمع: الدهش والخوف.
(٧) العقد: «متعنت».
(٨) الأغانى ٦: ٢٩٥ (طبعة الدار)، وذكر بعد هذا البيت:

يَـعْـتِبُ أحْـيَـانًـا وَفِى عَـتْـبِـهِ ... إظهـار مـا يُخْفِـى من الـسُّقْمِ
إشـفـاقُـهُ داعٍ إلى ظَـنّـِهِ ... وَظَـنُّـهُ داعٍ إلى الـظُّلْمِ

استفرغ ضحكا [حَتّى سمعت ضحِكه](١). ثم قال: إى(٢) والله، أراجعها على الرّغم! وقال: يا غلام، نَعْلَيَّ! فنهض وأذهله الجَذَلُ والسرور عن أن يأمرَ لى بشيء، فدعانى يحيى وقال: إن شعرَك قد وقع بغاية الموافَقة، وأذهلَ أمير المؤمنين السُّرورُ عن أن يأمرَ لك بشيء. قلت: لكنّ هذا الخبر لم يقع(٣) منّى بغاية الموافقة. قال: إذن أوقعه. ثم جاء إنسان فسارَّه بشيء. فنهض ونهضتُ لنهوضه، فقال: يا عَبّاس، أمسيتَ أنبل(٤) النّاس، أتدرى ما سارَّنى به هذا الرسول؟ قلت: لا، قال: ذَكَر أنّ ماردة تلقّت أمير المؤمنين لما علمت بمجيئه، فقالت: كيف كان هذا يا أمير المؤمنين؟ فأعطاها الشّعر، وقال: هذا الذى جاء بى. قالت: فمن يقوله؟ قال: العباس بن الأحنف. قالت: فبكم كُوفِئَ؟ قال: ما فعلتُ شيئًا. قالت: إذن والله لا أجلس حتى يكافَأ، فأمير المؤمنين قائم لقيامها، وأنا قائم لقيامهما(٥)، وهما يتناظران فى صلَتِك، فهذا كلّه لك. قلت: ما لى من هذا إلّا الصّلة! فضحك وقال: هذه أحسَنُ من شعرك. فأمر لى أميرُ المؤمنين بمال كثير، وأمرتْ هى لى بمال دونَه، وأمر لى الوزيرُ بمالٍ دون ما أمرتْ به، وحمِلت على ما ترون من الظَّهر، ثم قال لى الوزير: تمام اليد عنك ألّا تخرج من الدار حتى يؤثَّل(٦) لك بهذا المال، فاشتريَتْ لى ضياع تغلّ عشرين ألف درهم، ودفع إلىّ بقيّة المال.

فهذا هو خبرى الّذى عاقنى عنكم؛ فهلُمّوا حتى أقاسِمَكم الضِّياع، وأفرِّقَ بينكم المال!

فقلنا: هَنأك الله مالك، كُلُّنا(٧) يرجع إلى نعمة من أبيه وأهله فأقسَم وأقسمنا؛ وقال: أنتم أُسوتى فيه، قلنا: أمَّا هذا فنعم؛ فامضُوا بنا إلى الجارية حتى نشتريَها.

قال: فمضنيا إلى صاحبتها(٨) وكانت جارية جميلةً حلوةً لا تحسن شيئًا أكثرَ ممّا بها(٩) من الظَّرْف – وكانت تساوى على وجهها خمسين ومائة دينار(١٠. فاستامَت بها صاحبتُها خمسمائة دينار١٠)، فأجبناها بالتعجّب، فحطّت مائةً، فقال لنا العبّاس: يا فتيان، إنّى أحتشم والله أن أقول بعد ما قلتم، ولكن هى جارية فى نفسى؛ بها يتمّ سرورى. إنّ هذه الجارية أريد إيثارَ نفسى بها، وأكره أن تنظر إلىّ بعين مَنْ ماكَسَ فى ثمنها، فَدعُونى أُعْطِها خمسَمائة دينار، قلنا: قد حطّت مائة. قال: وإن فعلت!

---

(١) من العقد.
(٢) ط: «إنى»، وما أثبته من العقد.
(٣) العقد: «ما وقع».
(٤) العقد: «أملأ الناس»؛ من قولهم: ملؤ الرجل، فهو ملىء، صار ثقة غنيا.
(٥) العقد: «وأنا قائم لقيام أمير المؤمنين».
(٦) التأثيل: التهيئة والتأصيل.
(٧) العقد: «فكلنا».
(٨) ك: «سيدتها».
(٩) ك: «فيها»، وفى العقد: «أكثر ما فيها ظرف اللسان وتأدية الرسائل».
(١٠-١٠) العقد: «فلما رأى مولاها ميل المشترى استام بها خمسمائة».

فصادفت مولاتها رجلًا حرًّا؛ وأخذت من الثمن ثلاثمائة، وجهّزتها بالباقى، فما زال لنا عَشيرًا حتى فرّق بيننا وبينه الموت.

* * *

وعن المبّرد قال[١]: حدثنى من أعتمد عليه أنّ مُسْلِمَ بنَ الوليد كان يمدح مَنْ دون الخليفة، وكان يقول: إنّ نفسى تذوب حسراتٍ من أنه يحوى خزائنَ[٢] الخلفاء من لا يقاربنى فى أدب، ولا يوازينى[٣] فى نَسَب، ولا يَصلُحُ أن يكون شعرهُ خادمًا لشعرى. وكان إذا كَسَب جَمع أصحابَه فلم يخرج من منزله؛ حتى يأتىَ على جميع ما معه، فلا يزال فى أكلٍ وشرب وقصْفٍ حتى يُفنىَ [جميع][٤] ما معه. فعرِف بذلك، وكانت البرامكة ويزيد بنُ مَزيد الشّيبانىّ، ومحمد بن منصور بن زياد يَبرّونه ويعطفون عليه، ويتفقّدون مِن حاله. فخرج ذاتَ يوم فلقىَ يزيدَ بنَ منصور الحْميرىّ بباب الرشيد، فسَلَّمَ عليه، فردّ عليه السّلام، ورحّب به، وسأله عن شأنه؛ فخبّره وسأله أن يقرّبه من الخليفة، وأن يحتال حتّى يُعَدَّ فى مادحيه[٥] ومن تَجرِى عليه أرزاقُهُ، فقال الحميرىّ: سأتأتّى لوصولك إلى أمير المؤمنين، فدخل الحميرىّ، فأصاب أميرَ المؤمنين لَقِسَ النفس، قد اشتمل عليه الفكر، [فقال له يحيى: ما بك يا أمير المؤمنين؟ قال: الفكر][٦] فى سرعة تقضّى أمور الدنيا، وأنَّا لا نتشبّث[٧] منها بشىء إلا كان كالظِّلّ الزائل، والسراب الخادع.

فقال له جعفر بن يحيى: يا أميرَ المؤمنين، أفتظن أن هذا الفكر يحبِس عليك الأيّام، أو يمنعك مِمّا لا تستمتع به؛ إنما هذا الّذى أنت فيه، عارضٌ عَرَضَ لك، وقد كان مَلِك من الملوك يقال له: «بهْمان»[٨] – وكان من أجلّ ملوك العجَم، وكان حكيما – يقول: الهمُّ مَفسدَة للنفس، ومَضَلّة للفهم، وَمَشْدَهَةٌ[٩] للقلب، ومِنْ أعظم الخطأ التشاغل بما لا يمكن دفعه، وقد قالت الحكماء: بالسرور يطيب العيش، ومع الهمِّ تمنّى[١٠] الموت.

قال له سليمان بن أبى جعفر[١١]: يا أمير المؤمنين؛ يُروَى عن لقمان الحكيم[١٢] أنه قال: مَنْ يملك يستأثر، ومن لا يستشِر يندم؛ والهمّ نصف الهَرَم، والفقْر الموت الأكبر.

قال: فكأنّ الرشيد نشِط واندفع عنه ما اعتراه من ذلك الفكر، فتقدّم إليه الحميرىّ وقال: يا أميرَ المؤمنين؛ خلّفتُ بالباب آنفًا رجلًا من أخوالك الأنصار؛ متقدِّمًا فى شعره وأدبه وظرفه، أنشدنى قصيدةً يذكر فيها أنسَه ولهوَه ولعبَه ومحادثته إخوانَه؛ ويذكر مجالس اتصَلت له؛ بأبلغ قول

---

(١) الخبر فى ترجمة مسلم بن الوليد، الملحقة بديوانه، ص ٤٢٩ (نشرة الدكتور سامى الدهان)، عن كتاب جمهرة الإسلام.

(٢) ك: «الجوائز».

(٣) وكذا فى الديوان، وفى ك: «يوازننى».

(٤) من ك.

(٥) ط: «ممازحيه»، وما أثبته من الديوان.

(٦) من الديوان.

(٧) الديوان: «ولسنا نتشبث منها بشىء».

(٨) الديوان: «كيومرد».

(٩) الديوان: «مدهشة».

(١٠) ك: «يتمنى».

(١١) ك: «منصور».

(١٢) الديوان: «القس».

وأحسن وصف، وأقرب رَصْف، تبَعث والله على الصَّبابة والفرح، وتُباعِد عن الهمّ والتَّرَح، وكأنه قد وُفّق بيُمْن أمير المؤمنين وسعادةِ جَدّه لأنْ يكون مبرّأً من هذه الشكوى، وزائدًا فى سرور أمير المؤمنين[١]، مستدعيًا له صِلَة رَحِمه؛ والتشرّفَ بخدمته.

قال: فاستفزّه السرور والقلق إلى دخوله عليه واستماع قصيدته، وجعل يتابع الرسلَ بعضهم فى أثر بعض حتى دخل. وكان حلوَ الشمائل، فوصل إليه فى وقت قد كان خرج فيه من رسم الشّباب وشِرّته[٢]، ولم يكن فى عِداد من قد اضطرب سِنًّا[٣]. وكان ناهيكَ من رجل! معه فهم وتجربةٌ وتمييز ومعرفةٌ، فأُمْهِل حتى سكَن، ثم أُذِنَ له فى الجلوس والانبساط، واستدعى منه أن يزيد فى الأنس.

فانبرى مُسلم ينشد قصيدته، فجعل الرشيد يتطاول لها؛ ويستحسن ما حكاه من وصف شرابٍ ولهو، ودَماثةٍ وغَزَل، وسهولةِ ألفاظ. ثم أمر له بمالٍ، وأمر أن يُتَّخذ له مجلس يتحوّل إليه، وجعل الرشيد وأصحابه يتناشدون قصيدته، فسمّاه يومئذ بآخر بيت من قصيدته: «صريعَ الغوانى»، والرشيد الّذى سمّاه بهذا الاسم، والقصيدة هى هذه:

أديرَا علىّ الكأسَ لا تشرَبا قَبْلى ... ولا تطلُبا من عندِ قاتلتى ذَحْلى[٤]
فما جزَعِى أنّى أموتُ صَبابةً ... ولكنْ على مَن لا يحلُّ لها قَتْلى
أُحِبُّ التى صدّت وقالت لِترْبِها: ... دَعيهِ الثّريَّا منه أقربُ من وصلى[٥]
بَلَى رُبّما وكّلْتُ عينى بنظرةٍ ... إليها تزيد القلبَ خَبْلًا على خَبْلِ
كتمتُ تباريحَ الصّبابةِ عاذِلى ... فلم يدرِ ما بى فاسترحْتُ من العَذْلِ[٦]
ومانحةٍ شُرّابها الملكَ قهوةٍ ... يهوديَّةِ الأصهار مسلمةِ البْعلِ
ربَيبةِ شمسٍ لَمْ تُهجَّن عُروقُها ... بنارٍ ولم يُجمَعْ لها سَعَفُ النخل
بَعثنا لها منّا خطيبًا لبُضْعِها ... فَجاءَ بها يمشى العِرَضْنَةَ فى مَهْلِ[٧]
قد استُودِعت دنًّا لها فهو قائمٌ ... بها شفقًا بين الكروم عَلى رِجْلِ
فوافَى بها عَذْراءَ خِلٌّ أخو نَدًى ... جزيلُ العطايا غيرُ نُكْسٍ ولا وَغْلِ
معتّقةً لا تشتكى دمَ عاصِرٍ ... حَرُوريَّةً فى جَوْفها دلقمها يغلى[٨]

---

(١) الديوان: «الخليفة».

(٢) الديوان: «ونزقه».

(٣) الديوان: «حياء».

(٤) ديوانه مع اختلاف فى الرواية. والذحل: طلب الثأر.

(٥) بعده فى الديوان:
أماتَتْ وأحْيَتْ مُهْجَتِى فهىَ عِنْدَها ... مُعَلَّقةٌ بينَ المواعيد والمَطْلِ
وَمَا نلتُ مِنْهَا نائلًا غيْرَ أنّنِى ... بشجْو المحبين الأولَى سَلفوا قبْلِى

(٦) تباريح الصبابة: حرارتها.

(٧) العرضنة: مشية فيها إنحراف من التيه.

(٨) الديوان: «وطء عاصر»، وشبهها برجل حرورى يغلى دمه.

أغـارَتْ على كفّ المُـديـرِ بلَونها ... فصارت له منها أناملُ كالذَّبل[١]
أمـاتَتْ نفوسًـا من حياةٍ قـريبةٍ ... وفاتتْ فلم تُطلب بوتْرٍ ولا تَبْل[٢]
شققنا لها فى الدنّ عينًا فأسبلتْ ... كما أخضِلت عينُ الخريدةِ بالكحل[٣]
كـأن فنيقـا بـازلاً شُقّ نحـرُهُ ... إذا أسفرت مِنْها الشُّعاع على الْبزْل[٤]
ودارتْ علينا الكأسُ من كفّ ظبيةٍ ... مُبَتَّلةٍ حَـوْراءَ كالـرشأ الـطِّفل[٥]
كـأنّ ظبـاءَ عُكَّفًـا فى ريـاضهـا ... أباريقُها أو جَسْنَ قعقعـةَ النبلِ
وَحَنَّ لنـا عُـودٌ فبـاحَ بِسـرِّهِ ... كَـأَنَّ عليه سـاقَ جاريـةٍ عُـطل
تضـاحكـهُ طَـوْرًا، وتُبكيـهِ تـارةً ... خدَلَّجَةٌ هَيْفَاءُ ذاتُ شوًى عَبْل[٦]
إذا ما علَتْ منّا ذؤابـةَ واحدٍ[٧] ... تمشّت به مَشْىَ المقيّد فى الوحْل
فلا نحنُ مِتْنَا موتَةَ الـدهر بغتـةً ... ولا هىَ عادَتْ بعد عَلٍّ ولا نَهْل[٨]
سـأنقـادُ للّذات مُتّبِـع الهـوى ... لا مضِىَ همًّا؛ أو أصيبَ فتًى مثلى[٩]
هل العيشُ إلاّ أن أروح مع الصِّبَا ... وأغْدُو وصريعَ الكأس والأعين النُّجْل!

[الطويل]

* * *

قيل: وأدخلَ الفضلُ بن يحيى أبا نواس عند[١٠] الرشيد، فقال له الرشيد: أنت القائل:

عُتِّقَتْ فى الدَّن حتّى ... هى فى رِقّـةِ دِينى

[مجزوء الرمل]

أحسبك زِنديقا! قال: يا أمير المؤمنين، قد قلت ما يَشْهَدُ لى بخلاف ذلك. قال: وما هو؟ قال: قلت:

---

(١) الذبل: عظام صفر كعظام الفيل.

(٢) الديوان: «بتبل ولا ذحل». والوتر والتبل والذحل بمعنى.

(٣) الديوان: «عين الخريد بلا كحل». والخريد والخريدة: المرأة الحيية المحتشمة.

(٤) الفنيق: الجمل الأبيض، وفى الديوان: «إذا ما استدرت كالشعاع على البزل».

(٥) الديوان: «من كف طفلة». والمبتلة: كاملة الخلق.

(٦) الخدلجة: الحسنة الخلق. والهيفاء: الضامرة البطن؛ وبعده فى الديوان:

إذا مـا اسْتَهَيْنَـا الأقْحُـوان تَبَسَّمَـتْ ... لنَـا عن ثنـايـا، لا قِصَـار وَلَا ثُعْـلِ
وأسْعَـدَهـا الـمزمـارُ يَشْـدُو كـأنّـهُ ... حَكَى نائحاتٍ بِتْن يبكـينَ مِنْ ثُكْلِ
غَـدَوْنَا عـلى اللَّذاتِ نجنى ثمارهـا ... وَرُحْنَـا حَميدى العَيْش مُتَّفِقِى الشَّكْـل
أقَـامَتْ لنَـا الصَّهْبَـاءُ صَدْر قَنَـاتِهـا ... وَمَـالَتْ عَلَيْنَا بـالخـديعـة والخَتْـل

(٧) الديوان: «ذؤابه شارب».

(٨) بعده فى الديوان:

وسـاقيـةٍ كـالـرِّيم هَـيْفَـاءَ طَفْـلةٍ ... عيِـدَةِ مَهْـوَى الْقُـرْطِ مفعمة الحجْـل
تـنَـزِّهُ طَـرفى فى محـاسِنِ وجـههـا ... إذا احْتُسِّتِ الطَّاسَاتُ يُغْنى عن النُّقْـل

(٩) الديوان: «متبع الصبا».

(١٠) ط: «إلى عندى».

أيّـةَ نـار قـدح القـادحُ وأىُّ حَـدٍّ بَـلغَ المـازحُ[١]!
لله درُّ الشّيـب من واعظٍ ونـاصحٍ لـو قُبِلَ النـاصحُ!
فـاغدُ فـما فى الحقّ أغلوطـةٌ وَرُحْ لمـا أنت لـه رائـحُ
مَنْ يتقِ الله فـذاك الـذى سيق إليـه المَتْجَـرُ الـرابحُ
لايجتـلى لحَوْراءَ من خِـدْرها إلّا امـرُؤٌ ميـزانُـهُ راجـحُ
فـاسمُ بعينيـك إلى نسـوةٍ مُهـورُهنّ العمـلُ الصـالح
[السريع]

فقال الفضل: يا سيّدى، إنه يؤمن بالبعث، ويَحمِله المُجُونُ على ذكر ما لا يعتقده، ثم أنشده:

لقد طال فى رسم الدّيار بكائى وقد طال تَردادِى بها وعنَائى[٢]
كـأنى مُرِيـغٌ فى الديـار طريـدةً أراهـا أمـامى مـرّةً وورائى[٣]
فلمّا بدا لى اليأس عدَّيتُ ناقتى عن الدار واستولى علىّ عزائى
إلى بيت حـانٍ لا تَهِـرُّ كـلابـهُ علىَّ ولا ينْكِـرْن طـولَ ثَوائى
فمارُمته حتّى أتى دون مَا حوتْ يمِينى وحتّى رَيْـطتى وجِـذائى[٤]
وكأسٍ كمصباح السماءِ شربْتُهـا عـلى قُبْلةٍ أو مـوْعـدٍ بلقـاءِ
أتَـتْ دونَها الأيّـام حتّى كـأنّها تساقط نـور من فـوق سـماء
ترى ضوءَها من ظاهرِ البيت ساطعًا عليـكَ، ولـو غـطّيتَها بغـطاءِ
تبـارَك مَنْ ساسَ الأمـورَ بقُدْرةٍ وفضّـل هـارونًـا عـلى الخلفـاءِ!
نراكَ بخير ما انطوينا على التُّقى ومـا سـاسَ دُنْيـانـا أبـو الأمنـاءِ
إمـامٌ يخـافُ الله حتّى كـأنمـا يُؤَمِّـلُ رؤيـاهُ صبـاحَ مسـاءِ
أشمُّ طُـوالُ السّاعِـدَيْن كـأنمـا يُـنـاطُ نِجَـادَا سَيفِـهِ بـلواءِ
[الطويل]

فخلع عليه الرشيد ووصَلَه بعشرة آلاف درهم، والفضلُ بمثلِهَا؛ فنظر إلى جارية تختلف كأنها لؤلؤة، فقال: يا أمير المؤمنين، أنا ميِّت فى ليلتى هذه، فإذا مِتّ فمرْه أن أدفَن فى بطن هذه الجارية! فقال له الرّشيد: خذها لا بارك الله لك فيها!

قال أبو نواس: فأخذتُها وانصرفتُ بمثلِ الشمس حسنًا، وفى منزلى غلام مثلُ القمر، فلقِينى محمد بن يسير[٥] الشاعر، فقال: أتيتُك مهنّئًا بما حَباك به أمير المؤمنين، فقلت: نعمة تتبعها نقمة! فقال: ولِمَ ذاك؟ فقلت: عندى غلام مثل القمر، وهذه مثل الشمس، وإنْ جمعتُها أتخوَّف ما تعلم،

(١) ديوانه ١٩٢، مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات.
(٢) ديوانه ٦٢، وروايته: «لقد طال».
(٣) مريغة؛ من قولهم: أراغ الصيد؛ إذا تتبعه.
(٤) الريطة: الملاءة.
(٥) ط: «بشير» تصحيف.

وإن أفردْتَ الجارية لم آمَنْ عليها، وغلامى لابدّ منه. قلت: اجْعَلها عند بعض إخوانك إلى وقت حاجتك إليها. قلت: فلعلّ الحارس هو المتحرَّس منه! قال: فصيِّرها عند عجوز تثِق بها. قلت: لعلىّ أسترعى الذئب!

قال: ثم افترقْنا، فالتقى معه أبو نواس بعد ثلاثة أيام، فقال له: يا محمد بنَ يسير، ما على الأرض شرٌّ منك! شاورتُك فى أمر فلم تَفتَح علىّ فيه شيئًا، فلما فارقتُك ازدحم علىّ الرأىُ المصيب. قال محمد: فماذا صنعتَ؟ قال: زوّجتُ الشمسَ من القمر، فحصّلتها لأقضىَ بها وَطَرى؛ قال: كان الشىء عليكَ حلالًا فجعلتَه حرامًا، قال: يا أحمق، أشاوَرْتُك فى الحلال والحرام! إنما قلت: كيف الرأى فى تحصيلها؟ ثم أنشأ:

زوّجتُ هَاذاكَ بهذِى لكىْ ... أنكــح ثنتــين فثنتــين
أنكــح هذه مــرة ثم ذا ... أديــرُ رُمْحًــا بين صفّين
متعت نفسى بهـــا لــذةً ... يا من رأى مَطلع شمسين!

وحدثنا محمد بن أيوب بن جعفر بن سليمان وهو أمير البصرة،قال: كان بالبصرة رجل من بنى تميم، وكان شاعرًا ظريفًا، وكنتُ آنسُ به، فأردتُ أن أخدَعَه[١] [وأستنزله][٢]، فقلتُ: يا أبا نزار، أنت شاعر وظريف، والمأمون أجوَدُ من السحاب الحافل، والريح العاصف، فما يمنعُك منه؟ قال: ما عندى ما أتحمّل به[٣]. قلتُ: أنا أعطيك نجيبًا فارهًا، ونفقة سابغة؛ تخرُج إليه وقد امتدحتَه، فإنك إن حظِيتَ بلقائه صرتَ إلى أمنيَّتك. قال: والله أيّها الأمير، إنى لأظنّك[٤] صادقًا. قلت: أجل؛ فدعوتُ بنجيبةٍ فارهةٍ، فقال: هذه إحدى الحسنيين[٥]، فما بال الأخرى! فدعوتُ له بثلاثمائة درهم، فقال: وهذه الثانية، ثم قال: أحسبك أيها الأمير قصّرت فى النفقة، قلت: لا، هى لك كافيةٌ إنْ قبضتَ يدكَ عن السَّرَف. قال: ومتى رأيت السَّرَف فى أكابر بنى سعد، فكيف فى أصاغرها! فأخذ النَّجيبة والنفقة، ثم عمِل أرجوزةً ليست بطويلة، فأنشَدَنيها وحذَفَ منها ذِكْرِى، فقلت له: ما صنعتَ شيئًا. قال: وكيف ذلك؟ قلت: تأتى الخليفةَ وأنت وافد، فلا تثْنى على أميرِك! قال: أيها الأمير، أردتَ أن تخدعَنى فوجدتنى خَدَّاعا، ولمثلها ضُرب هذا المثل: «من يَنِكْ العيْرَ يَنِكْ نائكا»، والله ما لكرامتى حملْتنى، وجُدْتَ لى بمالك الّذى ما رامه أحد إلّا جعل الله خدَّه الأسفلَ، ولكنْ لأذكرَك [فى شعرى، وأمدحك عند الخليفة، افهم هذا، قلت: صدقت، فقال: أمّا إذا أبديت ما فى ضميرك، فقد ذكرتك وأثنيت عليك][٦]. قلتُ: فأنشدِنى ما قلت، فأنشدنى.

(١) كذا فى الطبرى، وفى الأصول: «أنفعه».
(٢) من الطبرى.
(٣) الطبرى: «ما يقلنى».
(٤) الطبرى: «ما إخالك أبعدت».
(٥) كذا فى الطبرى، وفى الأصول: الحسنتين».
(٦) من الطبرى.

فقلت: أحسنت وأجَدْتَ[١]، فتركنى وخرج حتى أتى الشام والمأمون بسَلَغوس[٢]. فأخبَرَنى، قال:

بينا أنا فى غَدَاةٍ[٣] قرّة، قد ركبتُ نجيبى، ولبست أطْمارى، وأنا أريد العسكر؛ فإذا أنا بكَهْل على بغل فارِهٍ ما يقرّ قرارُه، ولا يُدرَك خُطاه فتلقّانى مكافحة ومواجهةً وقال: السّلام عليكم - بكلام جَهْوَرِىّ، ولسان بسيط - فقلت: وعليكم السّلام، فقال: قف إن شئت. فوقفت، فتضوّعَتْ منه رائحةُ المِسك الأذفر. فقال: مِمّن؟ قلتُ: رجل من مُضر، قال: ونحن من مُضَر، ثم ماذا؟ قلتُ: من بنى تميم، قال: وما بعدَهم؟ قلت: من بنى سعد. قال: هيه! فما أقدمَكَ [هذا البلد][٤]؟ قلتُ: قصدتُ هذا الملك الّذى ما سمعتُ بمثله أندى راحةً ولا أوسعَ باحة، ولا أطوَلَ باعًا، ولا أمدّ يفاعا[٥] منه. قال: فما الذى قصدتَه به؟ قلت: شعرٌ طيّبٌ، يلَذّ على أفواه الرّواة، ويحلو فى آذان المستمعين. قال: فأنْشِدْنيه. فغضبتُ[٦] وقلتُ: ياركيك، أخبرك[٧] أنى قصدْتُ الخليفة بشعرٍ قلتُه، ومديح حبَّرتُه، فتقول: أنشدْنيه! فقال: وما الذى تأملُ فيه؟ قلت: إن كان على ما ذُكر لى فألفُ دينار، قال: أنا أعطيك ألفَ دينار إن رأيتُ الشِّعرَ جيّدًا، والكلامَ عذْبًا، وأضع عنك العَناء وطول التَرداد. متى تصل أنت إلى الخليفة [و][٨] بينك وبينه عشرة آلاف رامح ونابل! قلت: فلى عليك عهدُ الله أن تفعل! قال: لك الله أن أفعل. قلتُ: ومعك مال؟ قال: بغلى هذا خيرٌ من ألف دينار، أنزلُ لك عن ظَهره. قال: فغضبتُ وعارضتْنى مِرّة بنى سعد، وخفّة أحلامِها، وقلت: ما يساوى هذا البغلُ هذا النجيبُ! قال: فدع عنك هذا، ولك الله أن أعطيَك ألف دينار، فأنشدتُه الأرجوزة، وقلت:

مأمونُ ياذا المِنَن الشريفَهْ   وصاحبَ المَرْتبةِ المنيفَهْ
وقائدَ الكتيبةِ الكثيفَهْ   هَلْ لكَ فى أرجوزَةٍ ظريفَهْ!
أظْرَفَ من فقهِ أبى حنيفَهْ   لا والذى أنتَ له خليفَهْ
ما ظُلِمَتْ فى أرضنا عَفيفَهْ   أميرُنا شِكّتُهُ خَفيفَهْ[٩]
وما احْتَبى شيئًا سِوى الوظيفَهْ   فالذئبُ والنَّعجةُ فى سَقِيفَهْ
* واللّصُّ والتّاجرُ فى قَطيفَهْ *   [الرجز]

فوالله ما أتممتُ إنشادَها حتى جاء زُهاء عشرة آلاف فارس قد سدُّو الأفُق، وهم يقولون:

---

(١) كذا فى الطبرى: وفى تصويبات ط: «ولعنت».
(٢) سلغوس: حصن فى بلاد الثغور بعد طرسوس (مراصد الاطلاع).
(٣) الطبرى «غزاة»
(٤) من الطبرى.
(٥) الطبرى: «بقاعا».
(٦) كذا فى الطبرى، وفى ط: «فمضيت».
(٧) الطبرى: «أخبرتك».
(٨) من الطبرى.
(٩) الطبرى: «مؤنتة».

السَّلام عليك يا أمير المؤمنين! فأخذنى الْقَلَقُ، ونظر إلىّ بتلك الحالَ وشمْلى قد تبدّد فقال: لا بأس عليك! قلتُ: يا أميرَ المؤمنين، أمُعذِرى أنت؟ قال: نعم، ثم التفت إلى خادم فى جانبه وقال له: أعْطهِ ما معك. فأخرجَ له كيسًا فيه ثلاثة آلاف دينار، وقال: هاكَ، سلامٌ عليك! فكان آخر العهد به[1].

* * *

حدثنا إبراهيم بن عبد السلام، عن الحسين بن الضّحاك، قال: دخلتُ أنا ومحمد بن عمرو الرّوميّ دارَ المعتصم بالله، فخرج علينا كالحًا، فجاء إيتاخ[2] وقال: المهلون على الباب: مخارق، وعَلّوية، وفلان، وفلان. فقال: اعْزُبْ، عليك وعليهم لعنة الله! قال: فتبسّمتُ إلى محمد وتبسّم إلىّ، فقال المعتصم: مِمّ تبسّمت يا حسين؟ قلت: من شىء خَطَر لى. قال: هاته، فأنشدته:

إنْفِ عن قلبك الحزَنْ ... بدُنوٍّ من السّكنْ
وتمتّعْ بكرٍ طرْ ... فِكَ فى وجههِ الحسنْ[3]

[مجزوء الخفيف]

فدعا بألفَىْ دينار: ألف لى، وألف لمحمد بن عمرو. فقلت: يا أمير المؤمنين، الشعرُ لى، فما معنى «ألف لمحمد»؟ قال: لأنه جاء معك. وأمر الملْهينَ بالدخول، فأدخِلوا؛ فمازال يومَه ذاك يُنشد الشعر، ولقد قام يريد البَول، فسمعته يردّده[4].

* * *

قال أبو العيناء: أنشدَنى المعتصمُ بعقب مدحٍ جَرى ببغداد:

سقانى بعينيْهِ كأسَ الْهَوى ... فظلْتُ وبى منه مثل اللّمَمْ
بعينَىْ مَهاةٍ تبيّنْتُهُ ... وشُنْبٍ عِذابٍ وفَرْعٍ أحَمْ

[المتقارب]

قال أبو العيْنَاء: فتوهّمتُ أنّه يعنى سُرَّ مَنْ رأى، ويكنى عنها بذلك الكلام. فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين، قال مرْوان فى جدّك:

قريشٌ الأبلجُ ذو البهاءِ ... غيثُ العُفَاة فى غَد الأنْواءِ
* وهم زمامُ الدولة الزّهْراءِ * [الرجز]

(١) الخبر فى تاريخ الطبرى ٣: ١١٤٤ - ١١٤٨ (طبع أوربا).

(٢) هو إيتاخ التركى المعتصمى: كان غلاما خزريا لسلام الأبرش، فاشتراه منه المعتصم، ثم رفعه، ومن بعده الواثق، وضما إليه من أعمال السلطان أعمالا كثيرة؛ وكل من أراد المعتصم أو الواثق أن يقتله قتله، وقتل بذلك كثيرين. ثم تولى الحكم بالديار المصرية من سنة ٢٣٠ - ٢٣٥، ثم كتب المتوكل إلى إسحاق بن إبراهيم بن مصعب بالقبض عليه فى الباطن إن أمكنه؛ فتحايل عليه إسحاق حتى قبض عليه وقيده بالحديد، وقتله عطشا سنة ٢٣٥. وانظر حواشى الأغانى ٧: ١٨٤ (طبعة الدار).

(٣) بعده فى الأغانى:

إن فيه شفاء صد ... رِكَ من لاعجِ الحزَنْ

(٤) الخبر فى الأغانى ٧: ١٨٥ (طبعة الدار).

فقال: قُلْ يا أبا عبد الله فى مدح بنى هاشم لك ولغيرك، فلقد أصبتَ مقالاً، فأنشدتُه لمرْوانَ بن أبى حفصة:

إلى مَـلِكٍ بَـدْرِ الـدُّجَـى عـظيم الفناءِ رفيـعِ الـدِّعَمْ
قَـرِيـع نـزارٍ غـداةَ الفخـارِ وَلَوْ شئْتُ قلتُ جميع الأمَمْ
لَـهُ كفُّ جـودٍ تفيـد الغِنى وكفٌّ تبيـدُ بسيْفِ النِّقَمْ
[المتقارب]

فقال: زدنى، فأنشدته:

انتجعى يا ناقُ مُلْك غـالبٍ(١) قـريشَ بَطحـاءِ أولى الأهاضب
والـرأسُ ممـدودٌ عـلى المنـاكِبِ مـدَّ القبـاطىِّ عـلى المشـاجِبِ
[الرجز]

فقال: زدنى، فأنشدتُه:

يـا قطْبَ رَجْـراجَـةِ الْمَلحـاءِ ومنــزلَ البـدرِ منَ السـماء
* والمجتدى فى السَّنة العَجْفاءِ * [الرجز]

فقال: حسبُك يا أبا عبد الله! ثم التفَت إلى جارية بين يديه فقال: عشرَ بدَر، ووصيفة وفرسًا، ومملوكًا وخمسين ثوبا الساعة! فجيء بذلك كُلّه، فأعطاه إيّاه وانصرف، فقال له الناس: يا أبا العيناء، ما هذا؟ قال: مالُ الله، عليايد عبد الله، الحمد لله، والشكر لأمير المؤمنين مادامت السماء، وما حَملتْ مقلتاى الماء.

* * *

قال أحمد بن أبى طاهر: أخبرَنى مروان بن أبى الجنوب؛ قال: لما استخلِف المتوكلّ بعث إليه بقصيدة، مدحتُ فيها ابنَ أبى دؤاد، وفى آخرها بيتان ذكرتُ فيهما ابنَ الزّيّات بين يدَى ابن أبى أبى دؤاد، وهما:

وقيلَ لِىَ الزّيـات لاقَى حِمامَـهُ فقلتُ أتانى الله بالفتحِ والنَّصر!
لقد حَفَرَ الزيَّاتُ بالغَدْر حُفْرَةً فـأُلقِىَ فيها بـالخيـانـة والغَـدْر
[الطويل]

فلما صارت القصيدة فى يَدى ابن أبى دؤادَ، ذكر ذلك للمتوكّل، وأنشدَه البيتيْن، قال: أحضرْنيه، قال: هو باليمامة. قال: يُحمل، قلتُ: عليه ديْن، قال: كم؟ قلتُ: ستّة آلاف دينار. قال: يُعطاها، فأعطيتُ ذلك وحُملتُ، وصرتُ إلى سُرَّ من رأى؛ وامتدحتُ المتوكلّ بقصيدةٍ أقول فيها:

رحلَ الشبابُ وليتَهُ لم يَرحَلِ والشيبُ حـلّ وليتَه لم يحلُلِ
[الكامل]

(١) فى الأصلين: «ملوك».

فلما صرتُ من القصيدة إلى هذين البيتين:

كـانتْ خِلافـةُ جَعْفرٍ كنبـوّةٍ ... جاءَتْ بلا طلبٍ ولا بتبَخُّلِ
وهبَ الإلٰهُ لهُ الخلافة مثلَما ... وهبَ النُبـوّةَ للنبىّ المـرسَـلِ

أمر لى بخمسين ألف درهم.

* * *

قال: وكان علىّ بنُ الجَهْم يقع[١] فى مروانَ ويثلبه، حَسَدًا لمنزلَتِهِ من أمير المؤمنين[٢]. فقال له المتوكّل: يا علىّ، أيّكُما أشعَر، [أنت أو مروان][٣]؟ قال: أنا أشعر منه. قال: ما تقول يا مروان؟ قال: إذا حقّقت شعرك فى أمير المؤمنين، لم أبالِ بمن زَيَّف شعرى. ثم التفت مرْوان إلى علىّ؛ فقال: يا علىّ، أنت أشعر منّى! قال: نعم، تشكّ فى ذا! قال: [نعم أشكّ وأشكّ و][٤] أمير المؤمنين بينى وبينك، قال: هو يحابيك، فقال المتوكلّ: هذا مِن عِيِّك، ثم التفت إلى حَمدون النَّديم، فقال: ذا حَكَمٌ بينكما، فقال: يا أمير المؤمنين. تركتنى بين لَحْيَىِ الأسد، قال: لابدّ أن تصدقنى، قال: يا أمير المؤمنين، أعرفهما فى الشِّعرِ أشعَرُهما. فقال: المتوكّل: يا مَرْوان، هِجْهُ، قال: لا أبدؤه، ولكن يقول: فقال علىّ: قد كظَّنى النَّبيذ ولست أقدر أن أقول؛ قال مروان: لكنى أقول:

إن ابْنَ جَهْم فى المغيبِ يَعيبُنى ... ويقول لى حسَنًا إذا لاقانى[٥]
وإذا التقينا ناكَ شِعرى شعرَهُ ... ونـزَا على شَيْـطانِـهِ شَيـطانى[٦]
إنّ ابنَ جَهْمٍ ليسَ يرحمُ أُمَّه ... لـو كانَ يَـرحَمُـها لمـا عـادانى
[الكامل]

فقال المتوكل: يا مروان، بحياتى لا تقصِّر، فقال:

يـاعـلىُّ يـا ابنَ بَـدْرٍ[٧] ... قـلتَ أمِّى قُـرَشيّـة

---

(١) الأغانى «يطعن».
(٢) الأغانى: «ويثلبه حسدًا له على موضعه من المتوكل».
(٣) من الأغانى.
(٤) من الأغانى.
(٥) بعده فى الأغانى:

صَغرَتْ مهابتُـه وعُظِّمَ بطنُـه ... فكـأنمـا فى بـطنـه وَلـدانِ

(٦) فى الأغانى: فضحك المتوكل والجلساء معه. وانخزل ابن الجهم؛ فلم يكن عنده أكثر من أن قال: جمع حياة الرجال وحيلة النساء، فقال له المتوكل: هذا أيضا من عيِّك وبردك؛ إن كان عندك شىء فهاته، فلم يأت بشىء فقال لمروان: بحياتى إن حضرك شىء فهاته، ولا تقصر فى شتمك، فقال مروان:

لَعَمْرُكَ ما الجَهْمُ بن بَدْرٍ بشاعِرٍ ... وهـذا علىٌّ بعـده يَـدَّعِى الشعـرا
ولكنْ أبى قـد كـان جـارًا لأُمِّـهِ ... فلما ادّعى الأشعـار أوهمنى أمـرَا

قال: فضحك المتوكل، وقال: زده بحياتى.. ثم ساق الأبيات.
(٧) الأغانى:

* يا بْنَ بَدْرٍ يا عَلَيَّهْ *

قلتُ مـا ليس بحق فـاسكتى يا نَبَـطِيَّهْ
اسْكتى يا بنت جهم اسكتى يـا حَلَقِيّـهْ[١]
[مجزوء الرمل]

قال[٢]: فجعل المتوكل يضرب برجليه ويضحك، وأمر لى بألف دينار[٣].

* * *

قال مروان: صرت إلى المتوكل فقلت:

سقى الله نجـدًا والسَّـلامُ عـلى نجـدِ ويـاحبـذا نجـدٌ عـلى القـرب والبعـد!
نـظرتُ إلى نـجـدٍ وبـغـدادُ دونَها لعَـلِّى أرى نجـدًا، وهيهـات من نجـد!
ونـجـدٌ بهـا قـومٌ هـواهُـمْ زيـارتى ولاشـىء أحْـلَى من زيـارتِهـمْ عنـدى
[الطويل]

قال: فلمّا أتممت إنشادها أمر لى بعشرينٍ ومائة ألف درهم وخمسين ثوبًا وثلاثةٍ من الظَّهر: فرسٍ وبغلة وحمارًا، فما برحتُ حتى قلتُ فى شكره:

تخيَّرَ ربُّ الناسِ للناسِ جعفرًا فملّكه أمـرَ العبـاد تخيُّـرَا
[الطويل]

فلما صرت إلى هذا البيت:

فأمْسِكْ ندَى كفّيك عنّى ولا تزد فقد خفْت أن أُطْغَى وأن أتجَبّرا

قال: لا، والله لا أمسك حتى أغْرقك بجُودى، ولا تبرح أو تسأل حاجةً. قلت: يا أمير المؤمنين، الضيعة التى أمرتَ بإقطاعى إيّاها من اليمامة، ذكر ابن المدَبّر أنها وقفٌ من المعتصم. قال: فإنى أُقْبِلَكها[٤] بخراج درهم، قلت: لا يحسن أن يؤدّى درهم. فقال ابن المدبِّر: فألف درهم. قلت: نعم، فأمضاها لى: ثم قال: ليست هذه حاجة؛ قلت: فضياعى التى كانت لى وحالَ ابن الزيّات بينى وبينها، فأمر بردّها[٥].

* * *

(١) يقال: أتان حلقية، إذا تداولتها الحمر فأصابها داء فى رحمها.

(٢) فى الأغانى: «فأخذ عبادة هذه الأبيات فغناها على الطبل وجاوبه من كان يغنى، والمتوكل يضحك ويضرب بيديه ورجليه؛ وعلى مطرق كأنه ميت، ثم قال: على بالدواة. فأتى بها فكتب:

بـلاءٌ لـيس يشـبهـه بـلاءٌ عـداوةُ غـير ذى حسَبٍ ودينِ
يبيحـك مِنْـهُ عِرْضًـا لم تَصُنْـهُ ويـرتعُ مِنْكَ فى عِرْضٍ مَصُونِ
[الوافر]

(٣) الخبر بتمامه فى الأغانى ١٢: ٨١ – ٨٣ (طبعة الدار).

(٤) أقبلكها: أى ضمنتها لك والتزمت بذلك، والاسم القبالة.

(٥) الخبر فى الأغانى ١٢: ٨٠، ٨١ مع اختلاف فى العبارة.

قال: وقال أبو يعقوب الخطّابىّ: كنتُ جالسًا عند معن بن زائدة، وإذا عليه إزار يساوى أربعةَ دراهم، فقال: يا أبا يعقوب، هذا إزارى؛ وقد قسمت العام فى قومك خاصة أربعين ألف دينار. فبينا نحن نتحدّث؛ إذا أبصر أعرابيا يحُطّ به الآلَ من خَوْخَةٍ مشرفة له على الصحراء، فقال لحاجبه: إن كان هذا يريدنا فأَدْخِلْه، فدخل الأعرابىُّ وسلّم؛ وأنشأ يقول:

أصلحـكَ الله قلَّ مَـا بيَـدِى ... فـلا أُطيقُ العيالَ إذْ كَثـرُوا
ألـحّ دَهـرٌ رَمَـى بكَـلْكَـلِهِ ... فـأرسلونى إليـكَ وانتـظروا

[المنسرح]

قال: فاضطرب وقال: أرسلوك وانتظروا! يا غلام، ما فُعل بغلّتنا الفلانيّة؟ قال: حاضرة، قال كم: هى؟ قال: ألف دينار، قال: اطرَحْها إليه، ثم قال: اذهب إليهم بما معك، ثم إذا احتجتَ فارجع.

* * *

وعن أبى يعقوب الخطابىّ قال: دخل أعرابىّ معه ظبىٌّ صغير[1] فى نِطْع إلى معن بن زائدة، وقال:

سَمَّيتُ مَعنًا بَمعن ثم قلتُ لهُ ... هذا سَمِىُّ امرِىءٍ فى الناس محمودِ
أنتَ الجـوادُ ومنكَ الجـودُ أوّلُه ... لابل يمينك منهـا صورة الجـودِ

[البسيط]

فأعطاه ألف دينار.

* * *

قال: ودخل يزيدُ بن مَزْيَد مسجدًا باليمن، فوجد فى قبلته مكتوبًا:

مَضى معنٌ وخـلّانى بِـبَثٍّـى ... على مَعنِ بن زائدةَ السّلامُ

[الوافر]

فسأل عن قائله، فإذا هو معهم، فقال: يا غلام، أمعك شىء؟ قال: نعم. ألف دينار، قال: فادفْعها إليه، فخرج الرجل وهو يقول: رحم الله أبا الوليد! وَصَلنى حيًّا وميّتًا.

* * *

وحدثنا جعفر بن منصور بن المهدىّ قال: حدثنى أبى قال: حجّ المهدىّ فنزل زُبالَة[2]، فدخل حسين بن مطير الأسدىّ عليه، فقال:

أضحتْ يمينُـك من جُـودٍ مُصـوَّرةً ... لا بَـلْ يمينُـكَ منهـا صُورةُ الجـود
منْ حُسن وجهك تضْحِى الأرضُ مُشرِقَةً ... ومن بَنَـانِكَ يُجرى المـاء فى العُـودِ

[البسيط]

---

(١) ك: «ومعه صبى».

(٢) زبالة: موضع بطريق مكة.

فقال له المهديّ: كذبت! قال: ولِمَ ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: لقولك فى معن بن زائدة:

ألمّا على معنٍ وقولا لقبرِهِ ... سَقتْك الغَوادِى مَرْبَعًا ثُمَّ مَربعا[1]
فيا قَبْرَ معنٍ كيف وارَيْتَ جُودَهُ ... وقد كان منه البَرُّ والبحرُ مترَعًا!
فلما مَضى مَعْنٌ مضى الجودُ وانقضَى ... وأصبحَ عِرْنينُ المكارمِ أجْدَعَا
فكنتَ لدار الجُودِ يا مَعن عامرًا ... فقد أصبحتْ قفرًا من الجود بلْقَعَا
أبى ذكر معنٍ أن يُميتَ فعالَهُ ... وإن كان قد لاقى حِمامًا ومصرعَا
فتًى عِيشَ فى معروفه بعد مَوْتِهِ ... كما كان بَعْدَ السَّيل مَجراه مَرتَعا

[الطويل]

فقال: يا أمير المؤمنين، إنما معنٌ حسنةٌ من حسناتك، وفَعْلةٌ من فَعَلاتك، فأمر له بألف دينار، ثم قال: سل حاجتك، فقال:

بيضاءُ تَسْحبُ من قيامٍ فَرعَها ... وتَغيبُ فيه وهو جَعْدٌ أسحمُ
فكأنها فيه نهارٌ مشرقٌ ... وكأنه ليلٌ عليها مظلِمُ

[الكامل]

قال: خذ بيَدِها - لجارية كانت على رأسه[2] - فأولدها مُطَير بن الحسين بن مطير.

قال: ودخل مروان بنُ أبى حفصة على جعفر بن يحيى يسأله إيصالَه إلى الرشيد، وأنه قد مدحه بقصيدة ينشدها إيّاه، وقد كان جعفر وصله بثلاثين ألف درهم، كتب له بها إلى صالحٍ الصَّيْرفىَ، وكانت فيها دراهم طَبَرِيّة؛ فقال:

ثلاثون ألفًا كلُّها طَبَرِيَّةٌ ... دَعا لى بها لما رأى الصَّكَّ صالحُ[1]
دَعا بالزُّيوفِ الناقِصاتِ وإنّما ... عطاءُ أبى الفضل الجيادُ الرواجِحُ[2]
فقلتُ له لمّا دَعا بزُيوفِهِ: ... أألجِدُّ هذا منكَ أم أنت مَازِحُ؟

فلمّا أنشد ذلك جعفرًا ضحك، وقال: أنشِدنى مرثيّتَك فى معن بن زائدة، فأنشَدَه:

كأنّ الشمسَ يومَ أصيبَ معنٌ ... من الظلماءِ مُلْبَسةٌ جِلالاَ
وكانَ النّاسُ كلُّهمُ لمعْنٍ ... إلى أن زارَ حُفرَتَهُ - عِيالاَ

[الوافر]

فقال جعفر: هل أثابَكَ على هذه المرثيّة أحدٌ من وَلَده وأهلِه؟ قال: لا، فلو كان حيًّا ثم سمِعَها منك بكم كان يُثيبُك؟ قال: بأربعمائة دينار، قال: أظنّ أنه كان لا يرضاها لك. قد أمرْنا لك عن

---

(١) ديوان الحماسة بشرح التبريزى ٢: ٣٩٢، مع اختلاف فى الرواية وعدد الأبيات.

(٢) ك: «وكان على رأس المهدى جارية فقال له: خذ بيدها، فأخذها».

(٣) فى الأصول: «دعانى».

(٤) زيوف: جمع زائف؛ وهو الدرهم الردىء المردود لغش فيه.

معن بأربعة كما ظننتَ، وزدناك[١] مِثلَها كما ظنّنّاه به فيك، فاغْدُ على الخازن لقبضها منه.

قال[٢]: ودخل أعرابىّ على داود بن يزيدَ[٣] بالسِّنْد، فقال: أيّها الأمير، تأهّب لمديحى؛ فتأهّبَ، ثم قال: لئن أحسنتَ لأحسِنَنَّ إليك، ولئن أسأتَ لأُرَدِّنَّ شِعرَك عليك، فقال:

أمِــنــتُ بــداودٍ وجــودِ يـمـيـنـهِ ... مَن الحدَثِ المخْشىِّ والبؤس والفقْر

وأصبحتُ لا أخْشَى بــداودَ نَبْــوةً ... ولاحدَ ثانًا إذْ شَدَدْتُ به أزْرى[٤]

فما طلحةُ الطّلْحَاتِ ساواه فى النّدَى ... ولا حاتمُ الطائِى ولا خالدُ القَسْرِى

لـه حُكْم لقمانٍ وصـورةُ يُـوسفٍ ... ومُلْكُ سُليمـانٍ وصـدقُ أبى بكـر

فتًى تهرُبُ الأموالُ من طَـلِّ كفّه ... كما يهرُبُ الشيْطانُ من ليلةِ القدر[٥]

[الطويل]

فقال: يا أعرابِّى، أحسنتَ فاحتكِمْ، وإن شئتَ فاردد الحكم إلىَّ. فقال: ما عند الأمير ما يسعه حكمه، فقال: أنت فى هذا أشعر، وأمر له بعشرة آلاف درهم.

* * *

قال: ودخل محمد بن الجَهْم على المأمون، فقال: أنشِدْنى أحسن ما سمعتَهُ فى المديح، فقال: نعم يا أمير المؤمنين، قوله:

تَجودُ بالنفسِ إذ ضَنَّ الجوادُ بها ... والجودُ بالنفس أقصى غايةِ الجود[٦]

[البسيط]

فقال: أنشِدْنى أخبثَ ما سمعتَه فى الهجو، فقال: قوله:

قَبُحَتْ مَنـاظِرُهم فحـين خَبَرْتُهُمْ ... حَسُنت مناظرُهم لقبح المخْبَرْ[٧]

[الكامل]

قال: فأنشِدْنى أحسنَ ما سمعتَه فى المَراثى، فقال: قوله:

أرادُوا ليُخْفوا قبرَهُ عن عَدُوِّهِ ... فَطيبُ ترابِ القبر دل على القَبْرْ[٨]

[الطويل]

ومثله أيضًا:

عـلى قبرهِ بـين القبور مَهـابَةٌ ... كما قبْلَه كانت على ساكن القبر

[الطويل]

---

(١) ل: «وزودناك».

(٢) ك: «قيل».

(٣) الخبر فى العقد ١: ٢٨٩؛ وفيه «داود بن المهلب».

(٤) العقد: «من الحدثان إذ شددت».

(٥) العقد: «من جود كفه».

(٦) لمسلم بن الوليد، ديوانه ١٦٤.

(٧) لمسلم بن الوليد، ديوانه ٣٢١.

(٨) لمسلم بن الوليد، ديوانه ٣٢٠.

قال: فأنشِدْنى أحسنَ ما سمعْتَهُ فى الغَزل، قال: قوله:

حُبٌّ مُجِدٌّ وحبيبٌ يلعبُ وأنت مُلْقًى بينَهمْ مُعذَّبُ(١)

[الكامل]

فاستحسن الأبيات، ثم أمر بتقليدى الصَّيْمَرة والسِّيرَوَان ومهرجان قذق، والدِّينَورَ ونهاوَند. فانصرفتُ من عنده بولاية الجَبَل.

(١) لمسلم، ديوانه ٣٠٥.

مساوئ منع الشعراء والبخل

قيل: كان أبو عطاء السّندىّ بباب أمير المؤمنين أبى العباس، وبنو هاشم يَدخلون ويَخرُجون، فقال:

إنّ الخيارَ منَ البريَّة هاشمٌ ... وبَنو أميَّةَ أرزلُ الأشرارِ
وبنو أميّةَ عودُهم من خِروَع ... ولهاشم فى المجدِ عودُ نُضارِ
أمّا الدُّعاةُ إلى الجنانِ فهاشمٌ ... وبنُو أميّةَ من دُعاة النارِ
وبهاشمٍ زَكَت البلادُ وأعشبتْ ... وبنو أميّة كالسّراب الجارى

فلم يؤذَن فى الدخول على أبى العباس، ولم يصله أحد من بنى هاشم، فولّى وهو يقول:

ياليتَ جوْرَ بنى مَرْوان عادَ لنا ... وأن عدلَ بنى العبّاس فى النّارِ

* * *

قال: وقال المؤمّل المحاربىّ: شخصتُ إلى المهدىّ؛ وهو بالرىّ، فامتدحتهُ فأمر لى بعشرين ألف درهم، فرُفع الخبر إلى المنصور، فبعث قائدًا إلى جسر النَّهْرَوان يَسْتقرئ[1] القوافل، فلما وردتُ عليه قال: من أنت؟ قلت: أنا المؤمل، أقبلت من عند الأمير من الرَّى، فقال: إيّاك أَرَدْتُ، ثم أخذ بيدى فأدخلنى على المنصور وهو بباب الذّهب، فقال: أتيت غلامًا غِرًّا فخدعته فقلت: بل أتيتَ غلامًا غِرًّا كريمًا فخدعتَه فانخدع. فقال: أنشِدْنى ما قلتَه فيه، فأنشدْتُه:

هو المهدىُّ إلّا أنّ فيه ... مَشابهَ صورَةِ القمرِ المنيرِ
تَشَابهَ ذا وذا فَهُما إذا ما ... أنارا يُشْكِلَان على البصيرِ
فهذا فى الظلام سِراجُ ليلٍ[2] ... وهذا بالنَّهار سِراجُ نورِ
ولكنْ فضّل الرحمنُ هذا ... على ذا بالمنابر والسَّريرِ
وبالمُلْك العزيز فذا أميرٌ ... وما ذا بالأمير ولا الوزيرِ
ونقْصُ الشهر يُخْمِدُ ذا وهذا[3] ... مُنيرٌ عند نقصان الشهورِ
فيا بنَ خليفَةِ الله المصفَّى ... به تَعلو مُفَاخَرَةُ الفَخورِ
لَئِنْ فتّ المُلوك وقد توافَوْا ... إليكَ من السُّهولةِ والْوُعُورِ
لقد سَبَقَ الملوكَ أبوك حتى ... تراهُمْ بين كابٍ أو أسيرِ[4]
وجئتَ وراءَهُ تجرى حثيثًا ... وما بكَ حين تجرى من فتورِ

---

(١) ط: «يستبرئ».
(٢) أمالى الزجاجى: «نار».
(٣) أمالى الزجاجى: «نعلى».
(٤) أمالى الزجاجى: «بقوا من بين كاب».

فقال الناسُ: ما هذانِ إلّا كما بين الخليق إلى الجَدِيرِ[١]
فإن بلغَ الصغيرُ مَدَى كبيرٍ فقد خُلِق الصغيرُ من الكبيرِ

فقال: ما أحسنَ ما قلتَ! ولكن لا يساوى ما أخذتَ. يا ربيع، خذ منه ستّة عشر ألفًا، وخلّه وما سواها. قال: فحطّ والله الربيع ثقَلى[٢] حتى أخذ مِنّى ستّة عشر ألفًا، فما بقيتْ معى إلّا نُفَيْقَةٌ، فآليتُ عَلى نفسى ألّا أدخُلَ العراق وللمنصور بها ولاية. فلمّا بلغنى موتُ المنصور، واستخلافُ المهدىّ قدمتُ بغدادَ؛ وقد جَعَل المهدىُّ على المظالم رجلًا يقال له: ابن ثَوْبان، فرفعتُ إليه قِصَّةً أذكر فيها خبرى، فعرضها على المهدىّ، فضحك حتى استلْقى وقال: هذه مَظْلَمَةٌ أنا بها عارف، رُدّوا عليه مالَه، وزِيدُوا له عشرين ألفًا. فأخذتُها وانصرفْتُ[٣].

* * *

قيل: ودخل عَوْنٌ على عمر بن عبد العزيز، فقال: يا أميرَ المؤمنين، هذا جريرٌ بالباب يريد الدخولَ عليك فقال عُمَر: ما أدرى أنّ أحدًا من أمّةِ محمد صلّى الله عليه وسلّم يُحَجب عنّى! قال: إنّه يريد إذنًا خاصًّا، قال: أدخِلْه، فخرج عَوْن وأخذ بيده فأَدْخَلَه، فشكا إليه طولَ المُقام وشدّة الحال، وإلحاحَ الزّمان، وجَهْدَ العيال، وسأله أن يأذن له فى إنشاده شِعْرًا، فقال: إنّ أمير المؤمنين لفى شُغْل عن الشِّعر، فقال: إنها رسالةٌ من أهل الحجاز، قال: هاتِها، فقال:

قد طالَ قَوْلى إذا ما كنت مُجْتَهِدًا ياربَّ عافِ قَوامَ الدِّين والبَشَرِ[٤]
خليفَةُ الله ثم الله يحفظُهُ عند المُقام وإمّا كان فى السَّفَرِ
إنا لنَرْجُو إذا ما الْغَيْثُ أخلَفَنا من الخليفة ما نَرجُو منَ المطرِ
نال الخلافةَ إذْ كانتْ له قدَرًا[٥] كما أتى ربَّهُ موسى على قَدَرِ
ما زلْتُ بعدَكَ فى دارٍ تُوَرِّقنى[٦] قد طالَ فى الحىّ إصعادى ومنْحَدَرِى
أأذكُرُ الجهْدُ والبلوى التى نزلتْ أم قد كفانى الذى نُبِّئْتَ من خبرى
كَمْ بالمواسمِ منْ شعثاءَ أرْملةٍ ومن يتيم ضعيف الصوت والنَّظرِ!
أمْسَى حزينًا يَبكى فقْدَ والده كالفرْخ فى العُشّ لم ينهض ولم يَطِرِ
إن تَنْسَهُ عنه فمن يرْجو لفاقته أوتُنَحِ منها فقد أنحَيت منْ ضَرَرِ!

---

(١) أمالى الزجاجى: «بمنزلة الخليق».

(٢) كذا فى الطبرى والأغانى والزجاجى، وفى الأصول: «بغلى».

(٣) الخبر مع اختلاف فى الرواية، فى الأغانى ١٩ : ١٤٧، ١٤٩، وأمالى الزجاجى ٦٠ – ٦٢، وتاريخ الطبرى ٣ : ٤٠٦ – ٤٠٨ (طبع أوربا).

(٤) ديوانه ٢٧٤ – ٢٧٦، ومطلعها:

لِجَتْ أمامَةُ فى لومِى وَمَا عَلِمتْ عَرْضَ السَّمَاوَة روحاتى ولا بُكَرى

وأبيات منها مع الخبر فى الأغانى ٨ : ٤٧ – ٤٩ (طبعة الدار) مع اختلاف فى الروايات.

(٥) كذا فى الديوان والأغانى، وفى ط: «بذ الخلافة أم كانت».

(٦) الأغانى والديوان: «تعرقنى» أى تقفره ولا تترك له شيئًا.

أنت المبـاركُ والمهـديّ سيـرتُـهُ   تعصى الهوى وتقوم الليل بالسُّو
مـا ينفع الحـاضرُ المجهـودُ بـادِيَنـا   ولا يعـودُ لنـا بـادٍ عـلى حَصَـ
هذه الأراملُ قـد قضّيت حاجتهـا   فمنْ لحاجَةِ هـذا الأرْمَل الـذكَر
الخـيرُ مـادُمـتَ لا يـفـارقـنـا   بُوركت يا عُمَر الخيرات من عُم

فبكى عمر، ثم رفع رأسه، وقال: ما حاجتُك يا جرير؟ قال: حاجتى ما عوّدَتْنى الخلفاء
قال: وما ذاك؟ قال: أربعمائة من الإبل برُعاتها وتوابعها من الحُمْلان والكُسَى. قال له عمر:
المهاجرين أنت؟ قال: لا، قال؛ فمن الأنصار؟ قال: لا، قال: فممنّ أنت؟ قال: من الت
بإحسان. قال: إذَنْ نُجرِى عليك كما نُجرى على مثلك، قال: فإنى لا أريد ذاك، قال: فما أرى ل
بيت المال حقا، قال: إنما جئت أسألك من مالك، قال: فإن لى كسوة ونفقة وأنا أقاسمك
قال: بل أوثرك وأحمدك يا أمير المؤمنين. فانصرف من عنده وهو يقول:

وجدت رقى الشيطان لا تستفزه   وقد كان شيطانى من الجن راة
[الطو

ولبعض الشعراء فى مثله:

إنّ حـرامًـا قبـولُ مِـدْحتنـا   ومنـعُ ما يُـرْتجى من الصّفَد
كما الدنانيرُ والدراهم فى الصّر   فِ حـرامٌ إلّا يـدًا بيَـدِ

* * *

أبو نجدة فى مثله:

فـلّما أنْ بـلوْنـاكَ   ولم نلقَـك بـالنـاشطْ
أطَعنـا فيـك ميمـونًـا   فصـوّرنـاك فى الحـائط
إذا لم تـكُ نفّـاعًـا   فأنتَ النازحُ الشـاحطْ
سَـواءٌ أنتَ فى عينى   بجَىٍّ كنتَ أم واسطْ[٢]

* * *

وروى فى الحديث قال: «لا يجتمع الشُّحّ والإيمانُ فى قلب عبدٍ أبدًا».
ويقولون: الشَّحيح أعذرُ من الظالم، وأقسم الله جلَّ وعزَّ بعزَّته لا يساكنه بخيلٌ.
وقال النبىّ ﷺ: «من فُتح له باب من الخير فلينتهزْه، فإنه لا يدرى متى يُغلق عل
وقال الشاعر فى ذلك:

ليس فى كـلّ ساعـةٍ وأوانِ   تَتَهيّـا صنَـائـعُ الإحسـانِ

---

(١) قبله:

تـركت لكم بالشـام حَبْل جـاعةٍ   أمين القوى مستحصِد العَقْدِ بـاكَيا

(٢) جى: اسم مدينة أصبهان القديمة، وواسط: مدينة بين الكوفة والبصرة، وفى ط: «بحى» تصحيف.

فـإذا أمكنتْ تقـدَّمتُ فيهــا ـ حَـذَرًا من تعـذُّر الإمكـان
[الخفيف]

* * *

وسئل بعضُ الحكماءِ: مَنْ أكيسُ الناس فى زماننا؟ فقال: ابن أبى دواد حيث يقول فيه الشاعر:

بـدا حـينَ أثْـرَى بـإخـوانـه ـ فَفَلَّل عَنْهُم عَنْهُم شَبَـاةَ الْعَـدَمْ
وحـذَّره الحَـزْمُ صَرْف الـزَّمـان ـ فبـادَرَ قَبْـل انتقـال الـنِّعَـمْ
فـليس وإن بَخِـلَ البـاخـلو ـ ن يقْـرَعُ سِنًّـا لَـهُ مِنْ نـدمْ
ولا ينكُتُ الأرضَ عنـد السؤال ـ لـيمـنـعَ سُؤَّالـه عـن نَـعـمْ
ولكن يُـرَى مُشـرقًـا وجهُـهُ ـ لِيَـرْتَـعَ فى مـالِـه مَنْ عَـدِمْ
[المتقارب]

وفصْل لبعضهم فى هذا المعنى:

إنَّ لأيام القُدرة على الخير غنائم فاصطنعها ما دامت راهنةً لديك وأنت منها متمكّنٌ؛ قبل أن تنقضى عنك.

* * *

وفى المثل السائر فى البُخل: «هو أبخل من مادر»، وهو رجل من بنى هلال بن عامر، بَلَغ مِنْ بخله أنه سقى إبَله فبقىَ فى أسـ إلى الحوض ماءٌ قليل، فسَلَح فيه ومدَّر الحوض[1]. فسمِّى مادرًا.

* * *

وذكروا أن بنى فزارة، وبنى هلال تنافروا إلى أنس بنَ مُدرك وتراضَوْا به، فقالت بنو هلال: يا بنى فزارة، أكلتم أيْرَ الحمار، فقال بنو فزارة: [أكلناه و][2] لم نعرفْه. وكان سبب ذلك، أن ثلاثة أنفار اصطحَبُوا: فزاريّ وتّغلبى، وكلابيّ، فصادوا حِمارَ وحشٍ، فمضى الفزاريُّ فى بعض حوائجه، فطبَخَاه، وأكلاه، وخبأ للفزاريّ أير الحمار، فلمّا رجع قالا له: قد خبأنا لك فكُلْ، فأقبَل يأكل ولا [يكاد][2] يُسيغه، فجعلا يضحكان، ففَطن وأخذ السيفَ وقام إليهما، فقال لهما: إن أكلتُماه[3] وإلاّ قتلتُكما. فامتنعا؛ فضَرب أحدَهما فأبان رأسَه وتناوَله الآخر فأكل منه، فقال فيهم الشاعر:

نَشَـدْتـكَ يـا فـزَارَ وأنتَ شيـخٌ ـ إذا خُيِّـرْتَ تخطـىءُ فى الخيـار
أصـيْحـانِيَّـة أُدِمَتْ بـسمْـنٍ[4] ـ أحَـبُّ إليـكَ أم أيْـرُ الـحمـارِ!

(١) مدر الحوض: وضع فيه القدر.
(٢) من مجمع الأمثال.
(٣) مجمع الأمثال: «لتأكلانه أو لأقتلنكما».
(٤) الصيحانى: ضرب من تمر المدينة أسود صلب المضغة، نسب إلى صيحان، وهو كبش كان يربط إلى نخل المدينة.

بلى أَيْـرُ الحمـار وخُصيَتـاهُ أحبُّ إلى فـزَارة من فـزَارِ[١]
[الوافر]

فقالت بنو فزارة: منكم يا بنى هلال من سَقَى إبلَه، فلما رويتْ سَلَح فى الحوض ومَدَّره بُخلًا. فقضى أنس بن مُدْرك على الهلاليّين، وأخذ الفزاريُّون منهم مائة بعير، وكانوا تراهنوا عليها[٢].

وفى بنى هلال يقول الشاعر:

لقد جُلِّلتْ خِزْيًا هلالُ بنُ عامر بنى عامر طرا بسَلْحَةِ مادِرِ[٣]
فأفٍّ لكُمْ لا تذكروا الفَخْرَ بعدها بنى عامر، أنتم شِرارُ المعاشر
[الطويل]

* * *

وفى المثَل: «هو أبخَلُ من نار الحُبَاحِب»، وهو رجل كان فى الجاهليّة، من بُخله أنه كان يُسرج السراج، فإذا أراد أحدٌ أن يأخذ[٤] منه أطفأه؛ فضرب به المثل[٦].

ومنهم صاحب نجيح بن سُليف اليَرْبوعيّ، فإنه ذكر أن نَجيحًا خرج يومًا إلى الصّيد، فعَرَض له حمارُ وحش، فاتّبعه حتى دفع إلى أَكَمة، فإذا هو برجل أعمى أسود قاعد، فى أطمار، بين يديه ذهب وفضّة ودُرّ وياقوت، فدنا منه نَجيح فتناول منها بعضَها، فلم يستطع أن يحرّك يده حتى ألقاها، فقال: يا هذا، ما الّذى بين يديك؟ وكيف تستطيع حمله؟ ألك هو أم لغيرك؟ فإنّى أعجب ممّا أرى؛ أجوادٌ أنتَ فتجود لنا، أم بخيلٌ فأعذِرك؟ فقال الأعمى: كيف تطلب مال رجل قد غاب منذ سنتين؛ وهو سعد بنُ خَشْرَم بن شمّاس، فأتنى بسعد يعطك ما تشاء.

فانطلق نجيحُ مسرعًا قد استطير فؤادُه حتى وصل إلى محلّته، ودخل خِباءَه، فوضع رأسه ونام لما به من الغمّ، لا يدرى مَن سعد! فأتاه آت فى منامه فقال لَهُ: يا نجيح، إنّ سعد بن خَشْرَم فى حيّ محلّمٍ، من ولد ذُهل بن شيبان. فخرج وسأل عن بنى محلّم، ثم سأل عن خَشْرَم، فإذا هو بشيخ قاعد على باب خبائه، فحيّاه نجيح، فردّ عليه، فقال له نَجيح: من أنت؟ قال: خَشْرم بن شماس؛ قال: وأين ابنك؟ قال: خرج فى طلب نجيح بن سُليف اليربوعيّ، وذلك أنّ آتيًا أتاه فى منامه فحدَّثه أنّ مالاً فى نواحى بنى يربوع، لا يعلَم به إلاّ نجيح، فضرب نجيح بطنَ فرسه وهو يقول:

أيطلُبُنى مَنْ قد عَنـانى طِلابُـهُ فياليتنى ألقاكَ سعْدَ بن خَشْرَمِ!
أتيتَ بنى يـربوعَ تـطلُبنى به وقد جئتُ كىْ ألقاكَ حىَّ محلِّمِ
[الطويل]

(١) فى مجمع الأمثال: «فحذف الهاء من فزارة كما تحذف فى الترخيم، وإن كان هذا فى غير النداء».
(٢) الخبر فى مجمع الأمثال للميدانى ١: ١١٢، والمحاسن والأضداد ٨٧، ٨٨.
(٣) مجمع الأمثال ١: ١١٢.
(٤) ك: «يسرج منه إنسان».
(٥) المحاسن والأضداد ٨٧.

فلما دنا من محلّته استقبل سعدًا فقال له: أيها الراكبُ، هل لقيتَ سعدًا فى بنى يربوع؟ قال: أنا سعد فهل تَدُلّ على نَجيح! قال: أنا نجيح، وحدَّثه بالحديث؛ ثم قال: الدَّالّ على الخير كفاعله - وهو أوّل من قاله - فانطلقا حتى أتيا ذلك المكان، فتوارى الرجل حين أبصرَهما، وترك المال، فأخذه سعد كلَّه، فقال له نَجيح: يا سعد، قاسِمْنى، فقال له: اطوِ عن مالى كَشْحًا. وأبى أن يُعطيه، فانتضى نجيح سيفَه، فجعل يضربه حتى بَرَد، فلما وقع قتيلا تحوّل الرجل الحافظ للمال سعلاةً فأسرع فى أكل سعد، وعاد المالُ إلى مكانه، فلما رأى نجيح ذلك، ولى هاربا إلى قومه[1].

* * *

قال: وكان أبو عُمَيس بخيلًا، فكان إذا وقع الدّرهم فى يده نَقَره بإصبعه، ثم يقول له: كم من مدينة قد دخلتَها، ويد قد وقعتَ فيها! والآن استقرّ بك القرار، واطمأنّت بك الدار، ثم يَرمى به فى صندوقه، فيكون ذلك آخر العهد به.

قيل: ونظر سليمان بن مُزاحم إلى درهم فقال: فى شِقٍّ «لا إله إلّا الله»، وفى شِقّ: «محمد رسول الله» ﷺ، ما ينبغى أن يكون هذا إلّا معاذة؛ وقذَفَه فى صندوقه[2].

* * *

وذكروا أنه كان بالرىّ عاملٌ على الخراج يقال له: المسيَّب، فأتاه شاعرٌ فامتدَحَه فسَعَل سُعلةً فضَرَط، فأنشأ الشاعر يقول:

أتيتُ المسيَّبَ فى حاجةٍ فما زال يسعُلُ حتَّى ضَرَطْ
فقال غَلِطْنَا حسابَ الخراجِ فقلتُ: من الضَّرْطِ جاءَ الغلطْ

[المتقارب]

فولِعَ به الصبيان، فكان كلّما مرَّ قالوا: «من الضرْط جاء الغَلَط»، فما زالوا يقولون ذلك حتّى هرب منها من غير عَزْل[3].

* * *

وكان أبو الأسود الدُّؤلىّ بخيلًا، وهو القائل لبنيه: لا تجاوِدوا الله، فإنه أجودُ وأمجَد، ولو شاء أن يوسِّع على الناس كلِّهمْ حتى لا يكون فقير لفعل.

وسمع رجلًا يقول: من يعشِّى الجائع؟ فعشّاه ثم ذهب ليخرج، فقال: هيهات! تخرج فتؤذى غيرى من المسلمين كما آذيتَنى! ووضع رجلَه فى الأدهم حتى أصبح[4].

قال: وكان رجل يأتى ابنَ المقفّع فيلحّ عليه ويسأله الغدَاء عنده، فيقول: لعلّك تظن أنِّى أتكلَّف

---

(١) الخبر فى المحاسن والأضداد ٨٨ - ٩٠ ومحاضرة الأبرار ١: ٢٥٨.
(٢) المحاسن والأضداد ٩٠ ومحاضرة الأبرار: ٢٥٨.
(٣) المحاسن والأضداد ٩٠: ٩١.
(٤) المحاسن والأضداد ٩٠.

لك شيئا، والله لا أقدّم إليك إلاّ ما عندى. فلما أتاه إذا ليس فى بيته إلاّ كِسَر يابسةٌ، وملحٌ جَريشٌ، وجاء سائل إلى الباب فقال: وسّع الله عليك! فلم يذهب. فقال: والله لئن خرجتُ إليك لأدقّنّ ساقك. فقال ابن المقفع للسائل. لو عرفت مِن صدق وعيده ما أعرف من صدق وَعْدِه لم تردد[١] كلمة، ولم تُقِم طَرفةً ببابه[٢].

* * *

المدائنى عن خالد كيلويه، قال: كنت نجّارًا حاذقًا، فذُهِب بى إلى المنصور، فقال: افتح لى بابًا أنظر منه إلى المسجد وعجّل الفراغ منه. قال: ففتحتُ الباب، وعلّقتُ عليه بابًا، وجصّصته وفرغتُ منه قبل وقت الصلاة، فلمّا نودى بالصلاة جاء فنظر إليه، فأعجبه عملى، وقال لى: أحسنتَ بارك الله عليك! وأمر لى بدرهمين.

* * *

قال: وقال المنصور للمسيّب بن زهير: أحضِرْ لى بَنّاءً حاذقًا الساعةَ، فأحضَرَه، فأدخله إلى بعض مجالسه وقال له: ابن لى بإزائه طاقًا يكون شبيهًا بالبيت، فلم يزل يُؤتَى بالجصّ والآجُرِّ حتى بناه وجوَّده ونظر إليه واستحسنه، فقال للمسيّب: أعطِه أجْرَه، فأعطاه خمسة دراهم، فاستكثرها وقال: لا أرضَى بذلك، فلم يزل حتّى نَقَصَه درهمًا، ففرح بذلك وابتهج كأنه أصاب مالاً.

* * *

وحكى عن المنصور أنه لُدِغ، فدعا مولًى له - يقال له: أسلَم - رَقّاءَ، فأمره أن يَرْقِيَه، فرقاه، فبرئ. فأمر له برغيف، فأخذ الرغيف فثَقَبه وصيّره فى عنقه، وجعل يقول: رقَيت مولاىَ فبرئ، فأمر لى برغيف. فبلغ المنصور ذلك فقال: لم آمرك أن تشنّع علىّ، قال: لم أشنّع إنما أخبرتُ بما أمرتَ. فأمر أن يُصفَع ثلاثة أيام فى كلّ يوم ثلاثَ صَفَعات.

* * *

وعن الأصمعىّ؛ قال: دخل أبو بكر الهجرىّ ذاتَ يوم على المنصور، فقال: يا أمير المؤمنين. انتقَض علىَّ فمِى، وأنتم أهل بيت برَكة! فلو أذِنْتَ لى لقبّلتُ رأسَك لعلَّ الله يَشُدّ فمِى! فقال المنصور: اخترْ ذلك أو الجائزة، فقال: يا أمير المؤمنين، أهون علىّ عن ذهاب درهم الجائزة ألاّ يبقى فى فمى حاكّة.

ومنه مكاتبات:

كتب أرسطاليس إلى رجل فى رجل يَصِلُه بشىء، فلم يفعل، فكتب إليه: إن كنتَ أردتَ فلم تقدر فمعذور، وإن كنتَ قدرتَ فلم ترِد، فسيأتيك يوم تريد فيه فلا تقدِر[٣].

قيل: وكتب إبراهيم بن سيّابه إلى رجل صديق له كثير المال يستسلفه، فكتب إليه: العيال كثيرٌ،

---

(١) البيان والتبين: «لم تراده».

(٢) الخبر فى البيان والتبيين ١: ١٩٧: ١٩٨.

(٣) المحاسن والأضداد ٩١.

والدخل قليل، والمال مكذوب، فكتبَ إليه: إن كنتَ كاذبًا فجعلك الله صادقًا؛ وإن كُنْت صادقًا فجعلك الله معذورًا[١].

* * *

قال: وكتب بعضهم يصف[٢] رجلًا: أمّا بعد، فإنك كتبتَ تسألُ عن فلان، فكأنّك هممتَ أو حدّثتَ نفسك بالقدوم عليه، فلا تفعلْ أمتع الله بك؛ فإنّ حُسن الظنّ به لا يقع فى الوَهْم إلّا بخذلان الله، وإنّ الطّمع فيما عنده لا يخطر على القلب إلّا بسوء التوكّل على الله، وإنّ الرجاء لما فى يده لا ينبغى إلّا بعد اليأس من رحمة الله. إنه يرى الإقتار الّذى نهى الله عنه، هو التبذير الذى يعاقب الله عليه، والاقتصاد الذى أمر الله عزّ وجلّ به هو الإسراف الّذى يعذّب الله عزّ وجلّ عليه. وأنّ بنى إسرائيل لم يستبدلوا العَدَس بالمنّ والبَصَل بالسَّلْوى، إلّا بفضل أحلامهم، وقديم علمٍ توارثوه من آبائهم، وإنّ الصنيعة مرفوعةٌ، والصّلة موضوعة، والهِمّة مكروهة، والصدقة منحوسة والتوسُّعَ ضلالة، والجودَ فُسوق، والسخاءَ من همزات الشياطين، وإنّ مواساة الرجل أخاه من الذّنوب الموبقة، وإفضاله عليه من إحدى الكبائر.

وإنّ الله عزّ وجلّ لا يَغفِر أن يؤثِر المرءُ فى خصاصةٍ على نفسه ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾. ومن آثر على نفسه فقد ضلّ ضلالًا بعيدًا، وخسر خسرانًا مبينا؛ كأنه لم يسمع بالمعروف إلّا فى الجاهليّة الذين قطع الله أدبارهم، ونهى جلّ اسمُه عن اتباع آثارهم، وإن الرَّجفة لم تأخذ أهلَ مدْيَن إلّا لسخاء كان فيهم، وإن الريح العقيمَ أهلكتْ عادًا وثمود لتوسُّع كان فيهم. وهو يخشى العقاب على الإنفاق، ويرجو الثواب على الإقتار، ويعدُّ نفسَه العقوق، ويأمرها بالبخل، خيفة أن تمرّ به قوارعُ الدهور، وأن يصيبه ما أصاب القرون الأولى.

فأقم رحمك الله بمكانك، واصبر على عُسْرك، لعلّ الله أن يُبدلنا وإيّاك (خيرًا منه زَكاةً وأقربَ رُحمًا).

ومنه فنٌّ آخر. وصف أعرابيٌّ رجلًا فقال له: بِشرٌ مُطمع، ومَطْلٌ موئس؛ فأنت منه أبدًا بين اليأس والطمع، لا مَنْع مُريح، ولا بَذْل سريح[٣].

* * *

وقال أعرابيٌّ: أنا من فلان فى أمانىَّ تُهبط العُصم، وخُلف يذكر العُدْم، ولست بالحريص الّذى إذا وعده الكَذوب أعلق نفسه لديه، وأتعبَ راحلتَه إليْه.

* * *

وذكر أعرابىٌّ رجلًا فقال: له مواعيد عواقبها المطل، وثمارُها الخُلْف، ومحصولها اليأس. ويقال: سرعة اليأس أحد النُّجحيْن.

---

(١) المحاسن والأضداد ٩٢.

(٢) المحاسن والأضداد: «وكتب آخر إلى آخر».

(٣) المحاسن والأضداد ٩٢، ٩٣.

وقال بعضهم: مواعيدُ فلان مواعيد عُرْقوب، ولمع الآل، وبرقُ الخُلَّب، وأمانىُّ الكَمّون، ونار الحُباحِب، وصَيفٌ تحته راعدة[١].

* * *

ولبعض الكتّاب فصل فى هذا المعنى: أما بعد، فإن كثرة المواعيد من غير نجح، عارٌ على المطلوب، وقلّتها عند الحاجة، مكرُمةٌ من صاحبها، وقد رددتنا فى حاجتنا هذه مع كثرة مواعيدك من غير نُجْح لها؛ حتى كأنّا قد رضِينا بالتعلل بها دون النجاح، كقول الأوّل:

لا تجعلنّا ككمُّون بمزرعة ... إنْ فاتَه الماءُ أروَتْه المواعيدُ[٢]

[البسيط]

* * *

ولآخر منهم: ما رأيت مِثلَ طيّب قولك، أمرّه سوءُ فعلك، ولا مثلَ بَسطِ وَجْهك، خالفَهُ ضيقُ تنكّدك، ولا مِثل قرب مواعيدك باعَدَها فَرطُ مَطْلِك، ولا مثل أنْس بديهتك، أو حش منه قبيح عواقبك، حتّى كأنّ الدهر أودعك لطيفَ الحيلة بالمكر بأهل الخلّة، وكأنّه زيّنك فيهم بالخديعة لتُدْرِك منهم فرصةَ الهَلَكة. وقد قيل: وعد الكريم نَقْد وتعجيل، ووعدُ اللئيم مَطْلٌ وتأجيل.

* * *

وقال بعضهم: وعدتَنا مواعيدَ عُرْقوب، ومطلتّنا مَطْلَ نُعاس الكلب[٣]، وغَررْتَنا غرورَ السَّراب، ومَنَّيتنا أمانىّ الكمُّون.

* * *

ولبعضهم: أما بعد، فلا تدَعْنى متعلِّقًا بوعدك، فالعذر الجميلُ، أحسنُ من المطل الطويل، فإن كنت تريد الإنعام فأنجِحْ، وإن تعذّرت الحاجةُ فأَوضِح، وأعلمْنى ذاك لأصرف وجهَ الطَّلب إلى غيرك.

* * *

وذكروا أن فتى من مُراد كان يختلف إلى عمرو بن العاص، فقال له ذات يوم؛ ألك امرأةٌ؟ قال: لا، قال: أفتتزوّج وعلىّ المهر! فرجع إلى أمّه فأخبرها، فقالت:

إذا حدّثَتْك النفسُ أنك قادرٌ ... على ما حوَت أيدى الرجال فكذِّب

[الطويل]

فتزّوج، ثم أتى عمرَو بن العاص فاعتلّ عليه، ولم ينجزْ له وعدَه، فشكا ذلك إلى أمّه، فقالت:

---

(١) المحاسن والأضداد ٩٥.

(٢) المحاسن والأضداد ٩٢، ٩٣.

(٣) فى اللسان: الكلب يوصف بكثرة النعاس، وفى المثل: «مسطل كنعاس الكلب».

لا تغضبنّ على امرئ فى مالِه ... وعلى كرائم مالِ نفسِك فاغضبِ[1]

[الكامل]

* * *

ولبعض الشعراء فى هذا المعنى:

أروحُ وأغدُو نحوَكم فى حوائجى ... فأصبح منها غدوةً كالذى أُمسِى[2]

وقد كنت أرضى للصديق شفاعَتِى ... فقد صرتُ أُرضى أن أشفَّعَ فى نفسى

[الطويل]

ولأبى نُواس:

وعَدْتَنى وعْدَك حتى إذا ... أطمعْتنى فى كنز قارُون

جِئت من اللّيلِ بغسّالةٍ ... تغسل ما قُلتَ بِصابونِ

[السريع]

وأنشد لأبى تمّام:

يحتاجُ من يَرتجى نوالَكمُ ... إلى ثلاثٍ بغير تكذيب

فكنزُ قارونَ أن يكون لهُ ... وعمرُ نوحٍ وصبرُ أيّوب

[المنسرح]

ولآخر:

إنى لأعجبُ من قَولٍ غُررتُ بهِ ... حُلوٍ يَلذّ إليهِ السمعُ والبصرُ[3]

لو تَسمعُ العُصْمُ فى صُمّ الجبالِ بهِ ... ظلّتْ من الرّاسِياتِ العُصْمُ تنحدِرُ

كالخمرِ والشهدِ يجرى فوق ظَاهِرِهِ ... وما لباطِنِه طَعمٌ ولا خَبرُ

وكالسَّرابِ شَبيهًا بالغديرِ وإنْ ... تَبْغَ السرابَ فلا عَينٌ ولا أثرُ

لا يَنبُتُ العُشْبَ عن بَرْق وراعِدَةٍ ... غَرّاءَ ليسَ بها سَيْلٌ ولا مطرُ

[البسيط]

* * *

ومما قيل من الشِّعر فى البخل بالطعام لبعضهم:

رأيتُ أبا عثمانَ يَبْذُلُ عِرْضَهُ ... وخبزُ أبِى عثمانَ فى أكرمِ الحرزِ[4]

يَحِنُّ إلى جاراتِهِ بعدَ شِبعهِ ... وجاراتُهُ غَرْثى تحنّ إلى الخبزِ

[الطويل]

* * *

(١) الخبر فى المحاسن والأضداد ٩٤.

(٢) المحاسن والأضداد ٩٥.

(٣) المحاسن والأضداد ٩٥، ٩٦، ونسبها إلى حسان بن ثابت.

(٤) المحاسن والأضداد ٩٦.

آخر:

مـا كنتُ أحسبُ أنّ الخبـز فـاكهـةٌ حتى نَزَلتُ على عوْفِ بن خِنزيرِ[(١)]
الحـابسُ الـرَّوْثَ فى أعفَـاج بغلتـهِ بُخْلًا على الحَبِّ من لَقْطِ العَصَـافير
[البسيط]

* * *

ولغيره:

نـوالُـكَ دونَـهُ خَـرْطُ القتَـادِ وخيرُكَ كـالثريّـا فى البِعـادِ[(١)]
ترى الإصلاحَ صَـوْمَك لا لِنُسْـكٍ وكَسْـرًا للرَّغيف مـن الفسـادِ
أرى عمـرَ الرَّغيفِ يـطولُ جدًّا لَـدَيـكَ كـأنّـهُ من قـومِ عـادِ
[الوافر]

ولآخر:

اللّؤمُ منكَ على الطعام طِباعُ فعِيـالُ بيتكَ مـا حَييتَ جياعُ
وإذا يَمرُّ ببابِ دارك سـائلٌ هـرَّتْ عليـه نـوابحٌ وسِبـاعُ
وعلى رغيفِـكَ حَيّةٌ مَسمـومـةٌ وعلى خُوانِكَ عقربٌ وشُجاعُ[(٢)]
[الكامل]

* * *

ولآخر:

يـا تـاركَ البيتِ على الضَّيْف وهـاربًـا منـهُ مِنَ الخـوفِ[(٣)]
ضَيفُـكَ قـد جـاءَ بـزادٍ لـهُ فارجع فكن ضَيفًا على الضيف
إذا اشتَهى الضيفُ طبيخ الشِّتا أتـاهُ بـالشَّهـوةِ فى الصَّيفِ
وإن دنـا المسكينُ من بـابـهِ شـدَّ على المسكينِ بـالسَّيفِ
[السريع]

ولآخر:

يَكتبُ بالحِبر على خُبزهِ «والله لا يأكلُهُ الجارُ»
[السريع]

ويسـأل الخَـادمَ من بـخـلهِ أيُّ رغـيـفٍ فـيـه آثـارُا
ويختـمُ الـقِـدْرَ عـلى أهلهِ ويَـشـعَـبُ الـعـظمَ بمسـمـارِ

---

(١) المحاسن والأضداد ٩٦.
(٢) الشجاع: الحية.
(٣) المحاسن والأضداد ٩٧.

والماء فى منزله طرفة يشربه الناس بمقدار

ولآخر:

أرى ضَيْفَكَ فى الدَّار وكَرْبُ الموتِ يَغْشاهُ[١]
على خُبزِكَ مكتوبٌ: «سيكفيكَهُم الله»

[الهزج]

ولآخر:

لأبى نوحٍ رغيفٌ أبدًا فى حِجْرِ دَايَهْ[٢]
أبدًا يَمْسَحُهُ الدَّهْر بكُمٍّ ووقايَهْ
ولهُ كاتبُ سرٍّ خَطَّ فيهِ بعنايَهْ:
فسيَكْفيكَهُمُ اللـ ـه إلى آخِرِ الآيَهْ

[مجزوء الرمل]

آخر:

الخبزُ يُبْطى حينَ يَدْعُو بهِ كأنه يَقْدَمُ مِنْ قافِ
ويمدَحُ الملْحَ لأصحابهِ يقولُ: هذا ملحُ سِيرافِ
سِيَّانِ أكلُ الخبز فى دارِه وقلعُ عينيْهِ بخُطَّافِ

[السريع]

* * *

وقال آخر:

فتًى لا يغارُ على عِرْسِهِ ولكنْ يَغارُ على خُبزِهِ
فمنهُ يدُ الجودِ مقبوضةٌ وكفُّ السماحةِ فى عَجْزِهِ

[المتقارب]

آخر:

يصونونَ أثوابهمْ فى التُّخوتِ وأزواجُهم يخترقْنَ السِّكَكْ[٣]
يُنَحُّونَ مَنْ رامَ رُغفانَهمْ ويُدْنونَ مَنْ رامَ حَلَّ التِّكَكْ

[المتقارب]

---

(١) المحاسن والأضداد ٩٧.
(٢) المحاسن والأضداد ٩٨.
(٣) المحاسن والأضداد ٩٨.

ولآخر:

ولَوْ أنّ الذُّبابَ تراه يومًا غَدَتْ غَرْثَى لصحفتِه تَرُومُ
لنادَى فى العشيرةِ: أدرِكونى ألا أيْنَ القَماقِمُ والقرومُ!
فياوَيْلَ الذبابِ إنَ ادْركوهُ وفى الهيْجا عدوّهُمُ سليمُ

[الوافر]

ولآخر:

أمَّا الرغيفُ لدَى الخُوا نِ فمنْ كريماتِ الحُرَمْ[1]
ما إنْ يُجَسّ ولا يُجَسُّ ولا يُذاقُ ولا يُشَمّ
فتراهُ أخْضَرَ يابسًا بالى النقوشِ مِنَ الهرَمْ

[الكامل]

* * *

ولآخر:

أتيْنا أبا طاهِر مُفطِرينَ إلى رَحْله فرَجَعْنا صِياما[2]
وجاءَ بخبزٍ لهُ حامِضٍ فَقلتُ: دَعوهُ وموتوا كِراما

[المتقارب]

* * *

وعن حذيفة بن محمد الطائىّ قال: قال الرشيد: لا أعرف لمولد أهجى من قول أبى نواس:

وما روَّحتَنا لتذُبَّ عنّا ولكن خِفْتَ مرزئه الذُّبابِ[3]
شرابُكَ كالسّراب إذا التقينا وخبزُكَ عند منقطَع التراب

[الوافر]

* * *

ولآخر:

خَانَ عهدى عمرُو وماخُنْتُ عَهْدَهْ وجفانى وما تغيَّرْتُ بعدَهْ[4]
ليسَ لى ما حييتُ ذنبٌ إليه غير أنّى يومًا تَغَدَّيْتُ عندَهْ

[الخفيف]

* * *

(١) المحاسن والأضداد ٩٧.
(٢) المحاسن والأضداد ٩٩.
(٣) المحاسن والأضداد ٩٩.
(٤) المحاسن والأضداد ٩٩.

الخليل بن أحمد:

كـفّـاهُ لَمْ تُخْلَقـا لـلنّـدى ... ولم يـكُ بُخلُهـا بـدْعَـهْ[1]
فكفّ عن الخـير مقبـوضَـةٌ ... كـما نَقصتْ مـائـةٌ تسعَـهْ

[المتقارب]

ولآخر:

أتيتُ أبا عمرو أُرَجِّى نوالهُ ... فزادَ أبو عمرٍو على حَزَنى حُزْنا[2]
فكنتُ كباغى القَرْن أسلَم أُذْنَهُ ... فآب بلا أُذْنٍ ولم يستفدْ قَرْنا

[الطويل]

(١) المحاسن والأضداد ٩٩.
(٢) المحاسن والأضداد ١٠٠.

مسَاوئ من استدعى الهجَاء ومَن هجا نفسه

قال أبو العتاهية: خرجتُ مع المهدىّ إلى الصيد، فتفرّق أصحابُه وبقيتُ معه، وقد أقبل علينا المطر، فانتهينا إلى ملّاحٍ معه زَوْرق، فقال لنا: ادخُلَا من هذا المَطَر، فدخلنا، ووقعت الرِّعدة على المهدى من شدّة البرد، فقال له الملّاحِ: هل لك أن أُلقِىَ عليك جُبّتى؟ فقال: نعم. فألقاها عليه، فمازال يتقَرقَفُ حتى نام، ثم أقبل الخَدَم والغلمانُ وألقوْا عليه الخزّ والوَشْى، فلمّا انتبه أمرَ بدفع ذلك إلى الملّاحِ وقال: يا أبا العتاهية، ألا هجوتَنى! فقلتُ: يا أمير المؤمنين، وكيف تَطيب نفسى بهجائك! قال: فإنّى أسألك بالله، فقلت:

يـالابسَ الوَشْى عـلى شيْبِهِ   ما أقبحَ الأشيَبَ فى الدَّاحِ![1]

[السريع]

فنقر نقْرةً ثم قال: زدنى، فقلت:

لو شئتَ أيضًا جُلْتَ فى خامَةٍ   وفى وشـاحَـيْن وأوضـاح

[السريع]

فقال: ويلك! زدنى، فقلتُ:

كَمْ منْ عظيمِ الشَّانِ فى نفسه   قـد بـاتَ فى جُبّـةِ مَـلّاحِ

[السريع]

قيل: وشرب يزيدُ بن معاوية ذاتَ يوم وعنده الأخطل، فلما ثَمِلَ قال: يا أخطل، اهجُنى ولا تُفحِش، فأنشأ يقول:

ألَا اسْلَمْ سَلِمْتَ أبـا خـالـدٍ   وَحَـيَّـاكَ ربُّـك بـالعَـنْـقَـزِ[2]

وروَّى عـظامَـكَ بـالخَنْـدَريسِ   قـبـل المـاتِ ولم تـعْجـزِ[3]

أكلتَ الـدّجـاجَ فـأفنيتَـهـا   فهلْ فى الخَنانيص من مَغْمَزِ[4]

ودينـكَ حقًّـا كـديـن الحـما   ر بـل أنْتَ أكفر من هُـرْمُـز

[المتقارب]

---

(١) الداح: نقش يلوح به للصبيان يلعبون به.

(٢) الأبيات فى الصحاح ٢: ٨٨٥ ونسبها إلى الأخطل؛ وليست فى ديوانه، وفى الصحاح: العنقز: المرزنوش وقضيب الحمار».

(٣) فى الصحاح: «فلا تعجز».

(٤) الخنانيص: جمع خنوص؛ وهو الحمار.

فرفع يده ولطمه وقال: يا بن اللّخناء! ما بكلّ هذا أمرتُك[١]!

* * *

قال: ودخل أبو دلامةَ على المنصور وعنده المهديّ وعيسى بن موسى، فقال له المنصور: أُهجُ بعضَ من فى المجلس، فقال فى نفسه: مَنْ أهجو! الخليفة؛ أم ابن أخيه! ما أحد أحقّ بالهجاء منّى! فقال:

ألا أبلغ لـديك أبـا دُلامَـهْ　　فلستَ من الكرامِ ولا كرامَهْ
جمعت دمـامة وجمعتَ لؤمًـا　　كـذاكَ اللؤمُ تتبعُهُ الـدّمامَـهْ
إذا لبس العِمامَةَ قلتَ قِرْدٌ　　وخِنـزيرٌ إذا وضـعَ العِمامَـه

[الوافر]

فضحك المنصور وأمر له بجائزة.

قيل: وأتى أعرابىٌّ عبد الله بنَ طاهر فقال: أيّها الأمير، اسمع مَديحى! فقال: لستُ أنحاشُ[٢] له، قال: فاسمع شِعرى فى نفسى، فقال: هاتِ، فقال:

ليسَ مِنْ بخلكَ أنّى　　لم أجدْ عندكَ رزْقا
ذَا لجـدّى ولشؤمى　　ولحُرْ فى المُبقّى[٣]
فجـزاكَ الله خيـرًا　　ثم بُعْدًا لى وسُحْقا!

[مجزوء الرمل]

فضحك ثم قال: تلطّفتَ فى الطلب؛ وأمر له بألف دينار.

(١) انظر ملحق ديوان الأخطل ٣٨٨.
(٢) يقال: فلان ما ينحاش من فلان، أى ما يكترث له، وفى الأصول: «اتحاش».
(٣) الحرف: الحرمان.

محاسن الرجال

مدح أعرابى رجلا فقال: فتى آتاه الله الخير ناشئًا فأحسن لبسَه، وزيّنَ نفسَه.

ومدح أعرابىّ رجلًا فقال: كان والله للأخِلّاء وَصولًا، وللمال بَذُولا، وكان الوفاء بهما عليه كفيلا، فمَنْ فاضَله كان مفضولا.

ومدح أعرابىّ رجلًا فقال: هو أكسبُهُم للمعدوم، وآكَلُهم للمأدوم، وأعطاهم للمحروم[1].

ومدح أعرابىّ رجلًا فقال: مازلتُ لأحسن ما يُرجَى من الإخوان منك راجيًا، ومازلتَ لأكثر ما أرجو منك مصدِّقا.

ومدح أعرابىٌّ رجلًا فقال: كان واللّهِ تَعِبًا فى طلب المكارم، وغيرَ ضالّ فى مصالح طرُقها، ولا متشاغل عنها بغيرها.

ومدح أعرابىٌّ رجلًا فقال: لسانه أحْلَى من الشُّهد، وقلبُه سجنٌ للحِقْد.

ومدح أعرابىٌّ رجلًا فقال: ذاك صحيحُ النَّسب، مستحكم الأدب، من أىِّ أقطاره أتيتَه قابَلك بكرم فعَال، وحسن مقال.

ومدح أعرابىٌّ رجلًا فقال: إذا أُنبتت الأصولُ فى القلوب، نطقت الألْسُن بالفروع، والله يعلم أنّى لك شاكر، ولسانى بثنائك ذَاكر، وما يظهر الودُّ السليمُ، إلّا من القلب المستقيم.

ومدح أعرابىٌّ رجلًا فقال: كان إذا نزلتْ به النوائب قام إليها ثم قام بها، ولم تُقعِدْه عِلّات النفوس عنها.

ومدح أعرابىٌّ رجلًا وفرسه؛ فقال: كان والله طويلَ العِذار، أمين العِثار، إذا رأيتَ صاحبَه عليه حسبته بازيًا على مَرقَب[2]، معه رمح يقبض به الآجال.

ومدح أعرابىٌّ رجلًا فقال: لا تراه الدهرَ إلّا كأنه لا غنى به عنك، وإن كنتَ إليه أحوج، وإذا أذنبتَ غَفَر. وكأنه المُذْنب، وإن احتجتَ[3] إليه أحسنَ وكأنّه المسىء.

قال: وقال أعرابىّ لرجل: أما والله لقد كنتَ لجامًا لأعدائك ما تُفلّ شكيمتاه، إذا كبح به الجموحُ أقْعى على رجليه.

---

(١) سافطة من ك.

(٢) المرقب: المكان العالى المشرف.

(٣) ك: «لم يخفضه».

قال: ولقِىَ أعرابىٌّ أعرابيًّا فقال: كيف وجدتَ فلانًا؟ قال: وجدتُه والله رزين الحِلْم، واسعَ العِلْم، خصيب الجفْنة، إن فاخَرْتَهُ لم يكذِب وإن ما زحتَه لم يُحفَظ.

ومدح أعرابىٌّ رجلًا فقال: كان يَفتح من الرأى أبوابًا[1] منسدّةً، ويغسل من العار وجوهًا مسودّةً.

ومدح أعرابىٌّ قومًا فقال: أولئك غيوثُ جَدْب، وليوثُ حَرْب، إن قاتَلوا أبلَوْا وإن أعْطَوْا أغْنَوْا.

ومدح أعرابىٌّ رجلًا فقال: ذاك من شجر لا يجفّ ثمرُه، وماء لا يخاف كَدَرُه.

(١) كذا فى ك، وفى ك «عيونًا».

مَساوئ الرّجال

ذمّ أعرابىٌّ رجلًا فقال: يا نطفة الحمار، ونزيعَ الظئورة، وشبيهَ الأخوال.

وذمّ قومًا، فقال: إن آل فلان قوم غَدْر، شرّابون للخمر، ثم هذا فى نفسه نطفة خَمّار فى رحم صَنّاجة[1].

وذمّ أعرابىٌّ رجلًا فقال: يقطع نهاره بالمُنَى، وستوسّد ذراع الهمّ إذا أمْسَى.

وذمّ أعرابى رجلًا فقال: ما قَنّع كميّا سيفًا[2]، ولاقَرَى يومًا ضيفًا، ولاحَمِدْنا له شتاءً ولاصيفًا.

وقال أعرابىّ لامرأته: أقام الله ناعيك، وأشمت أعاديك[3].

وذمّ أعرابىٌّ رجلًا فقال: عليه كلّ يوم قَسامةٌ[4] من فعله، تشهد عليه بفسقه؛ وشهاداتُ الأفعال أعدَلُ من شهادات الرجال.

وذمّ أعرابىٌّ رجلًا فقال: تسهر زوجته جوعًا إذا نام شبعا، ولا يخاف عاجلَ عار، ولا آجل نارٍ، كالبهيمة أكلتْ ما جَمعتْ، ونكحت ما وجدت.

وذمّ أعرابىّ رجلًا فقال: ذاك أعيا ما يكون عند الناس، أبلغ ما يَكون عند نفسه.

وذمّ[5] أعرابىّ رجلًا: تقطع أخاك لأبيك وأمّك! فقال: إنّى لأقطع الفاسدَ من جسدى؛ وهو أقرب إلىّ من أخي، وأعزّ فقدًا منه!

وذمّ أعرابىٌّ قومًا فقال: يا قومِ لا تسكنوا[6] إلى حلاوة ما يجرى من القول على ألسنة بنى فلان، وأنتم تَرَوْنَ الدّماء[7] تسيلُ من أفعالهم، وقد جعلوا المعاذير ستورا، والعِلل حجبا.

وذمّ أعرابىّ رجلًا فقال: إذا سأل ألْحَف، وإذا سُئِل سوَّف، يحسد أن يفضل؛ ويزهد أن يُفَضِّل.

وذمّ أعرابىّ رجلًا فقال: يكاد أن يُعْدِىَ بلؤمِه مَن تسمَّى باسمه.

وذمّ أعرابىّ رجلًا فقال: تعدو إليه مواكبُ الضلالة، وترجع من عنده بهلاك الأنام مُعْدِمٌ مما يحبّ، مُثْرٍ مما يكره.

---

(١) الصناجة: المرأة صاحبة الصنج، والصنج: صفيحة مدورة يضرب بها على أخرى مثلها للطرب.

(٢) الكمى: الشجاع أو لابس السلاح؛ سمى بذلك لأنه كمى نفسه، أى سترها، وقندع رأسه بالسيف والسوط والعصا: غشاه به.

(٣) ل: «عاديك».

(٤) القسامة، بالفتح: الجماعة يقسمون، أى يحلفون على الشىء.

(٥) ل: «ولام».

(٦) ك: «لا نسكتوا».

(٧) ك: «الدنيا».

وقال أعرابىّ لرجل: والله ما جِفانُكُمْ بعِظام، ولا أجسامكم بوسام، ولا بدت لكم نار، ولا طلبتم بثار.

ورأى أعرابى رجلًا ظلومًا يَدْعُو، فقال: يا هَذا، إنما يُسْتَجاب لمظلوم أو مؤمن، ولستَ أحدًا منهما! أراك تخفّ عليك الذّنوب، وتحسنُ عندكَ مقَابح العيوب.

وذمّ أعرابىّ رجلًا فقال: فلان لا يستحِى من الشرّ، ولا يحبّ أنه أحبّ الخير، ولا يكون فى موضعٍ إلّا حُرمت فيه الصلاة، ولو قذِف لُؤمه على الليل طمِست نجومه، ولو أفلتتْ[1] كلمةُ سوء لم تصل إلّا إليه.

وسأل أعرابىٌّ رجلًا فقال: لقد نزلْتَ بوادٍ غير ممطور، وبرجُل بكَ غير مسرور، فارتحِلْ بندم، أو أقِمْ بعدم.

وذمَّ آخرُ فقال: ما كان عنده فائدة ولا عائدة، ولا رأىٌ جميل، ولا إكرام لدخيل.

وقيل لأعرابىّ: ما بلغ من سوء خُلقك؟ قال: تبدُو لى الحاجة إلى الجار أو الصاحب فى بعضِ الليل، فأصبح غضبان عليه، أقول: كيف لم يعلمها!

وذكر أنه تَنافر رجلان من بنى أسد إلى هَرم بن سنان المرّىّ فى الشرّ وعنده الحطيئة، فقال أحدُهما، إنّى بقيتُ زمانًا وأنا أرى أنّى شرّ الناس وألأمهم، حتى أتانى هذا، فزعم أنه شرٌّ منى! فقال هَرِم: أخبرانى عنكما، فقال أحدهما: لم يمرّ بى أحدٌ[2] قطّ إلّا اغتبته، ولا ائتمننى إلّا خُنتُه، ولا سألَنى إلّا منعتُه. وقال الآخر: أما أنا فأبطرُ الناس فى الرخاء، وأجبَنُهُم فى اللّقاء، وأقلّهم حَياء، وأمنعهم حِباء. فقال هَرِم: وأبيكما لقد تردّيتُما فى الشرّ، ولكن أخبركما بمن هو شرٌّ منكما. قالا: ما ولدتْ ذاك النساءُ! قال: بلى، هذا الحطيئةُ هجا أباه وأمّه ونفسَه ومن أعطاه ومَنْ أحسن إليه، فقال لأبيه:

لحاكَ الله ثمّ لحاكَ حقًّا ... أبًا ولحاكَ من عمٍّ وخالِ[3]
فبئس الشيخُ أنت على النّوادِي ... وبئسَ الشيخُ أنت لدى المعالى
جمعتَ اللؤمَ لا حيّاك ربى ... وأبوابَ المخازِى والضلالِ

[الوافر]

وقال لأمه:

تنحَّىْ فاقعُدى منّى بعيدًا ... أراحَ الله منكِ العَالَمينَا[4]
أغِربالا إذا استُودِعْتِ سرًّا ... وكانونًا على المتحدِّثينا!
ألم أُوضِحْ لك البغضاءَ منى ... ولكن لا أخالُكِ تعلمينا!

[الوافر]

---

(١) ك: «أقبلت».

(٢) ك: «رجل».

(٣) ديوانه ١١٩.

(٤) الأغانى: ٢: ١٦٣ (طبعة الدار).

وقال لنفسه:

أَبَتْ شفتاىَ اليومَ إلَّا تكلُّمًا بشرٍّ؛ فما أدرى لِمَنْ أنا قائلُهْ[١]
أرى لِىَ وجهًا شوَّه اللهُ خَلقَهُ فقُبِّحَ من وجهٍ وقُبِّح حاملُه!

[الطويل]

وقال لمن أعطاه:

سئِلتَ فلم تبخلْ ولم تُعطِ نائلًا فسيّـانِ لاذم عليكَ ولا حمـدُ[٢]

[الطويل]

قيل: ولَمّا حضرت الحطيئةُ الوفاةُ، قيل له: أوصِ، فقال:

الشِّعْرُ صَعْبٌ وطـويـلٌ سُلَّمُهْ إذا ارتقَى فيهِ الّذى لا يَعْلَمُهْ[٣]
زلَّتْ بـه إلى الحضيضِ قدمُـهْ والشِّعرُ لا يسطِيعُهُ من يَظْلِمُـهْ
* يريد أن يُعرِبَهُ فيعجمُهْ *[٤]

[الرجز]

فقيل له: أوص للمساكين بشىء، فقال: أوصيهم بالمسألة ما عاشوا؛ فإنها تجارة لن تبور. قيل: أوصِ فقد حضرك أمرُك، فقال: مالى للذّكور من ولدى، دون الإناث؛ قيل له: إنّ الله عزّ وجلّ لم يأمر بهذا، قال: لكنّى آمُرُ به، فقيل له: اعتق غلامك يسارًا الأسود. قال: هو مملوك مادام على ظهر الأرض عَبْسىٌّ[٥]؛ قيل له: مَنْ أشعر الناس؟ فقال: هذا المِحجَن ما أُطْمِع فى خير - وأومأ إلى لسانه - ثم جعل يبكى، فقيل له: ما يبكيك؟ أجزَعًا من الموت يا أبا مُلَيْكة! قال: لا؛ ولكن ويلٌ للشّعر من راوية السوء. ثم قال: أبلِغوا الشمَّاخ أنّه أشعرُ غطَفان[٦] على وجه الأرض، وإن متّ فاحملونى على حمار، فإنه لم يمتْ عليه كريمٌ قطّ.

وفى غير هذه الرواية أنه قال: احملونى على حمار، فإنّه لم يمتْ عليه كريم قطّ؛ لعلّى أن أنجو؛ ثم أنشأ يقول:

---

(١) ديوانه ١٢٠، والأغانى ٢: ١٦٣.

(٢) ديوانه ٩١، وفى ط: «سألت»: وهو أيضًا فى الأغانى ٢: ١٦٨.

(٣) ديوانه ١١، والأغانى ٣: ١٩٦.

(٤) الفاء هنا للاستئناف، أى فإذا هو يعجمه.

(٥) والحطيئة من بنى عبس.

(٦) فى الأغانى: لما حضرت الحطيئة الوفاة اجتمع إليه قومه فقالوا: يا أبا مليكة، أوص، فقال: ويل للشعر من رواية السوء؛ قالوا: أوص رحمك الله يا حطىء! قال: من الذى يقول:

إذَا أنْبَضَ الرَّامُون عنها ترَنَّمَتْ تـرنُّم ثَكـلَى أوجَعَتْهـا الجنـائـزُ

قالوا: الشماخ، قال: أبلغوا غطفان أنه أشعر العرب».

لكلّ جَديدٍ لذّةٌ غيرَ أنّني   رأيتُ جديد الموتِ غيرَ لذيذِ[١]
له نكهةٌ ليستْ بطعم سفرجلٍ   ولا طَعْمِ تفّاحٍ ولا نبيذِ[٢]

[الطويل]

ثم خرجتْ روحُه، فلمّا مات قال فيه الشاعر:

لا شاعرٌ ألأمُ من حُطَيّهْ   هجا بنيه وهَجَا المُرَيّهْ[٣]
* من لؤمِه ماتَ على فُرَيّهْ *[٤]

[الرجز]

* * *

قال: وقيل لمعاوية بن أبى سفيان: مَنْ رأيت شرّ الناس؟ فقال: علقمة بن وائل الحضرمىّ، قَدِم على رسول الله ﷺ، فأمرنى أن أنطلق به إلى رجل من الأنصار أنزله عليه، فانطلقتُ معه وهو على ناقته، وأنا أمشى فى ساعة حارّة، وليس علىّ حذاء، فقلتُ: احملنى يا عمّ من هذا الحرّ؛ فإنه ليس علىّ حذاء، فقال: لستَ من أرداف الملوك، قلت: أنا ابنُ أبى سفيان، قال: قد سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول ذلك، قال: فقلت: ألقِ إلىَّ نعلَيْك، قال: لا تقلّهما قدَماك، ولكن امشِ فى ظلّ ناقتى، وكفى لك بذلك شرفًا؛ وإن الظلّ لك لكثير! فما مرّ بى مثل ذلك اليوم، ثم أدرك سلطانى فلم أؤاخذه بذلك، بل أجلستُه على سريرى هذا، وقضيتُ حوائجه.

* * *

ومنهم دُوَيْد بن زيد بن نهد[٥]، وكان من المعمَّرين، قال: يا بَنِيّ أوصيكم بالنّاس شرًّا، لا تبتغُوا لهم خيرًا، كلّموهم نَزْرًا، والحظوهم شَزْرًا، ولا تقبَلوا لهم عُذْرًا، ولا تُقيلوهم عَثْرة، ثم أنشأ يقول:

يا رُبّ نهبٍ صالحٍ حَوَيْتُهُ   ورُبّ غَيْلٍ حَسَنٍ لَوَيْتُهُ[٦]
لو كان للدّهر بِلىً أبليتُهُ   أو كان قِرْنى واحدًا كَفيتُهُ[٧]
* اليومَ يُبنى لدويدٍ بيتُهُ *

[الرجز]

---

(١) ديوانه ١٢٠، والبيت الأول الأغانى فى ٢: ١٩٦ ونسبه إلى ضابئ البرجمى.

(٢) رواية البيت فى الديوان:

لَهُ خَبْطَةٌ فى الْحَلقِ ليس بِسُكّرٍ   ولا طعم راحٍ يشتهى ونبيذِ

(٣) ديوانه ١٢٠، والأغانى ١: ١٩٧.

(٤) فى الأغانى: «الفرية: الأتانة» والخبر هناك فى ٢: ١٩٥ – ١٩٧، مع اختلاف فى الرواية.

(٥) ورد الاسم محرفا فى الأصول؛ والصواب ما أثبته من أمالى المرتضى ١: ٢٣٦، وطبقات الشعراء لابن سلام ٢٧، ٢٨، وفيها الأبيات مع اختلاف الرواية.

(٦) الغيل: الساعد الريان الممتلئ.

(٧) القرن: الذى يلقاك ليقاومك.

محاسن ذكر التنعّم

يُضرَب المثل بخُريم النّاعم، وهو خريم بن عمرو، من بنى مُرّة بن عَوْف، قيل له: الناعم»؛ لأنه كان يَلبَس الخَلَق فى الصَّيْف، والجديدَ فى الشتاء. وسأله الحجّاج: ما النِّعمة؟ قال: الأمنُ، فإنى رأيت الخائف لا ينتفع بنفسه ولا بعيشه: قال: زدنى. قال: الغِنَى، فإنّى رأيتُ الفقيرَ لا ينتفع بعيش؛ قال: زدنى، قال: الصحّة، فإنى رأيت السقيمَ لا ينتفع بعيش؛ قال: زدنى، قال: الشباب فإنّى رأيت الشيخ لا ينتفع بعيش؛ قال: زدنى؛ قال: لا أجد مزيدًا.

* * *

قال: وقال زيادٌ لجلسائه: مَنْ أنعم الناس عيشًا؟ قالوا: أمير المؤمنين، قال: هيهات! فأينَ ما يلقَى من الرعيّة؟ قالوا: فأنت أيّها الأمير، قال: فأين ما يرد علىّ من الثغور والخراج! بل أنعم الناس عيشًا شابٌ له سِدادٌ من عيش، وحَظٌّ منِ دين، وامرأة حَسْناء رَضِيَها ورضيَتْه، لا يعرفنا ولا نعرفه.

* * *

قال: وقال عمرو بن العاص لمعاوية: يا أمير المؤمنين، ما بقَى من شبابك وتلذّذك؟ قال: والله ما بَقِىَ شىء يصيبه النّاس من الدنيا إلاّ وقد أصبتُه، أمّا النساء فلا إرْبَ لى فيهنّ ولا لهنّ فىّ، وأمّا الطِّيب فقد شمَمْتُه؛ حتى ما أبالى به؛ وأما الثياب فقد لبست من ليّنها وجيدها حتى ما أبالى ما ألبَس؛ فما شىء ألذّ عندى من شَربة باردة فى يوم صائف، ونظرى إلى بنى وبنى بنى يدرجون حولى؛ فأنت يا عمرو؛ ما بقى من لذّتك؟ قال: أرض أغرسها فآكل من ثمرها، وأنتفع بغلتها؛ ثم التفت معاويةُ إلى وَرْدانَ فقال: يا وُرَيد، ما بقى من لذّتك؟ قال: صنائعُ كريمة أعتقلها فى أعناق الرجال، لا يكافئوننى عليها؛ تكون لأعقابى من بعدى. فقال معاوية: تبًّا لهذا المجلس، يَغلِبنا عليه هذا العبد!

* * *

قال: وقال قُتيبة بن مسلم لوكيع بن أبى سود: ما السرور؟ قال: لواءٌ منشور، وجلوس على السرير، والسلام عليك أيها الأمير!

وقيل لحُضَيْن بن المنذر: ما السرور؟ قال: امرأة حسناء، فى دارٍ قَوْراء، وفرسٌ بالفِناء.

وقيل لرجل من بنى قُشَير: ما السرور؟ قال: الأمن والعافِية؛ قيل: صدقت!

وقد قيل: العيش فى سَعة الرزق، وصِحّة الجسم، وإقبال الزمان، وعزّ السلطان، ومعاشرة الإخوان.

وقيل: نعيم المتوسِّطين لونٌ مشبَع، وكأسٌ مُترَع، وصديق مُمْتِع، وغِنًى مُقْنِع.

وقيل: راحة البدن النوم، وراحةُ الدار أن تُسكَن.

وقال بعضهم: ليس سرور النفس بالجِدَةِ، إنما سرورُها بالأمل.

وقيل لبعضهم: أيّ الأمور أمتع؟ قال: الأمانيّ، وأنشد فى ذلك:

إذا تمنيتُ بِتُّ الليـــلَ مغتبطًا ... إنّ المنَى رأسُ أموالِ المفَاليسِ

لولا المُنى مِتُّ من هَمٍّ ومن جَزَعٍ ... إذا تذكّرتُ مافى داخل الكيس[١]

[البسيط]

وقيل لعبد الله بن الأهتَم: ما السرور؟ قال: رفعُ الأولياء، وحطّ الأعداء.

وقال بعضهم: السرور توقيعٌ نافذ، وأمرٌ جائز.

وقال عبد الرحمن بن أبى بكر: السرور إدراك الأمانىّ.

وقال آخر: السرور معانقة الأحبّة، والرجوع إلى الكفاية.

وقال بعضهم: العيش محادثة الإخوان، والانتقال إلى كفاية.

وقيل لطَرَفة: ما السرور؟ قال: مَطعَمٌ شهىٌّ، ومركبٌ وطىّ، وملبَس دَفِىّ.

وقيل للأعشى: ما السرور؟ فقال: صهباء صافية، تمزجها غانية، بصَوْبِ غادية.

وقيل للملكِ: ما السرور؟ فقال: حِمًى ترعاه، وعدوٌّ تُنعَاه.

وقيل لراهب: ما السرور؟ قال: الأمان من الوجل، إذا انقضت مدة الأجل.

وقيل لبعضهم: ما السرور؟ قال: زوجة وسيمة، ونِعمة جسيمة.

وقيل لمغنّ: ما السرور؟ قال: مجلس يقلّ هذَره، وعُودٌ يصفو وترُه، وعقولٌ تفهَمُ ما أقول.

وقيل لمظلوم: ما السرور؟ قال: كفاية ووطَن، وسلامة وسكَن.

وقيل لورّاق: ما السرور؟ قال: جلود وأوراق، وحبر برّاق، وقلم مَشّاق[٢].

وقيل لبعضهم: ما السرور؟ قال: بنون أغيظ بهم أعدائى، ولا تُقْرَع معهم صَفَاتى[٣].

وقيل لفتاة: ما السرور؟ فقالت: زوجٌ يملأ قلبى جلالاً، وعينى جَمالاً، وفِنائى جِمالا.

وقيل لطفيلىّ: ما السرور؟ فقال: ندامى تُسْكن صُدُورهم، وتَغْلى قدورُهم، ولا تُغْلَق دُورهُم.

وقيل لقانص: ما السرور؟ فقال: قوس مأطورة[٤]، وشِرْعة مشْزورة[٥]، ونبالٌ مطرورة[٦].

---

(١) ك: تفكرت

(٢) قلم مشاق: سهل الكتابة سريعها.

(٣) الصفاة فى الأصل: الحجر الصلد، والكلام على الاستعارة.

(٤) قوس مأطورة: معطوفة مقوسة.

(٥) الشرعة: الوتر، شزر الحبل: فتله عن يسار، وهو أشد لفتله.

(٦) مطرورة: محددة.

وقيل لمحبوس: ما السرور؟ فقال: فِكاكٌ يَفجأ، وإطلاق لا يَرْزَأ.

وقيل للوطىّ: ما السرور؟ فقال: شخْصٌ ناضر[١]، ودرهم حاضر.

وقيل لعاشق: ما السرور؟ فقال: لقية تشفِى من الفُرْقة، واعتناقٌ يداوِى من الحُرقة.

وكان يقال: إنه حُكِى عن الحكماء أن لذة الثوب يوم، ولذّة المركب جمعة، ولذة المرأة شهر، ولذّة الضّيعة سنة، ولذّة الدار الأبد.

الشعر فى هذا الفن

أطَيبُ الطّيبات قتلُ الأعادِى ... واختيال على مُتونِ الجِيادِ[٢]
وأيــادٍ تحبــو بهنّ كــريمًــا ... إنّ عند الكريم تزكو الأيادى
ورسـولٌ يأتى بـوعـدِ حبيبٍ ... وحبيبٌ يــأتى عـلى ميعــادِ
[الخفيف]

وللخليع:

أطيَبُ الـطيبـات أمــر ونهى ... لا يـردان فى الأمـور الجسام
وامتطاءُ الخُيولِ فى كنف الأمـ ... ـنِ بغــير الإقـدام والإحْجــام
وسَمَاعُ الصّهيل فى لجَبِ المو ... كِـبِ تحت الـلّواءِ والأعــلام
[الخفيف]

الموصلّى:

أطيبُ الـطّيبـات طيبُ الـزّمـانِ ... ونِــدامُ المـنـعّـمــاتِ الـغَــوانى
واحتساءُ العُقارِ فى غُرّةِ الصبـ ... ـحِ على شَدْوِ ما هراتِ القِيانِ
وأمـــانٌ مـن الهُـمـومِ ومــالٌ ... ليس تُفْنِيـهِ نـائبـاتُ الـزمــانِ
[الخفيف]

---

(١) فى الأصول: «ناظر».

(٢) ل: «واحتفال».

محَاسِن الفقر

رُوِى فى الحديث أن الفقير الصبورَ يدَخل الجنّة قبل الغنى الشكور بأربعين عاما.

ورُوِى عن أبى الدَّرداء أنه قال: لأن أموتَ وعلى أربعة آلاف دِرْهم أنوِى قضاءَها، أحبُّ إلىَّ من أن أترك مِثلَها حَلالا.

وقال سَلْمان الفارسِىُّ: قد خشيتُ أن أكونَ قد تركتُ عهد رسول الله ﷺ. قيل: ولم ذاك؟ قال: لأنه قال: «مَن أراد أن يدخُلَ الجنّة فلا يكوننَ[1] زادُه من الدنيا إلّا كزاد الراكب»، وأنا قد جمعتُ ما تَرون، فقوَّمُوا ما عنده فبلغ ثمانية عشر درهما.

وكان يقال: مَنْ أصبح آمنًا فى سِرْبه، معافًى فى بدنه، عنده قوتُ يومه، فعلَى الدنيا العَفَاء.

ورُوِى عن النبىّ ﷺ أنه كان من دعائه: «اللهمَّ أحْيِنى مسكينًا، وأمِتْنى مسكينًا، واحشُرنى فى زُمرة المساكين؛ اللهمّ اجعل رزق آل محمد كَفَافًا» فسئل بعضهم: ما الكفاف؟ فقال: جُوعُ يومٍ، وشبع يوم.

وروى أنّ عيسى بن مريم عليه السلام كان لا يأوى [إلى] سَقْف بيت، فألجأه المطرُ ذات ليلةٍ إلى غارٍ، فدخله، فإذا سَبُعٌ قد سَبَقه إليه، فكأنّ صدره ضاق، فأوْحى الله عزّ وجلّ إليه: يا عيسى، ضاق صدرُك! فوعِزَّتى لأزَوّجنَّك أربعة آلاف حَوْراء، ولأولمنَّ عليك ألفَ عام!

قال: وكان الفُضيل بنُ عِياض يقول فى دعائه: اللهمَّ أجَعْتَنِي وأجعتَ عِيالى، وتركتنا فى ظُلم الليل بلا مصباح، وإنما تفعل هذا بأوليائك، فبأىّ منزلةٍ نلتُ هذا منك ياربّ!

---

(١) كذا فى ك. وفى ل: «الفقراء».

مساوئ الفَقر

قيل: أمر الله عزّ وجلّ موسى عليه السلام فقال: ائْتِ كورَة كذا وكذا. فقال: ياربّ إنى قتلتُ منهم نفسًا، وأنا[1] خائف. فقال الله جلّ وعزّ: إنّى قد أمَتّ أقرباءه[2]. فصار إليها، فأوّل ما استقبله قرابةُ المقتول، فقال: ياربّ، هذا أخوه. قال: يا موسى، إنى جعلتُه فقيرًا، والفقير ميّت من العقل، وعند الناس ميّت، وعند الحلال والحرام ميّت، والفقر الموت الأكبر.

وقيل: إنّه إذا أيْسر الفقير ابتُلِيَ به ثلاثة: صديقُه القديم يجفوه، وامرأتُه يتزوّج عليها، ودارُه يهدمها ويبنيها.

وكان فى الجاهلية رجل حَسَنُ الحال، وكان بنو عمّه وأخوالُه يختلفون إليه فيُعطيهم وَيمونُهم ويقوم بأمورهم. ثم اختلّ أمرُه، فأتاهم فَحَرموه، فأتى أهلَه كئيبًا، فقالت له امرأته: ما حالك؟ فقال: دَعيني عنك، وأنشأ يقول:

دعِى عنك عَذْلى ما من العَذْل أعجبُ ... ولابُـدّ حالٌ بعـد حـالٍ تقلّبُ
وكان بنو عمّى يقولون مرحبًا ... فلمّا رأونى مُقترًا ماتَ مـرْحبُ
كـأنّ مُقِلًّا حـين يغدو لحـاجـةٍ ... إلى كلّ مَنْ يلقى من الناس مُذنِبُ
[الطويل]

* * *

وقال بعضهم: رُبّ مغبوطٍ بَمِيْسرة هى داؤه، ومرحوم من عُدْم هو شفاؤه، والدنيا دُوَل، فما كان لك منها أتاك على ضعفك، وما كان عليك لم تدفعه بقوّتك، ومن عتَبَ على الدّهر طالت معتبتُه.

* * *

وقال الأضبط[3]

ارْضَ من الدهرِ ما أتاكَ بـه ... مَنْ قَـرَّ عينًـا بعيشـه نَفَعَـهْ
[المنسرح]

قال: وسمع سفيان الثورىّ قومًا يقول بعضهم لبعض: كيف حالُك؟ فقال: لقد بلغنى أنّ مَنْ كان قبلكم كان يكره أن يسأل أخاه عن حاله، إلاّ من يكون مجمعًا على تغيير سوء حاله إذا أخبره.

قال: وقال أوس بن حارثة: خير الغِنَى القُنوع، وشرّ الفقر الخضُوع.

(١) ك. «وإنى»

(٢) ك «قرباه»

(٣) هو الأضبط السعدى. والبيت فى اللآلى ٣٢٦.

قيل: وَمرَّ رجل من الأغنياء برجل من أهل العلم، فتحرّك لَهُ وأكرمه، فقيل له: هل كانت لك إليه حاجة؟ قال: لا؛ ولكنّ ذو المال مَهيب. وقال فيه الشاعر:

أرَى كلَّ ذى مالٍ يُجَلُّ لماله ... ومَنْ ليسَ ذا مالٍ يُهَانُ ويُحْقَرُ
ويخذُلُهُ الإخوانُ إن قَلَّ مالُهُ ... وليسَ بمحبوب، بَلَى هُوَ يُهجرُ
وأقنعُ بالمالِ القليل تكرُّما ... لأغْنَى به عَمّا لَدَيْكَ وأصبِرُ

[الطويل]

وذكروا أن زياد بن أبى سفيان أَرِقَ ذات ليلة وهو بالبَصْرة، فبعث إلى غَيْلان بن خَرشَة الضبىّ، وسويدِ بن مَنْجوف السَّدوسىّ، والأحنف بن قيس السّعدىّ، فلما توافَوْا إليه قال: أتدرون فيم بعثتُ إليكم؟ إنّه كان عندى ثلاثة من دَهاقين كِسرى، يحدّثون بما كانت الأكاسرة فيه من مُلْكِها، وعظيم شأنها، فتقاصَرَ إلىَّ ما نحن فيه، فبعثتُ إليكم لتصِفوا لى ما كانت العرب فيه من البؤس وشدّة الحال لنقنع بما نحن فيه، فإنّ الغنى القناعة.

قال غَلالان: إن اقتصرت علىّ دون أصحابى حدّثْتُك. قال: هاتِ. قال: أخْبَرنى عمٌّ لى صَدوق أنّه خرج فى سنة أصابت العربَ فيها شِدّةٌ حتى أكلوا القِدَّ من القَحْط، واحمرّ أديم الأرض الأرض وآفاق السماء، قال: فطفقت ثلاثًا ما أُطعَم فيهنّ شيئًا إلّا إلّا ما يأكل بَعيرى من حشرات الأرض، حتى أصابنى الميْد[1]، فشددتُ على بطنى حَجَرًا من الجوع، فإنّى لكذلك فى جوف الليل إذا دفعتُ إلى حىّ عظيم فسلمت، فقالوا: مَنْ هذا؟ قلتُ: طارق ليل يلتمس القِرَى، فقالوا: والله ما أبقت لنا هذه السَّنَةُ قرىً ولا فضلاً، فقالت امرأة كانت إلى جانب القبّة: يا عبدَ الله، دونك القبّة العظيمة، فإن كان عند أحد خيرٌ فعندها. فأَممْتُهَا، فلمّا دَفَعْتُ إليها سلّمتُ، فقيل لى: مَنْ هذا؟ فقلْت: طارقُ ليل يلتمس قِرىً، فقال رجل منهم: يا فلان، هل عندك قِرىً؟ قال: نعم؛ قد أبقيتُ فى ضَرْع الفُلانة[2] رِسْلاً[3] لطارق ليل، ثم سار إليها فناداها، فانبعثت وتفَاجّت[4] عن مِثل الظبىْ القنيص، فضرب زَبُونَتَها[5]، ثم حلب فى عُلبة[6] معه؛ حتى علتْها رغْوة اللبن، وكلّ ذلك بمرأى منىّ ومَسمَع! فلقد سمعْتُ الغناء الحُداء، فما سمعتُ شيئًا كان أحبَّ إلى مسامعى من صوت شَخْبها فى تلك العُلبة. ثم أقبل بها يريدنى، فلما أهويت لآخذها عَثَر فانكفأت العُلبة وذهب ما فيها؛ فوالله لقد فقدتُ الأهل والمالَ فما أصبْتُ بشرّ كان أفزَعَ لقلبى، ولا أعظَمَ موقعًا عندى من انكفاءِ تلك العُلبة على مثل الحال التى كنتُ فيها! فلمّا رآنى صاحبُ القبّة ورأى ما بِى من شدّة الجهد، خرج حتى دخل فى إبلة؛ وهو يقول: صدق أخو بنى قيس فى قوله:

---

(١) الميد هنا: الغثيان والدوار.

(٢) الفلانة، بأل التعريفية، كناية عن اسم ما لا يعقل، ويريد به ها هنا الناقة.

(٣) الرسل: ما كان من بقية لبن.

(٤) تفاجت: أفرجت رجليها.

(٥) الزبونة: العنق.

(٦) العلبة: قدح ضخم من جلود الإبل يحلب فيه.

هُمْ يَطرُدُون الفقرَ عن جارِهم حتى يُـرى كالغُصنِ النـاضِرِ

[السريع]

فأخذ ناقة كَوْماءَ فكتنف عن عُرْقوبيْها ثم قال: دونك السّنام، فلما وافَى الودَكُ بطنى وحفوف الماء - ولا عهد لى قبل ذلك بشيء منه - خَرَرْتُ مَغْشيًّا علىّ، فو الله ما أيقظنى إلّا بَرْد السَّحر.

فقال زياد: قَطْنى، قد اكتفيتُ بهذا، هذا والله غاية الجهد، فالحمد لله الذى مَنّ علينا بمحمَّد صلّى الله عليه وسلّم، وهدانا إلى الإسلام، وجعلَنا ملوكًا ثم قال: لا أبَ لشانئك. فمن الرجل؟ فقال: عامر بن الطُّفيل، فقال: أبو علىّ! والله كان لها ولأمثالها[١].

* * *

قال: وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لقد رأيتُنى فى الجاهلية وأُخيّة لى؛ لنرعَى ناضحًا[٢] لأبَوَيْنا، قد زوّدتْنا أمُّنا بِمنَتَيْها من الْهبيد[٣]، فإذا أسْخنتْ علينا الشمس ألقيت الشملة على أختى، وخرجتُ عُرْيانَ أسعَى، فنظلّ نرعى ذلك النّاضح، فنرجع إلى أمّنا من الليل. وقد صنعتْ لنَا لَفِيتةً[٤] من ذلك الهبيد فنتعشىّ، فواخِصْباه!.

قال بعض جلسائه: فوالله لقد حسدتُه على ذلك.

* * *

قال: وسئل عمر بنُ الخطاب رضى الله عنه عن جَهد البلاء، فقال: قلّة المال، وكثرة العيال.

وكان الفُضيل يقول: المال يسوِّد غير السّيد، ويقوِّى غيرَ الأيِّد.

وفى كتاب «كليلة ودمنة»: الرجل إذا افتقر اتّهمه منْ كان له مؤتمنًا، وأساء به الظنَّ من كان يظنّ به حَسَنًا، وإن أذنب غيرُه ظنّوه به، وإن كان لسوء الظنّ والتّهمة موضعًا حملوا على ذلك الذى يفعله غيرُه.

وأنشد فى ذلك:

إذا قلَّ مالُ المرءِ قلّ صديقُهُ وأومَتْ إليه بالعيوب الأصابعُ

[الطويل]

ولآخر[٥]:

إذا قلَّ مالُ المرء قَلَّ حيـاؤُهُ وضـاقت عليـه أرضُـهُ وسمـاؤُه

وحارَ ولا يدرى وإن كان حازمًا أقُـدّامُـهُ خَـيرٌ لـه أم وراؤُهُ!

---

(١) الخبر مع اختلاف فى الرواية فى عيون الأخبار ٣: ٢٤٤.

(٢) الناضح: البعير يستقى عليه؛ ثم استعمل فى كل بعير وإن لم يحمل الماء.

(٣) الهبيد: حب الحنظل.

(٤) لفيتة: العصيدة المغلظة، لأنها تلفت؛ أى تلوى.

(٥) لصالح بن عبد القدوس، وانظر أدب الدنيا والدين ٢٢٥.

إذ قلَّ مالُ المرءِ قلَّ حياؤُهُ ولا خيرَ فى وجْهٍ يقلُّ حياؤُهُ
[الطويل]

وقيل لأعرابى:
ما أشدّ الأشياء؟ قال: كبدٌ جائعة، تؤدّى إلى أمعاء ضيّقة.
وقيل لأعرابىّ: لِمَ يقول أهل الحضر: باعك الله فى الأعراب؟ قال: لأنّا والله نُعرِى جلدَه، ونُجيعُ كَبِدَه، ونطيل كدَّه.
وممّا قيل فيه من الشعر:

أعظمُ من فاقةٍ وجوعِ مُقامُ حرٍّ على خضوعِ
فلا تُرِدْهُ ولا تُرِدْ ما أنيلَ بالذّل والخشوع
واطلبْ معاشًا بقدْرِ قوتٍ وأنت فى منزلٍ رفيعِ
لعلَّ دهرًا غدَا بنَحْسٍ يعودُ بالسعدِ فى الرجوعِ!
[مخلع البسيط]

آخر:

الموْتُ خيرٌ للفتى من أن يعيشَ بغير مالِ
والموتُ خيرٌ للكريم من الضَّراعَةِ للرجالِ
[مجزوء الكامل]

آخر:

بخلتُ وليسَ مِنّى سجيّةً ولكنْ رأيتُ الفَقرَ شرَّ سبيلِ
لَموتُ الفتى خيرٌ من البخل للفتى ولَلبخلُ خيرٌ من سؤال بخيلِ
لَعَمرُك ما شىءٌ لوجهكَ قيمةٌ فلا تَلْقَ مخلوقًا بوجهٍ ذليلِ
ولا تسألَنْ مَنْ كان يسألُ مرّةً فللموْتُ خيرٌ من سؤالِ سئولِ
[الطويل]

آخر:

لا تحسبَنَّ الموتَ موت البِلَى فإنما الموتُ سؤالُ الرجالْ
كلاهما موتٌ ولكنّ ذا أشدُّ من هذا لذلِّ السؤال[1]
[السريع]

آخر فى معناه:

مَنْ كانَ فى الدّنيا أخا ثروةٍ فَنَحنُ من نظّارة الدنيا

---

(١) ك: «ذاك أعلى كل حال».

نـرمُـقُهـا مـن كُتُبٍ هكـذا ... كـأنَّـنـا لـفظٌ بـلا مـعنى

[السريع]

ولآخر:

قـد أراح الله مـن ... غَمّ شـديـدٍ وعـذابْ
واستـرَحْنا من عيالٍ ... وعـبـيـدٍ ودَوابّ
وضِيـاعٍ ونـخـيـلٍ ... وحَـصـادٍ وكِـرابْ[1]
واسْتَـرحْنا من وقـوفٍ ... لبنى الـدُّنْيَـا ببـابْ
وقَـنِعـنـا وأقَـمْـنـا ... وحَـطَطْنا عَنْ رِكـابْ
حبّذا الوَحْـدَةُ إن كا ... نَ بصيـرًا بـالحسـابِ

[مجزوء الرمل]

آخر:

الحـمـدُ لله لـيسَ لى مـالُ ... ولا لخـلقٍ عـلىَّ إفـضـالُ
الخـانُ بيتى، ومِشْجَبى بـدنى ... وخـادمـى والـوكـيـلُ بـقّـالُ

[المنسرح]

لآخر:

بقيتُ ومَـرْكَبى البـرذَوْنُ حـتّى ... أخفَّ الكـيس إغْـلاء الشعـير
وصرتُ إلى البغـال فـأعجـزَتْنى ... وصـرتُ من البغال إلى الحمـير
فعـزَّتْنى الحمـيرُ فصـرتُ أمشى ... أزجّى الـرِّجـلَ تَـزْجيـةَ الكسيـر

[الوافر]

ولآخر:

أتـرانى أرَى من الدهـرِ يومًـا ... لِىَ يومًا مـطيّةٌ غـيرُ رجلى[2]!
وإذا كنتُ فى جميـعٍ فقـالـوا ... قَـرّبـوا للرحيـل قَـرّبتُ نَعْـلى
حيثـما كنتُ لا أخـلّفَ رَحْـلاً ... مَنْ رآنى فقـد رآنى ورَحْـلى

أبو هِفّان:

يـا مولِجَ الليـل فى النّهـار ... صبرًا عـلى الـذّل والصَّغـارِ
كم من حِمـارٍ لـه حِمـارٌ ... ومَـنْ جـوادٍ بـلا حمـارِ

[مخلع البسيط]

(١) الكراب: تقليب الأرض للزرع.
(٢) العقد ٣: ٤٦، ٦: ٢١٥ ونسبها إلى النسمقمق.

الحَمدونى:

تَسامَى الرِجال على خَيْلهمْ ورجْلىَ من بينهم حافيهْ
فإن كنتَ حاملَنا ربَّنا وإلّا فَأَرْجِلْ بنى الزّانيَهْ

* * *

قال: وكان أعرابىٌّ بالبصرة فى بيت، فكان إذا خرج استوثق من غَلق بابه، فيظّن جيرانُه أن له مالاً، فقال:

ليسَ إغلاقى لبابى أنّ لى فيه ما أخْشَى عليه السَّرَقا
إنما أُغْلِقُهُ كىْ لا يرَى سوءَ حالى مَنْ يَمُرُّ الطُّرُقَا
ليسَ لى فيه سوى باريةٍ وبَلى أخلقْتُ لبْدًا خلَقَا[1]
منزلٌ داخلُهُ الفقرُ فلو دخل السارقُ فيه سُرِقا
[الرمل]

ولآخر:

يبيتُ يُراعِى النجمَ مِنْ جوع بطنه ويصبح يُلْقَى ضاحكًا متبسِّما
[الطويل]

ولآخر:

وعاقبةُ الصبر الجميل جميلةٌ وأحسنُ أخلاق الرجالِ التفَضُّلُ
ولا عارَ أنْ زالت عن المرءِ نعمةٌ ولكنَّ عارًا أن يزولَ التجمُّلُ[2]

ولآخر:

وكم من فقيرٍ بعد جَهْدٍ وحاجةٍ هو اليوم محسود وقد كان يُرْحمْ!

ولآخر:

قد يكثرُ المالُ يومًا بعدَ قلَّتهِ ويكتسى الغُصْنُ بعد اليُبْس بالوَرَق
[البسيط]

آخر:

كم من غنىّ رأيتُ الفقرَ أدركهُ ومن فقير غَنِىٍّ بعدَ إقلالِ
[البسيط]

آخر:

وكمْ من غنىٍّ كانَ بالمالِ مُثْرِيًا هوَ اليومَ مرحومٌ وقد كان يُحسَدُ
[الطويل]

---

(١) البارية: الحصيرة.

(٢) ل: «التحمل».

آخر:

وكم من فتىً كـانَ ذا ثروَةٍ رَمتْـهُ الحـوادثُ حتى افتقـرْ

[المتقارب]

آخر:

إذا كان جَدُّ المرءِ فى الشىء مقبلًا تـأتَّتْ لهُ الأشيـاءُ منْ كـلِّ جـانبِ

وإن أدْبَـرتْ دُنياهُ عنـهُ تـوَعَّـرَتْ علـيـه، وأعيَتْـهُ وُجـوهُ المـطالـبِ

وإن قـلَّ مـالُ المـرءِ أقْصاهُ أهلهُ وأعْـرَضَ عنـه كـلُّ إلفٍ وصـاحب

وكـذَّبَـهُ الأقـوام فى كـلِّ منـطقٍ وإن كـانَ فيه صـادِقًا غـيرَ كـاذِبِ

[الطويل]

آخر:

متى ما يرى الناسُ الفقيرَ وجـارَهُ يقـولـون: هـذا عـاجـز وجليـدُ

وليسَ الغِنى والفقرُ من حيلَة الفتى ولـكنْ أحـاظٍ قُسِّـمـتْ وجـدُودُ

[الطويل]

وقال عبدُ الأعلى القاضى: الفقير مَرَقتُهُ سِلْقة ورداؤه عِلْقة، وسَمَكته سِلْقة[1].

ولآخر:

مَنْ كـانَ ذَا مـالٍ كثـير فَلَمْ يقنـعْ فـذاكَ المـوسِـر المُقْـتِرُ

الفقـرُ فى النَّفْس وفيهـا الغِنى وفى غِنى النفس الغِـنَى الأكـبر

[السريع]

* * *

وكتب بعضهم يستمِيحُ بعضَ الأغنياء:

هـذا كتابُ فتىً أَزْرَى الـزَّمَـانُ بـهِ قـد كاد تَنفـطِرُ الأضلاعُ من هِمَمِهْ

شـطَّتْ مَنَـازِلُـه عنـهُ وضَعضَـعَـهُ رَيْبُ الزمانِ فأبدَى الضُّعفَ فى كَلِمِهْ

[البسيط]

يُذْرى الدموعَ بعَينٍ غـير جامدَةٍ طَـوْرًا بدَمعٍ، وَيبكى تارةً بـدمِـه

أضحَى ببـابِكَ مَحـزُونًـا لَـهُ أمـلٌ يرجو بجُودِكَ أن يُفتَكَّ من عدَمِه

يا ذا المقدَّمُ فى الأفعال مِن كرمٍ أنت المداوى صريعَ الدَّهر من سَقَمِهْ

[البسيط]

ولآخر:

خُـلُقٌ واسـعٌ، ومـالٌ قـليـلُ واعتـداءٌ من الـزمـانِ طـويـل

---

(١) السلقة: نبْت يؤكل، والعلقة: قميص بلا كمين، والشلقة: ضرب من السمك.

ما اخْتيالُ الفتى بدولةِ دهرٍ وعليه بالنائباتِ تدولُ!
كلّما رام نهضةً أقعدتْه غائلات من الزمانِ تغولُ[1]

[الطويل]

* * *

فيمن أثرَى بعد الفقر، أنشِد لرجل من المحدَثين:

لئن كنتَ قد أُعطِيْتَ خزًّا تجرُّهُ تبدَّلتَه من فَروةٍ وإهابِ
فلا تَعجَبنْ أن تملك النّاسَ إننى[2] أرى أمّة قد أدبرتْ لذهابِ

[الطويل]

ولآخر:

تاه على إخوانه بالغنى فصار لا يطْرِفُ من كِبْره
أعادَه الله إلى حالِهِ فإنّه يَحسُنُ فى فَقْرِه[3]

[السريع]

لِدعبل الخُزَاعيّ:

عَطاياه تَغْدُو على سابحٍ وطورًا عَلَى بَغْلةٍ نَدْبَه[4]
فلو خُصَّ بالرزقِ بُخْلُ الكرا م ما نال خيْطًا ولا هُدْبَه
ولكنّهُ الرزق ممن يعيـ ـش فى رزقه الكلبُ والكلبَه

[المتقارب]

ولآخر:

كنتَ إذْ كنتَ عَديمًا لىَ خِلًّا ونَدِيمًا
ثم أثرَيتَ فأعرضْـ ـت ولم تَرْعَ قديمًا.
صارَ ما نِلتَ من الما لِ لنا ذَنْبًا عظيمًا
هكذا يفعل بالإخوا ن مَن كان لئيمًا[5]

[مجزوء الرمل]

ولآخر:

صحبتُ إذْ أنت لا تصحَبُ وإذْ أنت لا غيرُك المُوكِبُ[6]

---

(١) ط: «عالته... تعول».
(٢) ك: «أن تملك الدهر».
(٣) ك: «قفره».
(٤) الفرس السابح: السريع، والبغلة الندبة: الماضية النشيط.
(٥) ط: «كريمًا».
(٦) الموكب: من يلزم الموكب.

وإذْ أنت تفرحُ بالزائرين ونفسُك نفسَك تستَحجِبُ
وإذْ أنت تكثرُ ذمَّ الزمانِ ومشيُك أضعافُ ما تركَبُ
فقلتُ كريم له همّةٌ ينالُ فأدركُ ما أطلُبُ
فنلْتَ وأقصيتَنى جانبًا كأنىَ ذُو عُرّةٍ أجْربُ[1]

[المتقارب]

(١) العرة: قرحة الجرب.

محاسِن الثقة بالله عز وجل

قيل: خطَب سُلَيْمانُ بنُ عبدالملك؛ الحمد لله الذى أنقذنى من ناره بخلافته.

وقال الوليدبنُ عبدالملك: لأشفعنّ للحجّاج بن يوسف، وقرّة بن شريك [عندربِّى][1]

وقال الحجّاجُ: يقولون: مات الحجّاج! فمه[2]! ما أرجو الخير كلَّه إلّا بعد الموت، والله ما رَضِىَ الله البقاء إلّا لأهونِ خلقِه عليه إبليس؛ إذ قال: ﴿رَبِّ فأَنْظِرْنى إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إلى يَوْمِ الوقْتِ المعلُومِ﴾[3].

وقال أبو جعفر المنصور: الحمد لله الذى أجارنى بخلافته، وأنقذنى[4] من النار بها.

***

وحدَّثنا إبراهيم بن عبد الله، رُفع الحديث إلى أنس بن مالك قال: دخلْنا على فتىً من الأنصار؛ وهو ثقيلٌ فى مرضِه، فلم نخرج من عنده حتى قُضِى[5] عليه، وإذا عجوزٌ عند رأسه، فالتفت إليها بعضُ القوم وقال: استسلِمى لأمر الله عزّ وجلّ واحتسبِى. قالت: أمات ابنى؟ قال: نعم؛ قالت أحقٌّ ما تقولون؟ قُلْنَا: نعم؛ فمدّت يدها إلى السماء ثم قالت: اللّهمّ إنّك تعلم أنِّى أسلمتُ لك، وهاجرتُ إلى نبيِّك محمد ﷺ، رجاءَ أن تُعينَنى عندَ كلِّ شدّة، اللهمّ فلا تحمِّلنى هذه المصيبة اليوم.

فكشفَ ابنَها الثوبَ الّذى سجّيناه به عن وجهه؛ وما بَرِحْنا حتى طَعِم وطَعِمْنا معه[6].

***

قيل: وبينا عمرُ بنُ الخطاب رضى الله عنه يُعرِض الناس، إذ هو برجل معه صبىّ له، فقال له عمر رضِى الله عنه: ويحَك! ما رأيتُ غرابًا أشبهَ بِغرابٍ من هذا بك؟ فقال: يا أميرَ المؤمنين، والله ما ولدتْه أمّه إلّا وهى ميّتةٌ، فاستوى عمرُ رحمه الله جالسًا وقال: ويحَك! حدّثنى، قال: خرجتُ فى غزاةٍ وأمُّه حامل به فقالت: تخرج وتدَعنى على هذه الحالة حاملًا مُثقلًا! فقلت: أستودع الله ما فى بطنِك!.

فغبتُ ثم قدمتُ وإذا بابى مغلَق، فقلتُ: ما هذا؟ وما فعلتْ فلانة؟ قالوا: ماتت. فذهبتُ إلى

(١) تكملة من المحاسن والأضداد ١٦٦.

(٢) المحاسن والأضداد: «مه».

(٣) سورة الحجر ٣٦ – ٣٨.

(٤) ل: «أبعدنى».

(٥) المحاسن والأضداد: «حتى قضى نحبه».

(٦) الخبر فى المحاسن والأضداد ١٦٦، ١٦٧.

قبرها وكنتُ عنده، فلما كان من الليلِ قعدتُ مع بنى عمِّى أتحدّث؛ وليس يسترنا مع البقيع[١] شيء، فرفعت لي نارٌ بين القبور، فقلتُ لبنى عمّى: ما هذه النار؟ قال أحدهم: يا أبا فلان، نرى على قبر فلانة كلَّ ليلة نارًا. فقلت: إنّا لله وإنّا إليه راجعون! والله لقد كانت صوّامة قوّامة عفِيفة، والله لأنبشنّ قبرَها، ولأنظرنّ ما حالُها؟ فأخذتُ فأسًا وأتيتُ القبرَ فإذا هو مفتوح والمرأة ميّتة، وهذا حَيٌّ يَدِبّ حولَها، فنادى منادٍ: أيّها المستودِع ربّه وديعته، خذ وديعتَك، أما إنّك لو استودعتَه أمّهُ لوجدتَها. فأخذته، وعاد القبر كما كان، وهو والله يا أمير المؤمنين هذا!.

(١) البقيع، ويضاف أحيانًا إلى الغرقد: مقبرة أهل المدينة.

مسَاوئ الثقَة

قال: عيسى بن مريم عليه السلام: يا معشر الحواريِّين، إنّ ابن آدم خُلِق فى الدنيا من أربعة منازل، هو فى ثلاثة منها واثقٌ بالله عزّ وجلّ، وهو فى الرابع سيِّءُ الظنّ، يخاف خِذلانَ الله عزّ وجلّ إيّاه، فأمّا المنْزلة الأولى فإنه خُلِق فى بطن أمه خَلْقًا من بعد خلْق فى ظلمات ثلاث: ظلمة البَطْن[١]، وظُلْمةِ الرّحِم، وظلمةِ المَشِيمة[٢]، يُنزل الله جلّ وعزّ عليه رِزقَه فى جوف ظلمة البَطْن، فإذا خرج من ظلمة البطن وقع فى اللبن، لا يخطو إليه بقدم ولا ساق ولا يتناوله بيدٍ، ولا ينهض بقوّة، ويُكرَه عليه إكراهًا، ويُوجَره إيجارًا؛ حتى ينبت عليه عظمُه ودمهُ ولحمهُ، فإذا ارتفع من اللّبن وقع فى المنزلة الثالثة فى الطعام، بين أبوين يكتسبان عليه من حلال وحرام، فإن مات أبواه من غير شىء عَطَفَ عليه النّاس؛ هذا يُطعِمه، وهذا يسقيه، وهذا يُؤويه[٣]، فإذا وقع فى المنزلة الرابعة واشتدّ واستوى وكان رجلًا خَشِي؛ ألّا يرزَق، فيثب[٤] على النّاس، فيخون[٥] أماناتِهم، ويسرق أمتِعتَهم، ويكابرهم[٦] على أموالهم مخافة خذلان الله عزّ وجلّ إيّاه[٧]!

(١) كذا فى ك والمحاسن والأضداد، وفى ل: «البصر».
(٢) المشيمة: غشاء ولد الإنسان، يخرج معه عند الولادة.
(٣) فى الأصول: «يرويه».
(٤) ط: «يثبب»، وما أثبته من المحاسن والأضداد.
(٥) ل: «يخون».
(٦) ك: «ويكاثرهم».
(٧) المحاسن والأضداد ١٦٧.

مَحَاسِن طلب الرِّزق

بلغنَا عن ابن السمَّاك أنّه قال: لا تشتغلْ بالرِّزق المضمون، عن العمل المفروض؛ وكن اليومَ مشغولاً بما أنت عنه غدًا مسئول. وإيّاك والفضولَ؛ فإنّ حسابها طويل[1].

وقال عمرو بن عُتْبة: من لم يقدّمه الحَزْم، أخَّره العَجْز[2].

وقال الله تبارك وتعالى: يا بنَ آدم، أحدِثْ لى سَفَرًا، أحدِثْ لك رزقا[2].

وفى بعض الحديث: «سافروا تغْنموا».

وقال الكميْت:

ولَنْ يُزيحَ همُومَ النفسِ إذ حضَرتْ ... حاجاتُ مِثلِكَ إلا الرَّحْلُ والجَمَلُ

[البسيط]

وقال الطّائىّ:

وطولُ مُقامِ المرْءِ فى الحىِّ مُخلِقٌ ... لِديباجَتيه فاغتَرِبْ تتجدَّدِ[3]

فإنّى رأيت الشمسَ زِيدَت مَحبَّةً ... إلى الناس إذ ليستْ عليهم بسَرْمدِ

[الطويل]

وقال بعض الحكماء: لا تدَعِ الحيلة فى التماس الرزق بكلّ مكان؛ فإن الكريم محتال، والدنىّ عِيال[4].

وقال:

فسِرْ فى بلادِ الله والتمِسِ الغنى ... تَعِش ذا يَسارٍ أو تموتَ فتُعْذَرَا

ولا ترْضَ من عَيشٍ بدونٍ ولا تَنَمْ ... وكيف يَنامُ الليلَ من كان مُعسِرَا[5]!

[الطويل]

وتقول العرب[6]: كلب جوّال، خيرٌ من أسد رابِض.

وتقول أيضًا: من غَلَى دماغُه صائفًا، غلت قِدْرُه شاتيًا.

ووقّع عبدُ الله بنُ طاهر: «من سعى رَعى، ومن لزم المنام، رأى الأحلام».

---

(١) المحاسن والأضداد ١٧٠: «ويطول».

(٢-٢) المحاسن والأضداد ١٦٨.

(٣) هو أبو تمام، ديوانه ٢٣٢.

(٤) المحاسن والأضداد ١٦٨.

(٥) المحاسن والأضداد ١٦٨ بدون نسبة.

(٦) المحاسن والأضداد ١٦٨: «العامة».

وقال(١ الكِسْرَوِىّ: أخذه من توقيع أنوشِروان بالفارسية١) «هرك روذخُرْذهرك خُسيذ خاف وينذ(٢)»، وأنشد:

كفى حزنًا أنّ النوى قذَفَتْ بنا بعيدًا، وأنَّ الرزقَ أعيَتْ مذاهِبُهْ
ولو أننا إذْ فـرَّقَ الدَّهـرِ بيننا غَنِى واحـدٌ منـا تَمَـوَّل صـاحبُـهْ
ولكننـا مِن دهـرِنـا فى مَئُونَـةٍ يُكَـالِبُنا طـورًا، وطـورًا نكـالبُـهْ
[الطويل]

* * *

ولآخر:

إذا المـرءُ لم يَبْغِ المعـاشَ لنفسِـه شكا الفقر؛ أو لامَ الصديقَ فاكثرا
وصـارَ على الأدْنَـيْن كَلًّا وأوشكَتْ صِلاتُ ذوى القرْبى له أن تُنَكّرا(٣)
[الطويل]

ولآخر:

ومَنْ يَـكُ مِثلى ذا عيـالٍ ومُقتِرًا منَ المالِ يطرَحِ نفسَهُ كلَّ مَطرَحِ(٤)
لِيبلغَ عُـذرًا ؛ أو ينـالَ غَنيمـةً ومُبلغُ نفسٍ عُـذْرَها مثـلُ مُنجِحِ
[الطويل]

ولآخر:

وليسَ الرّزقُ عنْ طلبٍ حَثيثٍ ولكنْ ألقِ دَلْـوكَ فى الدِّلاءِ(٥)
تجىءُ بملئهـا يَـومًـا ويـومًـا تجـىء بحَـمْـأةٍ وقليـلِ مـاءِ
[الوافر]

ولآخر:

وقـد علمتُ وعلمُ المـرءِ يَنفعُـهُ أنَّ الذى هُو رزقى سَوْف يأتينِى(٦)
أسـعَى لـه فيعـنّينِى تَـطَلُّبُـهُ ولـو قعـدْتُ أتـانى لا يُعنّينِى
[البسيط]

(١-١) المحاسن والأضداد: «هذا المعنى سرقه من توقيعات أنوشروان بالفارسية فإنه يقول».
(٢) رجعت فى ترجمة هذا النص الفارسى إلى السيد نصر الله الطرازى مفهرس الكتب الفارسية والتركية بالدار؛ فأفادنى بأنه يوافق فى المعنى ما ذكر من توقيع عبد الله بن طاهر.
(٣) ط: «على الأذنين» تصحيف.
(٤) لعروة، ديوانه ٨٨.
(٥) من أبيات تنسب إلى أبى الأسود الدؤلى، ملحق ديوانه ٤٣.
(٦) لعروة بن أذينة، من مقطوعة له فى أمالى المرتضى ١: ٤٠٨، ٤٠٩؛ وروايته البيت الأول هناك:
* لَقَدْ عَلِمْتُ وما الإشرافُ من خُلُقى *

ولآخر:

لَعَمرُك ما كلُّ التبطُّل ضائرٌ ولا كلُّ شُغْلٍ فيه للمرءِ منفَعَهْ[1]
إذا كانت الأرزاق فى القرْب والنَّوَى عَليكَ سواءً، فاغتنم لذَّة الدَّعهْ
وإن ضِقْت فاصبرْ يُفرِج الله ما ترى ألَا كلُّ ضِيقٍ فى عواقبِهِ سَعَهْ

[الطويل]

ولآخر:

سَهِّلْ عليك فإنّ الأمرَ مقدُورُ وكلّ مستأنَفٍ فى اللّوْحِ مَسْطورُ[2]
يأتى القضاء بما فيه لمدَّتهِ وكلّ ما لم يَكنْ فيهِ فمحظورُ
لا تكذِبَنَّ وخيرُ القولِ أصدقُهُ إنَّ الحريصَ على الدنيا لمغْرورُ

[البسيط]

آخر:

لايُتعِبَنّكَ شىءٌ أنت تطلُبُهُ وقد تقدَّمَك المقدُورُ والقلَمُ

[البسيط]

ولآخر:

لا تعتِبنّ على العبادِ فإنّما يأتيكَ رِزقُكَ حين يُؤذَنُ فيهِ

[الكامل]

ولآخر:

هى المقادِيرُ تجرى فى أعنّتِها فاصبرْ فليسَ لها صبرٌ على حال[3]
يومًا تريشُ خسِيس القوم ترفعُهُ دون السماءِ ، ويوما تخفِضُ العالى[4]

[البسيط]

ولآخر:

اصْبرْ على زَمَنٍ جَمٍّ تلوّنُهُ فلَيسَ من شدّةٍ إلّا لها فرَجُ[5]
تَلْقاهُ بالأمس فى عَمْيَاءَ مُظْلِمَةٍ ويُصْبحُ اليومَ قد لاحتْ له السُّرُجُ

[البسيط]

---

(١) المحاسن والأضداد ١٧٠.
(٢) المحاسن والأضداد ١٧٠.
(٣) كذا فى ل، وفى ك والمحاسن والأضداد ١٧١: «دع المقادير».
(٤) ل: «خسيس القدر».
(٥) المحاسن والأضداد ١٧١: «جم نوائبه».

ولآخر:

ألا رُبَّ راجِي حاجةٍ لا ينالُها ... وآخرَ قدْ تُقضى لهُ وهو آيِسُ[1]

يَجول لها هذا، وتُقضَى لغيرِهِ ... فتأتى التى تُقضَى لهُ وهو جَالسُ

[الطويل]

ولآخر:

اتطلبُ رِزْقَ الله من عند غيره ... وتُصبحُ من خَوفِ العواقب آمنا!

وترضَى بصَرَّافٍ وإن كان مُشْركًا ... ضمنيًا، ولا ترضَى بربِّكَ ضامِنَا!

كأنّك لم تَقْنع بما فى كِتابهِ ... فأصبحتَ مَدْخُولَ اليقين مُباينا

[الطويل]

ولآخر:

إنّى لأكرِمُ نفسى أن أدَنِّسَها ... بشَين عِرْضى وبَذْلِ الوجْهِ للنّاسِ

واللّهُ ضامنٌ رزقى ما حييتُ وما ... فى ضَمْن ذى العرشِ من شكٍّ ولا بَاسِّ

إنّى رأيتُ سؤالَ الله مَكرُمَةً ... وفى سؤال سِواهُ أعظمُ الياسِ

[البسيط]

* * *

قيل: ووُجد فى بعض خزائن ملوك العجم لوحٌ من حجارة فيه مكتوب: كُنْ لِمَن ترجو أرجَى منك لما ترجو، فإنّ موسى عليه السلام خرج يقتَبس نارًا فنُودِىَ بالنّبوّة.

وأنشد:

ولما أنْ عييتُ بما ألاقِى ... وأعيتْنى المسائلُ بالقُروض[2]

ذكرتُ الله لا أرجو سواهُ ... وربُّ العرش ذُو فرجٍ عريضِ

[الوافر]

ولآخر:

يا صاحبَ الغمّ؛ إن الغمَّ منقطِعٌ ... أبشرْ بخيرٍ كأنْ قد فرّجَ اللهُ

اليأسُ يَقطَعُ أحيانًا بصاحِبهِ ... لا تيأسَنَّ فإنَّ الصانعَ اللّهُ

إذا ابتُليتَ فثق بالله وارضَ به ... فكاشِفُ الضُرِّ والبَلْوَى هو اللّهُ

[البسيط]

---

(١) المحاسن والأضداد ١٧١ من غير نسبه.

(٢) ط: «والقروض» وما أثبته من المحاسن والأضداد ١٧١.

ولآخر:

كَمْ رأينا من صحيحٍ قد هَوَى وأخِي سقم من السقم خرج

لا تكنْ إن رابَ أمرٌ آيسًا فلَعِنْدَ اليأس يأتيك الفرج

[الوافر]

ولآخر:

وإذا تصبك من الحوادثِ نكبةٌ فاصبر ، فكل ضبابة تتكشف[1]

[الكامل]

(١) المحاسن والأضداد ١٧٢: «فكل بلية».

مساوىء طلب الرّزق

لديك الجنّ:

احْلُ وامْرُرْ مَعًا ، ولِنْ تارةً واخْشُنْ ... ورِشْ واثْـنِ، وانـتـدبْ لـلمعـالى

وأغِـثْ واستَغِـثْ بـربّـك فى الأزْ ... لِ إذا جَلّحَتْ صُـروفُ الليـالى[1]

لا تقِفْ لـلزّمـان فى منـزلِ الـضّيْـ ... ـمِ ولا تَـسْتـكِـنْ لـرِقّـةِ حـالِ

وأهِـنْ نفسَـكَ الكـريـمـة لِلْمَـوْ ... تِ وقَـحِّـم بهـا عـلى الأهـوال

فـلعمـرى لَلْمـوت أزْيَن لِلْحُـرّ ... مـن الـذّل ضـارعًـا للرجـال[2]

أىّ مـاء يـدور فى وَجْهـك الحُـرّ ... إذا مَـا امتهـنْـتَـهُ بـالـسؤالِ

ثمّ لا سيّما إذا عصف الدّهْـ ... ـر بأهلِ النّدَى وأهل النّوالِ

غاضت المكرُماتُ وانقرضَ النّا ... سُ وبـادَت سحـائبُ الإفضـالِ

فقليـلٌ من الـورى مَنْ تـراهُ ... يُرْتجى ، أو يصونُ عِرضًا بمالِ

وكـذاكَ الهـلالُ أوّلَ مـا يَبْـ ... ـدُو نحيلًا فى دقّةِ الخلخـالِ[3]

ثـم يـزدادُ ضـوءُه فـتـراه ... قمَرًا فى السّماءِ غيرَ هلالِ

عـادِ تـدْميثَـك المضـاجـعَ للجنـ ... ـبِ ؛ فِعالَ الخريـدَةِ المِكْسالِ

وادّرِعْ يلْمَقَ اجتيابِ دُجى الليـ ... ـلِ بِطِرْفٍ مُضبَّرٍ الأوصَالِ[4]

عامليّ النّتاجِ تُطْوَى لـهُ الأرْ ... ضُ إذا ما استُعِدّ للأنقالِ

جُرْشُعٍ لاحقِ الأيـاطل كـالأعـ ... ـفَرِ ضافى السّبيب غير مُذَالِ[5]

واتخـذْ ظهرَهُ من الذل حصنًا ... نِعْمَ حصنُ الكريم فى الزّلزالِ !

لا أحبُّ الفتى أراه إذا مـا ... عضّهُ الدهـرُ جاثيًا فى الضّلال

مُستكينًا لِذِى الغِنَى خاشعَ الطّرْ ... فِ ذليـلَ الإدْبـار والإقبـال

أينَ جوْبُ البلاد شرقًا وغربًا ... واعتسافُ السّهول والأجبالِ !

واعتـراض الرّقـاق يوضع فيها ... بـظِبـاءِ النجـاد والعمّـالِ !

ذهبَ الناسُ فاطلبِ الرزق بالسيـ ... ـفِ ، وإلّا فَمُتْ شديدَ الهُزال

[الخفيف]

---

(١) ك: «أعن واستعن» والأزل: الشدة.

(٢) ك: «ازين بالحر»

(٣) ل: «عندما يبدو».

(٤) اليلمق: القباء المحشو، والطرف: الكريم من الخيل، والمضبر: المكتنز اللحم.

(٥) الجرشع: العظيم من الإبل، وطل: جمع أيطل؛ وهو مجتمع الأضلاع. ولاحق الأياطل: ضامرها. والسبيب من الفرس: شعر العرف، وغير مذال: أى ذيله قصير.

محَاسن استصلاح المال

رُوِيَ عن عبد الله بن جعفر، قال: بعثنى علىٌّ بن أبى طالب إلى حكيم بن حِزام[1]، يسأله سَلَف ثلاثين ألف درهم، فأتيتُه، فانطَلَق بى إلى منزله، فوجد فى الطريق صُوفًا فأخذه، ومرَّ بقطعة كِساء فأخذها، فلما صار إلى منزله أعطانى طرَف الصُّوف، فجعلتُ أفتِله ويُرسِل حتى فَتَلْتُه، ثم دعا بغرارة مخرَّقةٍ فرقَعها بالكساء، وخاطها بالخَيْط، وصيرَّ فيها ثلاثين ألف درهم، وحمِلتْ معى.

* * *

قال: وأتى قومٌ قيسَ بن سعد بن عُبادة، يسألونه فى حِمَالة، فصادفوه فى حائط[2] له يتتبّع ما يَسقط من الثّمَر، فيعزل جيّده عن رديئه، ويجعل كلَّ صِنْفٍ منها على حِدَته. فهمّوا أن يرجِعوا عنه، وقالوا: ما نظنّ عند هذا خيرًا. ثم عَزَموا على لقائه، فأقاموا حتى فرغ من حائطه فكلّموه فأعطاهم، فقال رجل من القوم له: لقد رأيناك تصنع شيئًا لا يُشبِه فعَالَك، وأخبروه، فقال: إنّ الذى رأيتم من صنيعى قَضَيْتُ به حاجتكم.

* * *

عبد العزيز بن أبان، عن هشام الثَّقَفى، عن رجل أتى طلحة بن عبيد الله يسأله حِمالةً، فرآه يَهْنَأ بعيرًا له، فقال: يا غلام، أخْرِج له بَدْرةً فقبَضَها، ثم قال: أردت أن أنصرف حين رأيتك تَهْنأ[3] البعير!

فقال: إنّا لا نضيّع الصغير، ولا يتعاظَمُنا الكبير.

وكان يقال: مَنْ أنفق ولم يحسب، عَطِب ولم يَشْعُر.

وقيل: الإفلاس سوءُ التدبير.

الأصمعىّ؛ قال: سمعتُ بعض المهلبّيين[4] يقول لبنيه: لا تشتروا الغنم؛ فإنها مال الرِّقة[5]، ولا تشتروا البقر؛ فإنها مال الذّلّة، واشتروا الإبل واقتنوها؛ فإنها رَقوءُ الدّم، وصدقات الحرائر، وسُفُن البرّ، وفيها قضاء الحقوق. ولا تتزوّجوا المميتات، فإنّهنّ يضربن على رءوسكم مَنْ كان قبلكم، وتزوّجوا المطَلّقات، فإنهن أضعف نفسًا، وإنّكم تَضربون على رءوسهنّ مَنْ كان قبلكم.

---

(١) ك: «ابن خويلد».

(٢) الحائط هنا: البستان.

(٣) هنأ البعير: طلاه بالهناء، وهو القطران.

(٤) ط: «الهالبيين».

(٥) فى اللسان «يقال فى حاله رقق ورقة، أى قلة».

وقال بعضهم فى جمع القليل إلى القليل:

رُبَّ كبير هاجهُ صغيرُ   وفى البحور تغرق البحور

[الرجز]

وقال آخر:

قدْ يَلحق الصغيرُ بالجليل   وإنّما القَرمُ من الأفِيل[1]

* وسُحُقُ النَّخل من الفسيل[2] *

---

(١) الأفيل: صغير الإبل، والقرم: الفحل منها.

(٢) سحق: جمع سحوق، بالفتح: وهى النخلة الطويلة، والفسيل. جمع فسيلة، وهى النخلة الصغيرة تقلع من الأرض أو تقطع من الأم فتغرس.

مَحاسن الدّين

قيل: قدِم رجلٌ مع إسماعيل بن حمّاد بن أبي حنيفة، وهو على قضاء البَصْرة، فأقام أكثرَ من سنةٍ متعطّلًا، فكثُر عليه الدَّينُ لرجل من أهل البَصْرة، فتوعَّده أن يقدمَه إلى القاضي، فأتى الرجلُ إسماعيلَ فأخبرَه بما تخوّفه من حَبْس الرّجل إيّاه، فقال: إذا قدَّمك فأقِرَّ له بحقّه، ثم قل: أبيعُ داري وأقضيه، فإنّه سيقول: لا دارَ لك؛ قل: فأبيع دابّتي وضيْعَتي، فإنّه سينكر أن يكون لك شيء.

ففعل، فجرى بينهما ما قاله القاضي، فقال القاضي: قد أقررتَ أنه لا شيء له، فكيف أحبسُه! فخلّى سبيله.

* * *

قال: وكان لرجل من التّجّار صاحب عِينَةٍ[1] على رجل من الجند مالٌ فخرج عطاء الجند ولم يقض صاحِبَه، فأرسل إليه التّاجر غلامًا يلزمه، وعلى الغلام كساء أحمر فلزمه، فجعل الرجل يتلو: ﴿وإن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرة﴾[2]. والغلام يتلو: ﴿إن الله يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إلى أَهْلِها﴾[3]. فلما طال ذلك على الرجل، واشتد إلْحَاحُ الغلام عليه، أتى صاحبَه فقال:

مُنِع الرُّقادُ فَما أُغَمِّضُ ساعةً ... من غمٍّ تعذيبِ الكساء الأحمرِ
يتلو التي فيها الأمانةُ منهما ... لؤمًا، وأتلو آيةَ المتيسِّرِ

[الكامل]

فضحك الرجل، ووَهَب له ما كان عليه من دَيْنه.

---

(١) العينة: خيال المال، وفى ك «عِنة».
(٢) سورة البقرة ٢٨٠.
(٣) سورة النساء ٥٨.

مساوئ الدين

قال أبو اليَقْظَان: كانَ الْفَضْل بنُ العباس بن عُتبة بن أبي لهب الشاعر يسلّف الناس، فإذا حلَّ مالُه ركب حمارًا[1] اسمه «شارب الرِّيح» فيقف على غرمائه ويقول:

بنى عمِّنا رُدّوا الدراهِمَ إنّما ... يُفرِّق بين الناس حُبُّ الدراهم

[الطويل]

* * *

وكان رجل من بنى الدُّئل عَسِرَ القضاء، فإذا تعلّق به غُرماؤه فرَّ منهم، وقال:

فلو كنتُ الحديدَ لكسَّرُونِي ... ولكنِّى أشَدُّ مِنَ الحديد

[الوافر]

فأقرَضهُ الفضلُ بنُ العبَّاس، فلما كان قبل المحِل[2] جاء فبنى مَعْلفًا على باب داره، وكان يقال له: «عقرب»، فلقى كلُّ واحد منهما من صاحبه شدَّة، فهجاه، فقال:

قد تجرَتْ فى سوقِنا عقربٌ ... يا عجَبًا للعقرب التّاجِرَهْ!

قد ضاقَت العقربُ واستيقَنَتْ ... ليسَ لها دُنْيا ولا آخرهْ

فإن تُعدْ ترجع بما ساءها ... وكانتِ النعلُ لها حاضرَهْ

كلُّ عَدُوٍّ يُتّقى مُقبلًا ... وتُتّقى شِرَّتُها دابرَهْ

إنّ عدُوًّا كيدُه فى استِه ... لَغَيْرُ ذى كيدٍ ولا بادِرَهْ[3]

[السريع]

* * *

قال: وقدَّم أعرابيّان غريمًا لهما إلى قاض، فحلف ثم قال:

ألم تَعلَما أنِّى طَموحٌ عنانُهُ ... وأنِّىَ لا يقضِى علىَّ أميرُ

طمستُ الّذى فى الصّكّ مِنّى بحلْفَةٍ ... سيغفِرها الرحمن وهو غفورُ

[الطويل]

---

(١) ك: «حمارا له».

(٢) المحل، بكسر الحاء: وقت حلول الدين، وفى ك «الموعد».

(٣) الخبر والأبيات فى الأغانى ١٥: ٧ (ساسى) مع اختلاف فى الرواية.

ولآخر:

أرى الغرماء قد كَثُروا وضَجُّوا إلى السلطان غــير مقصرينــا
فإنْ سألـوا اليمينَ فقـدْ رَبِحْنا وإن سألوا الشهودَ فقد خَزِينا

[الوافر]

ولآخر:

الـدَّيْنُ حقًّا كـاسمـه دَوِيُّ قد يخضعُ المـرء له القـويُّ
* كم من شريف غَاظَهُ غَبيُّ *

[الرجز]

مَحَاسن إصلاح البدَن

قال: جَمَع الرشيدُ أربعةً من الأطبّاء: عراقيًّا، ورروميًّا، وهنديًّا، وسواديًّا، فقال: ليصف كلُّ واحد منهم الدّواء الذى لا داء فيه.

فقال الروميّ: الدواء الّذى لا داء فيه حَبُّ الرَّشاد الأبيض.

وقال الهنديّ: الماء الحارّ.

وقال العراقيّ: الإهليلج الأسود.

وكان السَّوادِيّ أبصرَهم، فقال له: تكلّم، فقال: حب الرشاد يولد الرطوبة، والماءُ الحارّ يرخِي المعدة، والإهليلج يُرِقّ المِعدة، قال: فأنت ما تقول؟ قال: الدّواء الذى لا داء فيه أن تقعد على الطّعام وأنت تشتهيه، وتقوم عنه وأنت تشتهيه.

* * *

وقال بعضهم: سألتُ أسْقُف فارس، فقلت: إنّا قوم نغترب وتتغيّر علينا المياه، فصف لنا ما نتعالج به، فقال: دعوا الأدوية، وعليكم بالأغذية، وما يخرج من الضَّرع والنّحل، وعليكم بأكْل اللحم، وشُرب ماء الكرم ودخول الحمّام، ولبس الكتّان.

وعن الهيثم بن عديّ قال: قلت لتياذوق – وكان متطبّب الحجّاج: أوصنى بشىء أحفَظه عنك فإنّى مسافر، فقال: لا تنامنَّ حتى تعرض نفسَك على الخَلاء، ولا تذوقنّ طعامًا وفى معدتك طعام، واتّق ما تُخرجه النعجة والنَّحلة، فإن اعتللت فأنا الضّمين، إلاّ علّة الموت.

وقال سُوادة: سألت بَخْتَيْشوع: ما معنى البلغَمْ؟ فقال: تفسيرهي «بلاء وغمّ».

وقال بعض الفلاسفة: ينبغى للعاقل أن يتّقى البرد فى أوّل الشتاء وفى آخره، فقيل له: ففى وَسَطه؟ قال: ذاك يتّقيه العاقل والأحمق!

* * *

قيل: وأوصَى بعضُ الحكماء ولده فقال له: إيّاك أن تسير شبرًا من الأرض وأنت حافٍ؛ ولا تذوقنّ نبْتةً ولا تشمَّنّها حتى تعرفَها، وإيَّاك وأن تبول فى شِقٍّ الأرض فتخرج منه عليك داهية، ولا تشربْ من فمِ قِرْبَة ولا إداوة حتى يكون الماء معِينًا، واحذرْ مرافقة المعرفة، ومن لا تعرف فلا تصاحبْه، وإياك والسجود على باريَّة[1] جديدة حتى تمسَحَها بكمّك، فرُبّ شظيّة حقيرة فقأَتْ عينًا

---

(١) البارية: الحصيرة.

خطيرة، ولا تنظرنّ فى بئر عاديّة[١]، ولا تشهدَنَّ من الحيوان الكبار ما هو فى النَّزْع، واقبلْ وصيتى تَرْشُد، ولا تدَعْها فتندَم.

* * *

قيل: ودخل أعرابىٌّ ذو كِدْنةٍ[٢] على معاويةَ بن أبى سُفيان فأعجبه، فقال: يا أعرابىّ، مِمّ هذا السِّمَن؟ قال: لا آكلُ حتى أجوعَ، وأستوثق من أطْرافى فى الشتاء، وأغفِل غاشيةَ الهَجْر[٣].

وقال بعضُ الفلاسفة: اخضع للرِّيحِ خضوعَك للْمَلِك، وجاهد البلغم مجاهَدَة عدوِّك ودارِ المِرّة مداراتك صديقَك، وأنزِلْ دَمَك فى السنة مرّةً أو مرّتين، ورَوِّ مُشَاشَك من ماء لحوم الطير، وعليك بالشراب الأصفر فإنّه حليف الرُّوح.

* * *

وذكر أبو الحسين محمد بن أحمد بن يحيى بن أبى البغل، عن أحمد بن أبى الأضبع[٤] – وكان كاتبًا لأحمد – عن يحيى بن ماسوية، قال: أكْل الفالوذ لصاحب النبيذ عندنا من شرِّ الطبّ.

* * *

وقيل: ما من أحدٍ إلّا وفيه أربعة عروق: عرقُ الجُذام، وعرْق البَرَص، وعرق العمَى، وعرق الجنون، فإذا تحرّك عرق الجُذام، قمَعه الله بالزكام فأذهبَه، وإذا تحرّك عِرْق البَرَص سَلَّط الله عليه الدماميلَ فأذهبتْه، وإذا تحرّك عرق الجنون سلَّط عليه البلغم فقَطَعَه، وإذا تحرَّك عرق العمى سلَّط الله عليه الرَّمَد فأذهبه.

* * *

وقد رُوى عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم: «لا تكْرهوا أربعًا لأربع: لا تَكرهوا الزُّكامَ؛ فإنه يقطع عِرق الجُذام، ولا تكرهوا السُّعال؛ فإنه يقطع عِرْق الفالج، ولا تكرهوا الرَّمَد؛ فإنه يقطع عرق العَمَى، ولا تكرهوا الدماميل؛ فإنها تقطع عرق البرص».

ورُوى عن علىّ رضى الله عنه أنه قال: من ابتدأ غدَاءَه بالملح أذهب الله عنه سبعين نوعًا من السُّوء، ومَنْ أكل إحدى وعشرين زبيبة حمراء لم يَر فى جسده شيئا يكرهه، ومَنْ أكل سبعَ ثمراتٍ عَجْوة، قتِلَت كلّ دابة فى بطنه، واللّحم والثّريد طعام العرب، والسّواكُ وقراءة القرآن يذهبان بالبلغم، والبقرُ لحومُها داءٌ، وألبانها دواءٌ، وسَمْنها شفاءٌ، والسَّمَكُ يذيب الجَسَد، والشحمُ يخْرجِ مثله من الداء، ولن يتداوى الناس بمثل السَّمْن، ولن تستشفى النَفساءَ بمثل الرُّطب، والمرء يسعى بجدِّه، والسيفُ يَقطَع بحدّه، ومن أراد البقاء – ولا بقاء – فليباكر الغداء، وليخفّف الرداء، وليقلّل من غشيان النّساء؛ وخفة الرّداء قلّة الدّيْن.

* * *

(١) البئر العادية: القديمة؛ منسوبة إلى عاد.

(٢) الكدنة، كثرة الشحم.

(٣) الهجر: نصف النهار.

(٤) ك: «أصبغ».

قيل: منْ بات والهِنْدَباء في جوفه بات آمنا من الدُّبَيْلة(١)، ومَنْ بات والفجْل فى جوفه بات آمنًا من البَشَم، ومن بات والكَرَفْس فى جوفه بات آمنا من وجع الأضراس، ومَنْ بات والجرْجِير فى جوفه بات وعروق الجذام تتردّد فى صدره، ومن بات والكَرَّاث فى جوفه بات آمنًا من البواسير.

* * *

وقال بعض الفلاسفة: لا ينبغى للعاقل أن يستخفّ بالقليل من ثلاثة أشياء: بالقليل من النَّار، والقليل من السلطان، والقليل من السَّقَم.

* * *

وقال أبو هِفّان: حدّثنى العبّاس بن المأمون قال: كنت عند المأمون ذاتَ يوم وعنده الموْبَذ، فسأله: ما أنفع الأشياء؟ فقال: الاقتصاد فى الطُّعْم(٢) والشُّرْب؛ فإنّ كثيره يُثَقِّل الجسم، ويوهنُ العلم والفهم، ويكدِّر صفاء البَشَرة، ويفتح الأدواء ويخمد نارَ المعدة، ويمحق شرفَ صاحبه. فقال المأمون: لو أسلمتَ يا موْبَذ، ولم أستقضِك، كنت. قد ضيّعتُ حجّة الله فى أرضه!.

الحسنُ بن عليّ بن زيد؛ قال: سمعت عليَّ بنَ الجَعْد يقول: لمَّا قدم بَخْتَيْشوع الأكبر على أبي جعفر من السُّوس، أمر له بالطّعام، فلما وُضِعَ بين يديه الخَوان قال: الشرابَ! قيل له: لا يُشرَبُ على مائدةِ أمير المؤمنين؛ قال: لا آكل طعامًا ليس معه شراب، فأُخبر أميرُ المؤمنين بذلك، فقال: دَعُوه، فلما حضر العشاء فعل به مثل ذلك، فطلب الشراب، فقيل له: لا يُشرب على مائدة أمير المؤمنين، فتعشّى وشَرِبَ ماءَ دِجْلة، فلما كان الغد نظر إلى مائه فقال: ما كنتُ أحسب شيئًا يجرى مجرى الشراب، فهذا ماءُ دِجلة يجرى مجرى الشراب - يريد فى المنفعة أنه مثله.

---

(١) الدبيلة: داء فى الجوف.

(٢) الطعم، بالضم: الطعام.

مسَاوئ ما يفسد البدَن

قال: وقال رجل لعبد الملك بن أبجر: أشتهى أن أمْرَض، فقال له: كُلْ سَمَكًا مالحا، واشرب نبيذًا حُلوًا، واقْعُد فى الشَّمس، واستمرِض الله عزَّ وجلَّ، فإن لم تمرضْ فأنت حمار!

محاسِن النّدامَة

رُوِىَ عن عائشة رضى الله عنها، أنّها دخلت على أمّ سَلَمة بعد رجوعها من وقعة الجمل، وقد كانت أمّ سَلَمة حلفت ألاّ تكلّمها أبدًا من أجلِ مسيرها إلى محاربة على بن أبى طالب، فقالت عائشة: السّلام عليكِ يا أمّ المؤمنين، فقالت: يا حائط، ألم أَنْهَكِ! ألم أقل لك! قالت عائشة: فإنّى أستغفر الله وأتوب إليه، كلّمينى يا أمّ المؤمنين، قالت: يا حائط، ألَمْ أقل لك! أم أنهكْ! فلم تكلّمها حتى ماتت، وقامت عائشة وهى تبكى وتقول: وا أسفاه على ما فَرَط منّى!.

قيل: وسُئلتْ عائشة رضى الله عنْها، عن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب – رضى الله عنه – فقالت: وما عسِيتُ أن أقول فيه وهو أحبّ الناس إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم! لقد رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قد جمع شَمْلتَه على علىّ وفاطمة والحسن والحسين، وقال «هؤلاء أهلُ بيتى، اللهمّ أذْهِبْ عنهم الرجس وطهِّرْهم تطهيرًا، قيل لها، فكيف سرتِ إليه؟ قالت: أنا نادمة، وكان ذلك قدرًا مقدورًا.

* * *

وعن جميع بن عُمير، قال: قلت لعائشة: حدِّثينى عن علىّ رضى الله عنه، فقالت: تسألنى عن رجل سالتْ نفسُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يَده، وولىَ غسلَه وتغميضَه وإدخالَه قبره! قلت: فما حملك على ما كنا منكِ؟ فأرسلت خِمارَها على وجهها وبكتْ وقالت: أمرٌ كان قُضِىَ علىَّ.

* * *

قال: وقال ابن المعافَى لأبى مسلم صاحب الدولة: أيُّها الأمير، لقد قمتَ بأمر لا يُقصِّر بك ثوابه عن الجنة، فى إقامة دولة بنى العبّاس، فقال: خَوْفى من النار والله، أولى من الطمع فى الجنّة، إنى أطفأت من أميَّة جَمْرة، وألهبتُ من بنى العباس نيرانًا، فإن أفرحْ بالإطفاء فواحزنا من الإلهاب!

* * *

وحدّث أبو نملة عن أبيه، قال: سمعت أبا مسلم بعَرَفات فى الموقف يقول باكيًا: اللهمّ إنّى تائب إليك ممّا لا أظنّ أن تغفره لى! فقلت: أيّها الأمير، أيعظُم على الله عزّ وجلّ غفرانُ ذنبٍ فقال: إنى نسجت ثوبًا من الظُّلم لا يبْلَى مادامت الدّولة لبنى العبّاس، فكم من صارخ وصارخةٍ تلعنُنى عند تفاقُم هذا الأمر، فكيف يغفر الله عزّ وجلّ لمن هذا الخَلْق خصماؤه!

قيل: ولما سَخِطَ عليه المنصور، ووكّلَ به شهرام المرْوَزىّ قال له يومًا: الويل لك من الخليفة المنصور! فقال: الويل لى من ربّى، وأين يقع ويلُ ساعةٍ من عذاب الأبد!

مساوئ النَّدامَة

قال: وإلى الكُسَعِيِّ[1] يُضْرب المَثَلُ فى النَّدامة، وذلك أنه كان يرْعَى إبلًا له بوادٍ كثير العُشْب، فبينا هو كذلك إذ بَصُر بنَبْعةٍ[2] فى صخرة، فأعجبتْه فقال: ينبغى أن تكون هذه قَوْسًا، فجعل يتعهّدها حتى إذا أدركتْ قطعَها وجفَّفَها واتَّخذ منها قَوْسًا، فأنشأ يقول:

يـارَب وفّقْنِى لنحتِ قَـوْسِى　　فـإنَّها مـن لـذَّتِى لنـفسِـى
وانفعْ بقَوْسِى ولَدِى وعرْسى　　أنْحُتُها صفراءَ مِثْـل الوَرْس
* صفراء ليست كقِسيِّ النَّكْسِ[3] *　　[الرجز]

ثم دهنَهَا وخَطمها بوَتَر، ثم عَمَد إلى ما كان من بُرايتِها ، فجعل منه خمسة أسهم، فجعل يقلّبها فى كفه ويقول:

هُنَّ وربِّى أسْهُمٌ حِسـانُ　　تَلَذُّ للرَّامى بهـا البنـانُ
كـأنَّمَا قـوَّمهـا المِيـزانُ　　فأبشِروا بالخِصْبِ يا صبيانُ
* إن لم يَعُقْنِى الشؤْمُ والحِرْمانُ *　　[الرجز]

ثم خرج حتى أتى مواردَ حُمُر الوحش فكَمَن فيها، فمرَّ قَطيع منها، فرَمى عَيْرًا فأمْخَطَهُ[4] السهم حتّى جازه وأصاب الجبل، فأورى نارًا، فظنَّ أنه أخطأ فقال:

أعـوذُ بـالله العـزيـز الـرحْمٰنْ　　من نكَـدِ الجَدِّ معًـا والحِرْمـانْ
مالى رأيتُ السهمَ بَيْنَ الصَّوَّان　　يورِى شَرَارًا مثلَ لوْنِ العِقْيان
* فأخلفَ اليومَ رجاءَ الصبيانْ *　　[الرجز]

ثم مكث على حاله، فمرّ به قطيعٌ آخر، فرمى عَيْرًا منها فأمخطه السهمُ، فصنع صنيعَ الأوّل، فقال:

لابارَك الرحمنُ فى رَمْىِ القَتَرْ　　أعوذُ بالرحمن من سُوءِ القدَرْ
أأمخَط السهمُ لإرهاق الضَّررْ　　أمْ ذاكَ من سُوءِ احْتيالٍ ونظرْ؟
[الرجز]

ثم مكث على حاله، فمرّ به قطيع آخرُ فرمى عَيْرًا منها؛ فأمخطه السهم، فقال:

(١) فى مجمع الأمثال عن حمزة: «هو رجل من كسع واسمه محارب بن قيس».
(٢) النبعة: واحدة النبع؛ وهو شجر تتخذ منه القسى، ومن أغصانه السهام، ينبت فى قلة الجبل.
(٣) ط: «صلباء»، وما أثبته من مجمع الأمثال.
(٤) مجمع الأمثال: «أى أنفذه فيه وجازه».

ما بالُ سهمى يوقِدُ الحُباحبَا   قد كنتُ أرجو أنْ يكون صائبًا
وأمكنَ العَيْرُ وأبدَى جانِبًا   فصارَ رأيى فيه رأيًا خائِبا
[الرجز]

ومكث مكانه[١]، فمر به قطيع آخر، فرمى عيرا منها، فأصْرد[٢] السهم، فصنع صنيع الأوّل، فقال:

أبعدَ خمسٍ قد حفظتُ عدَّها   أحمِلُ قَوْسى وأريدُ رَدَّها
أخزَى الإلٰهُ لينها وشدّها   والله لا تَسْلَمُ عندى بعدَها
* ولا أرجِّى ما حييتُ رِفْدها *
[الرجز]

ثم عَمَدَ إلى القوس فضرب بها حجرًا فكسرها، ثم بات، فلمَّا أصبح إذا الحُمُرُ مطرّحةٌ حولَهُ، وأسهمُهُ مضرَّجةٌ بالدم، فندم على كَسْر قوسه، وشدَّ على إبهامه فقطعَها، وأنشأ يقول:

ندِمْتُ ندامةً لو أنّ نفسِي   تطاوعُنى إذن لقَطَعْتُ خَمْسى
تبيَّن لى سَفاهُ الرأىِ مِنِّى   لعمْرُ أبيكَ حينَ كسرتُ قوْسى
[الوافر]

وقال الفرزدق:

ندِمتُ ندامةَ الكُسَعِىّ لما   غدَتْ منّى مطلّقةً نَوارُ[٣]
وكانتْ جَنّتى فخرجتُ منها   كآدَمَ حينَ لجَّ به الضّرارُ
[الوافر]

* * *

ومنه ما قيل فى خُفَّىْ حُنين، وكان حُنين إسكافًا من الحيرة، فساومه أعرابى بخفَّيْه، واختلفا فى ذلك حتى أغضبه، فأراد أن يغيظ الأعرابىّ، فلمّا ارتحل أخذ حُنين الخُفَّين، فألقى أحدهما على الطريق، وألقى الآخَرَ فى موضع آخر من طريقه، فلمّا مرّ الأعرابىّ رأى أحدَهما، فقال: ما أشبه هذا بخفّ حُنين! ولو كان معه أخوه نزلتُ فأخذته، ومضى. فلمّا انتهى إلى الآخر ندم على ترك الأوّل، وأناخ راحلتَه، فأخذه ورجع إلى الأول، وقد كَمَن له حُنين، فعَمدَ إلى راحلتِه، فذهب بها وما عليها، وأقبل الأعرابىُّ وليس معه إلاّ الخُفّان، فقال له قومه: ما الذى أتيت به؟ قال: أتيتُ بخفَّى حُنين، فضربته العرب مثلا، وقال الشاعر فى مثله:

لتَقْرَعنَّ علىَّ السِّنَّ من نَدَمٍ   إذا تذكَّرتَ يومًا بعضَ أخلاقى[٤]
[البسيط]

---

(١) فى مجمع الأمثال: «ثم مكث مكانه؛ فمر به قطيع آخر، فرمى عيرا منها ، فصنع صنيع الثالث، فأنشأ يقول:
يا أسفَا للشُّؤْم والجدِّ النَّكِدْ   أخلَف ما أرجو أهلٍ وولَدْ
(٢) أصرد: أخطأ.
(٣) ديوانه ٣٦٣، وانظر مجمع الأمثال ٢: ٣٤٨، ٣٤٩.   (٤) مجمع الأمثال ٢: ٢٧٢، الفاخر ٩٧.

محاسِن الحنين إلى الوطن

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ولوْ أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا مِن دياركم ما فعلوه إلاَّ قليلٌ منهمْ﴾[١]؛ فَقَرنِ جلّ ذكرُه الجلاء عن الوَطن بالقتل، وقال جلّ وتعالى: ﴿ومالنا ألا نقاتل فى سبيلِ الله وقد أُخْرِجْنَا من ديارنا وأبنائنا﴾[٢]، فجعل القتال ثأرًا للجلاء.

وقال النبى ﷺ: «الخروجُ عن الوطن عقوبة».

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لولا حُبُّ الوطن لخرب بلدُ السوّء.

وكان يقال: بحبِّ الأوطانِ، عُمرت البلدان.

وقال جالينوس: يتروّح العليل بنسيم أرضه، كما تتروّح الأرض الجدْبَةُ ببَلَل المطَر.

وقال بُقْرَاط: يداوَى كلّ عليل بعقاقيرِ أرضِه، فإن الطبيعة تنزِع إلى غذائها.

ومما يؤكّد ذلك قولُ أعرابىّ وقد مرض بالحُمْرة[٣]، فقال له قائل: ما تشتهى؟ قال: مَحْضًا[٤] رَويًّا مشوِيًّا.

وحدّث عن بعض بنى هاشم قال: قلت لأعرابىّ: من أين أقْبَلْت؟ قال: من هذه البادية، قلتُ: وأين تسكن منها؟ فقال: مساقط الحمى، حِمى ضَرِيّة[٥] هالعمر الله ما نُريد بها بدلاً، ولا نبغى عنها حِوَلا، نفحتْها القدَوات[٦] وحفّتْها الفَلَوات، فلا يعلولج[٧] ترابُها، ولا يتمعرّ[٨] جنابُها، ولا يملولح ماؤها، ليس بها أذًى ولا قذى، ولا موم، فنحن فيها بأرْفِه عيش، وأنعِم معيشة وأرغد نعمة!

قلت: فما طعامكم؟ قال: بَخْ بَخْ، عيشُنا عيشٌ تعلُّل جاذبه، وطعـامُنا أطيَبُ طعـامٍ واهنَؤه وأمرؤُه: الفثّ،[٩] والهبيد[١٠]، والصليب[١١] والعنكث[١٢] والعِلْهِزُ[١٣] والذّآنين[١٤]، والينّمة[١٥]،

(١) سورة النساء ٦٦.

(٢) سورة البقرة ٢٤٦.

(٣) ط: «الخضرة»، تصحيف. والحمرة من الأدواء المعروفة.

(٤) المحض: اللبن الخالص.

(٥) ضرية: قرية فى طريق مكة من البصرة.

(٦) القداة: الرائحة الطيبة.

(٧) ياقوت: «بملولح».

(٨) لا يتمعر: لا يجدب.

(٩) الفث: حب برى يأكله أهل البادية عام القحط بعد دقه وطبخه.

(١٠) الهبيد: الحنظل.

(١١) الصليب: الودك.

(١٢) العنكث: نبت يشتهيه الضب.

(١٣) العلهز: دم القراد والوبر يخلط ويشوى ويؤكل زمن الجدب.

(١٤) الذ آنين: نبت تنشق عنه الأرض فيخرج مثل سواعد الرجال لا أوراق له.

(١٥) الينمة: نبت من أحرار البقول ينبت فى السهل له أوراق طوال لطاف محدب.

والعراجين[١]، والحَسِلة[٢]، والضباب واليرابيع والقنافذ والحيّات، وربتما والله أكلنا القِدّ، واشتوينا الجلد، فما نعلم أحدًا أخصب منّا عيشًا ولا أرخى بالاً، ولا أعمر حالاً، أو ما سمعت قول الشاعر، وكان والله بصيرًا برقيق العيش ولذيذه؟ قلت: وما قال؟ قال: قوله:

إذا ما أصبنا كلّ يوم مذيقة — وخمس تميرات صغار كوانز[٣]
فنحن ملوك الناس خِصبا ونعمة[٤] — ونحنُ أسود الناس الهزاهِزِ
وكم متمن عيشنا لا ينالُهُ — ولو نالَه أضحى به حقّ فائزا

[الطويل]

فالحمد لله على ما بسط من حسن الدعة ورزق من السعة، وإياه نسأل تمام النعمة[٥].

* * *

وقيل لأعرابي: كيف تصنع بالبادية إذا انتصف النهار. وانتعل كل شيء ظله؟ قال: وهل العيش إلّا ذاك! يمشى أحدنا ميلا فيرفض عرقا كأنه الجمان، ثم ينصب عصاه، ويلقى عليها كساءه، وتقبل عليه الرِّياح من كل جانب، فكأنه فى إيوان كسرى.

(١) العراجين: نوع من الكمأه.
(٢) الحسلة: جمع حسل؛ وهو ولد الضب.
(٣) معجم البلدان: «كنائز».
(٤) معجم البلدان: «فنحن ملوك الناس شرقا ومغربا».
(٥) الخبر فى معجم البلدان ٥: ٤٣٣، ٤٣٥.

ذكْر من اختار الوطن على الثروة

قال بعض الأدباء: عُسْرُك فى بلدِكَ؛ خير من يُسْرِك فى غربتِك.

وقيل لأعرابىّ: ما الغبطة؟ قال: الكفاية، ولزوم الأوطان، والجلوس مع الإخوان. قيل: فما الذِّلّة؟ قال: التنقّل فى البلدان، والتّنحِّى عن الأوطان.

وقال بعض الأدباء: الغربة ذِلّة، فإن رَدِفها علّة، وأعقَبتْها قِلّة، فتلك نفسٌ مضمحلّة.

وقالت العرب: الغربة ذِلّة، والذّلة قِلّة.

وقال آخر: لا تنهض عن وكْرِك فَتنقُصك الغربة، وتضيمك الوَحْدة.

* * *

وشبّهت العرب والحكماء الغريبَ باليتيم اللَّطيم الّذى ثكل أبويْه؛ فلا أمّ ترْأمُ له، ولا أب يحدِبُ عليه.

وكان يقال: الجالى عن مَسقَط رأسه كالعَيْر الناشز عن موضعه، الذى هو لكل سَبُعٍ فريسة، ولكلّ كلب قنيصة، ولكل رامٍ رميّة.

وكان يقال: الغريب عن وطنه ومحلّ رضاعه، كالْغَرْس الذى زايَلَ أرضَه، وفَقَد شربَه، فهو ذاوٍ لا يثمِر، وذابلٌ لا يَنضُر، وأنشد:

ومُغتربٍ بالمَرْج يبكى لشَجوِهِ ... وقد غابَ عَنْه المسعدُون على الحب
إذا ما أتاه الرَّكبُ من نحو أرْضِه ... تنفَّسَ يَستشفى برائحةِ الركب

[الطويل]

آخر:

إذا ماذَكَرْتُ الثغْر فاضتْ مدامعى ... وأضحَى فؤادى نهبةً للهَماهمِ
حنينًا إلى أرضٍ بِهَا اخْضَرَّ شاربى ... وحُلّتْ بها عنّى عقود التمائمِ
وألطفُ قومٍ بالفتى أهلُ أرْضِه ... وأرعاهُمُ للمرء حقّ التقادمِ

[الطويل]

ولآخر:

أحنُّ إلى أرض الحجاز وحاجَتى ... خيامٌ بنجدٍ دُونها الطَّرفُ يقصر
وما نظَرى منْ نحو نجدٍ بنافِعى ... أجلْ، لَا ولكنّى على ذاك أنْظُر

أفي كل يوم نظرة ثم عبرة   لعينيك يجرى ماؤها يتحدرا
متى يستريح القلب إما مجاور   حزين، وإمّا نازح يتذكرا
[الطويل]

الطائى:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى   ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل فى الأرض يألَفُهُ الفتى   وحنينه أبدا لأول منزل
[الكامل]

مساوئ من كره الوطن

قال بعض الفلاسفة: اطلبوا الرزق فى البعد، فإنكم إن لم تكسبوا مالا، غنمتم عقلا كثيرا.
وقال آخر: لا يألف الوطن، إلا ضيق العطَن.

وقيل لآخر: ما أصبرك على الغربة؟ فقال: أنست بالنوائب حتى ما أعرف غيرها، وغذيت بالمكاره فما أجد ضَيْرَها.

ومدح أعرابيٌّ رجلًا فقال: خرجته الغربة، ودربته التجربة، وضرسته النوائب.
وقال آخر: ما حن أحد إلى بلد لا جمع فيه شملُه إلّا لوَصْمةٍ فى عقْله، ولا تنزع نفسُه إلى بلدٍ قَلَّ به رِفْدُه، إلّا لاستيلاء الموق عليه.

وقيل لآخر: ما العيش؟ فقال: دَوران البلدان، ولقاء الإخوان، ومغازلة القيان، واستماع الأغانى والنغَمات من الزِّير[1] والمثانى[2].

وقد قيل: مَنْ صَبَرَ على الغربة أمِن الكُرْبة، وأفضل العدة، الصبر على الشدة.
وقالوا: لا توحشنَّك الغربة إذا أنستَ بالكفاية، ولا تجزع لفراق الأهلِ مع لقاء اليَسار.
وقيل: الفقير فى الأهل مَصْروم، والغنّى فى الغربة موصول.
وقيل: أوْحِش قَوْمك ما كان فى إيحاشهم أنسُك، واهجر وطنك ما نبت عنه نفسُك.

وقرئ على باب خانٍ بطرَسوس:

ما من غريبٍ وإنْ أبْدَى تجلُّدَهُ   إلّا تَـذكّـرَ عنـد الغُـربـةِ الـوطنـا

[البسيط]

وأسفله مكتوب:

أيرُ الحمارِ وأيرُ البغلِ فى القَرَنِ   فى اسْتِ الغريبِ إذا ماحن للوطن

[البسيط]

---

(١) الزير: الدقيق من الأوتار.

(٢) المثانى من أوتار العود: ما بعد الأول، واحده مثنى.

الطائىّ:

لا يَمنعنك خفْضَ العيش تَطْلُبُهُ ... نِزاعُ شوْقٍ إلى أهْلٍ وأوطان
تَلْقَى بكلّ بلاد إنْ حَللتَ بها ... أهلًا بأهلٍ وجيرانًا بجيران

[البسيط]

ولآخر:

نبَتْ بكَ الدارُ فَسِرْ آمنًا ... فلِلفتى حيثُ انتهى دارُ

[السريع]

ورُوى عن كعب بن مالك، أنَّهُ وَصفَ وحشة المدينة لغيبة النبى ﷺ فقال: تنكّرتِ البلادُ فما هى بالبلاد التى تَعرِف، وتَنكّرَ النَّاسُ فما هم بالناس الّذين نعْرف.

وقال معناه قال الشاعر:

فما النّاسُ بالناسِ الذينَ عهدتُهمْ ... ولا الدارُ بالدارِ التى كنت أعْرِفُ

[الطويل]

وأنشد:

لا تقنعنَّ ومَطْلَبٌ لك مُمْكِنٌ ... فإذا تضايقتِ المطالبُ فاقْنَعِ

[الكامل]

وأنشد:

كم المقامُ وكم تعتادُكَ العِلَلُ[1] ... ماضاقَتِ الأرض فى الدنيا ولاالسُّبُلُ
إن كُنْتَ تعلمُ أنَّ الأرضَ واسعةٌ ... فيها لغيركَ مُرْتَادُ وَمُرْتَحَلُ
فارْحَلْ فإنّ بلادَ الله ما خُلِقَتْ ... إلَّا ليُسلكَ منها السَّهْلُ والجبلُ
الله قد عَوَّدَ الحسنَى فما برحتْ ... عندى لهُ نِعَمٌ تَتْرى وتَتّصِلُ
إنْ ضاق بى بلد هيَّا لهُ عِوَضا ... وإنْ نأى منزلٌ بى كان لى بَدَلُ
وإنْ تغَيّرَ لى عن وُدّه رجلٌ ... أصفَى المودَّةَ لى من بعدهِ رجلُ
لم يقطعِ الله لى من صاحب أملاً ... إلَّا تجدَّدَ لى منْ بعده أملُ
لا تمتَهِنْ أبدًا خدَّيْكَ من طَمعٍ ... فما لوجهكَ نورٌ حينَ يُبتذَلُ
وابغ المكاسِبَ من أزكى مطالبها ... من حيثُ تحْمَلُ حتى ينفد الأجَلُ

[البسيط]

(١) ك: «تقتادك».

ولآخر:

إذا مـا أطـال المـرءُ مُكْثـا بـبلدةٍ ... تَعقَّبـهُ مِنْ بعـد جـدته نـكس
ولـو أنّ هـذى الشمسَ دامَ طـلوعهـا ... أوالبـدْرَ لَمْ يُحبَتْ ولاحبت الشمس
فجُـلْ طالبًـا للرزق فى الأرض واغتربْ ... ففى كـلِّ أرض للفتى الأكـل واللبْسُ

[الطويل]

ولآخر:

وإذا الـديـارُ تنكَّـرَتْ عن أهلهـا ... فَدَعِ الدّيـار وأسْرِعِ التَّحْـويـلَا
ليس المُقَـامُ عليـك حتـمًا واجـبًـا ... فى بـلدةٍ تـدعُ العـزيـز ذلـيـلَا

[الكامل]

آخر:

إذا خِفْت منْ دارٍ هَـوانًـا فـإنَّمـا ... ينَجيِّـكَ من دارِ الهوان اجتنـابُهـا

[الطويل]

ولآخر:

اصْبر على حـدَثِ الزمـان فإنّمـا ... فَرجُ الحوادث مثل حل عقـال
وإذا رأيت من ابن عمِّك جَفْوةً ... فـاشْدُدْ يـديْك بعـاجل التـرحال
إن المُقـامَ عـلى الهوان مَـذلّـةٌ ... والعجـزُ آفـةُ حيلة المحتـال

[الكامل]

* * *

وقد قيل فى حبّ الوطن: أحقُّ البُلْدان بنَزْعِك إليه بلدٌ أَمَصَّك حلب رضاعِهِ.

وقيل: احفظ بلَدًا أرشحك[1] غذاؤه، وارْعَ حِمًى أكنّك[2] فِناؤه.

وقيل: لا تشكونّ بلدًا فيه قَبائلُك، ولا أرضًا فيها قوابلُك.

وقيل: من علامة الرّشد أن تكون النفسُ إلى أوطانها مشتاقة؛ وإلى مولِدها توّاقة.

قيل: ولما خرج الرشيد إلى خُراسان وصار بَعقبةِ هَمَذان، أنشأ يقول:

حتى متى أنـا فى حِلٍّ وتَـرْحال ... وطـول هَمٍّ بـإدبـارٍ وإقبـالِ
ونـازحُ الـدار لا ينفـكُّ مغْتـرِبًـا ... عن الأحبّة لا يدرُون ما حالى
فى مشرقِ الأرض طورًا ثم مغربها ... لا يخطرُ الموتُ من حرْصى على بالِ
ولوْ قنعتُ أتانى الرزقُ فى دَعةٍ ... إن القُنُوعَ الغِنى لا كثرة المالِ

[البسيط]

* * *

(١) فى المحاسن والأضداد: «أرسخك».

(٢) المحاسن والأضداد: «اكتنفك».

وذكروا أن أبا دُلَفٍ لمّا وَلِيَ الشام، طالَ مُقامُه، فحن إلى وطنه، فكتب إلى يزيد بن مَخش[١]

أيـزيدُ طـالتْ غُـرْبـةٌ ومُقـامُ ... وبُكًـا فـأسعـدَهُ البكـاءَ حمـامُ
أيـزيدُ هـل من مطمعٍ فى أَوْبةٍ ... لـمتيَّـم طـالـتْ بـه الأيّـامُ
لَعِبَ الفـراق بنوْمـه فـأفـاتهُ ... طيبَ الكُرى فدمُـوعُـه تَسْجَـامُ
مـا نامَ عنه وإن رقدتُم شوْقُهُ ... والشـوْقُ يَسْرِى والعيـونُ نيـامُ
والشـوقُ ألـزمـهُ البكـاءَ فنفسـهُ ... حَـرَّى وأذْبـلَ جِسْمـهُ التّهْيـامُ
يا طائفًا أهدى السلامَ إلى فتًى ... تُهْـدى إلىّ سـلامـك الأحـلامُ
أنَّى وكـيف ينـامُ صبٌّ هـائمٌ ... أفْـضَتْ إلـيـه بسـرّه الأقـلامُ!
يـا جانبَ الأهْـوازِ جـادِك وابـلٌ ... وسقـاك من دَيمِ الـرَّبيعِ رهـامُ
كم فيـكَ مِنْ شَجنٍ ومَأْنَسٍ وَحْشَةٍ[٢] ... ومُحَبَّـبٍ تُشْـفَـى بـه الأسـقـامُ
فـلئن أحـلَّكـما الـزمـانُ ببـلـدةٍ ... مـن دونها الـقـفـراتُ والآكـامُ
وشـواهقٌ تزعُ السحـاب، شوامـخٌ ... لَيْست وإن دأب المَـطِىُّ تُـرامُ
أنّى أرى الأيـام تجمـعُ بيننـا ... والـدهـرُ فيـه مسـرّةٌ وغـرامُ!
أيـزيدُ سـاعدك الـزّمـانُ وخـاننـا ... والـدّهـرُ لـيس لحـالتيْـه دوامُ
تمسِى ضجيـعَ خريدةٍ ومُضـاجعى ... عضبٌ حـديدُ الشَّفرتـين حُسـامُ
وتجـرُّ أذيـال الـنّعيـم مُـرفَّـلاً ... وأظـلُّ يكسونى الشحـوب قَتَـامُ
مُتسـربـلاً حلَق الحـديـد يُحُفُّنى ... لجبٌ يضيقُ بـه الفضـاءُ لُهـامُ[٣]
من كلّ أشعث فى الحديد مُقنّعٍ ... ذرِب الحسـام كـأنـه ضـرغـامُ
والحـربُ حـرفتنـا وليست حـرفـةً ... إلّا لمن هـو فى الـوغَى مقـدامُ
نُعـرى السيوف فـلا تزالُ عـريَّةً ... حـتى تـكـون جـفـونَهُنّ الهـامُ
مـا للزمـان اعتـاقنـا من بينكُم ... فجـرت علينـا للزّمـان سهـامُ
يـاليتـهُ إذا لم يـدُمْ إحسـانُـهُ ... ألّا يـكـون لمـا أسـاءَ دوامُ!

[الكامل]

فبلغ شعره المأمون فقال: حنَّ القاسم بنُ عيسى إلى وطنه! وأمره بالانصراف.

* * *

وقال الأصمعىّ: قدم سعيد بن ضمضم على الحسن بن سهل فأنشده قصيدة يصف فيها حنينه إلى سوء حاله بالبادية ويستميحُه:

سـقـيـا لحـى بـالّـلوى عـهـدتهمْ ... مـنـذ زمـان ثـم هـذا ربـعـهـم

---

(١) «مخنش».

(٢) ل: «كم قيل».

(٣) اللهام: الجيش العظيم: كأنه يلتهم كل شىء.

عهدتهمْ والعيش فيه غِرّةٌ ... ولم ينُاوِ الحدثانُ شعبَهمْ
ولم يَبينوا لنوًى قذّافةٍ ... تقطّعُ حبْلى من وصال حبلِهمْ
فليت شعرى هل لهُم من مطلبٍ ... أو أجِدنَّ ذات يوم بَذْلهمْ
أو يُعذَرنّ بالبكاءِ إن بكى ... صبٌّ مُعنًّى مُستخَف إنزرَهُمْ
مُكلَّفٌ بالشوقِ لا ينساهُمُ ... يمنحُهُمْ ودًّا ويرعى عهدهمْ
ويُنذرُ النذورَ إن رآهُمُ ... وعاد يومًا عيشُهُ وعيشُهمْ
ولا وربِّ العرشِ لا يلقاهُمُ ... ولا يعودُ عيدُهُ وعيدُهمْ
وكيف يلقاهم كبيرٌ سنّهُ ... وقد مضى الدهرُ وطاح نجمُهمْ
هيهات عدِّ النّفسَ عن ذكراهُمُ ... واقصدْ لنحوِ آخرين غيرِهمْ
هذا وقد رأيتُنى فلم أُلمْ ... رأيى إذا لام الرجالُ رأيَهمْ
أدْعو ابن سهل حسَنًا ومجْدَهُ[1] ... حين تَعَيَّا بعيالى أمرُهمْ
أظلُّ أدْعو باسمه ودونهُ ... قوم كثيرٌ رغبةً تركتُهمْ
تَخَيُّرًا اخترْتهُ عليهمُ ... ولابِهمْ بأسٌ ولا ذممتُهمْ
نامُوا فلمّا أنْ رأيتُ نومَهُم ... عنّى تحمّلتُ فما أيقظتُهمْ
يابن كرامٍ كابرًا عن كابرٍ ... زانوك زيْنًا باقيًا وزِنْتَهُمْ
كانوا هُم الأشراف سادوا كلُّهُمْ ... ما فى جميع العالمين مثلُهمْ
بنوْا جميع المجد فيما قد مضى ... وأنت تبنيه كذاك بعدَهُمْ
فى شرفٍ مؤيّدٍ أركانهُ ... لم يَبْنِهِ بانٍ سواهم قبلهمْ
فيابن سهلٍ وابن آباءٍ لهُ ... كانوا مناجيب قديمًا فضلُهمْ
والله ما تصبحُ بين معشرٍ ... إلّا وأنت شمسُهم وبدرُهمْ
والناسُ آخاذٌ وماءٌ ناقِعٌ[2] ... وغُدُرٌ تجرى وأنت بحرُهمْ
والنّاسُ أجناسٌ كما قد مُثّلوا ... وفيهُم الخيرُ وأنت خيرُهمْ
حاشا أمير المؤمنين إنّهُ ... خليفةُ الله وأنت صهرُهُمْ
إليك أشكو صبْيةً وأمَّهمْ ... لا يشبعون وأبوهم مثلُهمْ
قد أكلوا الوحش فلم يشْبعهُم ... وشربوا الماءَ فطال شُربُهمْ
وامتذقوا المذق فذا دُنياهُم[3] ... والمضغ إن نالوهُ فهو حسبُهم[4]
لا يعرفون الخيرَ إلّا ذكرهُ ... والدهر هيهات فليس عندهُمْ
وما رأوا فاكهةً فى عيصها ... ولا رأوها وهى تهوى نحوهمْ
وما لهم من كاسبٍ علمتهُ ... على جديد الأرض غير جَحْشِهمْ

(١) ل: «مجدهم».
(٢) الإخاذ: الغدير، ويجمع نادرا على آخاذ.
(٣) ط: «فيادنياهم».
(٤) ط: «حسبهم».

وجحشهم قد بات منهوبَ القِرى ... ومثلُ أعواد الشُّكاعَى كلبهمْ[١]

كأنني فيهم وإن وليتُهمْ ... كانوا موالىّ وكنتُ عبدَهمْ

مجتهدًا بالنصر لا آلوهمُ ... أدعُو لهم: ياربِّ سلِّم أمرهمْ

وتارةً أقولُ مما قد أرى: ... يارِبِّ باعدهم وباعِدْ دارهم

يأوون بالليل إذا ما أحرجوا ... إلى ذَرَا اللُّهَم وهي قِدْرُهم[٢]

بها يطوفون إذا ما اجْرَنْثَمُوا[٣] ... وهي أبوهم عندهم وأمّهم

زُغب الرءوس قُرّعت هاماتهمْ ... من البلاءِ واسمأدّ سمعهم[٤]

بل لو تراهم لعلمت أنهمْ ... قومٌ مساغيبُ قليلٌ نومهم

وكالسَّعالى فى طوى مُسوكها ... فلو يعضُّون لذكّى سمُّهم

قد جرّسوا الدَّهر وقد بلاهُم[٥] ... هذا وهذا دأبُه ودأبهمْ

ولا يعيشون بعيشٍ سابغٍ ... ولا يموتون وذاك قصرُهمْ

وقد رجونا يابن سهل نائلا ... منك يرمُّ فقرهم وبؤسَهُمْ

فإنما أنت حَيَا أمثالهم ... فجُد لهم بنائل لا تَنْسَهُمْ

وأسْدِ نعماك إليهم واتَّخذ ... حمدًا وشكرًا كلُّ ذاك عندهُمْ

هذا وأنت قدْ حُرمتَ حظَّهُمْ ... فلا تجودنّ لخلقٍ بعدهم

[الرجز]

فقال له الحسن: سل ما شئت[٦] وتمنَّ ما أحببت، فلو خرجتُ إليك من ملكى كلِّه ما كافأتك. فقال: تشترى لى غُنيمات، وتردّنى إلى البادية. فقال: تحنّ إلى مكان تصفه بهذه الصفة! قال: الوطن، الوطن! فاشترى له ألف شاة وأعطاه عشرين ألف درهم، وردّه إلى وطنه.

* * *

ومما قيل فيمن كره الغربة. قال ابن أبى السرح: قرأت على حائط خان بالأهواز:

إنّ الغريب ولو يكونُ ببلدةٍ ... يُجبى إليه خراجُها لغريبُ

وأقلّ ما يلقىَ الغريبُ من الأذى ... أن يُستَذلَّ وقولُهُ مكذوبُ

[الكامل]

* * *

قال: وقرأت على حائط خان بعسكر مُكرَم، من الأهواز:

إنَّ الغريب إذا ينادِى مُوجعًا ... عند الشدائد كان غيرَ مُجابِ

فإذا نظرتَ إلى الغريب فكُن به ... مُتراحمًا لتَباعُد الأحبابِ

[الكامل]

---

(١) الشكاعى: شجر ذو شوك.

(٢) اللهيم: القدر الواسعة.

(٣) اجرنثموا: اجتمعوا.

(٤) اسمأد الشىء: ذهب.

(٥) المجرس: الذى جرب الأمور.

(٦) ك: «حاجتك».

قال: وقرأت على حائط خان ببغداد فى الجانب الغربىّ:

غـريبُ الدار ليس لـه صديقُ   جميعُ سؤالـه: كيف الـطريقُ؟
تـعلّقَ بـالـسؤال بـكـلّ شىءٍ   كـما يتعلّقُ الـرجـلُ الغَـريق
فـلا تجـزع فكـلُّ فتىً ستـأتى   عـلى حـالاتـه سَعـةٌ وضيق
[الوافر]

قال: ووجدتُ على بابٍ مكتوبًا:

عليك سلامُ الله يا خير منـزلٍ   رَحَلْنـا وخلّفنـاك غـير ذَمِيـمِ
فـإن تكن الأيـامُ فـرَّقْن بيننا   فـما أحـدٌ مـن ريْبِهـا بسـليم
[الطويل]

وأنشد:

أقمنـا مُكـرَهـين بهـا فلمّا   ألفناهـا خَـرجْنا مُكـرَهينَا
ومـا حُبُّ البـلاد بنـا ولكن   أمرُّ العيش فُرْقةُ مَنْ هَوينا
[الوافر]

ولآخر:

أقمتُ بـأرضكم بـالكُـرْه منّى   فَلمَّا طـاب لى فيهـا المقيـلُ
وأوطنتُ البـلاد وجُنّ قـلبى   بغـزلانٍ بهـا، أزِف الـرحيـلُ
[الوافر]

ولآخر:

وإنّ اغـتـراب المـرءِ من غـير فـاقـةٍ   ولا حـاجـةٍ يـسمـو لهـا لـعجـيـب
فحسبُ الفتى بخْـسًـا وإنْ أدرك الغـنى[1]   ونـال ثـراءً أن يـقـال غـريـبُ
[الطويل]

ولآخر:

أىُّ سـرور لعـلاشِ مُغتـربٍ   فـردٍ وحيدٍ نـاءٍ عن الـوطنِ!
لا تطمْعُ النَّفسُ فى هواهُ ولا   يكحـلُ عينًـا بمنـظر حسـن
[المنسرح]

ولآخر:

سَـلِ الله الإياب من المغيب   فكم قد رَدَّ مثلك من غريبِ

(١) المحاسن والأضداد: «نحسا».

وسلِّ الحزن عنك بحسن ظنٍّ ولا تَيْئَس من الفرج القريب

[الوافر]

آخر:

تصبَّرْ ولا تعجل وُقيت من الرَّدَى[١] لعلَّ إياب الظاعنين قريبُ

فقلتُ وفى قلبى جوىً لفراقها ألا لا تُعزِّينى فلستُ أجيبُ!

أعاذلَ حبِّى للغريب سجيَّةٌ وكلُّ غريبٍ للغريب حبيبُ

لئن قلت لم أجْزع من البين إن مضوا[٢] لطيِّتهمْ، إنِّى إذَنْ لكَذُوبُ

بلى غُبَّراتُ الشَّوق أضرمت الحشا ففاضت لها من مُقلَتىَّ غُروبُ

[الطويل]

ولآخر:

إذا اغترب الكريمُ رأى أمورًا مُجَلِّحَةً يشيبُ لها الوليدُ

[الوافر]

* * *

قال أبو الحسين محمد بن أحمد بن يحيى بن أبى البغل: أنشد أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب:

ما كنتُ أحسبُ أن يكو ن كذا تفرُّقنا سريعًا

بَخِلَ الزمانُ علىّ أن نبْقى كما كنّا جميعا

فأحلَّنى فى بلدةٍ وأحلَّك البلد الشَّسيعا

قد كنتُ أنتظرُ الوصا ل، فصرتُ أنتظرُ الرجوعا

[الكامل]

ولآخر:

إلفان كانا لهذا الحب قد خلقا داما عليه، فتمَّ الوصلُ واتَّفقا

كنَّا كغُصنيْن فى عودٍ فغالها[٣] ريبُ الزمان وصرفُ الدَّهر فافترقا

فاصفَرَّ عودُهما من بعد خضرته وأسقط البينُ من عودَيْهما الورَقا

[البسيط]

ولآخر:

أتظعنُ والذى تهوى مُقيمُ لعمرُك إن ذا خطبٌ عظيمُ!

إذا ما كنت للحدَثان عونًا عليك وللفراق، فمن تلُومُ!

[الوافر]

(١) ك: «سلمت».

(٢) ك: «قضوا».

(٣) ك: «فناها».

آخر:

لقد شفّنى أنّى أدورُ ببلدةٍ أخلّاى منها نازحون بعيدُ
أقلّبُ طَرْفى فى البلاد فلا أرى وُجوه أخِلّاى الّذين أريدُ!
[الطويل]

آخر:

قف بالمنازل وقْفة المشتاقِ واسْفحْ بها من دمعك المهَراق
لا تبخلنَّ على الديار بأدمُعٍ يجرين بين محاجرٍ ومآقى
تلك الديارُ كما عهدْت عَمِيرةٌ[1] لكنها صِفْرٌ من الطُرّاق
لم يُبْقِها أمدٌ تقادم عهدُهُ فالدّمعُ ينطقُ والرسومُ بواقى
لهفِى على زمن مضتْ أيّامُه والعَيْش غَضٌّ مُورقُ الأوراق!
أيامنَا ما كنتِ إلاّ خُلسةً كسف الهِلَال عراه وجهُ محاق
أو نظرةً من خائفٍ لم يُنْجِه[2] خوفُ الحذار وشدَّة الإشفاق
وكذاك أيّامُ السّرُور قصيرةٌ لكنَّ أيامَ البلاءِ بواقى
كيف اللقاءُ وقد تطاوحت النّوى شتّان بين مشائمٍ وعراق!
يا ليت شعرِى كيف عهدُ أحبّتى لما أظلّهُمُ وشيكُ فراقى!
ظنّى بهم حَسَنٌ وكيف بأوبةٍ تُرْوِى غليل مُتيّمٍ مشتاق!
[الكامل]

* * *

ومنها نجديات:

ألَا هلْ أرى حُورًا تبرقَعْنَ بالحمى وهل أجْتَنى بالعيْن من خَدِّهِمْ وَردَا
لعلِّى أرى نجدًا ومنْ حلّ بالحمى فأحْسبُ من نجدٍ على كبدى بردا
خليلىَّ قد داويتُ عقلاً سُلِبتُهُ بشحْط النَّوى والبعدِ من قُرْبهم عمْدا
فلم أرَ بُعد الدّار يشفى من الجْوى ولا القرْبُ أيضًا من ديارهِمْ أجدى
بلى إنَّ فى النأى التقطُّع والأسى وحُبُّ سُليمى القلب من بينهمْ أوْدَى!

ولآخر:

نسيمُ الخُزامَى والرياحُ التى جرتْ بليْلٍ على نجدٍ تذكّرُنى نجدا
أتانى نسيمُ السِّدْر طيبًا من الحمى فذكّرنى نجدًا وقَطّعَنى وجدا

---

(١) ك: «كما علمت».

(٢) ل: «لم ينحه».

ولآخر:

ألَا ليت شعري هل أبيتنّ ليلةً بصحراءَ منْ نجران ذات تَرًى مُندِى!
وهلْ أردنّ الدّهر حصن مُجاشعٍ وقد ضربتْهُ نفْحةٌ من صَبَا نجْد!

[الطويل]

ولآخر:

أقولُ لصاحبى والعيشُ تخْدِى بنا بين المنيفة والضِّمار[1]
تمتَّعْ من شميم عَرار نجْدٍ فما بعد العشيَّة من عَرارِ
ألا يا حبَّذا نفحاتُ نجدٍ وريَّا رَوْضه غبَّ القطار
شهورٌ ينقضين وما شعرْنا بأنصاف لهنَّ ولا سِرَار
فأمّا ليلُهنّ فخيرُ ليْلٍ وأنْضرُ ما يكونُ من النهار

[الوافر]

* * *

قال: وقال الفتح بن خاقان: ورد عليَّ أعرابيٌّ من البادية نجديّ فصيحٌ، فبات ليلةً عندى على سطح مشرف على بستان، فسمع فيه صوت الدواليب، فقال: ما أشبّه هذا إلّا بحنين الإبل! وأنشد:

بكرت تحنّ وما بها وجدى وأحِنُّ من شوقٍ إلى نَجْدِ
فَدُمُوعُها تحْيَا الرياضُ بها ودموعُ عيْنِى أحرقت خَدِّى

[الكامل]

---

(١) للصمة بن عبد الله القشيرى، ديوان الحماسة ٣: ١٢٤٠.

مَحاسِن الدّعاء للمُسَافر

بأيمن طالع وأسرّ طائر!

لا كبَا بك مركب، ولا أشتّ بك مذهب، ولا تعذّر عليك مطلب!

سهل الله لك السَّيْرَ، ويسّر لك القصد، وطوى البُعد بسرّة الظُّفر، وكرامة المدّخر!

بأيمن طائر، وأسعد جَدّ!

على الطائر الميمون، والكوكب السّعد!

وفى رسالة للبحترىّ:

إلى حيث تتقاصر أيدى الحوادث عنك، وتتقاعس نوائب الأيّام دونك!

فصل:

وخُصصتَ بسهولة المطلب ونجاح المنقلب!

كان الله فى سفرك خفيرًا، وفى حضرك ظهيرًا.

آخر:

بسَعْيٍ نجيح، وأَوْب سريع وسريح!

آخر:

قصَّر الله محلّه، وهدى رحله، وسَرَّ بأوبته أهله. ولا زال آمنًا، مقيمًا وظاعنا!

آخر:

بأسعد جَدّ، وأنجح مطلب، وأسرّ منقلب، وأكرم بدأة، وأحمد عاقبة!

فصل:

فاشخصْ مصحوبًا بالسّلامة والكلاءة، آيبًا بالنجح والغبطة، محوطًا فيما تطالعه بالعناية والشّفقة. فى ودائع الله وضمانه، وكنَفه وجواره، وستْره وأمانه، وحفظه وذماره[1].

وقال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم: إنّى أريد سفرًا، فقال: «فى حفظ الله وكنَفه، زوّدك الله التقوى، ووجَّهك إلى الخير حيث كنت».

---

(١) المحاسن والأضداد: «وذمامه».

كتب أبو العيناء:

أستخلف الله فيك، واستخلفه منك.

لابن أبي السّرح:

فى كــنـف الله وفى سِـتْـرِهِ   من ليس يخلو القلْبُ من ذكْرِهِ

[السريع]

وأنشد الآخر:

فارحل أبا بِشْرٍ بـأيمن طائـرٍ   وعلى السعادة والسّلامة فانزل

[الكامل]

مَساوئ الدّعَاء للمُسَافر

بالبارِحِ الأشأم[١]، والسانح الأعضَب[٢]، والصُّرَد[٣]، الأنكد، للسّفر الأبعد.

لا استمرَّت مطيَّته، و [لا][٤] استتبّت [به][٤] أمْنِيّتُه. ولا تراخت منيّتُهُ. بنحسٍ مستمرّ، وعيشٍ مُرّ، لا قرًى إن استضاف، ولا أمْنٌ إن خاف.

وقال إن عليًّا لمّا اتّصل به مسيرِ معاوية قال: لا أرشدَ أم قائده، ولا أسعد رائده، ولا أصاب غيْثًا. ولا سار إلّا ريثًا، ولا وافق إلّا ليثًا!

أبعده الله وأسحقه، وأوقد نارًا على أثره!

لا حطّ الله رحلَه، ولا كشف محلّه، ولا بشّر به أهله!

لا زكَى له مطلب، ولا رحُب له فيه مذهب!

لا سقاه الله غمامًا، ولا يسّر له مرامًا!

لا فرّج الله همّه، ولا سرّ غمّه، ولا حلّ عقده، ولا أوْرَى زنده!

جعله الله سفر الفِراق، وعصا الشقاق!

وأنشد:

بـأنكـد طـائـر وبشَـرٌّ فـألٍ ... لأبعـد غـايـةٍ وأخَسِّ حـالِ
بحدِّ السِّندِ حيثُ يكونُ مِنّي[٥] ... كما بين الجنوبِ إلى الشمالِ
غـريبًا تمـتـطـى قـدمَيْـك دهـرًا ... عـلى خَوفٍ تحِنُّ إلى العيـال

[الوافر]

الباهليّ:

إذا استقلّتْ بـك الـركـابُ ... فحيثُ لا درّت السحابُ![٦]

---

(١) البارح: ما مرّ من الطير والوحش من يمينك إلى يسارك؛ والعربُ تتطير به؛ لأنه لا يمكنك أن تَرمِ حتى تنحرف (اللسان).

(٢) السانح: ما مرّ بين يديك من جهة يسارك إلى يمينك والعرب تتيمن به؛ لأنه أمكن للعيد؛ وقد يتشاءمون به أيضا، قال زهير:

جَرَتْ سُنُحًا فقلت لها أجيزى ... نَـوى مشمـولـة فمتى اللقـاء!

والأعضب: المكسور القرن، وهو مما يتشاءم به.

(٣) الصرد: طائر فوق العصفور، وكان العرب يتشاءمون به أيضا لصوته.

(٤–٤) من المحاسن والأضداد.

(٥) ل والمحاسن والأضداد ١٢٦: «السد».

(٦) المحاسن والأضداد ١٢٧.

وحيثُ لا يُبتغى فلاجٌ   وحيثُ لا يرتجى إيابُ

[مخلع البسيط]

ابن أبي السرح:

فسرْ بالنحُوس إلى بلدة   تُعمَّرُ فيها ولا تُرْزقُ
ولا تمرعُ الأرضُ من نهرها[1]   ولا يثمرُ الشجرُ المورقُ
تفيضُ البحارُ بها مَرّةً   ويُكْدِى السَّحابُ بها المُغْدَقُ

[المتقارب]

الباهلي:

أدنى خُطاكَ الهندُ والصينُ   وكلُّ نحسٍ بكَ مقرونُ
بحيثُ لا يَأنَسُ مستأنسٌ   وحيثُ لا يفرحُ محزُونٌ
تهوِى بِكَ الأرضُ إلى بلدةٍ   ليسَ بها ماءٌ ولا طِينُ

[السريع]

(١) المحاسن والأضداد: «من زهرها».

محاسن الرّؤيا

حدّثنا أبو عبدالله أحمد بن أبي دؤاد، قال: كان المأمونُ يُبطّل الرؤيا، ويقول: ليست بشيء، ولو كانت على الحقيقة كنّا نراها ولا يسقط منها شيء، فلمّا رأينا أنما يصحّ منها الحرف والحرفان من الكثير، علمنا أنها باطل، وأنّ أكثرها لا يصحّ.

وكان بعث بابنه العباس[1] إلى بلاد الروم، فأبطأ عليه خبرهُ، فصلّى ذات يوم الصبح، وخفق وانتبه، ودعا بدابّته وركب، وقال: أحدّثكم بأعجوبة، رأيت الساعة كأن شيخًا أبيض الرأس واللحية، عليه فَرْوة، وكساؤه فى عنقه، ومعه عصًا وفى يده كتاب، فدنا منّى وقد ركبت، فقلت: من أنت؟ فقال: رسول العباس بالسّلامة - وناولنى كتابه، فقال المعتصم: أرجو أن يحقّق الله رؤيا أمير المؤمنين ويسرّه بسلامته. قال: ثم نهض، فوالله ما هو إلاّ أن خرج فسار قليلاً إلاّ وبُصُر بشيخ قد أقبل نحوه فى تلك الحال، فقال المأمون: هذا والله الذى رأيتُه فى منامى، وهذه صفته. قال: فدنا منه الرجل فنحّاه خدمُه، وصاحوا به فقال: دعُوه! فجاء الشيخ، فقال له: مَنْ أنت؟ قال: رسول العباس وهذا كتابه، قال: فبُهتنا وطال منه تعجُّبنا، فقلت: يا أمير المؤمنين، أتبطّل الرؤيا بعد هذه؟ قال: لا.

وحدثنا علىّ بن محمد، قال: حدّثنى أبى، عن محمد بن عبد الله، قال: رأيتُ فيما يرى النائم فى آخر سلطان بنى أميَّة، وكأنّى دخلتُ مسجدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم. فرفعْت رأسى، ونظرت إلى الكتاب الذى فوق المحراب، فإذا فيه: ما أمر به أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، فإذا قائل يقول: يُمحَى هذا الكتاب، ويكتب مكانه اسمُ رجل من بنى هاشم، يقال له محمد، فقلت: فأنا محمد، فابن مَنْ؟ قال: ابن على، قلت: فأنا ابن علىّ، فابن مَنْ؟ قال: ابن عبد الله، قلت: فأنا ابن عبد الله، فابن مَنْ؟ قال: ابن عباس، فلو لم أكن بلغتُ العباس ما شكَكْت أنى صاحب الأمر.

فتحدثت بهذه الرؤيا فى ذلك الدّهر، ولا نعرف نحن المهدىّ فتحدث الناس بها حتى وُلِّى المهدى، فدخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع رأسه. فإذا اسم الوليد، وإنى لأرى اسم الوليد فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليوم. فدعا بكرسىّ، فألقىَ له فى صَحْنِ المسجد، فقال: ما أنا ببارحٍ حتى يُمحَى ويكتب اسمى مكانه، فأمر بأن يحضر العمّال والسلاليم، وما يحتاج إليه لذلك، فلم يبرح حتى غُيِّر، وكتب اسمه.

* * *

(١) ك: «العباس ابنه».

قال: ورأى رجل أبادُلف فيما يراه النائم، فقال: ما حالُك؟ فقال:

فلو أنّا مِتْنا تُركْنا ... لكان الموتُ راحَةَ كلِّ حيِّ
ولكنّا إذ مِتْنا بُعِثْنا ... ونُسألُ بعدهُ عن كلِّ شيِّ

[الوافر]

* * *

قال: ورأى رجل الحجَّاجَ بن يوسف الثقفى فيما يَرَاهُ النَّائم، فقال له: ما حالُك؟ فقال: ما أنت وذاك! لا أمّ لك! فقال: سفيهٌ فى الدنيا سفيهٌ فى الآخرة.

* * *

وعن إسحاق بن إسماعيل بن علىّ، قال: حدثنى عمّى عيسى بن على، قال: دخلت على المنصور، فقال: يا أبا العباس، أتذكر رؤياى بالشَّراة؟ قلت: يا أميرَ المؤمنين، أىّ رؤيا؟ قال: مثلك ينساها! كان يجب أن تكتبها بقلمٍ من ذهبٍ فى رَقٍّ، وتوصى بها بنيك، وبنى بنيك! قلت: فأخبرْنى بها يا أمير المؤمنين قال: رأيتُنى كأنِّى بمكّة. إذ فتح باب الكعبة. فخرج رجل، فقال: عبد الله بن محمد! فقمت وقام أخى. فقال الرجل: ابن الحارثيّة! فدخل أخى. فأبطأ هُنيهة ثم خرج، وفى يده لواءٌ. فخطا خطًّا خمسًا، ثم سقط اللواء من يده، ثم خرج الرجل بعينه، فقال: عبد الله! فقمت وقام عمى عبد الله بن علىّ وصعِد الدرجة، فزحمته ببعض أركانى، فسبقت، فإذا بأبى، وإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لى الرجل: ابدأ برسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلّمت عليه، فدعا بلواء فعقده لى، ثم قال: هاك فيك وفى ولدك. حتى تقتلوا به الرجال. فخطوتُ خطًا، لو شئتُ أن أخبركم بها لأخبرتُكم.

وحدثنا محمد بن يونس، قال: أخبرنى منصور بن أبى مُزاحم، عن طيفور مولى أبى جعفر. قال: قال المنصور: رأيتُ فى السَّنة التى ولِى فيها هشام بن عبد الملك كأنّى راكب حمارًا أسود وعليه حمْل تبْن عظيم – وكان بالموْصل رجلٌ يعبِّر الرؤيا – فحججت تلك السنة، فرأيته بمنى وقصصت عليه الرؤيا، فقال: أخبرنى لمن هذه الرؤيا؟ فقلت: لرجل من أفناء الناس. قال: ما قلتَ الحقّ، أصدقنى وأصدقك، فقلت: لرجلٍ من بنى هاشم، قال: الآن جئت بالحقّ، إن صدقت الرؤيا صار صاحبها خليفة، قال: فانسللتُ كالهارب خوفًا أن يظهر من قولى وقوله شىء.

قال: فبينا الربيع ذات يوم قد دخل؛ فقال: يا أمير المؤمنين، رجل بالباب معبرٌ يستأذن، قال: أدخله، فأدخله، فلما رآه تبسّم، وقال: هذا صاحبى، فدنا منه وقبّل يده، فقال: أتذكر رؤياى؟ قال: نعم، وهى التى حملتْنى إليك. قال: كيف كانت تأوّلْتَها، قال: قلت: راكب حمارًا أسود، والحمار جَدّ الرجل، وسواده سؤددُه، قلت: وكان على الحمار تبْن، فقلتُ: الحنطة والشعير تخرجان من التبن، ومنْ قعد عليه وصار مالكه، فقد ملك الأقوات فهذا رجل يملك الناس.

قال: لله أبوك! ما أحسن ما عبَّرت! وأسرع ما صحّت. وأمر له بصلةٍ وقال: أقم عندنا، وحوّل عيالك، فإنا نأمر لك بأرْزاق تسعك وإياهم، ففعل ذلك.

وبلغَنا عن مزاحم، مولى فاطمة بنت عبد الملك، عن فاطمة، قالت: كنتُ مع عمر بن عبد العزيز، وهو نائم، فانتبه، وقال: يا فاطمة، لقد رأيتُ رؤيا، ما رأيت أحسنَ منها! قلت: حدِّثنى بها يا أمير المؤمنين، قال: حتى أصبح، قال: فجاء المنادى، فناداه بالصلاة، فقام فصلّى بالناس الفجر، ثم رجع إلى مجلسه، فأتيته؛ فقلت: يا أمير المؤمنين. حدثنى بالرؤيا. فقال: رأيت كأنى فى أرض خَضْراء. لم أرَ أرضًا أحسنَ منها. ورأيت فى تلك الأرض قصورَ زبرجد. ورأيتُ جميع الخلائق حول ذلك القصر؛ فبينا أنا كذلك. إذ نادى منادٍ من القصر: أين محمد بن عبد الله بن عبد المطّلب؟ فقام النبى صلى الله عليه وسلم، فدخل القصر، فقلت: سبحان الله! إنه فى مَلًا فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولم أسلّم عليه!.

فلم ألبث إلاَّ قليلاً. حتى خرج المنادى، فنادى: أين أبو بكر الصديق؟ فقام أبو بكر رحمه الله. فدخل.

فما لبثت إلاَّ قليلاً، حتى خرج المنادى، فنادى: أين عمر بن الخطاب؟ فقام عمر فدخل، فقلت سبحان الله! أنا فى جمع فيهم أبى. ولم أسلّم عليه.

فما لبثت إلاَّ قليلاً. حتى خرج المنادى ينادى: أين عثمان بن عفان؟ فقام عثمان رحمه الله، فدخل.

فما لبثتُ إلا قليلاً. حتى خرج المنادى. فنادى: أين على بن أبى طالب؟ فقام علىّ، فدخل.

فما لبثتُ إلاّ قليلاً. حتى خرج المنادى، فنادى: أين عمر بن عبد العزيز؟ فقمت فدخلت. فرأيت النبّى صلى الله عليه وسلم قاعدًا. ورأيت أبا بكر عن يمينه، وعمر عن يساره. وعثمان وعليًّا بين يديه. فقلت: أين أقعد؟ لا أقعد إلاَّ إلى جَنْب أبى. قال: فقعدت عند عمر بن الخطاب؛ فرأيت فيما بين النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر شابًّا حسن الوجه. فقلت: يا أبت، مَنْ هذا؟ قال: هذا عيسى بن مريم.

قال: فما لبثت إلاّ قليلاً. حتى سمعت مناديا ينادى: يا عمر بن عبد العزيز؛ أثبُتْ الى ما أنت عليه.

قال: ثم قمت، فخرجت فلم ألبث إلاّ قليلاً، حتى خرج علَىٌّ عثمان، وهو يقول: الحمد لله الذى نصَرنى. ثم لم ألبث إلاّ قليلاً؛ حتى خرج علىٌّ بن أبى طالب رضى الله عنه، فقال: الحمد لله الذى غفر لى!.

مساوئ الرؤيا

روى عن عمر بن حبيب القاضى، أنّ رجلًا كان بالبصرة. وكانت له امرأة؛ وله منها ابنان؛ فمات وترك لهم شاة، فرأت المرأة فى النوم؛ كأنّ أحد ابنيها يقول: يا أمة[1]. ما ترين هذا الجدْى، قد أفنى علينا لبن هذه الشاة! وليس بدّ من أن أقوم فأذبحه، فقالت: لا تفعل يا بُنىّ. فقال: لابُدَّ من أن أذبحه. فقام فذبحه، وسَمَطه وشَواه، وأخرجه من التَّنُّور؛ فقعد هو وأخوه يأكلان، فكلّمه أخوه بشىء، فأخذ السِّكين فشقَّ بطنه.

فانتبهتْ فزعة؛ وإذا ابنها يقول: يا أُمّهْ؛ أما ترين هذا الجدى. قد أفنى علينا لبن هذه الشاة. أقوم فأذبحه! فقالت: لا تفعل يا بُنىَّ. فجعلت تتعجّب من تصديق الرؤيا فأخذت بيد أخيه. فدخلت بيتًا، وأغلقت الباب من داخله؛ فبينا هى مفكرة مهتمّة، إذ غَفَلت، فرأت النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم؛ فقال: ما شأنك؟ فخبَّرته الخبر. فنادى: يا رؤيا. فإذا الحائط قد انصدع. وخرجت امرأة جميلة بارعة الجمال، فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم: ما أردت إلى هذه المسكينة! قالت: لا والذى بعثك بالحق نبيًّا ما أتيتها فى منامها. فنادى: يا أضغاثَ أحلام، فخرجت امرأة دونها. فقال: ما أردتِ إلى هذه المسكينة؟ قالت: رأيتهم بخير؛ فحسدتهم، فأردت أن أغمّهم.

فقال صلى الله عليه وسلم: «ليس عليك بأس» فانتبهت وأكلت مع ابنيها. ولم يزالوا بخير.

---

(١) ك يا أماه!

محاسن الإزكان

قال: نظر إياس بن معاوية إلى نسوة قد فزِعْن من بعير، فأشار إليهنَّ. فقال: هذهِ بِكْر، وهذه حامل، وهذه مُرضَع. فقام إليهنَّ رجل، فسألهنّ فكنّ كما قال. فقيل له: كيف علمته؟ قال: رأيتهنَّ لمّا فزعن، وضعت كلّ واحدة منهنّ يَدها على أهمّ المواضع إليها، فوضعت الحامل يَدها على بطنها، ووضعت المرضع يدها على ثَدْيها، ووضعت البِكر يَدها على قُبُلِها.

* * *

قال: ونظر إياس يومًا إلى رجل متأبِّط شيئًا، فقال: معه سُكَّر. وقد ولُد له غلام، فاتَّبعه الرجل فسأله؛ فإذا هو كما قال: فقيل له في ذلك، فقال: رأيت الذُّباب قد أطافت به، فقلت: معه حلاوة وهو سُكَّر. ورأيته نشيطًا. فقلت: وُلد له غلام.

مَسَاوِئ الإِزكان

قال: واستقبل إياس رجلًا، فقال: خُذوه؛ فإنّه سرق، وسيأتى مَنْ يطلبه. فأخذوه فلم يتجاوز ساعة حتى جاء قومٌ يطلبونه، فأخذوه. فقيل له فى ذلك، فقال: رأيته يُرعَد ويعدو مُدْلها، متغير اللون يُكثر الالتفات. فزكنتُ فيه هذا؛ وإنه لصّ.

* * *

قال: ورأى رجلًا على عاتقه جرَّة عسل، فقال: فيها سُمٌّ أو حيَّة، فنظروا فإذا حيَّة؛ فسئل عن ذلك. فقال: رأيت الذباب تحوم حوله ولا تسقط عليه. فعلم أنه حيَّة أو سمّ.

المحتويات

	الصفحة
مقدمة	٣
وبه الأمان من الخذلان	٥
محاسن رسول الله ﷺ	١٧
محاسن المعراج	٢٥
مساوئ من تنبأ	٣٠
محاسن أبى بكر	٣٢
محاسن عمر بن الخطاب	٣٥
محاسن عثمان بن عفان	٣٧
محاسن على بن أبى طالب	٣٨
محاسن من أمسك عن الوقوع فى أصحاب النبى ﷺ	٤٤
مساوئ تلك الحروب ومن تنقّص عَلىّ بن أبى طالب	٤٥
مساوئ من عادى عَلىّ بن أبى طالب	٤٧
محاسن الحسن والحسين ابنى على بن أبى طالب	٥٢
مساوئ قتلة الحسين بن على	٥٤
مساوئ الحرّة	٥٩
محاسن ما قيل فيهم من الأشعار	٦٢
محاسن السبق إلى الإسلام	٦٤
مساوئ من ارتد عن الإسلام	٦٧
محاسن المفاخرة	٧٠
محاسن كلام الحسن بن على	٧٣
محاسن كلام عبدالله بن العباس	٨٢
محاسن كلام غانمة بنت غانم فى شرف بنى هاشم وفخرهم	٨٦

	الصفحة
محاسن مجالس أبى العباس السفاح فى المفاخرة	٨٩
محاسن الافتخار بالنبى ﷺ	٩٣
مساوئ الأفتخار	٩٦
مساوئ أصحاب الصناعات	٩٨
محاسن النتاج	٩٩
مساوئ النتاج	١٠٢
محاسن الوفاء	١٠٣
مساوئ قلة الوفاء والسعاية	١١٤
محاسن الشكر	١١٦
مساوئ التشكر	١٢٠
محاسن الدهاء والحيل	١٢٢
مساوئ العىّ وضعف العقل	١٣٥
محاسن التيقظ	١٣٧
مساوئ التيقظ وتركه	١٤٦
محاسن الرسل	١٤٧
مساوئ الرسول	١٤٩
محاسن الحُجاب	١٥٠
مساوئ الحجبة	١٥٣
محاسن الولايات	١٥٧
مساوئ الولايات	١٦٠
محاسن بُعد الهمة	١٦١
مساوئ سقوط الهمة	١٦٤
محاسن كرم الصحبة	١٦٦
مساوئ الصحبة	١٧٣
محاسن السخاء	١٧٥

الصفحة

محاسن صلات الشعراء ١٩٧

مساوئ منع الشعراء والبخل ٢٣٠

مساوئ من استدعى الهجاء ومن هجا نفسه ٢٤٤

محاسن الرجال ٢٤٦

مساوئ الرجال ٢٤٨

محاسن ذكر التنعم ٢٥٢

الشعر فى هذاالفن ٢٥٤

محاسن الفقر ٢٥٥

مساوئ الفقر ٢٥٦

محاسن الثقة بالله عز وجل ٢٦٥

مساوئ الثقة ٢٦٧

محاسن طلب الرزق ٢٦٨

مساوئ طلب الرزق ٢٧٣

محاسن استصلاح المال ٢٧٤

الصفحة

محاسن الدين ٢٧٦

مساوئ الدين ٢٧٧

محاسن إصلاح البدن ٢٧٩

مساوئ ما يفسد البدن ٢٨٢

محاسن الندامة ٢٨٣

مساوئ الندامة ٢٨٤

محاسن الحنين إلى الوطن ٢٨٦

ذكر من اختار الوطن على الثروة ٢٨٨

مساوئ من كره الوطن ٢٩٠

محاسن الدعاء للمسافر ٣٠٠

مساوئ الدعاء للمسافر ٣٠٢

محاسن الرؤيا ٣٠٤

مساوئ الرّؤيا ٣٠٧

محاسن الإزكان ٣٠٨

مساوئ الإزكان ٣٠٩

رقم الإيداع		١٩٩١ / ٥١٦٣
الترقيم الدولى	977 - 02 - 3362 - 5	ISBN

١ / ٨٤ / ٦





